درية محمد هاشم

يوفوريا

اسم الكتاب: يوفوريا

تأليف: درية محمد هاشم

الإخراج الداخلي: د.شيماء محمد أبوطالب

تدقيق لغوي: أمل عبدالله حسن

تصميم الغلاف: وحيد محمد

الطبعة الأولى: 2023

رقم الإيداع: 23984 /2022

الترقيم الدولي: 0- 1 - 86404-977-978

مزاج الكتب

للنشر والتوزيع

ج.م.ع

الإسكندرية

Email: mazagelkotob@gmail.com

إهداء

إلى رجل يملك مني نُسختي الوحيدة الأصلية.

أبطال القصة حقيقيون في كُل بلادنا العربية، يعيشون ويموتون بيننا في اليوم آلاف المرات، قد زاروني في منامي وصحوي كثيرًا، شاركوني حزنهم فحزنت، ودعوني لفرحهم ففرحت معهم، رأيتهم في كُل من حولي ورأيت كُل مَن حولي فيهم.

إلى نفسي..
أتذكر ما قُلتُ لك
لقد قُلت لا تذهب لأنني صاحبك
في سراب هذا العالم أنا ينبوع الحياة
حتى لو غادرت بغضب وبقيت بعيدًا لآلاف السنين
فسوف تعود لأني غايتك
لقد قلتُ لكَ لا تكن راضيًا بوعود الدُّنيا
لأنني قبلة آمالك وقناعاتك
لقد قُلتُ لك لا تذهب لليابسة لأنني بحر لا شاطئ له
لقد قُلتُ لك يا أيهُا الطير لا تطر لشباك الصائد
وأقبل نحوي لأنني القوة التي تحرك جناحيك
وترفعك لأعالي السماء
لقد قلت لك سيأسرونك ويضعونك في الثلج
وأنا النار والدفء لحنينك الأزلي
لقد قلت سيغطونك بالماء والطين
وسوف تنسى أنني بدايتك النقية
(جلال الدين الرومي)

استهلال

رأيتُك من نافذة حلمي تركض وتركض في الظلام نحوي حيث لا قمر ولا شمس ولا بشر، أنا وحدي أرفس شالي القطني بقدمي، أصرخ جوعًا و أبحث بأنفاسي اللاهثة عن ثدي أمي التي كانت هي أيضًا تبكي وتنزف منها الدماء الحارة فوق الفراش البارد. ثدياها مُنتفخان مُمتلآن بالحليب الثقيل، تسعل ببكاء فتخرج منها المشيمة وباقي حبلي السُّري، الكُل من حولها يسوقونها كالمجدلية إلى الرجمِ، خط الدماء خلفها لا ينقطع وصوت من آخر المكان يصدح:

ألقوا الصغير في غياهبِ الليلِ.

كان بكائي يُشبه مواء القطط، شققت الظلام بجناحيك الأبيضين و أنرت لي فرأيتك ورأيتني لكني ظللتُ أبكي مُستوحشًا.. حملتني، شممت فيك رائحة أُمي، اطمأنت حواسي وصمتُّ عن البكاء بعدما وضعت خنصرك في فمي الذي كان أول وجباتي, شبعت ونمت وصَمت الكون من حولي إلا عن حفيف الأشجار في أُذني، وضعتَ قلادة في رقبتي، أشرت لي إلى نجمٍ بعيد قريب مني وقُلت في صوت كالهمس: إن غبت يومًا فاسأل ذاك النجم عنّي، سمعتُ وقع أقدام أحدهم فأنزلتني من فوق جناحيك وأعادتني على الأرض ووقفت بعيدًا تُراقبني.

أتى المؤذن لصلاة الفجر فوجدني، يا بُشرى هذا غُلام ولكنه ليس لي، إن لديّ في البيت خمسة أطفال.

إلى ملجأ الأيتام القريب حملني إلى حيث تبدأ قصتي، كانت وجوههم كُلهم بلا ملامح إلا أنت وجهك بدر طوال الشهر وصورتك لم تبرح يومًا ذاكرتي.

قالوا الكثير عني، قالوا مجنون وازدُجِر، قالوا مريض بالفقر، قالوا كلمة العذاب (لقيط)، وقالوا ابن عاهرة، وقالوا ابن أخته، وقالوا الكثير والكثير لو تدري.

لكن لم تقل ذلك يومًا حبيبتي، بل أخبرتني إني أشبه الأرض، أنا أم لكل البشر وليس لي أم، و إني إذا ما حزنت لسوف تجدب وتتشقق رُوحي الخضراء ويجف قلمي وهذا اليوم الذي لن تسمح به أن يأتي, راحت حبيبتي وحزنت وأجدبت روحي وتشققت وجفّ قلمي لكنك عُدت لتحملني بسفينتك من طوفان الحياة المُزري فعادت الحياة تدبّ في ترابي،

تعلمت أني لأجل أن أظل أرضًا لا بد أن تطأ أقدام الجميع قلبي يدوسونه ولا يجب أن أتألم؛ لأننا نجيد الحزن ونعتز به، بل نضعه دائمًا تحت ميكروسكوب الفكر وَهَنت لدينا قوى السعادة ولا نُدرك أنها تولد بغتة من رحم الحزن وأن كُل السعادة التي نصفها ما هي إلا خيوط عنكبوت ما تفتأ تنجلي يا من وهبتني للسعادة ووهبت السعادة لي وعلمتني "أن السعادة هي أن تطلق سراح الروح من سجن الجسد".

شُكرًا لأنك أنت أنت.

ملجأ أيتام المدينة

ليلة صامتة كأغلب ليالي الشتاء، الشتاءُ الذي لا يعرف كيف يرحم طفلًا صغيرًا يتيمًا قابعًا في ملجأ الأيتام، البرد يفتك ببراثنه الفتاكة، ستارة النافذة التي بدت أمامه كخيوط العنكبوت لا تقي ولا تغني من البرد, نظرت إلى إخواني الصغار بالغرفة، منهم من جاءه النوم على استحياء من برودة أطرافه ومنهم من يظن نفسه نائمًا وهو غارق في الأماني الصغيرة والخيال غير المُكتمل النمو ومنهم من هاجم أمانيه الخفية، خوف النهار وبرد الليل استقرّا فيه فنبذه النوم وتركه مستلقيًا على الفراش يرتعد بصمت الجدران، ومنهم من يتلذذ بدفء بوله الذي سيتلاشى سريعًا مُخلفًا برودة تسري بكل جسده.. و أنا أقلِّب رأسي بين هذا وذاك سمعت قرع نعال المشرفة فهممت أن أغمضَ عينيّ مُسرعًا، ولأن صوت نعالها على الأرض أحد أنياب البرد لُذْت بالصمت ومثلت النوم ولكن ثمة صوت آخر أشد رنينًا، إنه صوت الطفل الذي تمسكهُ بيدها باتجاه غرفتنا تجرُّه على كرهٍ منه وتخوّف.

كان ضوء الغرفة خافتًا كأنه لا يريد استقبال الصغير لكون الغرفة تضج بالأطفال، وصنعت منها رائحةُ أنفاسهم اللاهثة خلف حلم الدفء وبولهم حظيرة ماعز.

هيا إلى هذا الفراش وكُن طفلًا مُهذّبًا لا داعي للبُكاء، قالت المُشرفة بصوت حاد ينبعث من نبراته التخويف والتهديد مُشيرة إلى فراشي ثُم أدارت ظهرها وهي تتمتم بكلمات لا أفهمها لكني أستطيع أن أتعرَّف مضمونها مؤكدًا أنها تلعن اليوم الذي عمِلت فيه مشرفة بدار الأيتام.

أغلقت الباب خلفها بقسوة كأنها توحي للطفل الجديد بمدى قسوة العقوبة التي ستقع عليه إذا عاد للبكاء مُهددًا سهرتها مع صديقاتها.

كان صدره يضجّ بالبكاء ولكن خوفه من المرشدة أشد وطْئًا من البكاء، كان أشبه بقطعة ثلج حين وضعته المشرفة بجواري مُتصلبًا باردًا كالمستقبل الذي ينتظرنا منذ أن قرعت الحياة باب كل منّا, ما إن خفَّ صوت وقع كعبها الحديدي المُخيف على الأرض وأدرك الطفل أنها ابتعدت لمسافة ما لن تستطيع سماعه حسب اعتقاد عقله الصغير

المهجور، حتى أخذ يبكي بحرقة قلب، أكاد أرى دخانه الكثيف ورماد روحه يتطاير حوله, قمتُ من فراشي ومن نومي الكاذب الذي كُنت أوهم به المرشدة حين دخلت غرفتنا كتنين خارق يهاجم صمتنا، حاولت أن أُهدِّئ من نوبة بكائه الهستيري بأن أُربت على كتفه فلم أنجح، فقمت وأشعلت الإضاءة في الغرفة عسى أن يستشعر بعض الأمان الذي فقده فيهدأ ويتقبل عالمه الجديد.

حين أضاء المصباح الخافت أرجاء الغرفة التي يرن بها صوت الصغيرسقطت عيني على وجههِ بدا كأنه ليس له ملمح واحد أستطيع فهمه وجهه متورم عيناه وشفتاه و أنفه كأن شبحاً يسكن ملامحه صمت الطفل فجأة كأنه قرأ الإستفهام في عينيَ ثُم زادت نوبة بكائه أكثر حتى إنتابني أنا أيضاً الفزع, أفاق بعض الأطفال مذعورين ومن كان صاحياً رفض التعليق أراد أن يكمل مسلسل النوم الكاذب للنهاية ويؤمن به.

صاح أحد الأطفال بتجهم لماذا لا تتركنا ننام بسلام؟ ثم تأفف بضجرٍ وسحب غطاءه على جسدهِ ووجهه كالذي يسحب النوم على جسده سرقة، والطفل ينظر إليهم جميعاً ولا يراهم في عينيه مشهد العنف الذي قاده إلى هذه الدار مُتثاقل الحواس إنهُ موجود وغائب حيَ وميت.

عودوا للنوم ولا تدعوا قطار الأحلام يفوتكم قلت مُحاولاً أن أرسم بسمة في غرفتنا التي بدت أكثر حزناً وكآبة إقتربت من الصغير الذي يرتجف برداً وخوفاً وعيناه غائرتان تحت جفنين متورمين كأنهما أرادا أن يحفظا عينيه من يد باطشة لا تعرف الرحمة.

قلت مُبتسماً أنا أيضاً تعرّضت للضرب كثيراً لكن كُنت أتحمل كي أصبح رجلاً، قالت لي أمي المُشرفة أن من يتحمل يصبح رجلاً سريعاً. لم يعِ كلامي رُبما ولم يُبد أي ردة فعل ولو بإيماءة رمقني بنظرة شديدة الأسى صمت ثم تجمد مكانه. جمع قدميه كالجنين وإستسلم جسده الهزيل المتورم للنوم دون مُقاومة عيناه الجاريتان جفتا وأزيز صدره خف أخذت غطاء فراشي وغطيته ثُم أخذت أربت على كتفيه حتى تلاشى تصلبه وغط في الدفء أو هكذا بدا لي لكنه مع ذلك كان يصارع أشباحاً ما بنومهِ ربما هي تلك ذاتها من أوسعت طفولته رُعباً كان يرتعد كثيراً ويتمتم بكلمات مُبهمة لا يكاد ينام حتى يصرخ ثم يعود وينام أخرى.

أخذت أراقب وجهه الباكي المتواري خلف جريمة، لم يكن له يد بها لتزيد ضحية جديدة تضاف إلى سجل ضحايا الملجأ خطيئة جديدة يهرب صانعها وتقبع في جسد طفولتنا حتى الموت.

******

السابعة صباحًا دقّ جرس الاستيقاظ، قمتُ مُتثاقلًا لم أكد أشعر بأنني نمت ولو دقائق إلا من خلال بعض المشاهد الخاطفة في سجل حلمي الليلة بالطفل الجديد. نظرتُ إليه وقد استيقظ مذعورًا وصوته قد احتبس خلف حنجرته، فلم يكد يستطيع البكاء وكأن صاحب الجريمة قد حفر في جوفه درس البكاء الصامت منذ أن نهش بمخالبهِ الحادة قلب طفولته ورسم على وجهه البؤس الذي سيظل شبحًا يطارده، كان بنطاله مبللًا تصطكّ أسنانه بردًا وخوفًا وهو يتوارى من سوء فعلته التي تراءت لكل الأطفال فأخذوا يتأففون منه وقد سبقوه بفعلها.

دخلت المشرفة الغرفة وقالت موجهة وجهها للطفل الجديد: كيف حالك؟ قالتها وهي موقنة بالإجابة الحقيقية في عينيه القابعتين في الظُلام وفي ثيابه المبللة وفي يديه اللتين تنتفضان ارتعاشًا.. نظرت إلى الطفل باشمئزاز وهو يرتعد من خوف وبرد بوله ولعابه يتساقط، ضم يديه لصدره وعيناه تنظران إلى الأرض في خجل بائس، أما نحن فقد حفظنا الإجابة التي لطالما لقنونا إياها كالشهادة: نحن بخير يا أمي.

أُمي.. تلك الكلمة التي باتت طعامنا البارد طوال شتاء عمرنا، لقد رُسمت هذه الكلمة في وجه كل مديرة أو مُشرفة أو عاملة أو حتى زائرة فأصبحت كثيرة مشتتة، ضاع دفؤها وخلت من المعنى، فبعض الكلمات في حياتنا لا تنطبق إلا على شخص واحد وتكرارها يمحي معناها حتى أصبحت مجرد روتين.

خرجنا جميعًا ليومٍ جديد في عمرنا غير جديد في طفولتنا، غسلنا وجوهنا من عبث الأحلام المُتكررة بنا كل ليلة.. سرير دافئ وأم حنونة وبيت هادئ وأسرة ضاحكة، جدة حنونة متجددة القصص الأسطورية، ومع آخر رشة ماء على وجوهنا تتساقط معها تلك الأحلام.

تقدمنا في طابور يومي لتناول الفطار مُتشوقين فقد عبث الشتاء طوال ليلة بأجو افنا و أفناها.

جلسنا للإفطار وكنت حريصًا أن يتناول صديقي الباكي فطوره، أخذتُ أراقبه والمُشرفة تسير به حتى أجلسته بجواري بعد أن غيرت له ملابسه, ثُم جاء صديقي "آسر" الذي تلقبه المُعلمات "إقليدس" لذكائه بالرياضيات وبراعته في هندسة الأماكن أثناء لعب الغُمّيضة والذي كان قد سبقنا في العمليات الحسابية وأجادها ونحن الذين لم تتهيأ أعمارنا بعدُ لها. جلس بجواري وبقايا النوم عالقة في عينيه، قال في خمول: لماذا كان ذلك الولد يصرخ طوال الليل؟

رُبما فقد عائلته أو حدث له حادث مفجع، فقال بلهجته الطفولية: يبدو من وجهه أن العائلة هي التي تخلَّت عن رغبتها به وأرادوا أن يُلقوه بيننا لنزيد ازدحامًا ثُم ابتسم، لكنني لم أحب إبتسامته تلك، شعرتُ برائحة القسوة منها, تناولنا الإفطار باردًا كيومِ أمسِ وكل يوم وخرج إقليدس طفل الملجأ المدلل مع إحدى المُشرفات، كان جميلًا نظيفًا تبدو عليه ملامح عَالِم صغير كنا نغار منه ومع أنه أحد أصدقائي المفضلين لكني كنت أبتعد عنه كثيرًا كي لا يتهمني أصدقائي بأني أُفضّله عليهم لجماله ولأنه ابن لعائلة ثرية متدينة، علمت ذلك لأني كُنت شغوفًا بسماع قصص الأطفال الحقيقية من المُشرفات أثناء اجتماعهن بغرفتهن و أنا أستمع من الشرفة الحديث دون أن يعلمن بأمر مراقبتي تلك، وفي يوم سمعتهن يحكين عن أن أُمَّ إقليدس وإنها ثرية من عائلة متدينة وحين علمت العائلة بحمل ابنتهم بطفل غير شرعي زجَّته في الملجأ كي لا يتلوث ثوب تديّنها أو يتفوه أحد عن تلك العائلة المجهولة لنا المعروفة لغيرنا المتمسكة بتقاليدها ودينها.

كُنت أنتظر أن تحكي إحداهن شيئًا عنّي ذا فائدة غير ذلك الشال القطني الذي وجدوني فيه أمام باب الملجأ وتلك القلادة المكتوب عليها لفظ الجلالة (الله) بالخط العثماني لكن ذلك لم يحدث قَطْ.. خرجنا إلى فناء المدرسة حيث السماء ملبدة بالغيوم الرمادية الحُبلى والشمس بصعوبة تبعث بعض الخيوط تثبت وجودها الذي أضحى كعدمه، أخذنا ننظف الفناء ونسقي الورد ثم دخلنا نتعاون في ترتيب غرفنا, اقتربت المرشدة وفي يدها الطفل الباكي.. يا صالح، أنت ولد طيب وكل الأطفال يحبونك، ربما تستطيع أن تساعد أخاك الجديد هذا فهو حزين جدًّا لا نعلم ما به وقد أسميناه

سعيدًا عسى أن يكفّ عن الحزن وهو لا يتكلم لكنه يسمع جيدًا. ذهبت دون أن تلتفت، نظرت إليه مُبتسمًا، يبدو أفضل حالًا من أمس لكن الكلام بداخله غارق في جوفه يحتاج إلى غواص ماهر يستخرجه وهو الذي لا تستوعبه طفولتي الباهتة.

قُلت له هنا إخوان لنا كثيرون لا يتكلمون لكنهم يومًا ما سوف يتعافون، نظر إليّ وعيناه تقولان كاذب، لم تهمني نظرته واتهامه ببساطة لأني لا أدركها.

جاء إقليدس ومعه كرة قائلًا: هيا يا صالح نلعب معًا.. أمسكت بيد سعيد وقلت: ومعنا سعيد. هزّ رأسه بالقبول، كان إقليدس سديد الضربة، لم أهزمه قط لذلك كُنت أنهزم أمام سعيد بلا ضجر كي يبتسم، فحين يضربني بالكرة أسقط عنوة فيبتسم ابتسامة خافتة لا تكاد تأتي حتى تذهب.

في منتصف النهار حين انتهينا من أعمال الدور كنّا نتضور جوعًا، ذهبنا لتناول الغداء؛ فاصوليا متشربة عصيرالطماطم وشر ائح لحم صغيرة مع معكرونة، لم يكن سعيد معنا ولم أعرف السبب حينها لكن عرفت فيما بعد أن الشرطة عادت لترى الطفل صاحب الحادث الغامض الذي وجدوه أمام أحد المستشفيات يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة وسلمته المستشفى لقسم الشرطة الذي سلمه بدوره لملجأ الأيتام الصغار بالمدينة, بعد الغداء طلبت منّا المديرة الانتظام في طابورلأن لديها ما تودّ قوله، جاءت المديرة ترتدي معطفًا، ننظر إليه جميعًا كالمنقذ لنا من أنياب البرد، الاحتياج يُكبّر حجم كل شيء لأضعافه، كانت عيناها حادتين تخرجان من تحت نظارتها التي كقعر الزجاجة، وحين تحدق في أحدنا بغيظ يظن الطفل أنه هالك.

أبنائي الصغارغدًا سوف يأتينا زائر مهم من الدولة ومعه صحافة. أريدكم أطفالًا جيدين لن نسمح بحدوث شيء غير طيب هنا في دورالأيتام، نحن هنا أسرة واحدة (لم نسمع تلك الكلمات التي تحثنا على الانتماء إلا حين يأتي زائر).

مرّ النهار على عجل و أتى الغروب يحبو إلينا، لم أرَ الشمس وقت رحيلها كعادتي كل يوم ولم أجرِ خلف أشعتها الذهبية ويتملكني شعورأني والشمس نلعب معًا لأن السُحب الرمادية حجبتها طوال النهار ولأن ثمة من أبحث عنه في هذا العالم الذي تكدس بالأطفال من كل لون، إنه سعيد لم أره منذ الظهيرة، سألت عنه كل الأطفال، لم يعلم أحد أين هو، جلست وحيدًا في ركن بجوار سور الملجأ ورحت أرسم على الأرض بإصبعي

وجهًا، التراب بارد لكنه يطاوع يدي كثيرًا لا يعصيني حين أرسم وأمسح، رسمت شمسًا وبجوارها قمر, كنت دائمًا أظن أن الشمس والقمر شيء واحد فإذا ذهب النهار و أتى الليل نزلت الشمس على استحياء لتغيّر رداء النهار لتظهر بالليل في ذلك الرداء الأبيض الخلاب ثم ما لبث أن غيّر العلم تفكيري حين ولجت بسنوات عمري علمًا ربما كان غير نافع، ثم يأتي الحب مجتاحًا جهلي فأنبذ ما قبله وراء ظهري وأصبح آدم آخر يتعرف على الكون من جديد.

ذهب آخر شعاع للشمس المُحتجبة تمامًا خلف السحاب، وبدا الظلام كوحش كاسرغطى الكون بجناحيه الأسودين كالوطواط الضخم، شعرت بالخوف، ذهبت جريًا إلى إخو اني الذين استعدوا لتناول العشاء، يبدو أن لا أحد انتبه لغيابي، أخذتُ ألتفت فإذا بسعيد جالس وفي يديه اللتين ما زالتا ترتعشان طبق أرز، ذهبت وأخذت حصتي من الطعام في طابورالأطفال و أنا أنظر إليه, جلست بجواره بعد أن استلمت حصتي أمسك بالملعقة ليتناول طعام الأرز المطبوخ بالحليب وكلما اقتربت الملعقة من فمه تهتز وتسقط الحبّات على ثيابه فيداه الصغيرتان وَهَنتا حتى عجزتا عن حمل ملعقة في حجم إصبعيه، مسحت بكفي الأرز المُتساقط على صدره ثُم أخذت منه الملعقة وقلت: لا عليك، أنا سوف أطعمك.. قلتها مُتحاشيًا النظر لعينيه المتورمتين أتقي نظرة الحسرة (اليتيم يُجيد الإحساس مُبكرًا) أخذت أطعمه وهو لا ينظر لي أو إلى الملعقة أبدًا، ربما سافرت عيناه إلى مكان ما في عقله الباطن يرى مشهدًا لا يبرح مسرح حزنه أبدًا. دقّ جرس الخروج وأدركت أني سأبيت جائعًا أيضًا كما أبيت خائفًا وسيلتهمني ثلاثي: الأرق، الخوف، الجوع والبرد, كان إقليدس ير اقب المشهد من بعيد ثُم اقترب قائلًا لي: أنا سوف أتولى غسل يديه و أنت تناول طعامك سريعًا قبل أن تنتبه مشرفة الطعام. أخذت أتناول وجبتي سريعًا حتى انتهيت و أنا أملأ بالوهم معدتي و أُقنعها عبثًا أني قد شبعت.

ذهبنا لغرفة نومنا التي سبقني إليها سعيد و إقليدس، كان إقليدس ذا شعر أشقر ناعم يتدلّى على عينيه اللوزيتين اللتين تلمعان كالذهب بلون شعاع الشمس في الغروب، كان عطوفًا طيب القلب، جئنا هُنا في الليلة نفسها لا أدري لماذا أكبر الأحزان والأخطاء المُتشابهة تولد ليلًا؟

حبونا معًا ومشينا معًا وتكلمنا معًا، لم نفترق منذ خمس سنوات يومًا واحدًا إلا حين تأخذه المُعلمات ليجسد مشهدًا في مسلسل أو فيلم، فهو يُجيد ذلك ثم يعود لنا محملًا بهدايا جميلة، كنت أطلب منه أن يهدي إخوانه بالدار ولم يكن يرفض طلبي، كان كريمًا وعلى الرغم من كونه مغرورًا ومدللًا من قِبل المعلمات لكنه يشعر أكثر منّا بالحرمان.

استلقيتُ في فراشي بجوار سعيد، غطّيته بالغطاء الطاعن في العمر الذي لم يكن لنا أنا وهو سواه، النوم لنا يعني أشياء كثيرة غير الراحة؛ منها الهروب من أعين المشرفات القاسية التي كلما نظرنا فيها رأينا أبوينا عُراة من كل شيء يتلوَّون من ألم العار لأننا جرم لا يُغتفر. كان سعيد يصغرنا بعام واحد ولكني كنت أراه يصغرني بأعوام عدة، كنتُ أراه دائمًا ابن لي شُغلت به عن كل الأطفال حتى عن إقليدس، لم يكن يهتم لأمري أحد ولم يعطف عليّ أحد؛ لذلك قررت أن أعطف أنا على كُل الأطفال وأن أُعاملهم جميعًا بمحبة ولكن سعيدًا كان أكثرهم تعلق قلبي به ربما لأنني أرى نفسي فيه منذ رأيته يبكي بتلك الحرقة التي لطالما تمنيت أن أبكي بها حتى أُفارق الحياة، شيء ما يجمعنا، رُبما هو ذاته الذي سيُفرقنا!

أغمض عينيّ ثم أعود لأفتحها، ألقيت نظرة على سعيد فإذا به قد أخذ وضع الجنين يكاد وجهه يلتصق بفخذيه، ربما ذلك نوع من الاستسلام لمصيره طويل الأمد هُنا.

لقد نام وعسى ألّا يزعجنا مجددًا.. قال إقليدس مبتسمًا، فقلت له: و أنت لماذا لم تنم؟ رفع رأسه من تحت غطائه متنهدًا تنهيدة تبدو كأنها أمل قابع في الجوف يخرج مع تلك التنهيدة؛ أريد أن أكبر سريعًا وأخرج من هنا، أريد أن أبحث عن أُمي التي لا أعرفها وإخوتي الحقيقيين، أُريد بيتًا كبيرًا واسعًا به كل أنواع الطعام وخادمة تجلب لي كل ما أطلب وتلفازًا به الألوان تتلألأ وثيابًا جديدة وألعابًا كثيرة، أُريد أن أعيش خارج هذا الملجأ.

قاطعته بصوتي المصحوب بحزن الواقع ولكن بطريقة الطفولة قائلًا: رُبما هذا يوم لن يُكتب له مجيء، نظر إليّ نظرة وكأن خنجرًا مزّق أحشاء أحلامه ثم قلب وجهه للحائط يواري جرح أحلامه النازف، لم أسمع سوى صوت أنفاسه المضطربة اختناقًا، كان يستحي من حزنه دائمًا.

فطرة

مرت الأيام مهرولة، أو هكذا خُيّل إليّ من فرط وهنها، أتممتُ السادسة من عمري، كان هذا اليوم غريبًا؛ إذ فصلت الفتيات عن الفتيان في المبنى، لم يكن يجمعنا بهن إلا أوقات قليلة حين ننظم حفلًا أو يأتينا زائروبعد أن يذهب الزوار كنّا نلقي عباءة أحزاننا الثقيلة حين نراهن يمثلن بطفولتهن البريئة أنهن أمهات ونشم منهن رائحة الأمومة التي لا يعرفنها لكنهن يجدن تمثيلها في مشهد بدا لطفولتنا جميلًا. لكن ما إن كبرنا حتى رأيناه بما هو أَهل له، إنهُ مؤلم حدّ العظم. في الطفولة نجيد الأدوار الخيالية وبعد أن نكبر نفشل حتى في إجادة أدوارنا الحقيقية.

اجتمعنا في طابور بدا متهاويًا، قد نكون اعتدنا مشهد الفراق حيث كانت تفارقنا أغلب المعلمات اللاتي جمعتنا بهن محبة وإحساس أمومة صادق، إما بالانتقال لملجأ آخر أو ترك العمل للسفر أو للزواج لكن هذا كان الأكثر ألمًا.

جاءت المديرة، كانت في هذا اليوم أكثر بشاعة من ذي قبل، في يدها عصا كأنها الساحرة الشريرة التي نقرأ عنها في القصص، وتلك العصا هي التفاحة المسمومة، فرّقتنا في طابورين؛ طابور السنوات الخمس وطابور السنوات الست، ثم قالت غدًا سيفصل الأطفال الذين سيتهيؤون للدراسة في مبنى لهم ومن هم أصغر سنًّا سيبقون هنا. وقع في قلبي وقتها سعيد الذي يصغرني بعام وأضافت: ستُفصل الفتيات في مبنى جديد خاص لهن، كانت الأولى أصعب ما جاءت به عصاها، بعد قليل سوف يأتي الزوار وعِندما يسألونكم عن أي شيء فعليكم أن تقولوا فقط: "نحن وسط عائلتنا ولا ينقصنا شيء".

في ذلك اليوم حدث ما لم يكن في الحُسبان، فعِندما سأل الزائر أحد الأطفال: هل تشتري لكم الدار ملابس جديدة في غير الأعياد؟ وهل تحبون الملجأ؟ فأجاب الطفل الذي لم يكن وقتها يُجيد الكذب: لا، لم نلبس ثيابًا جديدة منذ العام الماضي ولا نحب الملجأ بتاتًا. فكانت عقوبته أشد قسوة من عقاب الأيام، كانت نجاته في أن يكذب ويُزوّر شهادته في الزيارة القادمة.. يُعلموننا الكذب ثُم يُعاقبوننا عليه.

أخذت أفكر في عالم جديد؛ عالم المدرسة.. سيكون لديّ كتب دراسية وألوان وحقيبة وسأكبر سريعًا، وكان قطار المدرسة أشد سرعة من سابقه لكن في الحقيقة كلاهما بالسرعة نفسها وكلاهما ينزلقان عن قضبان الأمل. ذهبنا لغرفنا كي نستعد لعالم جديد لم يبد لي ما يميزه عن هذا بل على العكس كنت أُراقب سعيدًا وهو يلعب ثم يأتي ويتكلم معي كلمات لا أفهمها، هو بصعوبة يحرك لسانه كأن جبلًا من عجز قد رسخ فوقه. قلت له: اليوم سنفترق لكنني سوف أطلب من معلمتي السماح لي بأن آتي إلى هُنا كي أراك. عاد سريعًا إلى عهده الأول بهذا الملجأ حزينًا مُنكسرًا لكني سرعان ما اختطفته قبل أن يستسلم ويقفز في بئر الحزن قائلًا: ستأتي معنا في العام القادم وستكون في عامك الأول في المدرسة، ابتسم ابتسامته الباهتة محرّكًا رأسه للأسفل بالقبول.

كان أول يوم في الدراسة ممتعًا، تعلّمت بعض الحروف والأعداد، قرأنا سورة الفاتحة، أما إقليدس فقد حفظها فور سماعها من أول مرة. أخبرتنا المعلمة عن الله وعن الجنة والنار، أخبرتنا أنه عندما يسألنا أحد أين الله؟ نُجيب إنه في السماء، ومع أني كنت صغيرًا لكن فطرتي كانت تكره الأماكن، ما إن خرجنا للفسحة حتى قام أحد الأطفال بسرقة طعام صديقه، فلما نهرته وأخبرته أن الله سيعذبه، قال بطفولة مقصوفة بقناص المُربي إن المعلمة قالت إن الله في السماء فهو لن يراني لأن السماء بعيدة.

نعم إن السماء بعيدة.. قُلت و أنا أنظر للسماء كأنني أقيس المسافة ثُم صمتّ ولم أنبس بكلمة, مرّت أيام أخرى لم أرَ فيها سعيدًا وكنت كلما حاولت رؤيته تبوء محاولاتي بالفشل, مر العام بقسوةٍ لم أشهدها من قبل ثُم أخذنا إجازة. وقد تعلمت أن أكتب و أقرأ كلمات سهلة، كنت شغوفًا بفكّ الكلمات لأحرف ثم أعيد الأحرف في كل مرة بشكل آخر وكنت قد تلقيت تحذيرًا من مديرة المكتبة أن لا أقترب من الكتب، ولا أستعمل كراس الرسم إلا إذا سمحت لي المعلمة في حين أنه عندما يأتي أحد الزوار ويسألنا عن مهاراتنا وأوقات فراغنا أين نقضيها نُخبره أننا نرسم ونُلون في المكتبة، هذا ما تُحفظنا إياه المُرشدات قبيل الزيارة.. لا زال التراب هو أفضل ما يستجلب خيال الرسم لديّ وعجينه بالماء أصنع منه سيارة أو حصانًا فهو أشد رقة من كراس الرسم الذي إذا ما

أحضرته فسوف أعاقب عقابًا ربما يجعلني أكره الرسم، أفضل أوقاتي هي تلك التي أقضيها مع القطط التي تأتي خلسة متسللة لداخل الدور قبل أن تمتد إليها الأيدي القاسية بالضرب وإلقائها بعيدًا، أو الوقت الذي تأخذ فيه الشمس لون البرتقالة مقتربة من الأرض تُقبلها وقد تلاشت أشعتها، كان لإقليدس نشاط آخر فقد أتقن مشاهد مع ممثلين كبار وفي كل مرة يأتي لنا بأخبار جديدة عن العالم الخارجي عن التلفزيونات وعن الشوارع وعن الحياة خارج ذلك المبنى، كنا نسمع أخباره متشوقين لأن يفرد لنا جسر الخيال عبر حديثه عن الدنيا خارج هذا المبنى. في الناحية الأخرى انقطع عنه ما تبعثه له العائلة المجهولة من هدايا غالية الثمن وثياب أنيقة وكأن العائلة قد بدت لهم سوءاتهم وطفقوا يخصفون عليها من الدُّنيا وزينتها.

******

بدأ العام الدراسي الذي لطالما انتظرته، إنه العام الذي سيأتي فيه سعيد ليكون معنا، تتقاذفني الأفكار كيف سنقضي اليوم الدراسي معًا، كيف ستكون ملامحه؟ ربما كبر قليلًا أو أصبح يجيد الحديث ولا يتلكأ كالسابق، أخذت الأفكار تعدو ثُم صمتّ رويدًا واستسلم سباق أفكاري للنوم. أشرق الصباح خلف الستار الذي تمزقه الشمس متسلطة علينا لتوقظنا من ظلام ليل قد هوى.. رأيت سعيدًا أخيرًا، نعم رأيته وكأني رأيت أُمي التي لا أعرفها أو أبي الذي لم أحط عِلمًا بملامح وجهه, مبتسمًا غير تلك الابتسامة الهشّة، ربما لأنه رآني أو هكذا ظننتُ، قلت له بكل تشوّق وعاطفة الطفولة: كيف حالك يا سعيد؟.. قال: "بخيي..". فهمت أنه ما زال يعاني ثقل الكلام، قلت له و أنا أتحاشى أن يشعر بأني حزين: أتعلم، لقد أخبرتني المعلمة أن هناك نبيًّا من الأنبياء اسمه موسى كان لا يجيد الحديث جيدًا بسبب بطش فرعون الكافر الذي ألقمه جمرة في فمه.. هز رأسه وكأنه لم يعِ ما قلت ربما لأنه لم يعرف ما معنى ذلك.

عام يهتك ستر الأحلام

ألفا عام قد انصرمت وها قد أقبلت ألف عام جديدة، قد استعدت لها الدُّنيا برمتها، احتفل العالم بهذا العام الذي ستعُم فيه التكنولوجيا كل بيت من بيوتهم ولم يدركوا أنهم يحتفلون بـ"عشتار" إلهة الجنس والحرب والإجرام عند البابليين التي تحكم الشرق الأوسط والتي تدخل كل البيوت بيدين في إحداهما سيف وفي الأخرى الجنس فأتاحت للجميع بسطاء وغير بسطاء ممارسة الجنس بلا عناء البحث عنه من خلال الشاشات والقنوات الكثيرة، وهذه المرة تطغى عشتار دون مقاومة "جلجامش" المُحارب الشُّجاع الذي وقف بوجهها, أصبح الناس يرون الحرب والموت والدمار والجنس في كل مكان على ظهر البسيطة، تناقض لا يرحم طفولتنا التي غدت مع الألفية الماضية وحلّت مع الألفية الجديدة تيهًا وغضبًا وفحولة مكبّلة بألف قيد من صمتٍ وحذر.

بلغنا العمر الذي تكفل بتواري براءتنا لا نعي تلك الأحداث الكثيرة المُتوالية، محض أطفال كُنّا قبل بضع سنوات، ما زلت أراني أركض وأسقط و أقف مُجددًا أما الآن فكيف أقف وكل سقوط يسقط مني شيء رُبما لن أملك القوة كي أنحني لأستعيده، أضحت ملامحنا غريبة مُتغيرة وعابرة تختلف كل عام وداخلنا يُضاهيها في الاختلاف والتناقض لكنه أكثر وقعًا على أرواحنا، كنّا في آخر عام في الثانوية وقد تفرقت بنا سُبل الحديث نوعًا ما فلم يعد يجمعنا نقاش إلا القليل مما كُنت أطرحه فقط لتلافي خبث الصمت الذي أقام بيننا كشيطان رجيم يؤلف بين نزاعاتنا ويُضاعفها, إقليدس صديقي الوسيم بات متيمًا بالروايات العالمية وبالأدب الأوروبي القديم، كان مثالًا للطالب الذكي المجتهد والوسيم أيضًا استطاع أن يُحلق في سماء العلم سريعًا، إنه يملك ما يجعله سعيدًا نوعًا ما لكني لم أره كذلك يومًا, كُلما تحدثت إليه تأملت لما يحويه قلبه من فراغ ووحشة ومن ممرات ضيقة مُلتوية تأخذك لآمال مقصوفة في مخيم قلبه, كان كثير البحث كثير العبث بأفكاره، لم يكف يومًا عن البحث في حقيقة الأشياء، طفق يبحث عن الحقيقة بكل شيء إلا في قلبه، ها هو قد أصبح شابًّا جميلًا وعيناه زادتا جاذبية لم أرَ أجمل منهما إلا عيني "ماري" حبيبتي.

آه يا صديقي! ليتني لم أتركك أبدًا وبقيت معك حتى إن رفضت وجودي! لكم تمنيت أن تعود طفلًا مُمتلئًا بالحماس والمحبة، لا يمر يوم لا يعتصر فيه قلبي ألمًا من حزني على ما أصابك في صباح نجاحك وتوهج شمسك وبريق نجمك، ليتنا ما افترقنا و أتركك تجدف وحيدًا في بحر الظلام بمجدافٍ واحد وقارب متهالك فيه ألف ثقب يسمح للماء أن يخترق ألواحه، لكن ما الجدوى و أنا أعلم أنك لن تقرأ اعتذاري ولن تشم رائحة ألمي ولن تمسح دموعًا لن تراها ولن تضم أضلعًا تتوق إليك شوقًا.

أذكر خبث مقاصدهم وبراءة نو اياك إذ قالت لنا إحدى معلمات اللغة العربية في أحد الأيام: "إن الله جميل يُحب الجمال"، فما كان من عقل طفل صغير إلا أن قام برسم صورة ملونة بألوان متعددة خُيل لبراءته أنها صورة جميلة تشبه الله، لم يدرك هول الكارثة التي زلزلت أمنه حين عرضها على المعلمة التي أخذت تؤنبه وتضربه وشاع الخبر في المدرسة أن الطفل "آسر" قد عمل عملًا فاحشًا لم يسبقه إليه أحد من العالمين، فكان كلما رآه زميل بالمدرسة يسأله عن فعلته التي أصبحت حديث الجميع، وكأنه قد سنّ أول سنن الكفر القبيح الطاعن في الظلم والظلام، فكان يتخفى منهم من سوء فعلته كما يتخفى المشاهير المجرمين من أعين الكاميرات.

سكبوا رصاص الأسى على قلب صغير ما فعل فعلته إلا عن حب لا يدرك معناه من هم بالأساس صنعوا إلههم بأيدهم كالذين صنعوا العجل بالذهب تدخله الريح فتُحدث خوارًا، هم صنعوا إلهًا غاضبًا سيعاقب طفلًا بالنار حرقًا حتى تتفتت عظامه فقط لأنه تخيله، لكن لا عجب فذلك الغزال يخاف منه الجميع ويهرب بعد أن أصابه السعار من جراء عضة الكلب، لن يُلام الكلب بل سيفرّ الجميع من الغزال، استرهبوه فرهبهم، استوحشوه فاستوحش منهم.

أما سعيد لم يكن يومًا سعيدًا، تقول الأسطورة إن كل إنسان له من اسمه نصيب لكني على قناعة أيضًا أن لكل إنسان من عكس اسمه نصيبًا, ها هو ذا أصبح شابًّا يزيد عنّا في بُنية الجسد كأنه من سُلالة العماليق، أسمر بعينين سوداويتين وشعر أسمر كثيف على رأسه وذراعيه، إذا رأيته من بعيد حسبته ماردًا ضخمًا، لم أره يومًا إلا بالعينين نفسهما القابعتين في زمان لم أدرك ماهيته إلا مؤخرًا، زمان تنبت فيه الأشواك بلا زهور, زمان لا يعرف طعم الحب، تمنيت لو أصنع لهُ سعادة أو أعطيه من

الدُنيا كل شيء بات يتخاذل في طلبه لكنه ر افض لكل شيء حتى قصائدي التي لا تنتمي لأي من ألوان الشعر والتي كنت أكتبها عن الحب والنساء مُتغزلًا بامرأة كُنت أظن أنه رُبما لن تسوقها لي الأقداريومًا.

قُلت له ذات مرة مازحًا: لن تقبل بك أي فتاة ما لم تغازلها. فرد بصوت مُتهدل مُتخاذل وهو ينظر تحت قدميه كما لو أراد أن يخفي حديثه تحت الأرض: لا أرى أي جمال في أي فتاة، كلهن على الشكل والطباع نفسها، لن تعجب بك فتاة إلا إذا وجدت فيك ما يملأ حافظتها وعاطفتها الفارغتين، كلهن يردن رجلًا ثريًّا وجميلًا بملامح كتلك التي يحملها أبطال هوليود. المرأة لم تُخلق إلا لمتعة الرجل لا لتُملي عليه طلباتها السخيفة.

شممت في حديثه رائحة ذلك الشيخ مخضّب اللحية الذي يأتينا في الدار كلما شعر بالملل كي يُلقي علينا شظايا خطبه الحارقة ليذكرنا دائمًا أننا في هذه الحياة نسبح وسط ضفتين إما جنة وحور وقصور وإما نار لهيبُها مسعور، كُنا من وجع خيالنا نظن أن الله يشبهه كثيرًا غاضب ومُخيف ذا صوت جهوري ملامحه مُتصلبة قاسية مثله أو كمديرة ملجأ أيتام الصغار، في كل ليلة بعد خطاب الوعيد الذي أسمعه أعود منه وقد تلاشى من ذاكرتي كل حديثه عن الدين من حلال وحرام إلا عن الحوريات وجمالهن، فيشتعل الخيال بي على وسادة الجمر مُتخيلًا كم واحدة سوف أفض بكارتها في اليوم على شواطئ الأنهار و أنا أتقلّب بينهن أستعر تارة بقوة كلما حدَّ صوت الشيخ بأذني وتارة بلينٍ كلما خرجت حممي ملتهبة ثم يقضي مني الندم والأرق وطرًا وتتكالب على ذهني التساؤلات الممقوتة البشعة التي تقصف كياني المؤمن.

من أنا؟ وحدها الوسادة المفخخة بأوجاعي تعلم، ومَن هم أولئك المتحدثون بلسان الله؟ ومن أنت أيها المُحتجب بسماء مترامية كموج جارف أزرق من ماء الحياة يخطف الأبصار والقلوب.

لا يضر الليل المزيد من الظلام

قضت سعادة العرب نحبها بعدما كَشَفّتْ الألفية الجديدة عن نو اياها بآخر شهورها, قُلبَ حال الناس وحال التلفاز الذي امتلأ بأغاني الفيديو كليب السريعة ذات ألحان تشبه ألحان الهنود الحمر في الحروب ور اقصات من كل لون مع كلمات لا تتفق مع و اقعها التمثيلي بأي وجه لكنها كانت تخفف عنّا بعضًا من أعباء يوم يكتظّ بالدراسة والاستذكار والبحث، حيث كان العام الأخير لنا بالثانوية، حيث أصبح لنا مُعلمون نشبههم في الملامح الذكورية ونبرة الصوت الخشنة, تقلّبت قلوبنا سريعًا كما هو نمط الحياة المُتناقض، اكتظت الشاشات بالأغاني الوطنية وأصبح الكُل وطنيين يُرددون شعارات وهمية إثر اندلاع الانتفاضة الفلسطينية التي كانت هي بالحقيقة انتفاضة لآخر ما بقي من أرض طفولتنا المغتصبة, أصبحنا نرى الموت أمامنا كل وقت كما نرى وجوه المارة، نقلّب مشاهد الموت في يومنا بكبسة زر على الحاسوب أو بريموت كنترول الفضائيات حتى صار الموت لدينا مألوفًا لا يخيفنا, إن الطفل الصغير الذي تُخيفه أمه بالشبح ليختبئ في أحضان النوم ربما لو رأى هذا الشبح ذاته لزال هلعه رويدًا رويدًا.

المساجد والكنائس باتت تؤرق صفو شوارعنا، الكل مُتهم ومُدان حتى نحن الذين يحتسبهم المجتمع عالة عليه، كلما جاءنا من الخارج زائر معلم أو شيخ يشعرنا بأننا مسؤولون عن كل أخطاء الوطن، حتى أضحت كلمة وطن باردة كسابقتها كلمة أمي أو أبي والتي كُنّا نُلقِّب بها كُل الحضور حتى فسد طعمها وأصبحت تصيب البطن بكركبة وتقلصات.

في نهاية العام كان لنا نشاط نوحي به لبعضنا زخرف القول غرورًا بأن نعلّق الأعلام الفلسطينية على أكتافنا نوعًا من صناعة الذات رياء حسنًا بحماسة ما تكاد تشتعل حتى تنطفئ تزيد مع الأغاني الوطنية ثم نعود كما كُنا فارغين من عاطفة الانتماء، يومها أخبرني إقليدس أنه قد أحب فتاة وسوف يعرفني عليها، كان يقول لي ذلك منتشيًا وقد رُسمت بعينيه فرحة لقاء قريب بفتاة أحلامه، إنه جميل حين تزور الفرحة النادرة وجهه النّدي, قُلت له مُشاكسًا: سوف أخبر هذا الفتاة بسخافاتك بتلك الصور المُخبأة تحت

فراشك لنجمات الأزياء العاريات. نظر إليّ ماطًّا شفتيه في غُرور محبوب مُبتسمًا بعينيه وقال: لا بأس، هي تُحبني لعيوبي، ما كُنت لأثق في حُبها لو لم تقبل بي كما أنا.

كنت جالسًا وقتها بجوار شجرة في حديقة المدرسة، نظرت إلى السماء وقد وقع في قلبي كلماته، يحدث أن يأتي من يتحدث بلسانه عما في قلوبنا نحن، هي رسائل لنا دون أن يعي قائلها شيئًا، هي فحوى إشارة لطيفة لإعادة غَزْل ما نقضته الحياة فينا! قُلت في صمت: أيُّها المُحتجب، أعلم أنك تعلم بأعمالي كلها خيرها وشرها وتقبلني بكلي ولكن بئس العبد أنا إن لم أقبل بك كلك.. حتى أنا لا أعلم لماذا أخاطره من حين لآخر، أحيانًا الخوف منه يُكبّلني فأهرب للمعاصي الافتراضية مختبئًا خلف شاشة العالم الافتراضي، وتارة الخوف منه يجعلني أمقت كل شيء حتى حديثي إليه.. فجأة سحب إقليدس العَلَم من فوق كتفي بقوة ورجّني حتى ظننت أن تيارًا كهربائيًّا مسّه، وقف متصلبًا كجبل باذخ مُندهِشًا، سألته: ما بك؟ قال: انظر، إنها هُناك قادمة. نظرت فإذا بفتاة ربيعية الجمال زهرة متفتحة لما رأيتها حسبتها حورية من اللاتي يحكي عنهن الشيخ لكنها حورية ترتدي زي الدراسة؛ قميصًا أبيض وصدرية وبنطالًا بلون بُني غامق بدت فيها سفيرة حب صغيرة.

قالت مبتسمة وهي تزيح شعرها للناحية الأخرى و أنا أنزاح معه: مرحبًا.

فرددت عليها برأسي، مدّت يدها من أسفل الكُتب تصافح إقليدس فقبّل يدها قائلًا: أهلًا زهرتي. لم يكن يعلم المسكين أن من أجمل الزهور هي (زهرة القلب النازف) التي تنمو في شمال الصين من أسفل ملتقى شقي القلب يبرز جزء أبيض سام إذا تذوقه إنسان قد يقتله, إن حبيبته هي من سُلالة تلك الزهرة, لا يا صديقي لم تكن تقبلك على عيبك، حتى هذا الذي لم يكن عيبك بل عيب من وارتك هنا خلف الظلام كي تحافظ على العائلة المُبجّلة من تلوث شرفها المُبتذل وألقتك في سلة مهملاتها كما تُلقي ثيابها القديمة متبرعة بها لمن يُقبّل يدي سخائها الكاذب، نحن نسرق الحب يا صديقي من فقرائه واللص الغبي هو الذي يسرق من بيوت الفقراء.

وجاء إقليدس ذات مساء تعيسًا، تجعدت فيه ملامح صفوه ووهنت فيه قوى العشق سريعًا يعتريه نوع من شيخوخة القلب المفاجئة التي قضت عليه ذات يوم ملوّحًا للحياة من طرف خفي فهو مودع لها ومقيم فيها, لن أتحدث إليه، إن الحديث

معه الآن هو استمرار مصارعة لا أخلاقية مع خصم ضعيف سقط مغشيًّا عليه ينزف من كل اتجاه.

أخبرني سعيد بعد أن ولج إقليدس غرفته يتوارى منّا كما لو أصابه الجذام أن الفتاة أخبرته أنها ما زالت صغيرة على الارتباط وأنها ما كانت لترتبط بشخص "لقيط". لم أسأل سعيدًا كيف عرف ذلك رُبما لأني قرأت في عينيه إجابة كُنت أخشاها.

لقيط.. الكلمة هذه كفيلة أن تُنسيك وقع خطو روحك وأن تُلقيك في أعماق جحيم الحياة إلى الأبد.

أدركت كيف سقطت الكلمة حادة على رقبته ففتحت جرحًا غائرًا وحين يُفتح جرح سبق له النزيف لم يبرأ يصبح أكثر نزفًا وألمًا.. أخبرها أحدهم أن إقليدس لا مستقبل ينتظره ولا عائلة تقيم لها حفل عرس كملكة فوق بساط العشق العابر و أنه فقير.

لقيط.. تلك الكلمة التي كانت أكثر فتكًا من أسلحة الدمار، محشوة برصاص متعدد الاشتعال يقتل آلاف المرات، كلمة تشعرنا أننا شيء مَهِين تم التقاطه من الطريق فقط لإماطة الأذى، لقد اختارت كلمة الفراق, كلمة العذاب، كلمة النهاية.

ليت من وضعونا على حافة الموت رحمونا فقتلونا قبل أن نموت كلما أدلى أحدهم بدلوه فخرجنا عُراة على جلودنا جدري الخطيئة وفي وجوهنا كوليرا اليُتم.

ذكرتني تلك الو اقعة بي ذات نهار حين قبض علينا أحد المُعلمين ونحن نرش الماء في ملعب المدرسة فأغلق الصنبور وصاح يا أولاد العاهرة لسوف أقطع أيديكم يا أبناء الزنا، لم نعِ ماذا يقصد لكننا كنا نعي من ملامح وجهه المُتحجرة أنه يسبّنا، فذاع هذا النمط من السب بيننا فكُلما غضب أحدنا من الآخر أو من أحد من أبناء الملجأ يصيح به: يا ابن العاهرة.. حتى سمعت بفحشنا المُديرة وعاقبتنا بالوقوف ورفع أيدينا عالية ساعة من الزمان لجرم لسنا من سَنَّه.

مر يومان كان إقليدس فيهما بحالة سيئة لا يتحدث ولا يقرأ ولا يذهب إلى المدرسة، جئت إلى فراشه متسللًا، شعرت أنه ليس بخير، كان نائمًا، وضعت يدي على جبهته المُتصببة بالعرق، إن حرارته مرتفعة، أخذت أتلفَّت في أرجاء الغرفة أبحث عن سعيد ولكنه لم يكن على فراشه. طفقت أقلِّب في مكتب سعيد أبحث عن خافض حرارة فأنا لم أكن أحتفظ عندي بأدوية. قلبت الدرج فلم أجد شيئًا إلا ورقة أثارت فضولي صغيرة

بحجم ورقة التلغراف، فتحتها وليتني ما فعلت (شكرًا لك عزيزي سعيد، كُنت سأتورط في حب يوشك أن يهلك كيان عائلتي لولا أنك أخبرتني ما كُنت علمت merci).

يا إلهي! سعيد؟ لا لا يُمكن، سعيد! لا كيف قادته نفسه لقتل أخيه ولم يساوره الندم؟ قابيل ندم على أنه لم يُدرك كيف يدفن أخاه مثل الغراب ولكنك يا سعيد قتلته ولم تهتم أن تواري ألم قلبه.. أأنت يا سعيد ليس غيرك! يا إلهي!

غدًا بعد أن يُشفى إقليدس سوف أقص عليه صُنع سعيد, لا سوف أوبخ سعيدًا بكلام قاسٍ وربما أضربه, لا لن أفعل شيئًا سأتركهم جميعًا وأستقل وحيدًا قطارعمري, لا لا يمكن أن أتركهم.. يا إلهي ماذا أفعل؟! لم يكن مني إلا أن ابتلعت شفرة الصدمة أنزف وحيدًا مختبئًا بين ضجيج أفكاري متكئًا على عصا أحز اني كي لا يتقاسمها معي أي منهما, تذكرت أني قد تركت إقليدس وحرارته مرتفعة، خرجت مسرعًا بعد أن أخذت معي الورقة، أعدمتها وأعدمت حقيقة رؤيتها أمامي عين اليقين، ثم أخذت قطعة قماش قطنية وماء بارد جلست بجانبه أحاول أن أخفف عنه الحرارة و أنا أسمعه يتمتم: لقيط، لقيط.. كأنه يلفظ آخر أنفاس الأمل.

لاح الفجر وتسربت نسماته الجميلة عبرالنافذة، قمت أُصلي بعد أن اطمأننت أن الحرارة قد خف لهيبها، بكيت كثيرًا كما لم أبك من قبل، رجوت الله أن يخفف عن إقليدس وأن يغفر لسعيد خطأه ربما كان يخاف على صديقه أو رُبما عَلم ما لا نعلم أن الفتاة تستغله وأنها تُريد فقط أن يُساعدها بدروسها, أتلتمس أعذارًا وهمية، أقامرعلى وهم وأعلم إني خاسر ولكني أقامر.

في تلك الليلة تر اقص الهذيان في مخيلتي وبينما أنا غارق في هواجسي إذ بإقليدس قد فاق مع طلوع الشمس.. جميل أنت والشمس، إنها تشبهك حين تشعّ بهجة، فنظر إلى النافذة التي تدخل منها الشمس تفرد عضلاتها وقال: لا شيء في هذه الحياة يشبهني إلا زجاجة نبيذ على طاولة الكل مهتم بها وقت تكون مُمتلئة بالشراب وحين تفرغ الكل يفكر كيف يتخلص منها وكيف يتفنن في كسرها. فصمتُّ ولم أنبس ببنت شفة، نظرت مُتأسفًا إليه، كان ملكًا مهزومًا مُنكّس العرش أبكيه خلف الصمت.

قمت من نومي في الظهيرة إثر صوت خطبة قوية صاحبها ذو حنجرة فولاذية, هرعت ظننت أن الكل هالك لعلها نفخة البوق، لا إنه سعيد يستمع إلى قناة فضائية ذات طابع

متشدد، سحبت وصلة الكهرباء سريعًا و ابتلعت ريق الرّوع ومسحت شفتيَّ الجافتين المتشققتين بلساني محاولًا أن أستعيد سكوني وأرتب أنفاسي التي بعثرها صوت الخطبة الجهوري، لا أدري ما علاقة مصداقية الخطاب بمدى ارتفاع الصوت وقوة الحنجرة, نظر إليّ نظرة حادة لم يصحبها كلام فقلت له محاولًا أن ألطّف الجو بيني وبينه: نحن على مشارف الاختبارات، راجع دروسك ودع زملاءنا بالدار ينعمون بالهدوء, يُمكنك في الإجازة أن تستمع إلى تلك الخطب. نظر إليّ وعيناه تتسعان وتضيقان غضبًا كالذي يقول إن استعطافي باء بالخيبة، ثم ذهبت أتفقد إقليدس فوجدته يقلب وجهه في الكتاب. أنت بخير؟ سألته, قال: نعم. صدّقته.

خارج الملجأ

أذكر ذلك اليوم وكأنه أمس، يوم خروجنا من ملجأ الأيتام، ودعنا أيامنا هُناك بحزنها وفرحها، مرّت الأيام سريعة وبطيئة، عرجاء وعداءة، صامتة وكثيرة اللغو، هادئة وصاخبة، ضاحكة وباكية، ممتلئة وفارغة، سهلة وصعبة، صلبة ولينة، ثلجية ودافئة، حنونة وقاسية.

تسلّمنا متعلقاتنا التي باتت تؤرق صفونا؛ الذكريات الصغيرة التي يحتفظ بها أي طفل في دور الأيتام, الشال الصغير القطني أو الحريري، كُل حسب الحالة المادية للقاذفين بنا، هو الشيء الوحيد الذي يحتفظ برائحة أوجاعنا، التميمة المعلقة برقبتي التي التفت حولي كمشنقة منذ بلغت العمر الذي يجعلني أرفض بدايتي، وضعتها مع الشال بكيس ووددت لو أتخلص منها و أتخلص من خيط الأمل الرفيع الذي يربطني بحقيقتي لكن الغريق يتعلق بقشة ويراها مركبًا.

ودّعت الأطفال الصغار هُناك موهمًا نفسي بالقوة، بيدَ أن الدمع باء بالحقيقة وأمام صدق دموع الصغار أعلنت أُولى دموعي فشلي في إخفائها.

ها أنا ذاهب لمستقبل مجهول كما بدأ يعود، كل مرة أسبَح وأسبح ثم إلى شاطئ المجهول أعود، كُنت أقلب طرفي بينهم حائرًا بين البقاء معهم وهو الخيار الأضعف وبين الذهاب إلى العالم خارجًا، الذي هو أكثر شراسة وشراهة وفتكًا بالأحلام.. حسنًا هذا يوم الفصل الذي يفصل بين نقطتين وحياتين وعمرين وحلمين.

ذهبنا إلى الإدارة، نودع معلمينا شاهرين سيف الثقة الوهمي بوجوههم، أعطونا مبلغًا من المال يعيننا على استئجار شقة وبداية بسيطة لحياة اخترنا أن نكملها متكئين على حماستنا وشبابنا. أود لو أحرق تلك السنوات التي قضيتها هُنا.. قال سعيد بصوت حزين وقد بدت عليه ملامح قاسية التفسير: ماذا سيحدث في الدُنيا لو كُنت غيريتيم؟ نظرت إليه ونحن نستقل سيارة أجرة عابرة بعد أن وضعنا فيها أغراضنا وأشياءنا وربما آمالنا وحياتنا: لولا هذا المكان لم نلتقِ، ثم قلت مبتسمًا ناظرًا إلى إقليدس الذي كان بجوار السائق: أردت أن أجمع بين ثلاثة أعمار في عمرٍ واحد. ثم نظرت لسعيد وقُلت: رُبما لو كان لديك أبوين لعققتهما.

نظر سعيد بابتسامة نصف حقيقية وقال: لا يهم بالأصل (لو) تفتح عمل الشيطان وأعوذ بالله من الشيطان.

- وهل يُغلق عمل الشيطان لتفتحه كلمة (لو) ههههه؟!

قال وهو مُنكّس عينيه في كفّيه كالذي يقرأ الطالع: اليتيم لا يُجيد الحب، فاقد الشيء لا يُعطيه.

- لا، بل فاقد الشيء يُعطيه وجدًّا، واليتيم يُجيد الحب أكثر.

نظر للمباني الشاهقة من نافذة سيارة الأجرة وقال بتنهيدة:

وماذا لو كُنت غنيًّا وأملك بعضًا من تلك المباني الشاهقة؟

- وقتها لم نكن لنلتقي ونكون صديقين، ثم إن (لو) تفتح عمل الإنسان، أعوذ بالله من الإنسان.

لم يُشاركنا إقليدس الحديث، كان ينظر إلى الشوارع كما لو كان يبحث عن شخص تاهت بين الناس ملامحه، هو لا يكف عن البحث أبدًا عن أشياء مجهولة حتى بين الوجوه.

أمام أحد العمارات السكنية توقف السائق ببطء وأخبرنا أنها منطقة لسكن الطلاب، كان الشارع هادئًا إلا من بعض المارة والجامعيين وسيارات الأجرة، سألنا أحد الحراس بالعمارة التي وقفنا أمامها عن شقة فأخبرنا أن لديه واحدة فارغة تصلح لثلاثة شباب.. السكن بعيد عن الملجأ هو نوع من الاستقلالية والخصوصية وخروج للعالم الذي يجتاحنا قبل أن نخرج إليه. دخلنا مسكننا الجديد سُعداء، كانت شقة صغيرة لكننا رأيناها أفضل ما يكون بعيدًا عن صخب الدار وزحام الأعين الكثيرة التي تحوم حولنا.

كُنت أود أن تدرس معي في الطب.. قال إقليدس ونحن نضع حقائبنا.

- ألم نتفق على دراسة الفلسفة معًا ثم أخلفنا وجهتنا.. أجبته مبتسمًا.

- سأدرس الطب ولن أترك الفلسفة.. قال إقليدس وهو يرفع حاجبه بثقة وابتسامة ناظرًا من فوق نظارته الجذابة بعينيه اللتين من دونهما لا تعدو أن تكون قطعتا زجاج محصورتين في إطار فقير.. عينيه دُومًا مُمتلئة بالحب مثل ماري، كانا إقليدس وماري متشابهين جدًّا حتى ظننت أنهما واحد لم يلتقيا ولم يهبني الحظ فرصة

التحليق بهما، شخصين قادرين على ملء حياتي حبًّا، لكن أيضًا هُناك بعد جرحين وصبرين من استطاع أن يملأ حياتي بهذا و أكثر في حين لم أكن أطلبه وكُنت أتشرب حبًّا من نوع آخر، الحب الحقيقي الذي لا تبحث أنت عنه بل الذي يجتاحُك ويلقي ما دونه في أزقة الماضي.

أما أنا فسوف أدرس لغة الفرنجة.. قال سعيد وهو يقلب بجهاز التحكم القنوات الفضائية الكثيرة، ضحكنا جميعًا وذهبنا بعد عناء ترتيب أغراضنا وتنظيف الشقة إلى تناول الغداء بنهم.. كان غداءً شهيًّا؛ رُبما لأننا لأول مرة نتناول ثلاثتنا معًا وبحرية دون قيد طعامًا خارج حدود أسوارالملجأ, قدمتُ أوراقي لألتحق بالجامعة لأدرس الإعلام مُتوّقًا بحماسةٍ متأججةٍ لأكون إعلاميًّا أصنع أخبارًا تجذب الناس إلى الشاشة في وقت أصبح الإعلام هو المال والمقال والمآل لكل متفرج ومهتم وقارئ وحتى لكل أُمّي.

أفغانستان 2001

عام يختلف عما سبقه، رُبما هُو عام الفصل تجتمع فيه مختلف الأشياء، بدا في ظاهره الجمال والتغيير والتعبير والتنوير ثم باطنه تشظى عن تدمير وتهجير.. إلى متى يا عشتار؟!

أفغانستان بلد فقير، يد الدين فيه ملوثة، هذه المرة عشتار تتستر بغطاء الدين فهي تقتل وتقطع ويعثو جُندها الخبثاء بعقول البسطاء (النّص الخالي من الحب أينما توجهه لا يأت بخير).

في هذه الفترة ترهّل شغفي بالرسم، إنها التكنولوجيا وما أدراك ما هي! شنجت أصابعي وصلبتها، أصبحت أهوى التصوير أكثر, فرُحت أنتقي كل ما هو جميل وقبيح أيضًا سريعًا دون عناء المسافات بالريشة وعناء الألوان وعناء الصبر جالسًا على لوحة الرسم التي أفل نجمها مع إشراقة لوحة المفاتيح على الحاسوب.

الصورة مثل الحب لا تحمل كلمات بل تعبّرعن نفسها بلحظة، فصورة واحدة تقصّ عليك آلاف القصص دون عناء، الكلام مثل الحب نظرة واحدة تُغنيك عن كل الكلام.

******

ليلة باردة ذات هواء عليل منعش، اجتمعنا على العشاء بعد يوم طويل، فتحنا التلفاز نتسلى أثناء العشاء، أخذ سعيد يقلب القنوات سريعًا بين أغانٍ ومسلسلات وكلما مرّ على مشهد أطلبه أن يتوقف عنده لكنه يستمر في التقليب حتى استقر على قناة إخبارية مشهورة، كان متابعًا شرهًا للأخبار ولم أكن أنا و إقليدس نشاركه في ذلك, فأنا أفضّل أن أقبع خلف شاشة الحاسوب أقتني صورًا جميلة أو أكتب خواطري بأجندتي أو أنتظر من يشاركني الحديث منهما, أما إقليدس فقد كان منشغلًا بالبحث عن عمل، ربما سيكتب في الجامعة ملخصات ويبيعها أو يُعطي دروسًا للتلاميذ في بيوتهم مقابل المال، لم يكف عن الحلم بأنه ذات يوم سيكون طبيبًا مشهورًا ولديه ثروة.. أثناء العشاء احتل خبر القنوات الفضائية جميعها وهو خبر تفجير تنظيم يُدعى تنظيم القاعدة لمبنى البنتاغون، كان منظرًا مُدهشًا لنا، أمريكا حُلم كل شاب تسقط ناصيتها! سعيد يتابع الخبر متحمسًا فرحًا كأنه يتابع خبر رجوع الأقصى وكان يُكبّر كما لو كان

يُتابع فتح الأندلس مباشرة على الفضائيات, نظر إليه إقليدس متجهمًا وقال: كفّ عن الهوس و اقلب على قنوات الدراما نشاهد مسلسلًا بدلًا من ذلك السُّخف, وقف سعيد يصر بأسنانه يحدث صريفًا ينظر إلى إقليدس نظرة تميز من الغيظ قائلًا: هذه حرب على الكفار وأخيرًا سيكون للمسلمين ردة فعل غيورة على الإسلام. نظرت إليهما خائفًا أترقب زلزالًا بِتّ أرى تصدع جدران جمعنا يسبقه وصداقة ذهبت بعيدًا حتى توارت.

إن هؤلاء قتلة مارقون مرتزقة قتلوا أناسًا أبرياء، نحن لا نختلف على عهر الحكومة التي نتن ريحها لكن ما ذنب الشعب؟.. قال إقليدس وهو ينظر إلى سعيد وقد وقف كلاهما وجهًا لوجه فقال سعيد وهو يشير بإصبعه إلى إقليدس باستخفاف في مشهد نقاشي مَهين, نقاش قد بدت مخالبه تنهشهما: أبرياء؟! هل تقول عن الأمريكيين أبرياء؟! إنهم كفرة قتلة سفلة.. وأخذ يردد الآية "وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة". نظر إقليدس إليّ ولسان حاله يقول: نحن في بداية النهاية. و أنا أجلس خلفهما أنظر إلى هذا وذاك لا أدري ماذا أقول غير أنني أرجو نسمة حب تأتي تُلطف حرارة الحوار الثائر بركانه.

سعيد أخي، أتدري كم مليونًا سويت بالتراب في هذه الضربة؟ لو أنهم فتحوا بها مدارس أو مستشفيات في أفغانستان التي تعاني الأمية والمرض والفقر.. قُلتُ مُتشنج الصوت، نظر إليّ ورأيت في عينيه استحقارًا تجاهلته مُعللًا تعصبه بشتى العلل.

ذهب إقليدس إلى غرفة نومه ولحقت به تاركًا سعيدًا يتابع الأخبار، جلست أمامه وقد اتكأ على الفراش يقرأ في كتاب أقوال الأصنام للفيلسوف نيتشه، قلت محاولًا استعادة جأش رابطنا الذي هدده حديثه مع سعيد: هو ولد صغير وممتلئ عاطفة وخجول لذا عاطفته الدينية قوية لكنه طيب يجب أن نستمع إليه ونُناقشه بهدوء.

نظر إلى السقف كأنه يستمد منه الكبرياء، ثم وضع الكتاب جانبًا وقال بنبرة هادئة: ألن تكفّ عن الدفاع عنه؟! أتظن أني لا أعرف ما فعله وما سيفعله بنا.. ثم أضاف مكشرًا وجهه كالذي يعرف سرًّا ويُلمح له: أتفهم حبك له لكن لا تبرر سخافاته.

شعرت بأن الكلام حبّات عقد تفلتت وتمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعني، انتابني شعور بالسُّخف كيف عَلِم بأن سعيدًا كان السبب في التفريق بينه وبين حبيبته الأولى؟! لا أدري، لم يكن لدى إقليدس خيارًا آخر غير تغيير الموضوع. يوهمني أنه لا

يقصد قصة حبيبته كي ينقذ حرجي قائلًا: سيظل يتنقل بين أفواه خطباء المساجد حتى يجف عقله تمامًا ويصبح دُمية. قلت مُستجمعًا حبات الحديث المُتفرقة: وهل الذهاب إلى المساجد شيء سيئ؟ إنه يصلي ويتعبد ويستمع لدروس الدعاة. فقال وهو يهز رأسه مُستنكرًا: أفضِّل أن أدخل المسجد خمس مرات باليوم أنظف المراحيض على أن أستمع لهؤلاء المجانين. ضحكت كي يضحك هو وقلت له مُبددًا دخان الضجر: إذًا قم ونظف مرحاض شقتنا فهو يحتاج إليك أكثر. ابتسم وقلت مُشاكسًا: ما أخبار الفتيات معك؟ وغمزت بعيني أُحيي بقلبه ثقة غابت كشمس آخر اليوم، فقال بصوت خليط من اليأس والأمل: لا أهتم سوى أن أصبح طبيبًا مشهورًا ومعي ثروة.

في أثناء ذلك سمعنا صوت الباب يحدث صريرًا قويًّا فعلمنا أن سعيدًا خرج، إنه دائمًا يذهب في أصعب الأوقات ولا يُبالي بمن ينتظره.

******

دبّت بوادر وتيرة الشقاق في أحاديثنا، أصبحنا لا نتحدث إلا عن الدراسة وعن بعض أمورنا الخاصة، وحين اندلعت حرب أفغانستان لم يكن يكتمل لثلاثتنا نقاش لأن سعيدًا دائمًا ما يردد المجاهدين والجهاد والحرب ولم نكن أنا أو إقليدس نحبذ ذلك فلدينا مشاكلنا وهمومنا وأعمالنا كي نستطيع أن نعيش بستر وأمان لا نتكفف أحدًا.

إنهُ يوم الجمعة.. استيقظت باكرًا نشيطًا مُتشوقًا للذهاب إلى المسجد مُبكرًا وقد اغتسلت وتطيبت وعندما هممت بالخروج وجدت غرفة إقليدس مضاءة فقلت سأدعوه عسى أن ير افقني للمسجد، طرقت بيدي طرقتين وقبل الثالثة فُتح الباب، كان إقليدس متهيئًا للخروج أول مرة فقد كان مُعتادًا أن ينام يوم الجمعة إلى وقت العصر، سعدت لرؤيته كثيرًا، عرضت عليه مر افقتي وقَبِل، كُنت مُبتهجًا بصحبته, بالطريق سألني: أين سعيد؟ قلت رُبما سبقنا، هو دائمًا يسبقنا للمسجد.

دخلنا وكان المسجد خاليًا تقريبًا من المصلين لأن الوقت ما زال مبكرًا، أخذت مصحفًا لأقرأ، أما إقليدس فأمسك بكتابٍ يقلب فيه لم أعرف عنو انه، ثم ما لبث أن اقترب مني يريني شيئًا، فجأة توسطنا شخص ثالث تبدو على ملامحه فظاظة يحمل على رأسه شالًا أبيض وثوبه قصير يكشف عن ساقيه التي بدتا كالحو افر، فرّق بيننا قائلًا: لماذا لا تُقيمان السُّنة بإطلاق اللحية بارك الله فيكما؟ و أنت أيها الطيب، قال وهو ينظر

إلى إقليدس عابسًا: لماذا تطلق شعرك كالفتيات وترتدي بيدك سوارًا؟ هل أنت من عبدة الشيطان؟ في هذه اللحظة كاد وجهه يلتصق بإقليدس وبدا وجهه أكثر عبوسًا وتقوّس أنفه وحاجباه.

إذا كُنت من عبدة الشيطان فكيف أحضر لصلاة الجمعة؟ قال إقليدس بصوت متهدل مُشمئز، فقام الرجل ينفض ثوبه كالذي ينفض غبار انحصاره بيننا، انصرف الرجل فعادت أنفاسي المُحتبسة للخروج وحمدت الله، نظرت إلى باب المسجد فكان القادمون يُلقون أحذيتهم خارج باب المسجد وكأنهم يرجمونا بها، لا أدري سبب نظراتهم تلك! اقترب إقليدس بعد ذهابه ثم همس إليّ بأنه سينصرف، أمسكت بثوبه مترجيًا إياه بعينيّ أن يبقى، أذَّن المؤذن و انتظرنا خطيب المسجد، جاء أخيرًا وقد غطّت رائحة عطره المسجد، ثم كقديس بدأ خطبته صائحًا بصوت يتردد صداه بكل ناحية كما لو كنّا داخل كهف مخيف صاحبه مارد يرعبنا يستعرض أمام خوفنا عضلات صوته حاد الحنجرة.

"اقتلوهم حيث وجدتموهم".. تلاها بصوتٍ جهوري وكأنه ليس في القرآن غير تلك الآية.. رددها حتى جعلني أظن أنه يقصدني أنا و إقليدس، ويحثّ الحضورعلى رجمنا على خطيئة لا ندري ماهيتها، أكمل حديثه الملغوم عن الجهاد وضرورة عودة الخلافة وردع الكفرة بلا إيحاء مباشر عمّن أو لمن لكنه حديث يوحي إليك أن كل الأرض كفرة إلا هو ومن على شاكلته.. في ركن بعيد رأيت سعيدًا جالسًا بجوار أصدقاء له سبق أن زارونا بدورالأيتام، يبدو أنه مرّ عليهم يصطحبهم ووصل ولم ننتبه له، كان يستمع إلى الشيخ فيضحك حين يضحك ويصمت حين يصمت ويبكي حين يبكي حتى ظننت أنه أُستنسخ عنه.

صلّينا وذهبنا إلى المسكن، كنت أتحاشى أي حوار حول الخُطبة، لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، ما لبث أن جاء سعيد مضيفًا جوًّا من الضجر أكثر بيننا حين أخذ يسألنا عن سبب ذهابنا لذلك المسجد الذي يذهب إليه؟ وكأن الصلاة هُناك حِكر عليه وعلى أصدقائه المُلتحين.

كنت في الليلة الماضية قد أعددت صينية من البطاطا واللحمة المشربة في صلصة الطماطم، وضعتها بالفرن كي أعيد تسخينها ثم أحضرتها ووضعتها على المائدة وجلسنا

للغداء, قال إقليدس وهو يضع ملعقة الشوربة في فمه: إذا لم تلتحِ فلن تفعل ما شئت. ثم ضحك كثيرًا وضحكت معه مجاملة عبثًا أحاول تهدئة بركان نقاش ينتاب سكوننا، على حين غرة قال سعيد مستنكرًا: هل تسخر من الدين؟ قال إقليدس: لا، بل أسخر من الآلهة. فقاطعتهما متعمدًا كي أخرجهما من سخط النقاش: سعيد، أين شيخك القديم، لم يعد يخطب بالمسجد؟

لقد التحق بإخوانه المسلمين في أفغانستان يدافع عنهم في حرب الجرم والعهر التي قادتها أمريكا القوَّادة و أنا أتحين الفرصة لألتحق بهم.. قالها وهو يُلقي منديل الطعام على السفرة كأنه يُلقيه بوجهينا، ثُم أضاف بنبرة سخرية: علي أن أموت رجلًا ولا أعيش كامرأة ألبس أساور وأُطلق شعري، فأسرَّها إقليدس في نفسه ولم يبدِها له، إنك شرُ مكانًا وأضل عن سواء السبيل.

إنه مجنون، لقيط مجنون.. قال إقليدس بصوتٍ عالٍ بعد أن ذهب سعيد، فقُلت مبتلعًا الطعام الذي توقفت عن مضغه عندما سمعت آخر ما قال سعيد قبل أن ينصرف عن مائدة الطعام، هو صغير ومتوهج العاطفة والحماس، كما أنه ما زال يدرس في آخر سنة من الثانوية لن يذهب لمكان، سوف أجلس و أتكلم معه وسوف يستمع إليّ.. قُلت مبتلعًا جرعة أخرى من الأسى مع مضغة الطعام.

ثم إننا جميعا لقطاء ههههههههه.. نظر إليّ وضحك عاليًا وضحكت من وجعي حد البلاهة. وقفت في الشرفة أُراقب الشمس وهي تبعث أشعتها الواهنة وقد خارت قواها الحارقة وأخذت تتدلى في سكينة تُغازل مباني المدينة، الغروب ليس نهاية يوم، هو بداية التأمل، جلست للطاولة التي أمامي لا أدري أأخذتني سنة من النوم أم نمت؟ رأيت حينها رجلًا يرفعني من حفرة بالأرض ممتلئة ديدانًا وعلى الرغم من منظر الديدان المُخيف والمُقزز فإن وجه الرجل الملائكي هو ما أثار دهشتي، حين رفعت عيناي ونظرت إليه ضعت في ملامحه الباعثة على الطمأنينة، ثُم اختلَ تأملي حين أفقت فجأة على صوت إقليدس وسعيد يتشاجران.

يا إلهي! لن تبرحا محراب خلافاتكما حتى تكفرا بوجودنا معًا.. قلت في سرّي قبل أن أدخل إليهما مُغتاظًا: ماذا بكما يا شباب؟

إن سعيدًا يكيل لي كل يوم اتهامًا جديدًا، فهو يرى أن الصور التي ألصقها على جدارن غرفتي تطرد الملائكة من المنزل وقام دون إذن مني بانتهاك حرمة غرفتي وتمزيق الصور.

قُلت و أنا أحاول الحفاظ على صوتي رقيقًا: سعيد يا أخانا الصغير، لم يكن لدى أيٍّ منّا رغبة في غضب الله علينا أو مبارزته بالذنوب لكنه رُبما يرى بتلك الصور الجمال الذي خلقه الله، فلا تجادله في سفاسف الأمور ولا تؤرق مضجع أي منّا بمخاوفك التي لا تنتهي، أما بالنسبة إلى الصور العارية يا إقليدس فتخلص منها درءًا للمعاصي.

قال إقليدس محدقًا بي وبصوت حاد: حسنًا، لن يدخل الملائكة غرفتي، ولكنهم يستطيعون التجول في غرفتيكما فدعاني وشأني فأنا لا أؤمن بأن من لا يُرى ليس بموجود.

أسمعت؟! إنه ينكر وجود الملائكة وينكر وجود الله، لقد سمعت الشيخ يقول إن من يقول ذلك ملاحدة ووو... قال سعيد ثم انغلقت فوهة الكلمات لديه ولم يعد يدري ماذا يقول، هل يتهم صديقه بالكفر وما يترتب عليه أم يصمت لأنه سيتورط بالكثير من الحديث المُثير لغضب صاحبيه, ثم أضاف كالمتورط: إن الصور تطرد الملائكة فما بالك بصورٍ لعاهراتٍ؟ قال مُكابرًا وقد شعر بسخف صنيعه وبأن ما قاله لا يساوي ما فعله, قلت لهم و أنا أشير عليهما بالجلوس: كل فرد بهذه الحياة يختلف توجهه عن غيره، لكن لا ننكر أبدًا أن كلًّا منّا لديه عاطفة دينية تظهر وتختفي، تقل وتكثر،علينا أن ننصح أنفسنا دون أن نتهم بعضنا البعض وما نحن بشيوخ يا سعيد نحن في هذا المجتمع غرباء وحيدون لو افترقنا لعاثت بنا الوحدة وتمزقت حبالنا، ثم أكملت دموعي الحديث المؤلم.

يحدث أن نختلف لكننا لن نفترق.. قال سعيد وهو ينظر إلى وجهي الذي تلون بصبغة الحزن. سأذهب لأحضر العشاء.. قال إقليدس هاربًا من يُتم عاطفته. جلست أنا وسعيد وجهًا لوجه، استجمعت قوى الحديث الواهن قائلًا: سعيد، أرجوك لا تذهب لأي مكان و أنت في مرحلة صعبة تتهيأ للجامعة ولا تجعل الأفكار المظلمة تكدر صفو بقاء ثلاثتنا على عكاز المحبة في الأوقات التي تشيخ بنا الحياة. أومأ برأسه أن نعم وداخله ألف لا.

تناولنا العشاء مُثيرين شهوة الضحك بيننا نتحرش بهوامش الكوميديا السوداء بحياتنا، ثم ذهبت لغرفتي متشوقًا للولوج رسميًّا إلى عالم الإنترنت بعد أن شرح لي أحد زُملائي عن كيفية ذلك الأمر, كنت سعيدًا حين حصلت أخيرًا على تذكرة الطيران إلى الإنترنت بأن أنشأت بريدًا إلكترونيًّا دخلت به إلى المنتديات حيث الحياة سهلة تتنقل فيها فقط بكبسة زر, كتبت عنو اني الإلكتروني في ورقة ثم حملت فرحتي لصاحبيَّ، طرقت بابيهما واحدًا تلو الآخر ليشاركاني الفرحة، فقال إقليدس: نعم لقد صار لي واحد وقد سبقتك. قلت مبتسمًا: ومن يسبقك أيُها الطبيب؟! أما سعيد فطلب مني أن أنشيء له واحدًا ففعلت ويا ليتني ما فعلت، لقد صنعت له ثوب الموت بيدي وحكته وقدمته له في أقل من ربع ساعة.

ضفت عناويننا الإلكترونية معًا كي نتراسل كأن ضربًا من التكهن قد حاصرنا وأخبرنا بأن أقصى ما سيجمعنا فيما بعد هو ذلك العنوان الإلكتروني.

مواسم جديدة

مرّ عامنا الأول بسلام لم يكن فيه من الأحداث أكثر مما كان، فتيات جميلات وأصدقاء جدد، دبت في عروقنا مختلف الشهوات تتنازع فينا ترهقنا وتُضعفنا وتُقوينا, في الحياة الجامعية والافتراضية هُناك دائمًا هوس الكلام، على الشاشة الافتراضية يُمكن للكُل أن يقتحم عالمي وأن أقتحم عالمه أيضًا دون إذن من مختلف الأنحاء بالأماكن وبالإمكانيات، فمنهم من تأخذك ثقافته ومن تأخذك جر أته حتى تجد نفسك في ضجيج لا ينتهي وتظن نفسك هالكًا في جحيم أحاديث لا تنقطع، تمرض الروح من الإسراف في تلك الأحاديث لأن طبيعتها الصامتة ر اقية. ماؤها الهدوء وهواؤها الصمت, وللصمت قداسة. وعيت ذلك قبل أن يزيل الحب عني الحُجب. لكن الفضول لا يكف عن العبث بي فكل مرة أنقر فيها زرًّا أعرف فيه شيئًا جديدًا محاولًا عبثًا إشباع رغبات المعرفة لديّ، فتلك صديقة مثقفة لم يكن يخلو يوم من الحديث معها، جيدة في خلق الموضوعات الجديدة المختلفة عنها وعن بلدها، ولكن فضولي الشهو اني لا يعي الحديث فقط، يجعلني بكل مرة أرسم لها ملامح مُختلفة. فمرة شقراء ومرة سمراء، مرات تُشبه حوريات الجنة ومرات تشبه مديرة الملجأ.

وهذا كاتب مشهور وذاك مغمور وتلك التي ما ولجت جحيم حديثها إلا وأحرقني جمر كيانها الأنثوي الناري ما إن وليت وجهي تجاه غيرها حتى اجتاحتني هي وشياطينها ورمت أحجار مجانيقها تجاهي, أنثى لعوب كفيلة بأن تجتاح قلب ألف رجل في وقت واحد، بيدَ أن قلبًا واحدًا لا يُعير اهتمامًا لآلاف الرسائل لحبٍ يُحيي سُنة الخلود. في كل مرة تمتد يد الإثم تسبقها يد الرحمة بإشارة لطيفة من الله ننبذها خلف ظهورنا مستمتعين بالوهم لأن للوهم قوة لا يُستهان بها اسمها لذة إثبات الذات، حجم قوتها يُساوي حجم ضعفها يُساويان اللاشيء.

يمر الوقت على الشاشة الصغيرة مهرولًا كأن ثمة من يلاحقه للنَّيل منه, أم ترى تلك الأوقات التي نقضيها في الوهم باخسين قدرها قد خلعت حجابها وفردت شعرها كأرملة شابة في الجاهلية قُتل زوجها تشتكي للآلهة هول مصيبتها؟ في الحقيقة حُزن الوقت على إهدار دمه أشد ألمًا من تلك الأرملة وصمتنا عنه كصمت آلهة الجاهلية.

ذهب الليل وآتى الصبح، في الجامعة كُنت أستمتع بنهارٍ أكفّر به عن ذنب دم الوقت المراق ليلًا حيث كان لي صديق صوته يغير خريطة المعاصي بداخلي، كُنت أستمع له بشغف يحملني ببساط إلى عوالم لامتناهية، أحلق فيها حول حقول خضراء أزهارها يانعة براعمها تستلقي كعذراء نائمة، كان يُغني أغان لم أعهدها أولم تزرو اقعنا الممتلئ ضجيجًا والذي موسيقاه الصاخبة كفيلة بتحجر العاطفة، على الرغم من ذلك الانتشاء الذي يُحدثه بي لم يكن يستمع له إلا أنا وقلة من زملائنا والبقية يستنكرون الجلوس إلى شاب مختلط البشرة، أشقر في أسمر، ما يدعونه "البهاق" فهذا يثير لديهم الغثيان، لم ينظر أحدهم إلى جماله الداخلي فهم مفتونون بالنظرة الخارجية الخدّاعة المُتشربة سر ابًا.

لو كُشف ما بداخل كل منهم فسوف يجثون على الأرض يهيلون التراب يستترون من عار فكرهم وهوان ظاهرهم عند الله، في حين يكون صديقي "أحمد" أجملهم.

في صباح يوم كان أحمد جالسًا على سُلم الجامعة يُغني أغنية من القصائد القديمة، يُعجبني به كثيرًا أنهُ يُغني ولا يأبه هل يستمع إليه أحد أم لا, فهو يغني أغلب الوقت دون جمهور، لكن بالحقيقة كُنت أرى بعينيه جمهورًا غفيرًا خفيًّا عن أعيننا، تتغير تعابير وجهه كما لو كان هُناك من يُحييه من بعيد في حشد جمهوري لا يتسع له المكان.

أنهى أغنيته الأولى في الوقت الذي دخلت فيه فتاة ألقت علينا السلام، كانت فتاة جميلة بسيطة الملامح بشرتها تُشبه القمح شعرها أسود طويل مثل شعر الخيل إذا ما غازله نسيم الربيع تبعثر كحبات المطرعلى وجهها الضاحك،عيناها سوداوتان تلمعان، بياضهما يزيد سواد أهدابهما وسواد أهدابهما يزيد بياض عينيها، ترتدي فستانًا أخضر بدت فيه زهرة كثيرة الأوراق، مع أنها لم تشبه ماري حيث كانت ماري أجمل إلا أن داخلهما تكمن امرأة واحدة بقلبٍ واحد.

أحمد غنِّ لنا من نهج البُردة.. قالت وهي تأخذ مكانها بجواري، يتصاعد منها عطر الورد البلدي، حسنًا أيتها القديسة.. أجاب أحمد بلطف. أخذ ينشد وكأن الكون كله وقف منصتًا، انتهى، صفّقت الفتاة له. نظرت لكفيها قمحيتي اللون وقعت عيناي على

صليب بكفها شاحبًا متآكل الخطوط يختلط لونه الأخضر بلون عروق يدها كالمتحدين, نظرت إليّ وقالت مُبتسمة وكأنها تقرأ فضولي: اسمي مرثا، و أنت؟

أجبتها سريعًا كي أتفادى صمت الدهشة: صالح، اسمي صالح، أدرس بكلية الإعلام.

و أنا كذلك أدرس بكلية الإعلام، تشرفنا.. صافحتني سريعًا تاركة بكفّي الحيرة وذهبت.

دق ناقوس الحصص، تهيأنا في أماكننا، جلست بمكاني ووضعت كُتبي ودفاتري فوق الطاولة.

مصادفة جميلة.. قالت مرثا بصوت أنثوي يفيض مرحًا وأضافت: ها نحن زميلين في المكان نفسه، لقد نقلت أوراقي في الأسبوع الماضي من محافظتي إلى العاصمة، ثُم جلست بجواري. تكرر رنين جرس آخر في داخلي؛ هل هُو الحب أم الاحتياج للحب؟

كانت مرثا عامي الأول وعمري الأول، الحب الأول هو نوع من المرض المُزمن الذي يُر افقك طوال عمرك، كانت شعورًا بالنجاح ما عهدته, أنثى واحدة قد تمنحك كونًا وقد تمحيك بلا أثر, جُل ما كان يعجبني بها بساطتها وعفويتها وطفولة عاطفتها، لم تكن تُثير رغبة قوية في اجتياح مخابئها لكنها تستطيع أن تجعلك تعلقها في عُنق قلبك كتميمة الحظ.

إنها جيدة العناية والتحفظ على ما وهبها الله، في عينيها حياة طويلة السعي مشوقة وشقية، أنثى قد ترحل لكن بعد أن تلصق بجدار القلب بصمات أصابعها النقية، كانت حين عرفتها العذراء وحين تركتها المجدلية، كم من البؤس ألحقته بقديسة أسمع قرع أجراس كنيستها كلما اقتربت من قُداس رُوحها أُريد عمرًا آخر لها أعيشه مكفّرًا عن ذنوبي وأخطائي من أجل من لم يرحمني حين طلبته الرحمة! من كانت بدايته على يديّ فكانت نهايتي على يده.

يحدث أن نرتكب أخطاء كبيرة وصغيرة لكن ارتكاب أخطاء بحق أبرياء لنجعل الآخرين أكثر سعادة شيء مقزز جالب لعفن المشاعر، لعنة الندم لا تكف عن مطاردتي.

فناء الجامعة 2002

جلستُ أنتظر أحمد في مكانه لكنه تأخرعن موعده ومن عادته أن يأتي مبكرًا، تلفّتُ أبحث عن مرثا و أنا أشعر بأن عيناي فضحتاني بين الطلبة، وقفت تحت الشجرة أتتبع السحاب العقيم الخفيف المُتناثر الذي يمر متثاقل الخُطى كأنه يبحث عنها ثم أسقطت عيناي لأجد إقليدس أمامي مبتسمًا وقال: لقد رجموا حنجرة صديقك بعد أن أثبتوا فُحشها بالغناء في حرم الجامعة ممن يعتبرون الغناء بدعة ومرتكبه ملعون.

- ماذا تقصد ومن تقصد؟

- صديقك الكروان المنبوذ.

- ومن الفاعلين؟

- أعداء الحُب والجمال بقيادة ربيبك الشيخ سعيد.

- ولكن سعيد لا ينتمي لهم!

- لا بل سعيد هم أولهم ورأس الحيّة.

يا إلهي! رن جرس الدخول للمحاضرة فانتفضت.

ذهب إقليدس لدرسه وذهبت لدرسي.. تلمست مكان مرثا أستشعر وحشته في غيابها لا أعلم أحبيبتي هي أم أنا حبيبها؟!

لم أعِ كلمة واحدة مما يقوله المُعلم، أخذت فُسحة غير شرعية أتجول بين أفكاري المُزدحمة.. أريد أن تكون مرثا زوجتي لكن هل أنجب طفلًا لهذا العالم يلقبه الناس بـ "ابن اللقيط"؟ وهي هل تقبل بلقيط زوج لها و أيضًا هي على دين غير ديني, لكن أشعر أنها تحبني رغم أن أحدًا منّا لم يتفوّه للآخر بكلمة الحب، طوال عام كامل ونحن معًا صامتان وصامدان أمام غزو عواطفنا، سوف أطلب منها هاتف منزلها اليوم وسأحكي لها كل شيء وأسألها إن كانت تحبني, وسأخبرها بأني لقيط وهي لن تكترث لذلك وسأخبرها أني سوف أعتني بها وسأعمل و أكدح كي لا أدع لها أمنية مركونة فوق رفوف التمني، سوف أقرأ لها كل خواطري التي كتبت وربما أحكي لها عن المرأة التي تراودني بحديثها المتعري من الحياء عبر الحاسوب وسأحكي لها عن إقليدس وسعيد وصحبتنا وعن أيام الملجأ، وسأحكي لها عن قُلادتي وعن لوني المفضل وشاعري المُفضل ومطربي

المُفضل، و أفضل أوقاتي وتأملاتي، سوف لا أدع بخاطري شيئًا لا تعرفه، سوف أقضي الليل أحكي معها وسنحكي عن فلسفة اللاهوت وعن أحلامي وتأملاتي.. وما شأن ذلك بحديث الحب؟! إنني أشعر بالشفقة على نفسي من حماقة أفكاري.. دقّ جرس الخروج مثل كابوس اجتاح نومي، لقد انقضت المحاضرة سريعًا، تبًّا لمخيلتي تتسع لآلاف المحاضرات.

خرجت أجر ذيول الحزن ورائي مختفيًا خلف ابتسامة ثقيلة بالكاد تحملها شفاهي، كان سعيد و اقفًا على بُعد أمتار مع خمسة أشخاص كلهم هيئة واحدة نفس طول اللحية تقريبًا، محلقين رؤسهم في وجوههم الفزعة والتجهم رغم ما ينفقوه من ابتسامات أسرفوا في تصنعها تشبه تلك التي حملت وزرها قبل قليل و أنا خارج من المحاضرة.. كان إقليدس قد خرج من محاضرته ووقف بجواري، لم أشعر بوجوده إلا حين وضع يده على كتفي ونادى: سعيد، ألن تذهب معنا؟ التفت سعيد ونظر لنا باشمئزاز ر افعًا عينيه لشعر إقليدس تارة ولي تارة وكأنه يتبرأ منّا أمام جمع أصدقائه المُقدس.

إقليدس يحتفظ منذ طفولته بإطلاق شعره الناعم الطويل الذي يرتفع على منكبيه كما لو كان يحمل شالًا من الحرير ذهبي اللون على كتفيه، يُشبه الأمراء في أفلام الأطفال، حاولت سريعًا أن أسرق إقليدس من لحظته المُهينة تلك، سألته مُبتسمًا بخبث حميد ونحن نتمشى: منذ عامين هُنا ألم تجد حبيبة؟

أسأله وفي الحقيقة أود لو أنه يسألني وأستطيع أن أخرج ما بقلبي عن مرثا فأخفف عني تخمة الشوق لكنّ قلبي دائمًا مقبرة لا أتحدث عن قاطنيها أبدًا, هو لم يسأل و أنا لن أتحدث, قال وهو يُخفي حسرة: امر أتي لن تكون عربية لها نفس الفكر الموحد كزي الأطباء الأبيض.

قُلت: أصابعك مختلفة.

قال: لكن الكفّ واحدة.

لن أُجاريك في الحديث، ستهزمني.. قُلت مبتسمًا وقلبي يضيق بما فيه ثم مشينا عائدين للمنزل، في المساء شعرت بدوار وارتفاع في الحرارة ووهن بجسدي كله، رُبما بسبب تعرضي في الصباح الباكر لتيار بارد، يبدو أن النوم أفضل الحلول، نِمت

وبالثامنة قُمت أبتلع ريقي بصعوبة، ذهبت للمطبخ متهاوٍ كظلي أصنع شراب ليمون ساخن أقاوم به جفاف حلقي و أثناء ذلك رن جرس الهاتف الأرضي.

- السلام عليكم.

إنه صوت مرثا، أدركته من أول السلام، الصوت الذي يسمعه القلب يتعرف عليه بين ألف صوت ولو اجتاحت نبر اته جيوش الفصول الأربعة.

- مرحبا مرثا، وعليكم السلام.

- عرفتني؟

- نعم، وكيف لا؟

صمت متبادل...

ثم بادرت هي: أُريد أن أراك غدًا في المقهي القريب من الجامعة.

قُلت مُهللًا وكادت الفرحة تُغريني وتكشف عن ساقيها: نعم بالطبع، أعطيني رقم هاتف منزلك.

حسنا هو... هل نلتقي العاشرة صباحًا اتفقنا؟ قالت مرثا.

- حسنًا سأنتظرك.

ودّعتها وأغلقت الهاتف مُبتهجًا ولكننا لم نلتقِ ولم ينتظر أحد منّا الآخر بعد ما جرى.

جلست متأملًا صوتها، ثم عاد لي ألم حلقي وشعوري بالوهن الذي تلاشى مع صوتها حتى الفرحة أنستني أن أسألها لماذا غابت اليوم؟ وكيف حصلت على رقم هاتف المنزل الخاص بنا؟

فتحت عيناي وعقارب الساعة الثلاثة يُشرن للثانية عشرة بعد منتصف الليل، لا أدري أفقت من الحرارة أم من صوت التلفاز؟ كان للبرامج الدينية بهذا الوقت اتجاه غريب يلتف أفراد الأسرة حول برامج تُتيح أرقام التواصل المُباشر ليتسنى للناس الأسئلة الدينية البسيطة والإفتائية، لكن بالحقيقة كان الناس يتصلون ليبثوا فضائحهم مباشرة أمام العامة فيخلعون ثياب القيم عُراة وكأننا نزهو بعار أخلاقنا العاهرة أمام حضارة غيرنا الأخلاقية، كأن المستمعين يتلذذون بالقصص المثيرة حول الخيانة الزوجية وزنا المحارم وغيره من القصص التي هوت بالمجتمعات للحضيض، لا

أدري هل يتعمدون تدنيس الحديث عن الدين؟ أم هو حقًّا عصر انقراض الأخلاق؟ أم الحقيقة كما يقول إقليدس لقد انتهى عصر الدين؟

إقليدس لم أعهده جالسًا أمام هذه البرامج، فقد قال لي سابقًا إن مثل هذه الأشياء كفيلة بأن تخرج جيلًا كاملًا ملحدًا بكل شيء حتى بقُدسية الأسرة, أم فاض بهما كيل الأرق؟ لا أدري خاصة أن شبكة الإنترنت لم يعد لدينا إمكانية تسديد فاتورتها.

- صالح، ما بِك، هل أنت مريض؟

سألني إقليدس و أنا أترنح على كرسيٍ قريب.

- نعم، مُصاب بنزلة برد، هل لديك خافض حرارة؟

سأذهب إلى الصيدلية أشتري لك شيئًا جيدًا.. قام وارتدى حذاءه ثم ذهب.

إقليدس يود السفر إلى أمريكا.. قال سعيد ممسكًا بيده حلوى أخيرة كانت بالطبق مترقبًا اتصال فتاة بمقدم البرنامج تريد أن تتحدث للشيخ، ثُم تحدثت للشيخ وأخبرته بأنها قد فقدت عذريتها على يد والدها، شعرت بالاشمئزاز قُمت مُتثاقل الخُطى وأطفأت التلفاز.

- ما الذي يعجبك بهذا الخراء الفاحش؟

أعاد جُملته الإخبارية الأولى متحاشيًا الرد على سؤالي: إقليدس رُبما يُسافر إلى أمريكا قريبًا. وهل دخول أمريكا بالشيء الهين؟ إنه أصعب من الدخول إلى الأقصى، ثم إن أمريكا الآن بوضع اقتصادي سيئ إثر حربها على أفغانستان، ليس فقط كذلك بل إن مخالبها الآن تتجه نحو ذهب العراق الأسود، ثم لوّحت برأسي قائلًا بتودد: إقليدس لن يتركنا، لقد عاهدنا بعضنا على البقاء معًا ولن نفترق. دخل إقليدس بآخر جملة ذات صدفة عاطفية جميلة قائلًا:

- هي محاولة فقط، وإن استطعت السفر فليس معنى ذلك أن نفترق، هل كُل سفر معناه فُراق؟

أحضر لي كأس ماء وحبة دواء، كان طعم الماء متغيرًا يشبه طعم الحزن، مرير وحامض، ذهبت للفراش أتصبب عرقًا، كان النوم بهذه الليلة خاطفًا لم يكتمل لي بها حُلم، أشرقت الشمس بهذا الصباح مختبئة خلف سحاب أبيض هش، بدا صباحًا

حزينًا يتر اقص مع السحب باكيًا، شعرت بتحسن طفيف ولكنه وإن كان غير ذلك فلم أكن لأخلف موعدي مع مرثا فالصباح يشتهي حديثها كي يستعيد فحولته.

أحضر لي سعيد الفطور؛ قطع بسكويت وشايًا بالحليب وأربع بيضات مما يوحي بأنه إفطار لشخصين، وضعت البسكويت في كأس الحليب بالشاي ر أفة بحلقي الذي يؤلمه المضغ ثم أخبرني سعيد بذلك الخبر الذي أخلى ميناء الحب من قواربه، أمسك بقطعة بسكويت هو أيضًا وكأس حليب مع الشاي قضم البسكويت فتهشمت ثُم ابتلع نصف كأس الحليب مع الشاي ثم وضع الكأس على الطاولة ووقف ينظر للشارع الصامت، قال بصوت هادئ لم أشهده من قبل:

صالح، بدون مُقدمات، الحقيقة إنني أحب مرثا وأُريدك أن تُساعدني كي أتحدث إليها, لم يعد حلقي قادرًا حين وقع على أُذني اسم مرثا حتى أن يبتلع قطعة بسكويت لينة، كان الخبر كفيلًا بأن يسد ممر حلقي تمامًا، أقضَ الطعام، شعرت بأن طعم الحزن اختلط مع المرض ليكونا معًا ثنائي الموت، أصبحت خائفًا أترقب حواسي هل ما زالت أم مضت تمشي في جنازة الحب الشهيد؟ صوت السيارات بالشارع تضخم بأذني فجأة وستارة النافذة تنتفض والسرير يدوركالطاحون، صمتّ ولم أنبس ببنت شفة حتى راود هو سكون لساني حين قال: أُريد منك أن تخبرها بأمري.

ح سسنًا، ولم لا تخبرها أنت؟ ثُم إنها تكبرك بعامٍ! قُلت بصوتٍ مُتقطع محاولًا أن أمسك لجام فرس الحزن الحرون.

أنت زميلها وقد تتفهم منك أفضل ثُم إن الحب لا يعترف بالأعمار، أرجوك يا صالح، ثُم أمسك بيدي التي ترتعش وأضحت خطوطها متعرجة أكثر من السابق وكل خطّ منها تراء لي كالتيه: دعني أرتب لذلك.. قُلت بأسى وخيبة أُحدق بأكثر الفصول في حياتي صمتًا وأظلمها ليلًا، ذهب وخلوت بوجعي وكمدي وقلة حيلتي، ودموع تآكلت جفناي من ملوحة ملحها، ثم جمعت أمري أن أجمع بينهما وأُضحي كما يفعل الصديق المُخلص والأب الحنون مُتخيلًا عبثًا فرط السعادة التي سيكون بها سعيد وربما ينجب ولدًا يُسميه صالح تيمنًا بي، و أنا سوف أحمل صالح الصغير وأعلمه القراءة وأذهب به للحدائق وقت الفراغ، إنني مُدمن على الهذيان، إن القدر وقتها كان يستلقي على قفاه ضاحكًا من خيبة ظني مشيرًا إليّ في سُخرية.

في التاسعة غسلت وجهي من أحز انه الخارجية وبقيت محتفظًا بأحز اني الداخلية مُتجاهلًا أن الجرح الذي يحتفظ بدمه يقتل والدُمل الذي يحتفظ بقيحه يتلوث! طلبت الرقم الذي أعطتنيه فردت مرثا بآخر ما كان لديها من صوتٍ حنونٍ: مرحبًا..

صمت برهة حدادًا على قلبي وصوتها ثم قُلت: مرحبا مرثا، أنا مريض، أعذريني لن أتمكن من الحضور بموعدنا. قالت بعفوية امرأة حالمة خالية من المكر:

- لا عليك، سوف آتي أنا إليك وأحضر لك طعامًا.

لا.. نعم.. لا.. نعم لكن أنا.. تفلتت الكلمات مني كقطرات الزئبق وشعرت بالعجز في الإمساك بها.

قالت مقاطعة تشتي: سوف نتحدث عندما آتي, مع السلامة.

يحدث أن ننجذب نحو الموت في صورة لا معقولة نحن لا نعلم سر ذلك إنها مُعضلة، لكم وددت أن يفيق الموتى لأسألهم لماذا انجذبوا نحو الموت وتلذذوا بنظرته؟ هل يحدق الموت في وجوه الموتى لحظتها فيغريهم كما تفعل الحياة ويعجبهم ذلك حد الصمت؟ لا أدري!

أود أن أصرخ بكل ما أُوتيت من قوة لكن من يرحم قلب العاشق إلا الخالق.

أقبلَ سعيد وكُنت أتمنى لم أره بذلك الوقت، أضحت ملامحه تُثير سخطي ووجوده يؤرق صفوي، هزمت كل ذلك بضراوة أخبرته بقوة وعاطفة الأم أن مرثا قادمة سوف تزورني لما علمت بمرضي، أسعده الخبر بالرغم من أن ملامحه لم تكن تُجيد السعادة، ثم مضى يتهيأ مثل هؤلاء اللصوص الذين يتهيئون للانتخابات بكل عام ر افعين شعارات القداسة ثم بعد جلوسهم كُرسي اللعنة يتحولون لآلهة الشر وآكلي لحوم البشر.

عاد سعيد بزي الفرحة، لُمت نفسي حين شعرت بالغيرة، استجمعت صفو روحي، قلت لهُ: تحدث إليها وإن سألتك عني أخبرها أني بالمستشفى وأغلق عليّ الباب. في الحقيقة كُنت أود أن أغلق الباب على خيبتي وحسرتي وسطوة الحزن بي مُتواريًا من تشييع نعش حبي الأول.

رن جرس القدوم، إنها ليلى التائهة في الغابة قد أتت بيدها اليُمنى تُهدي حياة وبيدها اليُسرى ستُهديها نحن تفاحة الموت مسممة بمشاعر الكره، أغلق سعيد الباب وأسدلت ستار حبي ملوحًا لها من خلفه بنهاية القصة.

مر وقت أسمع فيه طرقعة الأو اني بالمطبخ ثم صوتهما يتحدثان وفجأه ارتفع صوت نقاشهما إلى عراك ثم توسل وبكاء يا إلهي.. هرعت أفتح بابًا كان سببًا في ملحمة حزن لن تنتهي.

مرثا... ناديتها بصوت متشقق وهي على شفا الرحيل قيد الخروج وقد شُقّ كتف ثوبها وشعرها تبعثر وعيناها تلبدت حمرة ووحشة وذعرًا، أهدابها الشامخة العالية السوداء تنكثت وعيناها الحالمتان جحظتا، ما زالت عيناها بهذا اليوم عالقة في ذاكرتي تقفزان أمامي بكل وقت سواء مررت بحزن أو فرحٍ، لم تنسَ حواسي ذكر فجيعتها تلك، لم يكن يبدو أنه نال منها لكنه نال من رُوحها الشفافة وهتك كيانها الوردي.

مرثا... قُلت مرة أُخرى محاولًا الدفاع عن نفسي باسمها ليس عنها فقد رأيت قطار الفراق ينتظرها خارج منزلنا الملعون وهي تركض خلفه بكل ما أوتيت من قوة الحسرة, نظرت إليّ وعيناها غارقتان في الخوف والحزن والندم، لم تنطق لكن نظرتها تحدثت بما يكفي ليواري قلبي التراب، في مسافة بيننا ليست كبيرة هندسيًّا لكنها كبيرة عاطفيًّا كمسافةٍ بين حقبتين من الزمان مُتباعدتين مسافة قصيرة تمددت ونمت بما لا يُطيق القياس، خرجت مُسرعة وشعرها الملائكي يجري خلفها يتموج كالبحر الهائج الحزين.

رحلت مرثا، لم أخبرها بحبي ولم تخبرني، لم أخبرها بما حدث ولم أطلب منها السماح ولم أرمم تصدع رُوحها الشفافة، لم أعتذر منها ولم أحظَ بغفرانها كما يجب.. لم أرها منذ ذلك الحين لكني سمعت أنها تركت الجامعة، وكُلما حاولت أن أعرف المزيد أفشل إلى أن جمعتنا الصدفة ذات شقاء، مضيت وحيدًا إلا عن أحمد وصوته و إقليدس وحلمه، أصبحنا نعيش معًا ولكن لم نكن معًا، كُنا نسكن معًا لأنه لم يكن لدينا الإمكانية ليستقل كل منا بحياته، لكن كُل منّا يسكن وحيدًا غريبًا عن الآخر، اضطررنا للعيش كأصنام خشبية لم يكن يجمعني بسعيد إلا أحاديث قليلة بلا عاطفة، غرباء صرنا كما لو لم نكن رفقاء عمر ودرب.

العراق 2003

وقف العراق وحيدًا يدفع فاتورة أمريكا باهظة الثمن التي ضربت بها أفغانستان فلم تجد بُدًّا من أن تصنع لها من دول الشرق من يضع عنها أغلال المال قبيل أن تُشير برصة تداولها إلى الصفر وقبيل أن ينال من كيانها الخارق الفقر. لم يكن صعبًا أن تبرر حربها تلك وحتى إن لم تقدم تبريرات مُثيرة للسخرية. هي تستطيع أن تفعل كل شيء دون عناء التبرير الذي لم يطلبه أحد، وها هي تنبش مخالبها في أكبر احتياطي نفط بالوطن العربي والعالم، العراق البلد العربي يتيم القائد.

حقًّا لم يُخلق النفط بلون أسود عبثًا؛ فقد صاحبته منذ شروقه على الأرض لعنة، فوراء كُل موت نفط ووراء كل تطرف نفط، ووراء كل فقر نفط. ووراء كل جهل نفط ووراء كُل ظُلم نفط.

توالت الضربات وأحكمت أمريكا قبضتها على أماكن البترول وبقيت الأماكن الأثرية مثل المتحف الوطني العراقي عاريًا عُرضة للسلب والنهب، كان تخطيطًا منظمًا للنيل من حضارة بلد عريق.

أخذنا نُشاهد الأخبار المثيرة منتظرين ما هو جديد كل حين وآخر ولكن كل القنوات تبث تقريبًا الأخبار نفسها، أعداد وأعداد موتى وإحصائيات جرحى وإحصائيات خسائر ترتفع، لم يسبق وأن سمعت من قبل أعداد موتى وأرواح تُزهق كهذه المرة حتى خُيّل لي أن للموت ثورة تفوق ثورة الأحياء تتطاير الأرواح كل ساعة محلقة. خُيّل إليّ مشهد السماء تمتلئ موتى يتر اقصون باليه الموت معًا، يتصاعدون إلى السماء مع لحن برديس لأندريه ريو.

لكن ماذا عن الأحياء؟ إنهم يموتون موتًا سيئًا جدًّا، موتًا مُكبلًا بالذعر والهلع والدماء، يحملون في ذاكراتهم مشاهد الموت غير المُكتمل، مساكين هؤلاء الأحياء.

كُنت حين أرى البث المُباشر للموت أشم لقلبي رائحة الريش المحروق وأسمع صوت حسيس الموت قريبًا مني وكأنه داخل جسدي يسري في عز الحياة، لكن فيما بعد عِندما تعلمت أن أحتفظ بالموت على آلة تصويري أصبح الموت أليفًا، لم أعد أسمع الحسيس ولم أعد أشم ر ائحة الريش المحروق (العادة مقبرة العواطف).

لم يكن لإقليدس تعليقًا على تلك الحرب لكننا جميعًا ننتظر أن تضع الحرب أوزارها وتكف أوراق الموت عن التساقط بأن تتدخل يد الحب لكن يد الحب بُترت لم تتدخل وسقطت بغداد كما يسقط كُل جميل.

كان أخذ سعيد يتحرش كثيرًا بحديثي، لم أكن أكرهه لكن كان بقلبي منه ألم لتلك البريئة، لم أسأله لماذا فعل ذلك؟ ولن أسأله. فما الجدوى من سؤالي إن لم يكن ينوي أن يقول الحقيقة؟

ابتلعت سكين فراق مرثا حتى نزفتها ولم يعد خيالها يُراودني لكن لم أستطع أن أنسى عيناها تلك الخائفة وغدر سعيد، كان أحمد يزورني في المنزل ومعه صحبة جميلة نقضي وقتًا رائعًا، أغانيهم تبدد ظلام روحي، كانوا جميعًا متيمون بالصوفيين الذين لم أقرأ لهم أبدًا حتى فترة قريبة، في أغلب الأوقات كان يحضر معنا إقليدس مستمتعًا وكان سعيد يحضر أيضًا، ومرّ عامنا بحبه وحربه وحزنه ثم جاء عام 2004 تهيأنا للتخرج وبداية مشوار العمل أنا وزملائي. أما رفقاء دربي فقد حصل إقليدس على منحة لتفوقه كي يكمل دراسته في أمريكا. وسعيد ما زال يدرس في عامه الأخير، ها هو إقليدس قد عد عُدته للإقلاع من عالمنا العربي وو اقعنا الحربي ومن سنوات يُتم شاركنا فيها بفصولها الباكية الماضية وربُما الآتية. لم يكن ما يجمعنا ملجأ أو جامعة أو سكن للشباب, كُنا إخوة لأمٍ واحدة وهي الخطيئة وأب واحد هو الغدر، واحدنا لا يستغني على المثنى برغم الاختلافات والخلافات التي كانت تدب بيننا. كُنا مستمسكين بوجودنا معًا حد التغاضي عن سيئات بعضنا. رحل إقليدس ودعته وقلبي يعتصر لا أعرف لماذا حين عانقته أطلت العناق؟! خضعت لخاطر قلبي الذي أخبرني أن أطيل المكوث في لحظة الوداع فهذا أول وآخر وداعنا، رجمت الخاطر فجأة بحجر التجاهل وتركت صديقي يرحل إلى مصيره.

كانت خُطاه للأمام مؤلمة تذكرني بخُطى مرثا وهي هاربة من مسكننا بعد ما حدث لها، ظلت عيناي حيارى تُر اقبه حتى ابتلعه زحام المسافرين، كففت دموعي وجمعت كل همومي بصندوق الصبر ومضيتُ لحياتي أبحث عن عمل ومستقبل ينتظرني متجاهلًا حزني القابع في غيبوبة الصبر.

ملجأ أيتام القرية

في القيلولة جلست المُعلمة وسط فتيات صغيرات كزهور برعم البُرتقال قصيرة الساق، أعمارهن بين خمس وست وسبع حتى ثماني وتسع، الجو ربيعي معتدل وكُن يُغنين معًا في سرد موسيقي رائع كما لو كن يُحيين قُداس:

الرّب حنان ورحيم ... الرّب طويل الروح

الرّب كثير الرحمة ... يحمدك يا رّب ويباركك كل أتقيائك

يمجدون مُلكك، ينطقون بجبروتك ... مُلكك ملك كُل الدهور، وسُلطانك في كُل دورٍ

صفقوا جميعًا بفرحة ثم اقتربت فتاة بعمر السادسة من المُعلمة وقالت: أحبك جدًّا ماما مرثا.

- آوه حبيبتي، و أنا أحبك أكثر. ثم تقدمت أُخرى وقالت: غنِ لنا طلع البدر.

حسنًا حبيبتي.. أنشدت مرثا ومعها الفتيات والطيور تحلق من فوقهن وفي السماء بدت تتجمع سحب حُبلى رُمادية حجبت الشمس:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع .. وجب الشُّكر علينا ما دعى لله دااااع

أستاذة مرثا تفضلي حان وقت الغذاء.. قالت سيدة بدينة تعمل في الملجأ من سُلالة العابسات غير مبتسمات أبدًا ثُم ولّت وجهها نحو الممر وردفاها يعلوان ويهبطان مُتعاكسين.

- حسنًا سوف أدعكن تُشاهدن التفاز يا صغيراتي وأذهب لتناول الغذاء، اتفقنا؟

- أومأ الصغار بالقبول.

- ابنتي إلى متى ترفضين كل من تقدم لكِ طالبًا يدكِ للزواج؟ منذ زمن أصبحتِ بالعمرِ المناسب.. قالت المديرة بصوتٍ رقيق كي يُناسب الموضوع الذي طرحته.

- يا أمي كل شيء بوقته.

مرثا الفتاة اليتيمة التي تربت بدورالأيتام، لقيطة ذهبت للجامعة تتعلم مثل بقية أصدقائها، كانت مُترددة وخائفة وجازعة من يُتمها المغبون، درست سنتين ولم تكمل دراستها، وجدت نفسها بين عالم كبيرعمرهُ في أرذله، شعرت بغربة بينهم فعالمها الحقيقي بين الأطفال الأيتام ودُنياها التي تألفها بينهم، تركت الجامعة وعادت للقرية التي نشأت

فيها هُنا بين الأيتام تختبئ حيث لن يسألها أحد عن الماضي أو الحاضر، هُنا يمر الزمان سريعًا، يكبر العمر لكن الأطفال هُنا لا يكبرون.

يا إلهي كم هي قاسية غُربتي! حتى ذلك الشاب الذي أحببته وكُنت أودّ مصارحته بحقيقتي في موعد لم يحضره أيًّا منّا أراد أن يُقدمني طعامًا باردًا لصديقه الجائع حتى دون أن يعلم أني لقيطة، فكيف ولو عَلم؟ لا أحمل في قلبي ضغينة عليه، كل ذلك هين، لم يحدث معي الكثير مثل ما حدث مع العذراء ولا أي قديسة لكن داخلي كسور لم يجبرها الوقت. خاطرت نفسها وهي تنظر من النافذة إلى السماء المحتجبة خلف السحاب ثم نكثت رأسها ولمعت عينيها بالدمع.. لا تزال المديرة تتحدث لكن مرثا لم تكن تستمع إليها، كل ما تراه حركة شفتيها وعينيها البارزتين خلف نظارة قصر النظر غليظة العدسات.

ماذا يا ابنتي، ما عيب زميلك جميل؟ هو قد تخرج ويعمل الآن موظفًا ولديه منزل وسوف تكوني معه بخير لن ينقصك شيء وقد طلب مني راجيًا أن أتحدث إليكِ.

- مرثاا!، مرثاا!.

- نعم أمي أسمعك، لا تقلقي سوف أُفكر بالأمر.

- كيف أتزوج و أنجب أطفالًا لن أهب لهم عائلة ولا اسم جد؟ ولن يزورنا أحد فور انتقالي لبيت الرجل الذي سأرتبط به للأبد إلا بعض زميلاتي بالدار اللاتي سوف يتزوجن هُنّ أيضًا وستتفرق بنا السُبل قريبًا، فلن يُرحب أزواجهن بوجودي ولن يرحب زوجي بوجودهن.. الأيتام لا يجيدون صُنع عائلة أو لا تجيد العائلة الإحاطة بهم، لكني أشعر إني وُلدت لأكون أُمًّا.. يا أبانا الذي في السماوات، اعفو عني وتقبل رجائي يا عذراء.

هطل المطر غزيرًا في ذلك الوقت مفعمًا بحماس رائحة التراب المبلل خلابة.

زعقت المُديرة: هيا إلى غرفكن. ذهبت مرثا لتدخل الفتيات اللائي خرجن لغرفهن حيث خرجن مُبتهجات بالمطر، بينما العاملات كُن يقمن بتسريب الماء من فناء الدار إلى الحمامات.

ملكا ماري (بغداد 2005)

في مدينة بغداد تعيش ملكا ماري، فتاة صغيرة على مشارف عامها العشرين، كان لها عائلة قبل عام، أب وأم وثلاثة إخوة، ماتت الأم وأخوين إثر غارة للغزو الأمريكي على العراق، عاش الأب إثرها على كرسي متنقل وبقيت ملكا ماري مع جدتها العجوز وأخيها الصغير، كانت قبل الغزو تدرس بعامها الأخير بالثانوية والذي ستلتحق بعده بالجامعة لكنها تركت المدرسة لأسباب الحروب العديدة التي تضع حو افرها في عيون مستقبل الأطفال والشباب, كانت متفوقة جميلة جدًّا وذكية لكن الحرب لا ترحم، قصفت منزلهم وأحلامهم وقصفت داخلها إحساس الأمان وحُلم الحياة الكريمة.

ملكا ماري من طائفة الصابئة المسالمة، ديانة إبراهيمية من أقدم الديانات على الأرض ذات القلة قياسًا ببقية الطو ائف، لم يكن لدى العائلة من يكفُل لهم قوت العيش فتطوعت هي لذلك في وقتٍ عصيب تمتلأ فيه الشوارع دُهاقًا بالقتلى والدبابات التي تدهس الأمان في قلوب الضعفاء وحتى الأقوياء، لم تجد بُدًّا من الخروج للشارع فالموت في هذه المدينة لا يفرق بين الشارع والمنزل، كل مكان يُحلق عليه طائر الموت بلا كلل.

"ملكا ماري" اسم باللغة المندائية يعني ملاك الله، لقبها بهذا الاسم جدها الراحل لأنه رأى بالمنام فتاة صغيرة تحمل هذا الاسم الغريب نوعًا ما. لم يكن في العائلة أم حُبلى إلا أُمها بينما زوجة عمها لا تنجب وعمتها مهاجرة للسويد والتي لم تكن متزوجة وقتها، ونادرًا ما تتحدث إليهم، وكان جدها يحب أباها كثيرًا وظل يعيش معهم حتى لقي حتفه مُختنقًا إثر دخان إحدى غارات الغزو.

بسم الحي العظيم يمه يحفظك الواحد وترجعيلنه بالسلامة.. قالت الجدة العجوز وهي تقبل رأس ملكا ماري قبيل الخروج بالجر ائد مُمسكة بيدها كتاب "كنزاربا"؛ كتاب الصابئة المُقدس. ودّعت ماري جدتها و أباها وعبد الواحد أخاها وشاكي كلبها الصغير وخرجت.

في العادة قد يعترض طريقها مُسلحون وجنود من الميليشيات لكن كانت دعوات جدتها العجوز تحصنها ورحمة ربها، كان أخوها الصغيرعمره أربعة أعوام وهي أكبر إخوتها الذين رحلوا من الحياة باكرًا, لم يكن لدى عائلتها الصغيرة الكثير من الطلبات، القليل يكفي وقد يقل القليل لكن تستمر الحياة, خرجت ماري تر اقب طريقها تتوجس خيفة، الطريق خاليًا بعض الشيء إلا من دبابات المُحتل وبعض الجنود العر اقيين و اثنين من الباعة المُتجولين.

النهار قائظ والشمس غاضبة تُلقي لظاها على الأرض بما يكفي ليحرق الأجساد، جلست ماري على الرصيف المتوهّج تُنادي للمارة أن يشتروا الجر ائد، القليل لبى النداء ومنهم من تجاهل ومنهم من لعن الأخبار، الناس في هذا البلد يلعنون دائمًا كُل شيء، عملهم ووطنهم ويحزنون وقت وقوع اللعنة!

مرت أمامها دبابة وسمعت صوت انفجاروراُت دُخانًا يصعد كطائر الرّخ مُحلقًا بين البنايات وصوت إطلاق رصاص متقطع وكثيف، لم يُخيفها شيئًا إلا عيني ذلك الجُندي التي بدت شررًا من سعير. أخذت تبحث عن مكان تستظل به وحين وجدته كان ظل الشيطان قد سبقها إليه، ظهر لها ذلك الجُندي فجأة قاطعًا عليها الطريق وهي على مسافة قريبة من بيتها، رفع بندقيته بوجهها مُبتسمًا ابتسامة لص قد اغتنم غنيمة، أنزل بندقيته قليلًا على صدرها، حفر حفرة به متحرشًا، سقطت الجر ائد من يدها، ارتعدت خوفًا ليس من بندقيته بل من عينيه اللتين اتسعت حدقتاهما بنهم فأفزعت أمن طفولتها, تمتم بكلماتٍ لم تفهمها لكنها قد عرفت فحواها من رائحة فمه التي كمقبرةٍ مُنتنةٍ تتبخر أجساد الموتى بها وبخارهم يتصاعد إلى أنفها وعيناه تتلصصان بها تجوبان بتمعن طُرقات جسدها الأنثوي بنكهة الطفولة، لبثت مكانها لم تُحرك ساكنًا تنظر لعينيه تُترجم طلاسم الحقد وهو لا زال يتحسس ببندقيته صدرها المُنقبض، يضع فوهة البندقية في فتحة أزرار قميصها يُحرك لسانه بفحشٍ ثُم رفع بندقيته على كتفه فهرعت ماري فجأة من أمامه تركض وتركض وهو يضحك، تسقط وتقف وهو مُتلذذ بمشهد رُعبها، تنظر خلفها تراه ما زال ينظر لها، شعرت بوخز في قلبها وفي جسدها، ظل طيفه المشؤوم ير اقبها ويُطاردها حتى طرقت باب منزلها بهلع اللصوص المُطاردين، ولكنها لم تكن لصة هي قصة لبلدان عدة قد دنس المُحتل أرضها بخسة.

الـهند (2005)

شغفي بالتصوير وتفنني به مكنني من العمل في وكالة أنباء، أطارد الأحداث بكاميرتي وأسعى بين الفنانيين والفنانات والمؤتمرات الصحفية المحلية كلص ألتقط صورًا للوزراء ورجال الأعمال، ثم شعرت بأن تلك مهنة لا تروق لي أبدًا، قررت أن أتركها ليس كُليًّا بل أترك الصحافة لأعمل في محل تصوير ولكن سرعان ما باءت بالفشل الذريع المهنة الأخيرة حيث بقيت حبيس غرفة وجدران أنتظر من يأتي كي يلتقط لنفسه صورًا سخيفة للمعاملات الحكومية أو فتيات مُراهقات يتحرشن بآلة التصوير وكأنها آلهة الجمال، أو أذهب للأعراس فيُسكب ثمل كأسه فوق آلة التصوير أو امرأة تتحرش بي تُريد التقاط صورًا فاضحة لغريماتها من النساء وغر ائمها من الرجال، ساورني الندم على ترك الوكالة خاصة أن ر اتبها مُغرٍ.

عُدت لمسكني حيث سعيد، لم نكن نتناقش في شيء البتة برغم شعوري بأنه تغير وأصبح أكثر جدية وهو يستعد للتخرج هذا العام، دخلت غرفتي فتحت الحاسوب أقرأ رسائل البريد الإلكتروني وجدت رساله من إقليدس:

"مرحبًا صالح، اشتقت إليك كثيرًا، أنا هُنا بخير ولديّ حياة جميلة، لا أحد هُنا يهتم من أنت ولا من عائلتك، العلم هُنا هو العائلة، أنا متفوق وسعيد ولديّ أصدقاء جدد نجلس ونتحدث عن الأدب والفلسفة ولم ينقصني سوى أنت وسعيد، أتمنى أن تكونا بخير، أحبكما".

كان إقليدس مُبالغًا في ذلك فقد كانت الوحدة تستبد به ولكنه مُضطر للكذب كي يرسم الفرحة على قلبي, قرأت الرسالة ودموعي تتساقط على لوحة المفاتيح، لقد اشتقت إليك كثيرًا يا أخي يا ابن عمري، كتبت له:

"إقليدس الطيب، أتمنى لك المزيد من السعادة والنجاح، اشتقت إليك كثيرًا، أتمنى أن تزورنا قريبًا".

توالت عليّ ذكريات طفولتنا وقت قرأت رسالته، كم ظننا أننا لن نفترق ولكن الظن لا يُغني من الحق شيئًا.

**

في الصباح ذهبت لوكالة الأنباء التي كُنت أعمل بها كي أعود للعمل، لم يُجادلني المُدير في أمر العودة، و افق سريعًا وأخبرني أنهم يريدون من يذهب للهند لتصوير عيد الألوان، رشحني وكنت سعيدًا ومُتحمسًا للسفر و أنا أرى ذلك البلد, حصلنا على التذاكر أنا و اثنين آخرين, أنا المصور الوحيد بينهما، ذهبت للبيت أعِدُ حقيبتي وأعُد الساعات كي أسافر لأول مرة خارج بلدي، مر الوقت بطيئًا ودعت سعيدًا واستودعته ثم حملت حقيبتي واستقليت سيارة الأجرة مُتجهًا نحو المطار.

الأرض مسطحة تحت الطائرة، تساوت الجبال مع البحار مع الوديان، كان المنظر جميلًا من فوق السحاب، لم أشعر بالدوار بسبب شغفي بالفرجة من نافذة الطائرة على السحاب والسماء، وصلنا صباحًا وكُنت أتوّق شوقًا لأرى جمال الهند الذي ترويه الأساطير ونُشاهده بأفلامهم السينمائية وأصور بكاميرتي أجمل الأماكن و أتعرف على ثقافاتهم, تعجّلنا الخروج، كان يجب علينا تصوير يوم عيد الألوان.. الشوارع مزدحمة والجو رائع والهضاب الخضراء يروي القلب جمالها الخلاب، الطبيعة صوفية، العشق ترتل ذات فناء خطابها الفهو اني، احتشد الناس في كل مكان مُصطحبين ألوانهم بخلاف الاحتفال الطبيعي بالربيع، يرجع هذا العيد أو المهرجان الشعبي واسمه مهرجان "هولي" لأساطير قديمة منها قصة حب الإله "كريشنا" لـ"ورادها"، حيث اشتكي كريشنا لوالدته من سواد لونه وبياض لون محبوبته، "ورادها" نصحته أمه أن يستخدم مسحوقًا ملونًا ليرى معالم وجهها، لهذا السبب يتر افق المهرجان بإحضار مجسمات لكريشنا ورادها ورشقها بالألوان الزاهية، فتضج الشوارع لمدة يومين بألوان قوس قزح، أهم ما يُميز هذا الاحتفال تحرير المُحتفلين من القيود الاجتماعية, من الأعمار أو الطبقة

الاجتماعية أو الجنس، فتقل الفجوات بين الطبقات ويتوحد الناس سواء أكانوا أغنياء أم فقراء رجالًا أم نساء في الفرحة المُلونة وتشع البهجة بين الجميع وسط الغناء وإلقاء مساحيق الألوان المُختلفة ورش المياه الملونة على بعضهم البعض فيصبحون معجونين بالألوان.

لم أهتم بأداء صلاتي وقتها فحين تحيك النفس الحجج تتملص من الفروض بلا تأنيب ضمير، كما لم أعد أرى أي منام أفيق منهُ سعيدًا فقد امتلأت روحي بالفراغ حتى خاب ظن الحب فيها، لكن حين رأيت قرية في الهند أثناء تجوالي سمعت صوت الحب يخاطب حواسي (أن اغدوا على عشقكم إن كُنت صارمين).

جُند قابيل

في المساء عاد سعيد بعد يوم طويل قضاه بالجامعةِ ومن بعد الظهر إلى العصر حضر درسًا مع أصحابه في مسجد خاص بهم، رجع مُتحمسًا فتح حاسوبه يقرأ رسائله فوجد رساله من شيخه:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ابني العزيز، نحن الآن في بغداد دخلنا من أفغانستان عبر حدود إيران إلى هنا، لم تكن الرحلة شاقه بقدر صعوبتها، نحن الآن انضممنا ندافع عن إخو اننا المسلمين ضد الأمريكان وعن إخو اننا السنة المضطهدين، وجميعنا بخير ونتمنى حضورك و انضمامك لنا فالإسلام ينتظر من يرفع ر ايته".

قرأ سعيد الرسالة وتنهد مستجلبًا حماسه ورد برسالة:

"أبي العزيز، أنا في العام الأخير بالجامعة أنتظر حصولي على الشهادة ثم فرصة السفر إلى العراق وسوف أسعى بكل جهدي كي أكون معكم مجاهدًا في سبيل الله".

أرسل سعيد الرسالة وتمتم:

متى ذلك اليوم الذي أرحل فيه عن تلك المدينة ناظرًا لها من شبّاك رفضي؟ حتى تختفي معالمها عازمًا أن لا أعود، لا أعرف هل سأهرب منها أم من يُتمي أم من هؤلاء الذين صبغوا جلدي بالرفض حين رفضوني بينهم كما لو كُنت مسخًا مُخيفًا ألقوني في غياهب الظلم والظلام؟ لا أعرف أخيرًا يحمل قلبي أم شرًّا؟ حتى من عطفوا علي وقبلوني على عيوبي لم أستطع أن أمنحهم الحب بل جرحتهم بسكين ظُلمي ووهبتهم ملوحة أنانيتي دون أن يرفّ لي طرف جفن.. لست أعلم أأنا الجاني أم الضحية؟ لم أكن أعرف أن مرثا تُحب صالح وهو لم يخبرني، لم أكن أعرف طبيعة ديانتها، اجتاحني الشك بها وبصالح, ما فعلته ليس بخطأ، لقد قال لنا الشيخ أن المسيحية شرك وكفر ونساء الكفار سبايا لنا فكيف أسيء على قومٍ كافرين؟

غدًاعندما يعلم صالح أني انضممت للجهاد مع إخو اننا المسلمين في العراق سوف يسامحني بل سوف يُمجدني ويُقدرني، العالم لا يعرف قيمة الجهاد فلو عرفوا لم يكن لتحدث في بلادنا هذه النكبات، نحن سوف ننتصر وسوف يكون لنا أعظم جيش في العالم حتى أمريكا سوف تنحني لنا، ليتني أستطيع الانضمام الآن فأنا متشوّق لذلك.. أثناء حديث سعيد مع نفسه رن جرس الهاتف، إنه صالح يطمئن عليه ويحكي له عن الهند وجمال الطبيعة فيها مُتحمسًا للجمال لكن سعيدًا مُتحمس لشيء آخر مُختلف، ولم تثنيه مكالمة صالح عن الطيران بخواطره بعيدًا إلى بلاد الر افدين حيث أمراء الجهاد و أئمة الدين.

ألقى سعيد جسده على الفراش، مطّ ساقيه ويديه واستسلم للأحلام.

ملكا ماري

(جُرحي الغائر)

وصلت ماري البيت ترتعد قدماها ترجفان عينا الجندي مُتسع الحدقة عالقتان بصدرها الذي تتسارع أنفاسه ترتفع وتنخض لم تنظر في وجه جدتها حين فتحت لها الباب ولم تُلق السلام على أبيها الكسيح ولم تعانق أخاها ولم تمسح على رأس كلبها شاكي تتلفت حولها مُمسكة بقميصها وكأنه سيطير من فوق جسدها تاركاً إياها عارية مُتكشفة أمام الجميع قد سلبها الخوف تركيزها أخذت تبحث عن فراش تآوى إليه يسترها من عيني الجُندي اللتين رأت فيهما حتفها ورأت فيهما وطنها عارٍ يجر قدميه كي يختبئ من الناظرين.

ملكا، ما بكِ يا ابنتي؟.. قالت الجدة العجوز بصوتها الهادل وهي تزيح الغطاء عن وجهها برفق الذي أخفته كي لا يرون ملامح الخوف وشحوب وجهها لكنهم رأوها، ساق الأب كُرسيه المتنقل أمام باب غرفتها وقف قائلًا: دعيها ترتاح يا أمي رُبما أصابتها ضربة شمس جراء ارتفاع درجة الحرارة اليوم ومرضت.

شفتا ماري ثقيلتان لم تقويا على حمل التحدث، تركاها وهي تُشير بيدها وعينها مُوحية لهما كذبًا وهروبًا من الخوف إنها ستنام، فراشها لأول مرة غير آمن بتلك الدرجة التي كانت تجلب لها النوم، لم تشعر فوقه بالراحة كأنها تنام فوق الشوك في صحراء وعواء الذئاب يتردد صداه في أرجاء غرفتها، لم يأتها النوم بالسهولة التي كانت تظنها قبل قليل حين كانت تسير بالشارع مُرهقة من الحرارة ومن وجع المارين، النوم آتاها قر ابة الليل وبعض الظلام يُشعر بالأمان،

هي مُوقنة أن شيئًا ما سوف يحدث لكنها لم تنبش في مقبرة الخيال، بقيت تنتظر فقط ما لا تعرفه لكنهُ بالطبع شيء سيئ بل رُبما أسوأ شيء و انتظار الموت أسوأ من وقوعه.. أحضرت الجدّة لها مرقًا معصورًا عليه ليمون وخبز تنور، أكلت ماري وهي لا تتذوق طعمًا إلا طعم الخوف ولم تمتلئ معدتها بشيء سوى بالقلق.

في العاشرة دق الباب بقوة، كان الطارق يضرب الباب ربما بقطعة حديد، لا إنها قعر بندقية آلية استعملها كي يثير الرُعب بأهل البيت.. سمعت صوت صراخ جدتها، تثاقلت

قدماها وارتجفت يداها، دخل من الباب ذلك الجُندي بصورة ذئب يقف على فريسته يقطر من فكه الدماء.

دخل كلبها شاكي ينبح موجهًا رأسه نحو الجُندي صارخًا بوجهه: اخرج يا لعين. محركًا ذيله الذي لم يُحرك ساكنًا، وظل يعوي حتى بحّ صوته والجُندي يخلع ثيابه، حدق الكلب بوجه الجُندي وعيناه تضيقان وتتسعان ينبح مُدافعًا عن صديقته بكل ما لديه من إخلاص حتى أرداه الجندي الملعون بالأرض قتيلًا بعد طلقة نار وجهها في عنقه، فتقلصت بحّة صوته وأصبحت تُشبه بكاء الرضيع ومواء القطط، كأنه يقول: سامحي ضعفي يا صديقتي، هذا ما كان بوسعي أن أقدمه لكِ.

دفع الجُندي بمؤخرة بندقيته، عصا الجدة العجوز التي تقف عليها مُترجية فسقطت على الأرض، انكسرت العصا التي تحمل سنواتها السبعون بلا كلل، و انكسر معها قلب ماري وقلب أبيها العاجز المُتوسل, جلست على فراشها ترتعد، ضمّت رُكبتيها لصدرها، أسنانها تصطكّ بسرعة البرق ورُكبتيها ترجفان كما لو أصابهما تيار كهربائي، أخذ الأب يتذلل في توسله وأخوها الصغير يبكي بدون أن يعرف لمَ هو يبكي لكنها عدوى الخوف والحُزن.

ضرب المُحتل مُتعجرفًا كُرسي الأب الكسيح بقدمه بعيدًا حتى اصطدم بالحائط وسقط منه مغشيًّا عليه ثم أشار إلى جندي معه أن يقف على الباب شاهدًا غير مشهود على جُرمه مُستمتعًا بوحشيته.

دفعها على الفراش، سقطت كما تسقط اليمامة على الأرض بعد قنصها، ثنى ركبتيها، أرادت أن تصرخ لكن صوتها احتبسه مارد ضخم وأغدق عليه، صمت الكون من حولها كأن الكُل أموات، استباح الذئب حُرمتها, لم تعد تشعر بشيء كأن روحها غادرتها سريعًا وبقي جسدها قطعة طين باردة، وقفت رُوحها في السقف مُعلقة تنظر لها من زاوية أُخرى، رأت كلبها باسطًا ذراعيه ورأسه بينهما كالساجد شكرًا لنعمة الموت، دماؤه الغزيرة تسري على الأرض، رأت الجدّة تنوح تلطم خديها والصغير جلس بعيدًا قرفصاء يسيل بوله ينظر للمُعتدي مُمتطيًا جسد أخته من فتحة قدمي الجندي الو اقف على الباب وعيناه ترتعدان لا تُفسران شيئًا، رأت جسدها يتهتك يدفع المُجرم خنجره المسموم به ذهابًا و إيابًا، يقطع به شرف مدينة، لم تسمع بعدها صوت جدتها

ولم تشعر بكدمات الجُندي، لم تعد تشعر بالألم؛ فقط صوت تصفيق الطيور المُحلقة ترتفع عاليًا لأبعد نقطة بالسماء وصوت حفيف أوراق الشجر بيوم نسيم وزقزقة طيور, رفرفت رُوحها عاليًا للسماء بعد أن تخطت سقف المكان, رأت ملائكة كثيرة عرفت ذلك من بياضهم المُضيء الذي جعلها تضع يديها على عينيها من شدة إضاءة وبياض أجنحتهن كبيرة الحجم وبينهم رجل يلبس عباءة بيضاء، عرفت أنه جدها إبراهيم، كان يزورها كثيرًا بالمنام، مدّ يده لها مُبتسمًا وقبل أن تُلامس أصابعها كفه عادت الروح للجسد الغارق في دمائه.

الآن ترى كل شيء ممزق، ثيابها وغطاء فراشها وستارة غرفتها حتى روحها تمزقت، لم يكن شيء واحد لم يمسه سوء، عيناها تتنقلان سريعًا كالطاحون بين كلبها المقتول وجدتها الباكية وأخيها المذعور و أبيها المغشي عليه وجسدها العاري، كُل شيء يتحرك سريعًا حتى تموجت كُل الصور وأصبحت دائرية بشكل واحد تدور حولها كطاحون كهربائي بسرعة.

خرج الذئب مكفهر الوجه يرتدي بنطاله بعدما اختلط مائه بدمائها ودخل الآخر نظر لها نظرة اشمئزاز برزت عيناه وضحك عاليًا حتى رنّ صوته برأسها، رُبما لم يكن يتمناها عذراء فتكون مهمته أفضل، أمسك بأخيها الصغير فتوسلت الجدة وجثت على ركبتيها تقبل قدمه لكنه قد أمسك به لأمر أشد سوءًا، أن يطبع على جبين العائلة صورة تذكارية لشرفها المُنتهك.

ذهبا وأغلقت الجدّة الباب، ترجف كجريدة نخيل ميتة جافة مُتساقطة من بين الجريد، تقرأ في تمتمة آيات مُتقطعة ترددها من الكتاب المُقدس كنزا ربا، الأب وضع وجهه بين كفّيه كالنساء يجهش ببكاء مرير، يبكي عجزه و ابنته ووطنه وعائلته، يبكي باستماته مترجيًا قدمي الموت أن يأتيه، شعرت ماري ببرودة في جسدها، أطر افها كقطعة ثلج مُتصلبة، حاولت جدتها مستعطفة كهولتها أن تمنحها القوة كي تستطيع أن تحملها كي تغتسل بالماء الجاري محاولةً ترقيع روحها المُمزقة ومواراة فضيحة اجتاحت حياتهم البسيطة فجأة لكنها فشلت.

لم يمنح الصباح لماري فُرصة البكاء كما المساء المُنصرم، جاء الصباح مشوبًا بالشؤم والشمس تحمل حرارة الألم تحرق قلبها بلا هوادة، لا تدري هل ترتعد بردًا أم

تحترق حرًّا؟ ما زالت في فراشها لم تتحرك ولا ترتدي ما يستر إلا من الغطاء الذي وضعته فوقها الجدة، لم يستر عُري رُوحها التي تعرّت أمس من أوراق التوت، لكم تمنت أن يأتي الصباح ويكون كفنها، يداها ثقيلتان تحملان أطنانًا من الأحمال اللامرئية، قدماها كتلتان من الحديد الطاعن في الوزن، عيناها مُتصلبتان موقوفتان كشعب أعزل أمام جنود الاحتلال.

الأب المهزوم جالس منكّس رأسه والجدة نامت جالسة تتساقط رأسها للأسفل، الكلب تجمدت دمائه وتصبغت باللون الغامق, الأخ الصغير مستلق نائم بحجر الجدة قد جفّ بوله.

حُزن ماري لن يتوارى، قابع ها هُنا ينخر عظامها، حملت جسدها كالخطيئة وذهبت تتطهر من سفاح عسى يغفر الله لها ما لم يكن لها فيه يد سوى كون وطن مُستباح أرضه وعرضه وماله.

قُرى العشق

في الهند الكثير من الديانات السماوية وغير السماوية مُتعايشة معًا ما لم يُثِر أنياب الطائفية أحد الحاقدين، لكن عكس البلاد العربية فأنت في البلاد العربية بحسب ديانتك تلج أماكن وبحسب ديانتك لا تلج أماكن أبدًا، في الهند تجد هندوسيًّا في المسجد وتجد مُسلمًا في معبد الهندوس وتجد بوذيًّا في المسجد وتجد مُسلمًا في معبد لبوذا إلا من بعض المناطق ذات الأغلبية المُتطرفة من أي ديانة.. أخذت سيارة أُجرة أعطيت السائق ورقة صغيرة كُتب عليها ترجمة لجملة باللغة الهندية: "أريد الذهاب لمنطقة ريفية هادئة".

أنزلني السائق في طريق ممشوق على جانبيه هضاب خضراء وأرض مستوية عليها فلاحون يسقون الأرض ونساء سمراوات يحملن الساري على أكتافهن مع أعباء الحياة، أخذت أتمشى ألتقط صورًا للأماكن والزهور والأشجار، وجدت رهطًا من الرؤوس السوداء على مرمى البصر وثياب بيض وغير بيض ظننت أنه ربما احتفال ريفي بإلهٍ أو مناسبة قومية، و إنه لصيد صحفي ثمين، اقتربت حتى وصلت فوجدت مبنى يشبه القبة قد اجتمع حوله رجال ونساء وأطفال فتمخض فضولي، اقتربت حتى وصلت المكان، دخلت فوجدت ضريحًا توهج بعيني نوره الأخضر وإذا بي بجوار رجل مُسن يرتدي زيًّا هنديًّا متمزقًا قديمًا طاعنًا في العمر، كان لونه بالماضي ربما سماويًّا لكنه الآن قد صبغه الزمن بلون التراب، شعرت بهوان قميصي الأنيق وبنطالي غالي الثمن الذي تكلفت شراؤه رغم قلة المال أمام فقر هذا العاشق، وددت لو أرتدي مثل ثيابه الرثّة فأختبئ بها من شراهة نفسي اللاهثة للمظهر.

ألصق الرجل رأسه بجدار الضريح يغمغم بكلماتٍ وعيناه تذرفان الدمع وكأنه يُخاطب من بداخل الضريح ويسمعهُ من حيث لا أسمع، لم أحط علمًا بما يقول لأنه يتحدث الهندية ولكني سمعت كلمات تُشبه يا الله يا رحيم دستور يا الله.

أزيز صدره مع دموعه كنوتةٍ موسيقيةٍ تنبعث منها رائحة الفناء، ما الصدفة التي جاءت بي؟ "ويحك أيها القزم، ما الذي جاء بك إلى قرية العماليق؟" هكذا النفس توهمك

بأنك كل شيء ساعة الضعف وتُوهمك أنك لا شيء وقت القوة، لماذا النفس تُقلل من قيمة دقات القلب وقت تشعر أنها تدق في الاتجاه الصائب؟ لا أعلم ورُبما لن أعلم سر عداء النفس للصفاء ولأوقات المحبة. للأوقات التي يُزال الخمار فينكشف وجه الدُنيا الحقيقي المُهترئ مُختبئًا خلف الزينة والحُلي الطاعن في الترف تراودك فتقع بلا أدنى مقاومة في قبضتها.

حين تتصحّر الروح تسكن فيها الحيّات والثعابين والعقارب وتُصبح موحشة ومُقفرة ومُخيفة، كلمة واحدة تُعيدها خضراء غنّاء، إنها كلمة الحُب تجب ما قبلها.

وقفت أراقب الشيخ المُسن ولم ينظر إليّ ربما هو لا يرني أو لا يريد أن يراني، أعجبني ذلك فلا أريده أن ينظر إليّ وينتبه لمُراقبتي له فأرعب أمنه أو يكتشف الجميع أني غريب دخيل عليهم فينهالوا عليّ ضربًا أو رُبما يسجنونني ويتركني زملائي هُنا حين يفقدوا الأمل في رجوعي وهكذا أموت غريبًا في الهند، في زحام أفكاري رأيت الناس يجتمعون في شكل حلقة، ربت الرجل الذي بجواري على كتفي يهز رأسه ويتحدث بما لم أفهم، أشار إليّ بالجلوس محركًا رأسه وابتسامة رقيقة غطّت وجهه الذي تكسوه تعرجات الشيخوخة الكثيفة، جلست معهم، رددوا ما يُشبه البسملة بعربيةٍ مُكسرةٍ ثُم رددوا كلمات أُخرى ثم اسم الله مفردًا كثيرًا، كان صوتهم خلّابًا كما لو لم أسمع اسم الله من قبل، تذكرت صوت صديقي أحمد وأغانيه الجميلة كانت تلك أروع ما سمعت حتى وقت لاحق، أنهوا ذكرهم بالدعاء جماعة ثم وضعوا طعامًا يشبه الأرز ومرقًا وقطع طماطم على الأرز مع قطع ليمون وفلفل حار، رائحة الطعام كانت مُختلفة لكن الجوع قد خيل إليّ أنها أجمل رائحة طعام أُكلت برغم زيادة الفلفل الحار والكل ينظر نحوي مُبتسمًا، كُنت بينهم مُختلفًا وجميعهم متشابهون.

انتبهت أني تغيبت كثيرًا ورُبما أصدقائي يبحثون عني، قررت وقتها أن أشتري هاتفًا نقّالًا كي يُعينني فلم يعد بُدّ من اقتنائه فقد كُنت أفضّل أن أصرف المال على مظهري بدلًا من صرفه على الهاتف النقال وفواتيره.

أخذ الناس يخرجون واحدًا تلو الآخر، رجالًا وأطفالًا ذوي شعر ناعم جميل وابتسامة رائعة برغم وجوههم الشاحبة وثيابهم البالية ونخر الفقر لأظافرهم، لم أرَ

أمانًا بين قوم مثلهم فأدركت وقتها أن الثروة ليست الأمان ولا الأهل كذلك "الأمان هو المحبة".

ابتلعت الشمس أشعتها القوية وتنحت عن عرشها النهاري، انخفضت حتى اختفت وكُسيت الأرض باللون البُرتقالي مع الشفق، أخذتُ أتسكع في الحقول أتر اقص مع فراشاتها مُستمتعًا بالهواء النقي وجمال البسطاء ثم خطر على قلبي "إني أحببتُ حُب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب"، عزمتُ على أن لا أدع نُسكي وأن أذهب لأُصلي المغرب، توضأت من عين ماء وصليت في اتجاه لا أثق كثيرًا أنه القبلة ثُم عُدتُ لأصدقائي مُنتشيًا أسير بخُطى هادئة ولم أرد سوى على سؤال واحد: أين كُنت؟ فأُجيب: بقُرى العشق.

همس أحدهم قائلًا: رُبما مسّه السحر من جماعات السحرة المنتشرين هُنا، أظن الأفضل أن يبقى هُنا بالفندق حتى موعد الطائرة الذي لم يتبقَ عليه سوى ثلاث ساعات.

فانكوفر 2006

في ملهى ليلي جلس إقليدس يستمع لعزف منفرد بآلة الساكسفون, العازف رجل أربعيني يخرج زفيره البطيء يملأ القاعة أنغامًا بر اقة كقطع القمر المتساقطة على بحيرة بليالي الربيع، أغلب الحضور ثملين قد انشغلوا بصوت اصطكاك الكأس بزجاجة النبيذ لكن العازف لم يعر لذلك أهمية ظل يُخرج زفيره متلألئًا أكمل معزوفته وذهب.

على طاولة قريبة من المسرح يجلس شاب ينظر للمسرح الخالي ويتفاخر بصوت تجشئه وصوت كأسه الذي يفرغ سريعًا فيقرعه بكأس صديقه الثمل كالذي فازبجولة مصارعة.. على المسرح وقفت فتاة شقراء ذات قوام ممشوق وعينان زرقاويتان كميناء خالٍ من السُفن تحمل بيدها آلة "الفيولا" ترتدي فستانًا تركوازيًّا طويلًا عاري الظهر يرسم خصرها، يتدلى على كتفيها جزء شفاف من الفستان، بدت كفراشة اليعسوب، أخذت تعزف لحن "القادمون" ومع لحنها يتطاير شعرها الأشقر، يتمايل مع أنغام "الفيولا" التي ترفرف فوقها تحملها فوق السحاب، كانت تغمض عينيها مع تراخي اللحن ثم تحملقها فجأة مع شدته، حملت رُوح إقليدس فانتبذت به مكانًا بعيدًا ثُم هجم السكون الذي لا يأتي بخير ففتح إقليدس عينيه فإذا برجلٍ ثملٍ صعد على المسرح صوب الفتاة مظهره رغم تغريبه المُصطنع وتأمركه الساذج إلا أنه واضح جليًّا أنه عربي، إنه ذلك الذي كان يتجشأ قبل قليل، ضرب الفيولا بقدمه بعد أن وضعتها الفتاة بجنبها كصغيرها عِندما شعرت بخطر اقتر ابه منها.

"كفى أيتُها البائسة، نُريد ر اقصة".. صرخ الثمل بلغته الإنجليزية البريطانية العربية المُقلقلة.

وقف الجميع بين مستنكر ومُندهش بين من فغّر فاه ومن سقط فكه الأسفل دهشة ومن يتأوه تعجبًا، هرع إقليدس نحوهما صعد درج المسرح أخذ الفيولا المُلقاة على الأرض ومدها نحو الفتاة التي وقفت عيناها ترف خوفًا بسرعة كالمصروعة، أخذت منه الفيولا، رمقته بنظرة شكر سريعة وذهبت تختبئ من بطش الثمل أما هذا الأخير فوقف مُحدقًا بإقليدس ماطًّا شفتيه لأعلى مقوسًا حاجبيه يتميزُ من الغيظ، على

ذراعه وشم كبير مُبالغ فيه وبيده الكثير من الخرز الملفوف بالخيوط وفي حاجبه الأيمن قرط صغير قد حفره بقسوة داخل جلده، عيناه محمرتان ثملتان يتصاعد من فمه رائحة التبغ والخمر والفظاظة، حفظ إقليدس ملامحه بيد أن الثمل لم يحفظ ملامح إقليدس لفوران الخمر بجمجمته، جاء صديقه الذي كان يُشاركه طاولته من أقصى الصالة يترنح كالذي أُصيب بطلقة نار صائحًا: "جوووون، دعك من هؤلاء الغوغاء وهيا نذهب.

انتشر الهمس ثم الصخب والجلبة، ترك إقليدس الملهى مُتحاشيًا شر من لا وعي لهُ، تلك هي إحدى الملاهي الموسيقية التي ذهب لها وكانت اختيار سائق الأُجرة له، أثناء وجهته إلى أحد الفنادق البسيطة وفي طريقه شعر بأن أحدهم خلفه فتباطأت قدماه ثم سمع قرع نعال قريبًا منه، توجس خيفة ظن أن الثمل يتعقبه للنيل منه بسبب دفاعه عن الفتاة، وقف فتوقف الصوت ثم التفت سريعًا خلفه وضربات قلبه تستعر, إنها الفتاة وقفت مشبكة يديها تبسمت له ثم قالت:

- مرحبًا، وددت فقط أن أشكرك.

- لا عليكِ، كوني بخير.

سارت بجوار إقليدس ثم قالت وهي تنظر له: هل أنت عاشق للموسيقى أم أتيت صدفة؟

قال بعد أن عادت ضربات قلبه تنتظم وهو ينظر إليها يستمد من ملامحها الهادئة قوته:

- أنا أحب الموسيقى وأحضر حفلات كثيرة بأوقات فراغي الدراسي.

قالت وهي لا تزال تحتفظ بابتسامتها الرقيقة: هل تسكن بفر انكوفر؟

- لا، أسكن بسياتل حيث دراستي ولكن بالعطلات أذهب لأماكن مُختلفة أُروّح عن نفسي عناء الدراسة.

قالت بنبرة تشي عن قلق خفيف: أنت عربي؟

- نعم، لكن كيف عرفتِ؟

أعرف الكثير من العرب هُنا، ملامحهم مُتشابهة نوعًا ما لكن ما سبق وتحدثت إلى أحدهم.

ولماذا؟!.. سأل وهو موقن الإجابة ولكن كي يمد من عمر الحديث.

- لأسبابٍ عدّة، منها سوء تصرفهم كما فعل أحدهم الليلة .

- نعم أنتِ مُحقة لكن ليس كُل العرب يتصرفون بالطريقة نفسها تلك.

- وماذا تدرس؟

- أدرس الطب.

- رائع ستكون طبيبًا، أنا أدرس في آخر عام لي بمعهد الموسيقى.

- إذًا سيكون لديّ صديقة تُعلمني الموسيقى؟.. قال مُبتهجًا بنظرة غزل.

نعم يُسعدني.. قالت وقد أعادت إليه النظرة نفسها وقالت: هل سكنك قريب؟

- لا، في الحقيقة أسكن في فُندق بسيط بعيدًا عن وسط المدينة.

- أما أنا فأسكن قريبًا من هُنا.

وأشارت بإصبعها وكأنها ترى المنزل ثُم وقفت أمامه مقاطعة سيره وقالت: ما اسمك؟

- اسمي "آسر"، و أنتِ؟

- روزالي، ويُمكنك أن تدعوني روز.

رددت اسمه بهمس "آيسر"، ثم قالت مُبتهجة: سوف نزور سياتل قريبًا لنا فيها حفلة هل يُمكنني الحُصول على رقم هاتفك كي أُخبرك بموعدها.

- حسنًا.

قُال مُتحمسًا لحديثها لا للحفل ثُم أخرج هاتفه البسيط يُسجل رقمها ويُعطيها رقمه.

لوّحت مُغادرة وعلى وجهها ابتسامة تُشبه آلة الفيولا التي تحملها، وفي قلب إقليدس فرحة لقاء بفتاة لطالما غازلها في خياله ونقضت الحياة ذلك الغزل كثيرًا.

اختفت أضواء المدينة الصاخبة شيئًا فشيئًا وهو يتمشى بالشارع الفقير متآكل الحو ائط إثر الرطوبة. يتسلل إلى الفندق خيفة أن يلتقي بأحد اللصوص فيقتله وليس معه ما يستدعي القتل، لن يكترث أحد لذلك، عربي مقتول في أحد الشوارع التي يقطن بها عادة اللصوص والقتلة.

في الصباح أيقظته زقزقة العصافير وهو يتخيل في نومهِ شعر روز يتطاير مع لحنها. جَمَعَ أشياءه الصغيرة وتوجه إلى سياتل مُستمتعًا بطقسٍ رائع.

بين المسافرين امرأة عجوز أثقلت كاهلها الحقيبة التي تحملها، أخذها وسار معها حاملًا الحقيبة حتى ولجت بسيارة السفر، نظرت إليه مُمتنة لمساعدته والفرحة زادت وجهها خطوطًا.

وقف إقليدس ينتظر سيارة مُنتشيًا كالذي أضاع شيئًا ثم وجدهُ, كان من حوله يبتسمون كما لو كانوا يُباركون فرحته، جلس على أحد المقاعد، أخذ جريدة يقرأ فيها مُتحديًا الوقت ولكن كانت روز هي الخبر الأروع تتحدى بنجاح العناوين الكثيرة التي بالجريدة.

صمت القوافي

بعد أن عُدتُ من رحلتي القصيرة للهند الكبيرة بالواقع ظل يُدركني بكل ليلة إلهام الحُب فكُنت أكتب خواطري مُنتشيًا بها ثم أذّن مؤذن النفس "أن حي على الحياة" فتجاهلت خواطري ليلة بعد ليلة وتلاشت صورة الرجل الطاعن في الحب والشيخوخة ذي الابتسامة الطفولية والقرية التي عتت عن أمر الدُنيا، بددت الحياة الصاخبة وزحام العمل كل ما رأيت فصمتت القوافي عن السير وتلكأت الروح كنزًا يُفنيه الهجر.. في هذا العام تقدم سعيد للعمل كمترجم في الوكالة التي أعمل بها وكُنت مسرورًا لأجل ذلك، كُنا أفضل حال من السابق نعمل معًا وفي موعد انتهاء العمل نعد معًا للمنزل, أما أحمد فقد عمل مع فرقة موسيقية للعزف والغناء الصوفي اسمها "فرقة شمس روح" وكنت أذهب في حفلاتهم في الأوقات التي لا عمل لديّ بها، لم يكن لديهم جمهور كبير لكن لم يبد أحد منهم يومًا ضجِرًا أو ضيقًا، لا أعلم أُولئك الذين لا تطلب أيديهم أجر ما سقت من الفن والحب هل أيديهم مُقدسة أم هم قوم لم يروا المال بأعيُننا الميكروسكوبية؟

فنحن يمر بنا العُمر نتسابق فيه في جمع المال ثم نتركهُ دون أن نعي لمَ نحنُ مُتسابقون إليه؟!

الكُل في سباق دائم لا ينتهي إلا عند أعتاب الموت، أراني بكل ليلة في خيالي ميتًا مرفوعًا فوق الأكتاف وأمي التي لا أعرفها لا تبكي، وأخي الذي لا أعرفه لا يبكي وزوجتي التي أسبغت الحنوط على كفني أيضًا لا تبكي! رُبما لن يمشي بجنازتي إلا أربعة أو خمسة رجال استأجرتهم زوجتي كي يحملونني إلى القبرِثم تشكرهم بلطف أرملة حديثة وتُعطيهم مبلغًا من المال جراء حمل جسدي الهزيل الذي فتك به المرض، أتلفت عن اليمين وعن الشمال لا أجد أحدًا غيرك أنت.

أنت فقط تنتظرني و أنت فقط تمد يدك لي مرارًا وتكرارًا، أنت فقط أغضبتك فعفوت و أنت فقط تركتُك فانتظرتني و أنت وحدُك عاهدُتك ونكثت ولم تلفظني، وجهك يُشبه وجهي الضاحك داخل الصندوق الخشبي، وحدك كُنت الصاحب والكُل ينسلخون، وحدك كُنت الباقي والكُل راحلون.

يا إلهي نَجِّ موسى قلبي من فرعون نفسي وهامانها!

.....

في صباح يومٍ حافلٍ بالعمل جاء أحد العاملين بالوكالة قال لي إن المُدير يطلبك، عساه يزود راتبي أو أترقى ويكون لي مكتب خاص بي أو... أماني النّفس لا تنتهي!

انتبه!

قال المُدير وهو يُشعل غليونه يحذرني من القهوة المسكوبة فوق مكتبه وقد وقفت أضع بعض أوراق العمل فوق مكتبه, نظر بعينين سمجتين إلى أبعد نُقطة في الغرفة.

انسكاب القهوة خيريا صالح.. يقولون ذلك، الخير ربُما يكون في هيئة شر، بعد غد سوف تُسافر إلى العراق استعد.

إلى العرررراق...؟.. قُلتُ مُقطعًا أحرفها من هول الصدمة لكن يا سيدي.

ماذا...؟.. قال بصوتٍ ناشزٍ ثم قام من كُرسيهِ الدوار طاردًا دُخانه بوجهي.

هذه فُرصة تُثبت لنا فيها جدارتك، هُناك مصورون ومراسلون من كل أنحاء العالم بالعراق وقد ذهب جماعة من زملائك إلى لبنان دون إبداء أي امتعاض.

لكن يا سيدي، إنها في أسوأ ما يكون، الصحافة مُستهدفة والأمن غائب تمامًا، ناهيك عن التفجيرات، في لُبنان العدو معروف نوعًا ما أما في العراق فالكل أعداء الكُل، لا تدري من القاتل والمقتول، الكل يتقاتلون فيما بينهم.

هذه فُرصة لك وليس هُناك اختيار، تفضّل إلى مكتبك.. قال بحنقٍ رافعًا آخر أنفاس دُخانه عاليًا.

ذهبت مُتحيرًا، أهكذا يسوقوننا كالخراف إلى الموت، لا لا أُريد أن أموت أشلاءً أُريد أن يحملني الأربعة رجال كما أنا بجسدي ليس قطعًا صغيرة.. يا إلهي!

صالح صالح... إنه سعيد بجواري يُناديني ويهز كتفي و أنا غارق بمشهد موتي.

ماذا تُريد؟.. سألتهُ مُغتاظًا مُكفهر الوجه.

أرجوك أُريد الذهاب معك إلى العراق، أنتم بحاجة إلى مُترجم و أنا مُستعد.

قُلت مُخالطًا الصدمة بالمزاح: فلتذهب للجحيم وحدك بدوني إذًا!.. ضحك سعيد وضحكت أنا.

- أظنك تتحدث جادًّا بذلك، ثم إن المُدير لن يكترث لطلبي هذا، اذهب أنت وأخبره برغبتك ثم أحضر لنا كفنين، سوف نحتاج لهما هاهاهاها.

قال وقد كشف الحماس عن ساعديه: صدقني هذه تجربة رائعة، ثم لن يُدخل أحدهم قلمه في اللوح المحفوظ ليكتُب لك قدرًا لم يكتبه الله وردد الآية "أينما تكونوا يُدرككم الموت".

- نعم صحيح، لكني خططتُ أن أموت بجسدي كاملًا غير أشلاء.

نظر إليّ وضحك حتى تعالت قهقهته و أنا مثله حتى جميع من بجوارنا أصابتهم عدوى الضحك بدون أن يعلموا السبب.

مرّ المُدير أمامنا فصمت الضحك ونظر الجميع في أعمالهم، أحدهم للأوراق التي أمامه وآخر لشاشة الحاسوب وكأن ضحكًا لم يكن.

ملجأ أيتام القرية

في نهار يومٍ زمهريرٍ كانت مرثا تمشي على أربع يديها وقدميها كالحيو انات خلف طفلة ذات ثلاث سنوات ترفعها على كتفيها وتُلقيها على الفراش تهرب الفتيات كلّ في اتجاه، قبضت على واحدة منهن وضعتها في الفراش.

أيُّها الوحش الشرير أنا هُنا تعالي.. قالت إحدى الفتيات ذات خمس سنوات ثُم ركضت تضحك.

حسنًا سوف آتي لك يا أميرة الثلج.. قالت مرثا بصوتٍ غليظٍ وقد أمسكت بها تُدغدغ صدرها فتضحك الفتاة، أمسكت فتاة أخرى بطرف ثيابها مُشيرة إليها بأن تحملها، على وجهها ابتسامة هشّة مُنكسرة.

حبيبتي زينب، سوف أحملك كي أُطعم صغاري بك همممممم.. قالت بصوتٍ حنون، ضحكت ثم دغدغت الفتاة فضحكت بصوت أقل من سابقتها، أقبلت أُخرى قالت وهي تضع يديها خلف ظهرها: ماما مرثا، غنِ لنا.

- حسنًا صغيرتي.

أغمضت عينيها وكأنها تستخرج الكلمات من رُوحها:

- يا مريم البكر فقتِ.. الشمسَ والقمرَ.. وكل نجمٍ بأفلاك السما سرى

يا نجمة الصبح شِعي في معابدنا.. ونوري عقلنا والسمع والبصرا

يا أم يسوع يا أُمي ويا أُملي.. لا تهمليني متى مني الخطا صدرا

أنتِ ملاذي وعوني كُلما ضعفت نفسي.. وجبرًا لقلبي كُلما انكسرا.

كانت الفتيات يستمعن لها بشغفٍ، منهم من نام على حنوّ صوتها ومنهم من ينتظر المزيد من الغناء.. بالخارج ظهر رأس مُديرة الملجأ من النافذة قادمة، صوت كعبها النحاسي ينخر في بلاط الأرض الهزيل، هرعت الفتيات لأسرتهن خوفًا من معاقبتهن رمقت مرثا بنظرة تشي بأن تتعقبها إلى الممر الخارجي وأدارت ظهرها خارجة.

لملمت مرثا شعرها وربطته ببعضه بعروة مطاطة ثم أسدلته خلفها كذنب الحصان ونظرت للفتيات جيدات التمثيل النائمات على الفراش بنصف عين غمزت لهن بابتسامة وخرجت.

مرثا ابنتي، لقد اشتكت المُرشدات من غنائك ترنيمات مسيحية للأطفال المسلمين والمَسيحيين على حد سواء.. قالت المُديرة وهي تضع يديها على السور القصير بالدور الثاني أمام غرف الملجأ كي تستند سمنة جسدها المربع.

انقبض وجه مرثا وارتفع نبضها وقبضت كفّة يدها المُستندة على الحائط وتنفست هواء باردًا ثم زفرته ساخنًا مُحملًا بآه لم يعِها قلب المُديرة المُدثر بالغلظة.

- نعم يا أُمي، لكن هل الترنيمات للسيدة العذراء والمسيح حرام عند المُسلمين؟ لديّ صديقات مُسلمات لم يخبرن أحدهما يومًا بذلك ثم إني قرأت كتبهم ولم أجد إساءة للمسيح أو للسيدة مريم.

قاطعتها العجوز بصوت خشن دون النظر لوجهها:

- ابنتي نحنُ لا نُريد مشاكل مع رجال الدين المُسلمين وقت زيارتهم للملجأ فقد يتهمونا بتنصير الأطفال نحنُ في غنى عن ذلك، تفضلي.

وأشارت بإصبعها القصير نحو غرفة الأطفال مما أشعر مرثا بالهوان (ليتني تزوجت من جميل و أنجبت أطفالًا، لن يتدخل بيني وبينهم أحد ويُملي عليّ ما أُغنّيه لهم).

ذهبت لا ترى سوى ماء الدموع في عينيها تشوه الطريق، وبين غرفة وغرفة كانت تسقط عيناها على ضفيرة فتاة نائمة، وربطة شعر فتاة أُخرى انفكت من الركض واللعب وبين فتاة تتحدث إلى دميتها بصوتٍ همسٍ وبين تلك التي تنظر لها من تحت الغطاء مُبتسمة فترد عليها مرثا بابتسامةٍ مُشققة.

هجرة ذات الجناح

يحدُث أن يُلقنك وطنك درس اللاامواطنة الإجباري فيظل الحنين يتمخض بك حتى تضعه متخفيًّا بين أزقّة المدينة الخاوية من المارة مشوهًا خاليًا من الملامح مُخيفًا قدر ما انتظرت أن تضعه كطفل الخطيئة بقدر ما تتعجل الخلاص منهُ، وطني الذي لم يسمع أصداء عويلي ولم يسعف جناحي الذي قصفه المُعتدي ولم يستر عورتي حين تكشفت ولم يبدِ لي حتى عن أسف جراء مخمصة روحي تخلصت من وطنيتي له كما تخلصت من سفاحي.

ماري كانت قبل عام تكره أن تترك وطنها، كان أبوها يُفضّل أن يموت هُنا بين عائلته على أن يترُك العراق ليُهاجر إلى بلد آخر لا يعرفه ويتحدث بلسانٍ آخر جديد لا يُحيط بأحرفه علمًا ويكون شخصًا جديدًا غير المندائي ذي الثوب الأبيض المُتصبغ بماء نهري دجلة والفُرات، أصغى لنداء الرحيل بعد أن تهاوت ثورة وطنيته أمام ثورة اللاوطنية المُضادة وتآكل الحنين بفعل عثة الخذلان واستسلم للمستقبل كما استسلم للماضي, والجدة العجوز أثقلت الكهولة قدميها فهي تنخش بجوار الحائط لا تُحرك ساكنًا، فقط تُر اقب ماري من بعيد بعينين شعثة نُسجت عليهما سحابة بيضاء كعيني يعقوب ورأس يهبط حين يغلبه وهن النُعاس ويرتفع حين يقضّ مضجعه طلقات تُحيي في قلبها الذي بالكاد ينبض ذكرى الموت البطيء، لم تعد قادرة على الذهاب لبيت المندا (معبد ديني خاص بالديانة الصابئة فيه تُقام شعائرهم وطقوسهم الدينية ويتم تعميدهم به من قبل رجال الدين عادةً على الجانب الأيمن من الأنهار الجارية)، أو حتى ضم ماري لصدرها وقراءة آيات "الكنزا ربا"، تشقق وجهها بخطوط كثيرة باء بها الحُزن إلى الصمت ثم العزلة ثم النسيان، ذات أوقات تتمنى ماري أن تُصاب مثلها بنهم النسيان فلا تذكر شيئًا من عهدها الماضي بتلك المدينة المرجومة بخطيئة لم ترتكبها عسى أن تنسى ما حلّ بها، وليت أباها الكسيح ينسى عجزه وينسى مدينته لكنهُ كُلما نظر لها رأت عجزه في عينيه باديًا وهو انهُ الذي يخبؤهما طوال الوقت في النظر للجريدة أو سماع التلفاز أو النوم الطويل الذي يهرب به من يقظة الحقيقة القابعة في قلبه الموؤد، وكي يهرب من صمت ابنه الصغير عن البوح منذ نام نومة أهل الكهف على قدمي جدته يوم اغتيلت

عفت ابنته, لم يعد هُناك ما يُتيح لهم استخراج إنسانيتهم التي سقطت في بئر الاحتلال الراكد سوى الهجرة حيث تكون الإنسانية إلى بلاد تحترم الإنسان، لم يبد الأب رفضًا واضحًا لذلك، لكن لطالما رأت ماري الرفض في قلبه المُغلق على أوجاعه، وفي يديه حين يقود كُرسيه مُسرعًا نحو غرفته، كانت تراه من حيث لا يراها وهو يضرب الحائط بقبضة يده بقوة عجزه يبكي ويلعن قلة حيلته يضع رأسه على الحائط ضاربًا ناصيته محاولًا عبثًا أن يُظهر أمامها القوة والصبر بعد خروجه من مخبأه لكنها تدرك كُل ما يُخفي وما يُعلن، إنها المُحبة النقية التي ترى بعين قلبها ما تُخفيه قلوب من حولها.

بابا، لقد أحضرت الغداء.. نادتهُ فابتلع ملوحة دمعه واسترجع هدوء صوته الذي شنّجه البكاء المُحتبس عبثًا في حنجرته: حاضر بنتي، أنا قادم.

وضعت ماري يد جدتها التي أضحت كجناح الطير خفيفة ناعمة على كتفها حملتها إلى المائدة وهي تبتسم والجدة تبدو سعيدة وكأن ذاكرتها العجوز قد تصابت، جلسا مُتجاورين أخذت تُطعمها والأب يطعم عبد الواحد:

هاه يا بطل، هذا العام سنقدم أوراقك للمدرسة. قال الأب المُنكسر مُستجلبًا رد ابنته الذي يخافه.

نعم صحيح وسوف يدرس في السويد، أوراقنا ستكون جاهزة قريبًا للهجرة وقد أخبرتني عمتي أنها ستؤمن لنا سكن قريب منها.. قُالت ماري بهدوء ما كان يعلمه الأب ولكنه كان أملًا بغيره، ابتسم بربع فم ابتسامة مُغتالة تتسرب منها الدموع غير المرئية وألان شفتيه المُتشققتين بلسانه ثم وضع الطعام بفمه ثُم نظر للجدة وقال:

- أتذكري يا أمي بيتنا القديم في الجنوب؟

محاولًا ترقيع ثوب المواطنة المُهترئ لدى العائلة.

نظرت لهُ الجدة صامتة بعيني طفل حديث الولادة، عادت ذاكرتها للشيخوخة سريعًا ووهنت كخيوط العنكبوت، تابع حديثه وكانت الجدة تتذكر:

لقد كان لنا بيت هُناك في محافظة ميسان (مُحافظة جنوب العراق) مبني من الطمي وكان جدي يعمل بصناعة الزوارق و أبي بالصيد، كان هواها حين يُلامس موج النهر تبتهج الروح، الغروب فيها شروق, كان منزلنا بجوار كنيسة أم الأحزان حيث نجتمع

جميعًا من كل طائفة مسيحيين ومُسلمين وصابئة ويهود دُون أن يسأل أحدنا الآخر من أي طائفة أنت.

- أبي لقد كان هذا في زمان و انقضى ذلك الزمان.

قُالت ماري بصوتٍ مُتحسّرٍ مُنكسرٍ وقد تركتُ المِلعقة من يدها دون أن تنتبه فكأنما ألقتها على قدمي الأب العاجزتين. نظر للطعام يصطنع شهية حزِنت لحزنه المُختبئ ثم قالت كالتي تعتذر

الآن يا أبي المُسلمون يقتلون النصاري والصابئة والمسلمون يقتلون المُسلمين، القتل أصبح دين هذه البلاد التي لم يبقَ لنا فيها مكان وقد سبقنا للهجرة أكثر من ثلاثة أرباع الصابئة وغير الصابئة أيضًا، لم يعد هُناك ما يجعلنا نستقر بأقدامنا العالقة في الهواء على هذه الأرض المُلغمة بالموت.

نظر للطعام وهو يغمس عينيه في طبق مرق اللوبيا الحمراء مُتحاشيًا النظر لماري:

أين أمكم، لقد تأخرت؟.. قالت الجدة العجوز بصوت رخيم، قد حلقت ذاكرتها الطائرة إلى عهد الأم الميتة فحمدت الله ماري أن أنقذتهما من النقاش المؤلم بغير فائدة.

سوف تأتي قريبًا يا جدتي.. قُالت وهي تضع الطعام بفم الجدة والأب ينظر لعبد الواحد الذي فقد النطق وفقد الجميع الأمل في رجوعه, نظرت ماري لأخيها ثم لأبيها مُبتسمة وقالت بحماسٍ:

- عِندما نصل للسويد سوف أعرض أخي لطبيب هُناك أخبرتني عنه عمتي يُثني عليه الكثيرون.

كان الأب هو أكثر من الجدة تيهًا وأكثر من عبد الواحد صمتًا وأكثر من ماري انكسارًا وحُزنًا لكنه لم يتنحَّ أبدًا عن دوره القوي، وكانت ماري من قوته الوهمية تستمد قوتها الحقيقية كي تمضي قُدمًا للأمام دون أن تلتفت وراءها فتتعثر بالمُستقبل.

شبع الجميع من وجبة الطعام تلك التي بنكهة الحزن، قامت ماري من سفرة الطعام غسلت الأطباق وقدّمت لوالدها الشاي ثم خلت بخواطرها:

لقد قُصت ضفائري وهي خضراء وجفت طفولتي بأوان ريها لكني ما زلت أستسقي سماء الأمل، ما زلتُ أرى الحياة جميلة رغم أنها لم تكشف لي عن جمالها هذا يوم لم تكتمل لي قصة حب مع أحد ولم أحتفظ بذكرى واسعة لمكان، منذ أتيت للدُنيا نتنقل

من سكن لآخر بحثًا عن أمان و أنا أبحث داخل كل مكان عن ذكرى تجعلني أُحبه لكن لا ذكرى ولا حُب ولا شيء أبدًا غير الألم، كم كُنت هزيلة العاطفة حين ظننتُ أن الموت أفضل من الرحيل عن الوطن وقنص الهوية، وأن الحياة خارج حدوده انتحار, كبرتُ وصغر في عيني الوطن لكنه باقٍ في أحشائي إلى أن يأتي أوان مخاضه.

واشنطن (سياتل)

السماء ملبّدة والقمر بدر مكتمل النمو لكنه محتجب خلف السحاب الرّمادية تارة وتارة خلف المباني الشاهقة، لكنه يقاوم ويظهر كُلما وجد فرصة ليطلّ برأسه على شرفة إقليدس.

الأرض والمباني تلمعان أثر غسيل المطر الكثيف لها و إقليدس يستمع إلى معزوفة ياني (حلم رجل واحد) مغمض العينين مُسترخٍ يلاعب أصابعه مع النغم كما لو كان المايسترو ورأسه تهتز مع اللحن كما لو كان يقرأ طلاسم اللحن الخفية.

انتهى المقطع ثم أعقبه مقطوعة "كريسماليس" تفاعل معها عكس سابقتها فأخذ يتجوّل بأنحاء مسكنه يتر اقص معها وحيدًا يدور حول الكراسي والطاولة يزيد حركته مع ارتفاع اللحن ويقلّ مع هدوئه، لم ينتبه لتوقف هطول المطر إلا حين وقف أمام زُجاج النافذة ونظر لجبينه أصبح خطوطًا متوازية مُندهشًا: لقد قضى مني الانشغال وطرًا حتى لم أنتبه لشعري المُتناثر. هيئتي رثّة وعيني مُرهقتين من طول النظر في الكُتب ونظارتي قد ترهّلت يئس إطارها من الحياة، ويحي أبدو كأولئك الفلاسفة الزاهدين لا بد من صابون بر ائحة جيدة وحمام طويل الأجل بماءٍ حار. ثم الكثير من كريم تصفيف الشعر بعد أن أحلق ما بذره الانشغال في لحيتي.

انتهى من حمّامه، اغتسل من شعر رأسه لأخمص قدميه بعد أن حلَق لحيته ثُم وقف أمام المرآة يصفّف شعره فبدا وكأنه شخص آخر غير الذي كان قبل قليل.

عدة اقتراحات بمناسبة صمت زخات المطر المُفاجئ، إما أن أذهب لتناول العشاء خارجًا وهذا كُلفته تُهدد ميز انية باقي الأسبوع أو أتناول مشروبًا ساخنًا على معدة خاوية أدفئ بها برودتي، أو أصنع لي وجبة وأذهب أتمشى قليلًا أقبض في صدري على أكبر كمية هواء نقية من الجو مُلتهمًا وجبتي.. يبدو أن الخيار الأخير أنسب ولكن عليّ أن أنتظر بعض الوقت قبل الخروج كي لا يصدمني الهواء البارد بالخارج ثم لا ضيرَ في أن أصطحب مظلتي تحسبًا لمفاجأت المطر.

خرج إقليدس ينظر للقمر مُبتهجًا، أوحى إليه القمر بذكرياتٍ جميلةٍ مع صديقه صالح تمنى لو يتحدث معه ولو قليلًا ولكنه فضّل أن يبعث له برسالة على بريده فور وصوله لمسكنه، راوده الندم بُرهة حين تلفّت يمينًا ويسارًا فوجد الطريق خاليًا تقريبًا من المارة والأرض تُسبح بحمد الماء، لام وحدته ولام غربته ولكن سرعان ما تبددت تلك الأحاسيس بالحماس لقد بقي عام واحد ويتخرج من كلية الطب ويُصبح طبيبًا جراحًا.

لن أسمح أن يبتر الحنين ساعد الأمل لديّ فأنا ما زلتُ لم أُحقق من أحلامي شيئًا، ما زال الطريق أمامي كهذا الدرب طويل السعي، على جانب الطريق وجد قطًّا شريدًا مُغتسلًا بالماء رغمًا عنهُ،

القط الحيوان الوحيد الذي ينفر من الماء أو رُبما الماء هو الذي ينفر منه لا أحد يستطيع فهم السبب، جلس إقليدس أمامه نظر لعينيه فوجد فيهما وحشة، نبدو نحن الاثنين متشابهين فأنا و أنت لا جليس ولا أنيس لنا غير السماء والقمر، كَم تُشبهني عيناك أُيها القط ! نظر القط لإقليدس بعينين مُتهدّلتين بالكاد يرفع جفنيهما ومضى مُختبئًا أسفل سيارة من قسوة الشتاء لم يظهر إلا ذيله يتحرك، أخذ يقضم وجبته وعينيه تذرفان دموعًا كاللآلئ، فهو برغم فرط وحشته وغُربته إلا أنه يؤثرها على حياته الماضية، بجوار تلك السيارة التي اغتسلت بعناية بماء المطر رسم قلبًا فارغًا ومضى، نظر لساعتهِ مُدمدمًا: لا بُد أن أعود للمنزل الآن فلديّ غدًا يوم دراسي.. أثناء ذلك دقّ الهاتف النقال برقم غريب ليس موجودًا بقائمة أصدقائه الصغيرة المكونة من رئيس قسمه وزملائه بالمختبر وبعض أساتذته.

- مرحبًا.

- مرحبًا آسر، أنا روز.

- مرحبًا روز، كيف مساؤك؟

- مُمتاز جدًّا، أردتُ أن أُخبرك أننا سوف نأتي إلى سياتل غدًا لدينا حفل بنهاية الأسبوع.

- رائع جدًّا! في أي ملهى؟

- لا أعلم، سوف أُخبرك غدًا.

- ما رأيك أن نلتقي غدًا في مقهى سينابون؟

- جيد، سوف أكون هُناك بالثامنة ليلًا.. إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

هذه صدفة جميلة فقد كان إقليدس بحاجة لمن يتحدث معه، والآن سيذهب يتهيأ ليوم غد، بعد نهاية اليوم الدراسي عليه أن يذهب ليشتري قميصًا وبنطالًا جديدًا، في الناحية الأُخرى كان يُرتب صالح لسفرٍ جديدٍ وهو مُوقن أنه لن يعود وإن عاد لن يكون كما ذهب، إنه على يقين بأنه سوف يفقد شيئًا أو يجد شيئًا.

في الصباح الشمس مُحتجبة خلف غيم رمادي كثيف و إقليدس ينظر للمرآة مُنتشيًا بيومٍ جديدٍ وموعدٍ جديدٍ، كانت النافذة باردة حين وضع يديه عليها يُلامس نعومة الزُجاج مُلصقًا وجهه الدافئ يتبادل مع الزجاج برودته, اليوم لديه دروس عملية لا بد من اصطحاب معطف أبيض ثانٍ احتياطيًّا ففعل ووضع المزيد من العطرعلى قميصه وفرّق شعره صفّين على جبهته وخرج مُغلقًا الباب وراءه.

يشعر أنه في أكثر الأيام حظًّا، اليوم السعيد يزهو فيه الشارع بلونٍ جديد كما لو لم يمر به من قبل، تظهر فيه السيارات مصفوفة كما لو كانت أوركسترا وهو العازف الوحيد، الحُب وحدهُ قادر على أن يُريك ما لم تكن ترى.

في نهاية اليوم الدراسي لملم أشياءه سريعًا، ارتدى معطفه وجمع أوراقه وكتبه و أقلامه ووضعها بالحقيبة مُتلهفًا للعودة إلى المنزل كي يأخذ قسطًا من الراحة ثم يُرتّب لموعده مع روز.

أنت عربي؟.. سأله شاب وهو يخلع معطفه يضعه جانبًا، طويل نحيل ناعم الشعر ذو لحية خفيفة.

نعم أنا عربي.. أجابه مع ابتسامة مُوحيًا للآخر تفاخره بعروبته.

وماذا عن السائل؟.. سأل إقليدس وهو موقن بأنه ليس عربيًّا، يبدو ذلك من هيئته ولغته الصحيحة.

لا لستُ عربيًّا.. قال بنبرة غير مفهومة وهو ينظر لورقةٍ بيده وقال بنبرة شك: هل أنت مُسلم؟

أكره أن يسألني أحدهم عن دياتي فلا بد أن يكون بقلب سائل هذا السؤال نبضًا طائفيًّا هُو الذي حرّك لسانه بهذا السؤال.. قال إقليدس لنفسه ثم انحنى ينظر للرجل الذي جلس يُقلّب عينيه بأوراقه. قال مُبتسمًا ابتسامة مُتهدّلة محشوّة بغصّة في حلقه:

- مُسلم مُحب لكل الأديان.

ترك الشاب الأوراق من يده فتبعثرت، نظر في وجه إقليدس وقد حاول جاهدًا أن يُخبئ انفعاله خلف ابتسامة قلقة ثم قال وكأنه يبصق عليه: إذا كُنت مُسلمًا فعليك فقط أن تُحب دينك وهو الإسلام. ثم انتصب واقفًا، وضع أوراقه المُتناثرة بحقيبته، مدّ يده مصافحًا إقليدس كالذي سيُبارزه قائلًا بثقة تُوحي بشيء ما رُبما إنه غرور أو ثقة في مبارزة إقليدس بالحوار:

- اسمي سام، سوف نلتقي هُنا كثيرًا.

ثم انصرف، وقف إقليدس لم يُبدِ ردة فعل ثم عادت لوجهه الفرحة تذكر أن عليه الذهاب مُسرعًا لمسكنهِ دون أن يُلقي بحديث الشاب الغريب سوى القليل من الاهتمام.

المساء يبدو مضطربًا ثم آفل اضطرابه بعد أخذ جرعة أُخرى من الرقص الخفيف على لحن (slowly)، صفف شعره هذه المرة للخلف فبدا مختلفًا وكأنهُ شخص آخر غير الذي اعتاد عليه قائلًا لنفسه في المرآة كالذي يُواسيها على تغيير مظهره: حسنًا، لأكون شخصًا آخر هذه الليلة.

في مقهى سينابون جلس إقليدس مُنتظرًا روز على شوق، أخفى عينيه المتشوقتين في مجلة كانت أمامه على الطاولة ويشعر أن الجلوس جميعًا يقرأون عينيه اللاهثتين.

مرحبا.. قالت روز وقد اقتربت منه تُقبّله على خديه ثم جلست على الكُرسي المقابل بعد أن وضعت معطفها على الكُرسي فانقبض قلبه ثم انبسط:

مرحبًا، تبدين رائعة.. ابتسمت ملء فكيها ثم أخبرته أن الحفل سيكون بفندق ولن يتمكن من الحضور.

- حسنًا سوف أستمتع بعزفك المنفرد بدون صخب الحضور.

قال مُبتسمًا بأناقة وثقة

- بالطبع سأفعل، أخبرني كيف ترى الدراسة هُنا؟

- إنها رائعة، لكن أشعر بالرتابة والملل كثيرًا.

- رُبما الملل من أساسيات الحياة لولاه لمُتنا من الملل.

ثُم ضحكت فأغمضت عينيها، لم يظهر سوى الشعاع الأزرق من عدستيهما.. قال إقليدس وهُو يُشير بيده للنادلة:

- رُبما ليس بعد، فقد قال طالعي سوف تجد من يُبدد ثلوج الملل لديك اليوم بعد لقاء يُتيح لك الحُب.

نظرت له بإعجاب وعيناها تلمعان.. لم يكن يستطيع أن يفرّق هل عينيها اللتان تلمعان أم عيناه؟ عاد لمسكنه مُنتشيًا بعد أن ودّعها مُتفقين على موعد آخر.

السماء لا تزال محتجبة بخيمة رمادية أُخرى ثُم أخذ المطر يهطل بغزارة على الطرقات، صوت المطر كان قويًّا وزمزمة الرعد كذلك، ولكنه لم يكن يسمع سوى صوت موسيقى الحب ويتر اقص عليها بالطريق، يده اليُمنى تحمل المظلة الو اقية من المطر ويده اليُسرى في جيب معطفه مختبئة من البرد.. دخل مسكنه، أغلق مظلته ثُم وضعها جانبًا وخلع معطفه وحذاءه ثم أحضر الحاسوب، كان أروع من يُشاركه لحظته هو صالح فكتب لهُ:

"صالح صديقي، أنا في أيام حظي السعيدة، لكم تمنيت أن تكون معي تُشاركني فرحتي، اشتقتُ إليك كثيرًا وأحنّ لأيامنا واشتقتُ لسعيد، أنا هُنا أقضي وقتًا ر ائعًا بين الدراسة والمُطالعة وبين الحب، نعم لقد دقّ قلبي مع لحن الفيولا، فتاة جميلة تدرس المُوسيقى جميلة كزهور اللوتس، سوف أبعث لك صورتها، الكُل هُنا مبتسمون، الأطفال والكهول الكُل هُنا سواء بكل الحقوق، لا تنساني بالدُعاء.. أخوك إقليدس".

وضع قدميه على المنضدة وشبّك يديه يتمطى وأسند ظهره للكُرسي وسحب شهيقًا محشوًّا بالشوق والحنين وبعض الحزن ثم زفير ثم تثائب مُغمضًا عينيه مُستسلمًا للنوم.

مدينة الموت

حين وضعت آخر ما وددتُ أخذه معي بالحقيبة التي حملتها وكأني أحمل نعشي، القلادة التي تحمل رائحة أمي ودفتر مُذكراتي وقارورة عطري، عِندها وقفت أتأمل مسكننا كثيرًا الذي جمعني بأصدقاء دربي.. دخلت غرفة إقليدس، لامست كتبه على المكتبة، لامست فراشه براحة يدي أتجرع فراق صديقي الغائب، أغلقت النافذة التي تطلّ على الشارع مخافة أن يجتاحها غبار الطريق فيأتي إقليدس ويجدها مُتسخة، أُرتب لأشياء لن تحدث فتلك الغرف سوف ينبش قبرها صاحب العقار ويرمي أعمارنا خارج حسابات المكان، ما أصعب أن ننتظر من لن يعود! أسدلت الستار فأظلمت الغرفة ومشيت على هون، كان سعيد يتعجلني بصوت بوق السيارة الذي يُثير توتري ولكني ما زلت أتلكأ في السير ناظرًا للجدران والنوافذ ثم أغلقت الإنارة وأغلقت الباب حاملًا حقيبتي ماضيًا بالحزن الذي ينخر سواعدي مع ثقل الحقيبة ويُثقل قُدمي.

- ما بكَ، لماذا كل هذا التأخير؟

- كُنتُ أودع مكانًا رُبما لن يجمعنا ثانية.

أنت لا تكفّ عن البؤس والتشاؤم.. قال سعيد مكفهر الوجه ثم بدّل وجهه العابس سريعًا بآخر مُبتسمًا يرفع من حالة صديقه المعنوية المُنخفضة.. جلس صالح بالسيارة يُفكر في الملجأ كيف أنه لم يودع الأطفال ولا مُعلميه ثم تذكرعلى حين غرّة مرثا، نظر لسعيد نظرة خيبة ثم ما لبث أن وكز ذاكرته وصمت عن التفكير، بدا على عينيه الإرهاق، وضع رأسه المهموم متكأ على نافذة السيارة التي تنقلهم إلى المطار ناظرًا إلى الطريق الذي بدا كخط مُستقيم حتى الأشجار بدت من سرعة السيارة مُتشابكة، ودّ لو أن السيارة تتعطل أو تقل سُرعتها كي يفوتهم موعد الإقلاع، حالته النفسية هذه المرة على النقيض من حالته حين كان مُتجهًا للهند وبعض الأحوال غربال.

هل أخشى الموت والفُراق؟ أم أكره أن أموت دون أن أشعر بأني قد عِشت بالأصل؟ لا أدري لكني دائمًا أشعر أن عمري طويل جدًّا أطول من عمر الدُّنيا، لكنه إحساس كاذب صادق حدّ السفه.. قالت لي امرأة عرّافة ذات يوم إن عمري طويل جدًّا مثل

أشجار الدوم و إني سأرى كل أحبائي يموتون من حولي و أنا أقف وحيدًا مُتفرجًا على سقوط أوراقهم حتى يأتِ دوري لأموت وحيدًا.

"كذب المنجمون وإن صدقوا".

لا يُخيفني الموت لكني أكره أن أجعل من الموت مجرد صورة فجيعة تهب فتُنهي حياة وآمال البعض، أصيغها فقط بكبسة زوم على آلة التصوير، نرى على أثرها الموت مجرد دُمى مُتحركة، نشم رائحتهُ غير الواقعية ونذوق طعمه الخيالي ونعتاده كما لو كان مناسبة عامة، شيء يُهلك الحواس لا أُريد أن أقدم وجبات الموت البارد.

لماذا نحنُ دائمًا في الحياة على شفا الموت؟ هو فقط زمان بسيط يفصل بين نقطة البدء ونُقطة النهاية لو قِسناه بعمر أصغرالكائنات لكان أقلّهم... وبينما صالح كان يتخاطر مع نفسه وصلت السيارة، علم ذلك من انخفاض صوت أزيز المحرك ففتح عينيه وشكر السائق بلطف وأعطاه أجرته وجرّ حقيبته على الأرض مُتعمدًا كأن حقيبته تُقبّل الأرض وداعًا، نظر وراءه فلا أحد يُودعه فغمرت عينيه الدموع خبأها تحت نظارتهُ الشمسية وذهب سعيد يتحدث بهاتفه النقال بعيدًا مُتدثرًا من أُذني صديقه تاركًا حقيبته بجوار صالح الذي كان يجلس في الاستقبال حانيًا ظهره عيناه تنظران لنقطة واحدة في الأرض لأول مرةٍ يكون بين زحام ولا يرى أحدًا؛ رُبما لأنه لم يره أحد أو لأن الحزن حجب عنه من حوله.. أخرج أجندته وقلمه وكتب:

إلى أم أخى

إلى امرأة رُبما هى من الأحياء ورُبما هى قيد الأموات

أو فى مكان ما تنتظره

ورُبما هى مثلى لم تحىَ ولم تمت

لم أبخس قدر حُبك أُنملة

أم أخى الذى لم يودعنى اليوم عند رحيلى

ويُخبرنى كم يتمنى أن أصطحبه

والذى لن يُهاتفنى بالصباح ليقول لى

كيف سفرتك يا شقي ؟ أُمي لك مُشتاقة..
يا أم أخي التي رُبما كُنت أول وآخر أولادها
التي خيالها لم يكفّ عن العبث بي حدّ السفاهة
والتي يُلقيني ظل ردائها بأعمق متاهة
قد كبُرت يا أمي والله
وأستطيع أن أحمي عينيكِ من الليالي الغابرة
وأكون مظلتك في الأيام المُمطرة
أبدًا لم أكن عليكِ حاقدًا أو لكِ كارهًا، لا
رُبما تفتقديني وتبحثين عني في غياهب العوالم الأُخرى
لكم غزلت صورتك مع القمر في الأيام المُقمرة!
وكم تخيلت وجهك في كُل الوجوه العابرة!
في وجوه الأطفال والمُعلمات والتلاميذ
على جدران ملجأ الأيتام وعلى تراب المقبرة
يا من لا أبحث عنكِ ولا تبحثين عني
أُريدك قديسةً كُنتِ أو عاهرة.

......

نُودي على الرحلة المُتجهة إلى بغداد فوضع مُذكرته بحقيبته و ابتلع مُلوحة دموعه كعادته سار جنبًا إلى جنب مع صديقهِ الذي تبقى وقد دفن أحزانه في مقبرة قلبه وهي على قيد الحياة.

جلس بمقعده، تباطأ نبض قلبه السريع ونحيب ذاكرته العالي وغمرته فرحة صغيرة بحجم تلك التي تأتي للطفل النائم فيضحك ويتعجب الحضور وتقول عنه الأمهات: أضحكتهُ الملائكة.. ثم غفى مطمئنًا بعض الشيء، كان قد مرّ وقت طويل لم يرَ

فيه منامًا يشعر معه بسعادة ودفء تتغلل بروحه رغم أن هذا الحُلم لم يتعدَّ الثو اني ولكنه لامس قلبه بهدوء وخفّة كالفراشة حين تُلامس بتلة الزهرة، رأى أنه في ممر مُظلم بصدرهِ صلصلة خوف بسيطة وقوية، ثم ظهر فجأة بالظلام وجه رجل يحمل عصا مُضيئة لكن ضوء وجهه كان أكثر، اقترب منه ملأ شعوره دهشة، أعطاه الرجل العصا فأضاءت ما حوله و أنار الطريق و انكشفت مخابئه، طويل مُمتد على جانبيه الكثيرمن الممرات غيرالواضحة. فتح عينيه ينظر لساعتهِ ثم لنافذة الطائرة, ابتهج كما لم يكن هو ذلك الحزين الباكي الذي كان بصالة الانتظار قبل قليل.

- صالح! تعال وبدّل المكان معي، أُريد أن أرى المنظر من النافذة.

- لا بأس تعال .

كان سعيد فرحًا، تلمع عيناه تحمسًا، هذه المرة الأولى التي يراه صالح كذلك فكثيرًا ما يراه مُتحمسًا قليل ما يراه سعيدًا.

في الطائرة الكثير من الصحفيين ورجال الأعمال، تستطيع التعرف على الصحفي والمُسافر العادي من رجل الأعمال؛ فهؤلاء يظهرعليهم الترف من بدلاتهم اللامعة وعطرهم الفوّاح ودائمًا ينظرون للساعة السويسرية التي بأيديهم قاضبين الجبين متذمرين ناظرين للطعام أمامهم بقرف رغم الخدمات التي تُقدم لهم والاهتمام من قبل المُضيفات، أما الصحفيون فحاملون زيّهم الخاص مع كاميراتهم كأولائك الجنود الر ابضين على جبهات القتال، يقرأون الجريدة ذاتها مرارًا وتكرارًا ولا يملّون النظر من النافذة.

وصلوا وكان الوقت قُبيل الغروب، الشوراع خالية نوعًا ما بسبب حظرالتجول إلا من بعض الجنود, أصوات دمدمة الرصاص ورائحة الموت لأول مرة تعبر إلى أنوفهم مُباشرة.. بداية مُخيفة كانت سابقًا تعبر إلى أعينهم عبر الشاشات وكان صالح يظن نفسه قد اعتادها ولكن بعض الظن يخون الحقيقة, بالفندق عرس على نقيض خارجه، بدا المشهد كله جنائزيًا وفُكاهيًا كمسرحيات الكُوميديا السوداء.

استلموا مفاتيح الغرفة، وضعوا حقائبهم، أغلق صالح هاتفه ونام كالمغشي عليه ثُم أيقظه تقلب معدته وأصوات كركرة الفراغ بها، إحساس الجوع كفيل لينقلب على

سُلطان النوم فيسرق عرشه، تلفّت حوله فلم يجد سوى زميلهم الثالث نائم وسعيد غير موجود، فتح هاتفه النقال باغته اتصال سعيد:

صالح، ماذا أُحضر لك من الأطعمة؟

أي طعام؟.. قُال وقد بدت معدته خاوية تمامًا حين تحسسها بأصابعهِ.

أحضر سعيد الطعام؛ كبّة أرز موصولية مع سلطة، تناول ثلاثتهم الطعام بعد تقطيعها لثلاثة قطع ثم تلقى صالح اتصالًا من الوكالة بأن في صباح غد باكرًا سوف يأتي من يصطحبهم إلى شوراع المنصوروسط بغداد لرصد الحركة هُناك وتزويد الوكالة بالصور، يبدو المنظر من النافذة مُرعبًا! رُبما بسبب انقطاع الكهرباء عن أغلب المناطق.. قال صالح لسعيد الذي يقلب في حاسوبه ولم ينتبه ثم قال: لا تكن مطمئنًا هكذا فرُبما يُصيبنا صاروخ ونحن جالسين هُنا. فنظر له مُبتسمًا وقال:

- أو رُبما في الشارع صباح الغد أثناء تجوالنا ههههههه.

انتبهت فقط حين ذكرت لك الموت، اعطنِ الحاسوب لأبعث رسالة إلى إقليدس.. لكنهُ بدا مُنشغلًا للغاية بالحاسوب، كُلما اقترب منهُ يأخذه جانبًا كأنه طفل يعبث، يفعل الخطأَ ويُخفي جريمته.

في الصباح تناولوا الفطور بالفندق قيمر (فطورعراقي شهير) وكاكي وجبن وخبز وحليب مع شاي وعندما انتهوا حمل صالح حقيبته وآلة التصوير ومعه سعيد وصديق لهما من الوكالة اسمه إسماعيل، عِندما كان خارجًا مُنشغلًا بآلة التصوير وحقيبته المُتأرجحة ورباط حذائه وأزرار قميصه كلّ بوقت واحد صدم فتاة كانت مسرعة، نظر لها على عجلة من أمره كي يعتذر ويمضي لكن حين نظر لها لم يعتذر ولم يمضِ، رأى كيف في عينيها تُشرق الشمس وكيف غاب هُو؟ كيف قُضّب الكون حين قُضب جبينها المُنزعج؟ كيف صمت الرصاص عن الكلام المُباح حين رفعت كفها مُشيرة له بالسلام العابر تُوحي بعدم استيائها؟ ذهبت هي وذهبت عيناه تُر اقبها، اختفت في أحد الممرات داخل الفُندق تاركةً عينيها تُشرقان في قلبه بلا مغيب، إنها إيزيس آلهة الخضرة والنقاء، هي حواء المُمتلئة دهاقًا بكل الحسن.

إن هذا لا يُحتمل.. قال سعيد وهو يُنظّف حذاءه بعد أن غُرس بالطين ثُم ركب بالسيارة مشمئزًّا ونادى صاحبه صالح الذي كان شارد الذهن، ذهبوا يستبقون

الأحداث بالشوراع مُتلصصين الأخبار من ذوي العيون الخائفة يسجلون الحُزن، مجرد سطرٍ من حبرٍ لا يعي حجم الموت المُخيم على الأرض بعباءته السوداء التي تحجب الأمل لكن في قلبه هو نُفخت روح الحُب.

في الشارع حركة الأسواق سريعة تهدأ حين سماع صوت الانفجار، كُنت بين الحياة في عين الفتاة التي رأيتها وبين الموت في طُرقات بغداد مُتحيرًا كأن تلك العينين هما القوة التي منحتها لي الصدفة كي أسير بين الشوارع المقصوفة تلك مُتحيزًا لصفوف الأحياء.

كان شبح الفقر جليًّا للناظر لكنهُ ليس أشد فتكًا من شبح الرعب، بدت لي تلك المدينة أن لا دين لها إلا الموت ولا طائفة لها إلا الطائفية ولا قيمة هُنا للإنسانية. أنا الذي لا أُجيد التعبير عن الموت ولو بكلمة، كُنت أعتقد أني كمصور سوف ألتقط فقط صورًا للحياة وللطبيعة وللجمال لكني هُنا أزدري قناعتي و أبخس قدر آلتي التي ظننتُها بوصلة الحب فكانت هُنا بوصلة تتجه حيث الموت و اندثار الحضارة. وجدتُ نفسي مُرغمًا على تصوير ما لا أهوى.

شعرتُ و أنا أتنقّل من مكان إلى مكان ومن سوق إلى سوق، إني أسير في "كوبا" بين الفلاحين المُستضعفين من قبل الإمبريالية الأمريكية الذين يكدحون في أرضهم ويُستعبدون فيها بل ويُصلبون على أشجارها التي رُويت بدمائهم يعانون دون جدوى الحياة الكريمة أو إنني أسير بملجأ أيتام كبير بحجم الأرض يفتقر لأدنى مستوى للإنسانية، جميعهم أيتام وجميعهم يحملون فظاظة مُديرة ملجأ الأيتام قاسية الوجه، جميعهم ضحايا ومُدانين لجرمٍ لم يرتكبوه.

الإسراف الكثيف في الحديث عن هذا البلد عبر الشاشات والجرائد بيدَ أن داخلها الناس صامتون، الصمت الذي يعقب الثرثرة أو اليأس الذي يعقب محاولات العيش الكريم، الطيور صامتة قد حلّ بها وباء الحزن لا فرق بين عيني طفل بالسادسة أو كهل بالستين من العمر، شعرتُ بالملل فجأة ثم الضّجر، لا أحد يُريد أن يتحدث، كأنما الجميع في حالة حداد على أحيائهم قبل موتاهم، كُلما حاولت جاهدًا أن أتحدث حول المعيشة كُنت أُقلب رمادًا يُرهق أعين الناظرين مشهده وكُلما تحدثت عن دين أو معتقد شعرتُ كأني أقلّب جمرًا، الشوارع هي المُتحدث نيابة عن الكل فهي الشاهد الوحيد الذي لا تُزدرى شهادته.

عُدنا في المساء بخفّي حُنين، فلا شأن للوكالة بحزن المارة ولا بسوط الموت الذي يجلدهم به المُتآمرون، هي فقط تُريد الخبر القوي لتضعه على غلاف العدد الذي تبيعه لتجلب به استعطاف القارئ ومن يستنشق رذاذ الموت كُل صباح مع قهوته الصباحية.

بالمساء المدينة هادئة الهدوء النسبي ولكنه هذه المرة لم يسبق العاصفة بل تزامن معها،كانت الغبرة ما زالت في مهدها، النافذة تحمل خليطًا من الأتربة الرملية شديدة النعومة مع رائحة الحرائق القادمة من بعيد، السماء سوداء والنجوم مُضيئة كانت على نقيض تلك البقعة من الأرض تمامًا، فمن ينظر للسماء يبتهج فتتعلق يديه بالنجوم ومن ينظر للأرض تصطدم قدميه بخيبة الأمل مُحدثة فرقعة وجلبة بكل الحواس لكن عشقي للنجوم يبخس قدر مشاهدة الأرض.. أحضر سعيد الطعام؛ برغل دجاج بالخضار مع سلطة متنوعة وخبز، أما إسماعيل فقد تناول زبادي لأنه يُفضل العشاء الخفيف كونه يشكو دائمًا من تقلصات القولون، ثُم ذهب للنوم.

أخذ سعيد يروح ويجيء مُحدثًا صوتًا بحذائه الجلدي على بلاط الغرفة وهو ينظر لصالح وكأنه يُحيك بمخيلته حديثًا سوف يطرحه بعد قليل ثم يعود ليصلح بعض الكلمات ويعود ليحيكها وكل ذلك وصالح صامت ينظر من النافذة للمدينة وهي ترتدي الليل الأسود ونجومه كحدادٍ آخر.

صالح، غدًا سأعرّفك على أصدقاء لي هُنا، هل ستأتي معي؟.. ناداه سعيد بنبرة رقّة محاكة بطريقة ساذجة: صالح، صالح؟

لكن صالح قد تعلقت عيناه بالنجوم ثم سقطت على وجه سعيد الذي تمور أعينه وقد وضع الطعام والماء والكولا كعادته حين يود طرح ما عنده مُوهمًا نفسه أنه بذلك سيرقّ قلب رفيقه لحديثه ويستمع لما سيُطرح باهتمام زائد عمَا سبق.

ومَن هم أصدقائك؟.. قال صالح بعدما جلس أمامه وجهًا لوجه فلم يرفع سعيد عينيه عن الطاولة التي وضع عليها الطعام خوفًا من فراسة صاحبه يُخبئ لجلجة عينيه في الطبق.

ثُم أجاب بصوت مُسترقق: ااااأصدقاء قد تعرفت عليهم منذ فترة عن طريق أحد المُنتديات.

على نقيض ما ظن سعيد أن صاحبه سوف يطلب منه تفاصيل و إنه سوف يجتهد في حياكة قصة طويلة الأحداث وصنع المزيد من الحجج والبراهين و إنه قد يقع بمنتصف الحديث ويخر على الأرض مهزومًا بكذبه لأنه يعرف أنه يُجيد قراءة الحقيقة في عينيه.

لكن صالح قد حرّكت فيه النجوم الحنين لأشياء يجهلها لكنها داخله، والحنين لإقليدس الذي لم يعد يربطهما سوى رسائل البريد الإلكتروني فخطر له أن يُراسله.. قام من مكانه وصبت الغبرة جام غضبها على الأرض واحتجبت النجوم وارتدت السماء حداد الغبرة كنوع آخر من الحزن.

سعيد، أين الكومبيوتر المحمول؟.. سأل صالح بعد جولة تفتيش صغيرة.

تنفس سعيد الصعداء وشعر أنه قد أُنقذ من وحل الحديث ورُحم من الأكاذيب التي كان سيقُصها لصديقه كي يقبل بزيارته غير شرعية وغير معلومة الهوية لأصدقائه ثم قال كالذي آفاق: الكومبيوتر هُناك على المكتب.

أخذ صالح الحاسوب على عجلة من أمره مُتشوقًا لرسالة من صديقه، وجد ثلاث رسائل واردة؛ واحدة من أحد زملائه بالعمل، فلم يكترث لها وأُخرى من مجهول لم يعرفه فلم يفتحها لأنه لاحظ رسالة إقليدس فتحها مُتلهفًا فاغرًا فاه تبرق عيناه.

قرأها سريعًا ثم بتأنٍّ ثم أعاد الثالثة بتأنٍّ أكثر وفي كل مرة يفرح من جديد حين يقرأ كلمة "دق قلبي مع الفيولا"، سقطت من عينيه دمعتان حبيستان منذ المرة الأولى التي قرأ فيها الرسالة، ثم استجمع فرحته بأصابع يديه كي يكتب بهما رسالته وكان يكتُب ثم يمسح ثم يكتب ويمسح، حتى استقر على الرسالة التي سوف يبعثها ردًّا على رسالته، قرأها للمرة الأخيرة وبعثها ثم بعد الإرسال قرأها: "صديق رُوحي إقليدس، لو لم يبقَ لي إلا دعوة واحدة مُستجابة بعمري لادّخرتها لك، كم أنا سعيد لأمر حبيبتك! وبالطبع هي جميلة فهي اختيارك، لكن تذكر أننا سوف ندرس معًا الفلسفة، لا تسبقني لها وتترُكني وحيدًا فأنا بدونك لن أصلح لذلك، سعيد بخير ونحن في العراق الآن حيث ما حولي على النقيض مما حولك تمامًا لكني برغم كُل هذا أشعر بداخلي سكينة وهدوءًا برغم أنه مُحمل بالغبار والدُخان ورائحة الموتي المُتفرقة.. اشتقت إليك كثيرًا".

بعد أن أرسلها قرأها، ندم على آخر سطر بها وتمنى لو لم يبعثه ثم انتظر رُبما يفتح إقليدس ليراها ولكن انتظاره لم يُثمر, أغلق حاسوبه نظر بجواره حيث سعيد قد غطّ بالنوم بعد أن امتلأت معدته فأصدرت بناء على ذلك أصو اتًا تُفيد بأن صاحبها لن يفيق وأن غيبوبة النوم التي اجتاحتهُ سوف يطول مداها للصباح, تناول ما تبقى من برغل الدجاج والخضار الشهي والخُبز والكولا, تناوبت على ذاكرته بعض المشاهد من الملجأ والجامعة ومشهد لأحمد وهو يُغني ثم مشهد لإقليدس ومشهد عيني مرثا وهي خائفة ومشهد حديث وهو عيني الفتاة التي رآها اليوم، رفع عينيه إلى السقف.. هل هذه الفتاة هُنا للعمل أم هي عر اقية؟ هل تعمل بالصحافة وهي نزيلة هنا مثلهم أم فقط دخولها الفُندق كان محض صُدفة ورُبما لن يراها ثانية؟ غلبه النُعاس، لم يشعر إلا بقرع جرس الحُجرة بالصباح لعمال النظافة.

عليه التهيؤ لتناول الإفطار ثم الذهاب ليجوب الشوارع بحثًا عن خبر أو صورة قد تُرضي عليه سخط مُديره الذي هاتف صديقهم المُراسل يحذرهم من طول صمت الأخبار وأن تبوء سفرتهم بالفشل فعليهم أن يرضوا جشعه بالجدية في الحصول على الأخبار كي تقيهم شر ذلك الذي يتميز شراهة للأخبار, ارتدي صالح زي الصحافة هو وصديقيه ثم تناولوا الطعام سريعًا بالقاعة التي تقع بمدخل الفندق وهو يتلفّت خِلسة وبدون أن يلحظ أحد إلى ممرات الفُندق والباب الخارجي لعلهُ يرى تلك الفتاة التي تشرق من عينيها الشمس ولكنه لم يرها ومضى آسفًا راجيًا عطف الصدفة عليه فتمنحه عبق لقاء آخر يجمعه بها.

جون الغاضب

الساعة تُشير عقاربها للواحدة بعد منتصف ليل مدينة فر انكوفر، في أحد ملاهي المدينة حيث يرقص الصخب بينما المدينة من خارج الملهى هادئة سوى من صفيق بعض النو افذ، الثلوج تتراكم على الطرقات والسيارات، المارة قليلون، امراة مُسنّة ترتدي معطفًا أسود ثقيل بجوارها شابّة تمشي الهوينى على خُطى العجوز كي لا تُرهق قدميها المُتعبتين وظهرها الأحدب، طفلة مع أبيها الذي يركن سيارته بجوار أحد البنايات حين هدأت السيارة ظهر صوت مواء بعض القطط الضالة وصوت هرهرتها، داخل الملهى شباب ثملون يرتدون أزياء غريبة وفتيات ثملات لا يرتدين إلا ما يستر جزء من عوراتهن، يرقصن جميعًا وأشتاتًا لا تعرف من يُر اقص منْ، هُناك على طاولة قريبة من مسرح الرقص يجلس "جون" الذي كان اسمه في السابق "جاسم"، جاء يدرس هندسة الكومبيوتر قادمًا من بريطانيا، وقد سبق قدومه من بريطانيا قدومه من أحد الدول العربية مع والديه ليتعلم هُنا ويعيش حياة مُختلفة، هو شاب أسمر اللون طويل القامة بعينين سوداويتين دائريتي الحلقة بأهداب سوداء وشعر أسود ناعم يُشبه طلّة أبطال السينما الأمريكية في السبعينيات ولكنه يرتدي ما لا يُناسبه؛ زي مُغنّي الراب المُكوّن من بنطال واسع وفانيلا حمراء واسعة، يتدلى على صدره سلسلة ذهبية كبيرة قد طواها على رقبته طيتين، على طاولته زجاجتين كبيرتين من النبيذ الفرنسي واحدة فارغة والأُخرى بها زهاء كأس متبقٍ، كانت عيناه محمرّتين كأنهما تقطران دمًا ينظر للر اقصين والر اقصات بشهوةٍ تتضح جليةً لِمن يمر بجواره، لعله كان ينتظر أن تهدأ ثورتها ثُم يذهب، يختفي بينهم، يتر اقص وسط الصخب والأضواء المُضطربة، كان يتلذذ بتحشره وتحرشه وسط الجمع الر اقص "وكلٌّ بما لديهم فرحون".. فجأة صرخت فتاة عشرينية العمر شقراء خضراء العينين ترتدي شورتًا صغيرًا ونصف فانيلة مُنتهى اللذة كالزجاجتين اللتين ارتشفهما دون هوادة وصاحبت صرختها صفعة لصقتها على وجه جون صمت على إثرها صوت المُوسيقى الصاخب وتوقف الجميع عن الرقص والتفوا حول جون والفتاة فصاح يُوبّخها بأبشع الألفاظ التي تخرج من فيه سريعة كالذي يخرج شهوته كي يُرضي غروره الذكوري، حضر رجال الأمن، أمسكوا جون الذي كان

وجهه مُتصلبًا يقبض على أسنانه يُحدث صفيرًا كالأسد الذي يرى من بعيد فريسته، يغمغم: سوف أغلق لكم هذا الملهى أُيها الأوغاد.

جون أو جاسم كان طفلًا بسيطًا بين أقرانه متواضع الذكاء ثم أظهر تفوقه بينهم حين وصل للمرحلة الإعدادية لكنه سريع الغضب كثير الجدل صامت وفظّ وقت النزاع الذي يكثر منهُ، دائم التردد على الأخصائية الاجتماعية بالمدرسة والتي لم تُسفر زيارته لها عن أي تقدم ومع ذلك هو مقبول بين زُملائه, لكنه حين يختلي بنفسه لا يكفّ عن تناول المخدرات والخمر حتى صديقته قد تركته بعد أن أساء لها، لم يُجد معها أو بعدها أي علاقة بفتاة، كان مهووسًا بالموسيقى ومغنّي الراب، دائمًا ما يشعر بالفراغ والحزن والوحدة التي صنعها لنفسه ثم تطورت فأصبحت نفورًا من المُحيط ثم من مُحيط المُحيط، يُريد دائمًا أن يفعل شيئًا لم يسبقه إليه أحد كأن يُشار إليه بالبنان شهرة يودّ أن يسبح فيها دون أن يعلم من أين ولا كيف تأتيه رُبما بسبب الفراغ أو التنشئة المُعتلة، هذا هو عامه الأخير في الجامعة وكان يطمح أن ينتقل بعدها للعمل في سياتل، المنطقة الأفضل من حيث الطقس والهدوء، وكي يبتعد عن أسرته التي أضحت تطوّقه بالمزيد من القيود ولا أحد بينهم يبُادله أطراف الحديث لأنهُ لا يتفق معهم في أي شيء، في طريقة معيشتهم نصف العربية في تقيدهم بالدين كالقيد الذي لا انفكاك منه والذي سوف يضعه هو حول رقبته ورقبة من حوله.

حيث اللاأين

في بغداد يُولد الموت من رحم الحياة وتولد الحياة من رحم الموت في أشره الأعوام دموية، كان قدري قُرمزي اللون قد وضعني أمام مدينة سماؤها مُلبدة بدُخان محرقة لا تنتهي، تُمطر دماء حيثما أشارت سحابة الموت بأصابعها الرمادية التي لا تعرف الرحمة، تكدّست آلة تصويري بالأموات فصنعت لها مقبرة جماعية في ذاكرة جديدة حتى ظننتني لن أرى أحياءً.

الساعة الواحدة بعد الظهر وقد مضى الشتاء طاويًا ذيله حابسًا أنيابه، فشكر الفقراء ربهم من قهر الشتاء خالطين قهره بفقرهم؛ ذلك لأن الموت بردًا موت بطيء يقتل بثلوجه الأطراف ثم يزحف ويتوغل إلى سائر الجسد, خلف سيارات الإطفاء التي لا تطفئ حريقًا سِرنا ولم يسُرنا أبدًا ما رأينا حين وجدنا و اقع الإنسانية هين ومُهان ومَهين.

حيث يموت الناس فُرادى ومجموعات، فأحيانًا تتساقط عليهم قذائف المدفعية مُستهدفة أماكن الأسواق الشعبية حيث يبحث الأحياء عما يقتاتون به وأحيانًا بتفجير انتحاري وبسيارات مفخخة وأحيانًا عبوّات مزروعة على جانب الطُرقات، في هذا اليوم كان التفجير مُروّعًا لإحدى الجامعات، أشلاء البشر وأطر افهم مُنتشرة في الأماكن، ر ائحتها غلفت الأنوف، كان هذا اللحم قبل قليل يكسوا عظامًا لأناس ينبضون أحلامًا وآمالًا مُحلّقين كطيور البلشون (أبو القردان) فوق أرضهم يلتقطون الحشائش التي تُعيق نمو نباتاتها حتى دون أن يكون لهم على أشجارها أعشاشًا أو أمل في حياة أرقى، انقضّ عليهم طائر الموت العملاق بلا رحمة تاركًا الأرض بعدهم عارية لا شيء يسترها، ينمو عليها الحنظل والشوك، قد كفر القتلة بالإنسانية وبإلاهها، كان أهالي الموتى يبحثون بين قطع اللحم المُتناثرة عن آثار وبقايا أولادهم كالذي يبحث عن إبرة في كومة لحم, كُنت أظنني كإنسان أستحق أن أموت كإنسان لكن يبدو أن إنسانيتنا في العالم العربي لا تعدو كقمته العربية، مجرد شعارات لا تُسمن ولا تُغني من جوع حتى أُولئك الذين يُرددون في خطاباتهم مُصطلح الإنسانية الذي هو اللاإنسانية بعينها، وجدوا فينا ما يستحق برأيهم حرماننا من إنسانيتنا إذا كُنّا نحنُ لا نُعيرها اهتمامًا فكيف هم

سيعيرونها؟! إذا كانت البضاعة عند البائع قد قلل شأنها وأشاع ببخس ثمنها فمن ذا الذي يشتريها أو يُعطيها قدرًا؟

في أثناء تجوالهم قامت الشرطة بالإمساك بصالح وزميله المراسل إسماعيل بينما سعيد في مكان آخر يُترجم للوكالة حوارًا مع أحد الجنود الأمريكان حول التفجير، وجدا نفسيهما داخل سيارة الشرطة ثُم أمام أحد الضباط وقفا مُتهمين وهما ليسا سوى شاهدين.

أمر الضابط أن يخلعا زي الصحافة وأن يسلموا مُتعلقاتهما بهدوء، أخرج صالح هاتفه وخلع آلة التصوير من كتفه ثم جاء أحدهم وفتّش ملابسه بخفّة ومكر كالنشال وجاء ضابط آخر وجهه ممتلئ مدبب الشارب أشار إلى عسكري أن يأخذهما دون أن يتفوّه بكلمة، ساقهما العسكري أمامه كالخراف دخلا مُحتجزين مع بعض المقبوض عليهم والضالين، كانوا أُناسًا ترهقهم غبرة الأيام "كأنهم حُمُرٌ مُستنفرة فرّت من قسورة" ولكنهم لم ينجوا، رائحتهم تفوح منها رائحة مقبرة، وجوه مُختلفة الملامح لكنها الهيئة نفسها، حوائط المكان قد عاث بها الزمان سجل عليها الراحلون حضورهم والقادمون بؤسهم، الأرض من تحت أقدام الجلوس تنوء بالعصبة، خليط من رائحة السمك النّيئ واللحم الفاسد والبول القديم تفوح بالمكان، الكل ينظر إليهما وكأنهما أبطال عرض سينمائي مشوّق، جلس صالح بجوار حائط كما لو أنه عاد للخلف أعوامًا طفلًا بدور الأيتام مُعاقب بالجلوس مُطولًا في الرُّكن.

اقترب أحدهم منه، وجهه خالي من التعبير تمامًا، عيناه لا باكية ولا ضاحكة لا يائسة ولا مُستبشرة ثيابه رثّة، قال دون أن تتغير ملامحه: يبدو أنك غريب عن هُنا؟ فردّ عليه بإيماءة: نعم.. نظر لمن حوله يضحك بابتزال و قال: إنها بلد قد ضاقت زرعًا بمواطنيها فهل جئت لتنال من بركة الضيق؟!.. ضحك بعض الحضور بيدَ أن صالح وزميله ظلّا صامتين، ملامح الرجل الصلبة لا تُشجع بالإضافة إلى ذلك إسماعيل يتألم، يتأوّه قليلًا لفترات مُتباعدة ثم أخذ يتأوّه كثيرًا يعصر بيديه بطنه وصالح بجواره لا يدري ما سيُصنع بهما متوجهًا بقلبه لله مُناجيًا في سرّه: "يا الله، يا مَن يراني ولا أراه، أعرف كيف أضعتك بين هذه الدروب وتلك الأماني الزائفة لكني بقلبي لا أكفّ عن

التفكير بك، يا ربي قد تركت صلاتي وهانت عليّ وعودي معك، اعطني فرصة للخلاص من بين يديّ من هم تجلي لاسمك القهار، لا إله إلا أنت سُبحانك إني كُنت من الظالمين".

استند على الجدار، جلس فاردًا قدميه المُرهقتين ووضع رأس زميله المُتعب على فخذه.

مرّت الساعات قاسية كأنما يسير الليل في جنازة النهاروهما في مُستنقع من الأفكار السوداء، أُذّن للفجر، أسند صالح رأس زميله على وسادة صغيرة قديمة كانت بجواره ثم ذهب ليتوضأ، كانت المياه راكدة ولها رائحة الثوم الفاسد، توضأ بعد طول تلكؤ ثم رأى جماعة من ستة قاموا للصلاة ومعهم إمام، نظر للمكان الذي سيتخذه بجوارهم فإذا بجماعة في الناحية الثانية تزيد عن السابقة برجلين قاموا ولهم إمام ثانٍ ومن ورائه رجل صوته غليظ ذو وجه مسحوب يشبه وجه الحصان وجههُ لا يُشبه صوتهُ، قال له: مع مَنْ ستُصلّي؟ مع الشيعة أم السنّة؟ حين أدرك جهل صالح بسؤاله أعاد عليه السؤال مرة أُخرى وبصيغة أُخرى: هل أنت شيعي أم سُنّي؟

لم يدرِ بماذا يُجيب ذلك السؤال فأجابه بسؤال: عفوًا، أليس الشعي والسُّني كلاهُما مسلمين؟

- نعم، لكن يختلفان، وهم الآن أعداء أكثر من أي وقت مضى، ألا ترى كُل منهما له صلاته، فانظر أي فريق يُناسبك و انضم له.

"إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم و أباؤكم ما أنزل الله بها من سُلطان"، أنا لست من أحدهم وسأصلي وحدي عفوًا، نظر له الرجل بتجهّم وذهب ينضم للفريق الأول.

صلّى وهو لا يدري كم صلّى، سجد سجدة السهو، نظر للفريقين وكُل منهم ينظر للآخر وكأنهما ينتظران شرارة لينقضّا على بعضهما البعض أو صفارة حكم كي يتصارعوا.

عاد إلى مكانه بجوار زميله مُتأملًا الرطوبة التي بالحائط رُسمت كوجوه العابرين، هُنا ذكرى بالية من الأسى والعُزلة عن عالم خارج ليس أوفر حظًّا من الداخل، ثم رأى شعاعًا صغيرًا تسرّب من نافذة قد أغلقت لم يظهر منها إلا شعاع أو اثنان يُنبئان بقدوم الصباح حاملًا الشمس على كفّيه، ثم حمل لزميله إسماعيل المزيد من الألم، رائحة

فمه أصبحت خليطًا من الألم والجوع ونقص من الهواء، فُتح الباب فظن صالح أنه جاء الفرج لكنه لم يكن كذلك بالضبط.

أنتُما تعالا معي.. أشار لهما ضابط ضخم البنية قد امتلأ به الباب.

قادهما أمامه وإسماعيل يستند إلى زميله يضع يدهُ على كتفه يجر قدميه جرًّا، دخلا حجرة بها ضابط شاب ثلاثيني لا يبدو أنهُ يُجيد منصبه، حيث يبدو عليه أنه حديث عهد بالشرطة طويل الشوارب واسع العينين مربّع الوجه، أشار لهما بالجلوس دون أن ينظر إليهما، سأل عن الأسماء والأعمار والموطن والجهة التي يعملان لديها ثم سأل صالح عن ديانته بينما كان زميله إسماعيل كالمغشي عليه من الموت يتمايل عن يمين وشمال يكاد يخرّ من بين يدي زميله.

أجابه عن اسمه وعمره وعن الوكالة التي يعمل بها مُتجاهلًا سؤاله عن الدين مخافة الاختلاف فإذا أخبره أنه مُسلم رُبما كان هو لا ديني وإذا أخبره بأنه لا ديني رُبما كان من المُتشددين أي حيرة تلك التي تعصف به؟ وأي بُقع الأرض تلك التي تحكم عليك بمعتقدك دون النظر لك كإنسان؟

كرر سؤالهُ فأجابه صالح بسؤال: هل سؤالك عن ديني يُحدد مصيري؟

وقف من جلسته غاضبًا مُنتصب الشوارب وعينيه الواسعتين زادت اتساعًا وقال:

إذًا أنت مُجادل والجدل هُنا لا يأتي بخير، عليك أن تُجيب على قدر السؤال، ضغط إسماعيل على قدم صالح بقوةٍ وغمز له بأن يصمت ويجيبه بهدوء كي يتركهما يذهبا.

جلس الضابط يحدّق بأوراقهما وإثبات الشخصية لديهما ثم تفحص آلة التصوير بدقة كما لو كان يكتشف شيئًا لا يراهُ غيرهُ ويُقلب جميع الأوراق التي في حقيبة صالح.

مكتوب في جواز سفركما أنكما مسلمين؟.. قال الضابط وقد انتفخت فتحتي أنفه كالمُصارع.

قال صالح مُتوددًا بعد أن هدأت ملامح الضابط المُتصلبة بعض الشيء: يا سيدي أنا لُقيط وهذه كلمة تُطلق على من لا أهل لهم ولا دين إلا ما يهبه لنا من نقع بأيديهم فنحن حين يجدونا أمام كنيسة يهبونا الديانة المسيحية وإذا وجدونا أما مسجد يهبونا الديانة الإسلامية ثم بعض الأحيان يهبنا موظف الاستقبال بالملجأ الدين الذي يحلو

له. نظر له الضابط بقرف وكأنه نطق بجيفة. وفجأة صرخ إسماعيل فكان صوته مُدويًّا بأرجاء الغرفة وهو يمسك ببطنهِ ويحني ظهرهُ مما أثار استياء الضابط فتعجل رحيلهما بعد أن أنقذ مرض إسماعيل المُفاجئ صالح من الحوار وبعد أن تفحص آلة التصوير مرة أُخرى فلم يجد ما يُثير عندهُ ريبًا أشار للعسكري أن يقودهما للخارج، كان الأفضل لهُ أن يخلي مكانًا للقادمين الكُثر بدلًا من الأحياء المقبورين فلا حاجة له بالاحتفاظ بهما في حين هُناك ما هو أخطر منهما.

وقف صالح كثيرًا ينتظر سيارة أُجرة كي يقل زميله إلى المستشفى ويستنشق الهواء النقي الذي عرف قيمته بعد ما فقده طوال ليلة، حتى جاء أحدهم، جلس إسماعيل وجلس بجواره انطلق ثم وقف بهما أمام مستشفى يضجّ بالزائرين والزائرات الأحياء والأموات، وبعد طول انتظار دخل إسماعيل إلى حجرة الطبيب فحصه ثُم أخبره بأنه يعاني من تقلصات القولون، أعطى لهُ دواء مُسكنًا، استند إسماعيل على كتف صالح وخرجا إلى الفُندق حيثُ الطريق أطول ما تكون الطُرق، وصلا أخيرًا وكان إسماعيل قد استردَّ بعضًا من عافيته، طلبا طعامًا من موظف الاستقبال ثم فتح صالح هاتفه النقال وطلب رقم سعيد فردّ:

- ألو صالح، أين أنتما؟

- لقد كُنّا مُحتجزين في قسم الشرطة ونحن الآن بالفندق.

- أنا أيضًا هُنا بالفندق سوف أصعد لكما.

- حسنًا تعال.

دخل سعيد تبدو على وجهه ملامح سرور:

- الحمد لله أنهم أطلقوا سراحكما لقد لطف الله بكما، هذا لا يحدث إلا نادرًا.

- إيه، و أين كُنت أنت؟!

- سأُخبرك لاحقًا.

- لا بأس، خُذ الكاميرا و ابعث للوكالة الصور مع تعليقاتك على التفجير و أنا سوف أذهب آخذ حمامًا، لقد قضيت ليلة أسبح في بركة ماء راكدة، ذهب صالح مُسرعًا كي يغتسل من رائحة السجناء التي والأموات سواء.. انتهى من حمامه وتناول طعامه نظر

إلى سعيد فعلم أن لديه الكثير من الحديث لكنه تجاهل ذلك حتى يأخذ قسطًا من الراحة بعد ليلة ليلاء لا فرح بها ولا هناء.

بالمساء كان عليهم الخروج لتصوير انفجار آخر لم يكن أيًّا منهم مُتحمس، ومن ناحية أُخرى يريد صالح أن يتحدث إلى سعيد فهو يعلم أن لديه حديثًا يتكاثرعلى شفا وجهه، أثناء التحضير للخروج أخبرهُ أن يأخذ من إسماعيل هاتفه كي يناوب عنه لأنهُ مريض فقَبِل، كان عليه أن يقبل، ثُم استدرج الحديث معه بإخباره عما قاساه اثنيهما بالأمس أثناء وبعد التصوير وكيف قبضت عليهما الشُرطة.

أما أنا فقد كُنت مع من هم خير الناس.. قال سعيد مُبتهجًا ثم نظر لصالح كأنه يسوق الماء للأرض الجُرز، هكذا ينبئه حدسه ثم أضاف مُسترقًا:

لقد رأيت صديقي الشيخ ناصر بعد فراق ست سنوات هُنا بالصدفة، إنه يُجاهد مع جماعة التوحيد والجهاد، إنهم يعانون من أجل أن ينشروا الحق يعيشون صامدين في أصعب الظروف.

جميل وكيف قابلتهم وأماكن تواجدهم بالصحاري أو في الأماكن الريفية؟ مُؤكد تتواصل معهم منذ زمان بعيد.. سأله صالح مُوجهًا وجهه للنافذة بعيدًا عن سعيد كي لا يرعب أمن سرده للحديث وكي لا يؤلمه كذب عينيه إن كان يكذب رد سعيد بتلكؤ:

- ن ن نعم، منذ كان شيخي في أفغانستان و أنا أتتبع أخباره وأُراسله حتى أتيت إلى هُنا صدفة وعلمت بمكانه.

صُدفة!.. قال صالح بغيظ في وجه سعيد: أي صُدفة تلك؟ أنا أعلم بأنك لم تأتِ هُنا جُز افًا إلا لحاجةٍ في نفسك. ثُم هدأ وقال بنبرة أسف: وأخشى حين تقضيها تفترق بنا السُّبل يا صديقي. قال الأخيرة وهو يقضم شفته السُّفلى كي يبتلع مرارة الحديث بجوفه المُتوتر.

صالح اسمعني.. قال سعيد وهو يرفع كفّيه بوجهه مُترجيًا مُغمض العينين: أرجوك أعطني فرصة لأُعرفك بهولاء الناس ثم ما ستقرره سيكون قرارًا لكلينا.

أغلق صالح جهاز الحاسوب اليدوي الذي بجواره قائلًا بهدوء: يجب أن نذهب الآن ثم لكل حادث حديث لا نعلم ماذا سيدبره لنا الغد.

التفجير هذه المرة حدث في مسجد وقت صلاة العشاء، صوّرنا الحدث وبعثنا التقارير للوكالةِ، ثم عُدت كرهًا أحمل كاميرتي، لم أستطع النوم بينما سعيد قد غطَّ بنوم لا يدري من أين يأتيه. اقتربت صلاة الفجر، نزلت صالة الاستقبال، صليت الفجر وجلست كالنائم على كُرسي كبير بينما أنا مُغمض العينين، رأيت أمامي شبح شخص يمر، عوان أنا بين النوم والصحو، إنه شخص رُبما يرتدي الأسود ثم بدا لون أبيض رقعته تزداد اتساعًا ثم وضحت الرؤيا حين أجهدت نفسي بفتح عينيّ من ثقل النوم واللانوم.

يا إلهي! إنها الفتاة التي تُشرق من عينيها الشمس، نعم هي لا يتسلل النسيان إلى ملامح من يُلقين بقلبي عبيرهم ولو كان عابرًا، هي ببشرتها الزهرية وشفاهها الوردية المخملية وأنفها الذي يشبه الأرنوب الأبيض الصغير ترتدي صدرية سوداء تحتها قميص أبيض بدت فيهما حقًّا آلهة الحب إيزيس ببزّة رسمية قد خُلقت لها.. هي نعم.

وَضَعت أمامي كأسًا من الشاي فوق صينية صغيرة ثم وقفت بمكان موظف الاستقبال مثل ورة الجوري وحيدة بمزهرية لا شوكة واحدة في عُنقها الشامخ الذي يضيء كالمصباح الزيتي في كهف، وشعرها المربوط كذيل فرس عربي أصيل يروح ويجيء فوق ظهرها المُستقيم.

هل تناوبين بالليل؟.. سألتها متأملًا وجهها المُتشبّع بالفتنة.

نعم.. قالت وهي ترفع خُصلة شعرها من فوق وجنتها.

- غريب! ولكن لي هُنا قرابة الشهر ولم أركِ.

- أعمل بعد مُنتصف الليل حتى الصباح ورُبما لم تلحظ ذلك..أظنك تعمل مصورًا؟

- نعم مصور.

قلت بنبرة كما الصمت غارقًا بعينيها.

- أذكر حين رأيتك لأول مرة كُنت تحمل آلة التصوير، قد عُدت وقتها لكي آخذ هاتفي الذي نسيته.

- ولكنك وقتها أخذتِ شيئًا آخر.

- عفوًا ما هو؟

قالت مقضّبة الجبين وحاجبيها الحالمين تقوسًا.

- لقد أخذتِ قلبي وظل يبحث عنكِ بين كل القادمين

ابتسمت الفتاة بخجل واحمرّت وجنتاها ورفّ جفنها كأنها تقول: غزل جديد ومُبالغة جميلة. أخرجت كتابًا اتضح حين وضعته أمامي أنها رواية "الحب في زمن الكوليرا"، وضعتها أمامي كالتي تقول بكل ذوق: القراءة خير من الكلام، وكأنها مدت أصابعها السحرية في مكتبة قلبي فوجدتها خالية من القراءة.. سألتها كي أستحضر روح الحديث بيننا: هل أنتِ قارئة؟

لا ليس تمامًا، أنا بائعة، أعمل بالمساء في مكتبة.. ثم ابتسمت فحاط بي موج الحب وظننت أني هالك فيه لا محالة، إنها تصعد لسماء الحب بي سريعًا بجناحي ملائكة.

أنا أُحب القراءة جدًّا وسوف أقرأ رواياتك.. لم أكن وقتها مُهتمًّا بالقراءة لكني شعرت أني سأتقن ذلك بعد أن فتّشت هي بخزانتي ورتبت فيها أكداس روايات حب لا تنتهي.

بهذا الوقت أتقنت فقط قراءة عينيها التي أشرقت منها الشمس وفاح عطر الصباح بصحبتها كما لم أرَ صباحًا قط، بقيت بمكاني لا أُجيد حِراكًا حتى لامست عقارب الساعة السادسة، أخذت حقيبتها وأغراضها وحيّتني بعينيها اللوزيتين ومضت تاركةً بقلبي عبيرها الطاعن بالروعة.

أيُعقل أن يصب الله كُل الحسن بامرأة واحدة؟ نعم هو الكريم وقد سبق ووضعهُ في حواء أُمنًا وفي سارة زوج النبي إبراهيم لكن فيمن وضعهُ هذه المرة؟ لم أكن أهتم بالأسماء كثيرًا، كان لديّ اعتقاد أن عيون البشر وتصرفاتهم تحمل أسماءهم الحقيقة، فكُنت أحتفظ لنفسي بأسماء من حولي التي تسترق بعيونهم، فمثلًا إقليدس القبة مغيب لأن عينيه تغيب كثيرًا وتلمع بقوس قزح المغيب حين يتأمل، أما سعيد فأُلقبة ضُحى من وهج عينيه التي لا بها ظليل ولا تغني من اللهب، أما هذه فهي الشروق، لم أخبر أحدًا منهم عن اسمه الخفي لكن تِلك سأخبرها حتمًا، انتبهت فجأة وخرجت لاحقًا بالتي حملت فضيلة الشروق، ما زالت واقفة تنتظر سيارة أُجرة هي والشمس على خط واحد، يُوحي أحدهما للآخر بأسرار لا يعيها غيرهما، شكرت حظي الصباحي، يقول جورج برناردشو "المرأة الجميلة تطرب لشروق الشمس". فما بال تلك التي تطرب الشمس لشروقها؟!

سيدتي ما اسمك؟.. لحقتها سائلًا بشغف تسبقني خُطاها للأمام.

نظرت بحنوّ قطة أليفة إلى الأرض وقالت "ملكا ماري"، اقتربت منها أكثر مُبتسمًا علّي أُخفف من رعونتي وفظاظتي حين اجتحت صباحها، سألتها: وما معنى هذا الاسم؟

نظرت لطول الشارع عن يمينها الخالي وأشعة الشمس الصفراء تُباغتها مُغلفة شعرها بطبقة مخملية ذهبية، قالت: هذا اسم مندائي ويعني ملاك الله ولكن بالعمل لا أحد يعرفني سوى بماري.

- جميل يا ماري الجميلة الآن فهمت لماذا أسبغ عليكِ الله نعمهُ بسخاء لأنك ملاكه ولكن لم فقط بالعمل وماذا عن المنزل؟

اسم ماري يعني الله فكيف ينادوني بهذا الاسم القُدسي؟ بالعمل يختلف الأمر، إنها قصة لغة.

وقف سائق أُجرة تمنيت لو لم يأتِ، ذهبت هي وذّهّبت الشمس ثم كُشف عن ساقي الضُحى ظللت أراود النوم فيغض البصر و أنا أتسكع بالطرقات.

ذكّرتني طلّتها الريّانة بكهرمانة فقررت الذهاب لتصوير ذلك النحت الر ائع.. وقف سائق الأجرة بعد أن أشرت له وأخبرته بأني أُريد الذهاب إلى ساحة كهرمانة والتي تقع عند مفترق الطريق الذي يربط بين منطقتي الكرادة داخل وخارج.

وصلت ألتقط الصور لتمثال كهرمانة التي تصب الزيت ولكنها الآن لا تُمسك باللصوص!

وقصة كهرمانة تعود إلى ما قبل العصر الإسلامي وهي طفلة جميلة وذكية وشجاعة كان يمتلك والدها "خان" لإيواء المسافرين وهو يشبه الفنادق في عصرنا، ويمتلك أيضًا عربة يضع فوقها عددًا من الجرار يقوم كل صباح والدها بملء ذلك الجرار بالزيت ليبيعه بالسوق.

ذات ليلة من ليالي الشتاء قامت كهرمانة من فراشها بعد أن سمعت أصو اتًا غريبة، نظرت من شرفتها فوجدت عددًا من اللصوص قد اختبؤوا في الجرار الفارغة قد أطلّوا برؤوسِهم يُر اقبون الشُّرطة، أسرعت كهرمانة لإخبار والدها ثم اتفقا على إحداث ضجة بالخان كي يخفي اللصوص رؤوسهم داخل الجرار، هُنا قامت كهرمانة بملء أحد الأو اني بالزيت وصبّها فوق الجرار واحدًا تلو الآخر ولما شارفت الأو اني على الامتلاء صاح اللصوص بالصراخ مما دفع رجال الشرطة بالإمساك بهم.

ملجأ أيتام القرية

كدأب كل الأوطان العربية ثمة هُناك من ينزع من الشعوب لباس المُعايشة فيُصبحوا من بعده أعداء لا تألف بين قلوبهم، مرثا أبدًا لم تسأل أيًّا من أصدقائها عن دينهم ومُعتقداتهم، كان دينها المحبة التي جاهدت في زرعها بين الأطفال, ومُعتقدها هو التعايش، أملها أن ترى الأطفال أمام عينيها يكبرون مُغنين سامرين هاجرين لأبواب الكره والفرقة لكن تلك العيون الخبيثة الغاصّة في وحل الطائفية تُراقبها وتُدوّن حركاتها وكلماتها وأغانيها للأطفال من ناحية لا المُسلمات يُعجبهن أن تُغني للأطفال ترنيمات مسيحية ولا المسيحيات يُعجبهن أن تُغني للأطفال أغانٍ إسلامية، وهي بين هؤلاء وهؤلاء حزينة تتوارى من الجميع من سوء مُنقلبهم، يومًا بعد يوم قد أحاط بها اليأس وبدت في جوارحها الهزيمة، قد اجتمعت رؤوس الشر على إقصائها من مهمة الحب وطردها من الملجأ الذي تَربت فيه وعلّقت بجدرانه المُتهاوية الأمل تقضي به أسعد الأوقات مع الصغيرات يتسامرن ويلعبن، ترى فيهن ربيع الحياة التي شبّ بها حريق صيف الفتن، جمعت كُل ذكرياتها وصورها مع أطفالها بالملجأ، دخلت عليها الطفلة الصامتة "زينب" مُتسللة دون أن يلحظ غيابها أحد حاملة لُعبتها لا يعي حزنها الصغير، رحمة الدموع، وطأة الحزن شديدة الجفاء على أُولئك الذين لا يجيدون البُكاء، اقتربت الطفلة ومرثا تحترق حزنًا قالت بصوت مُتهدّل: ماما مرثا، خذيني معك. كانت الفتاة لا تكاد تبين لكن وقع الحروف على قلب مرثا يُرثى له.

كانت عبثًا تخبئ دموعها وعبثًا تبتسم وعبثًا تصمت وبقلبها ألف حوار يحترق، لم يكن منها سوى أن تلمس شعر الفتاة كالقطة ثم تقبلها: "سوف أعود قريبًا حبيبتي وأصطحبك"، وهي لا تصطحب معها سوى الفراق واليأس وفوضى الحُزن، كانت تسير بقدمين مُقيدتين بسلاسل من حديد الصمت وقلب ينبض أسى وعين ترفّ في أنين.

حبست بقية المُرشدات الفتيات بغرفهن حتى لا يودعنها ولكن خيرًا فعلن؛ فالوداع شبح يمزق الذاكرة ليبقى هو الذكرى التي لا تفارق أيًّا من الراحلين والمودعين، المُعلمات يسبقن الفتيات إلى النوافذ يُغلقنها حين كانت مرثا تمر كي يطفئوا حنين الصغار ويعقروا بهن أرجل الحنين.

رحلت مرثا من الملجأ فرحل معها الحب والحنان والسلام، هَجَرَتْ عُشها الصغير كَرهًا تاركةً صغارها يجابهون وحدهم ظلام المصير.

في حي قريب من الملجأ استأجرت غرفة صغيرة مع بعض الطالبات ظنًّا منها أن وجودها بالمكان نفسه يهوّن عليها مُصيبة الفراق فهي تتنفس الهواء نفسه بالمنطقة وتشمّ رائحة أطفالها منها قريبين، وحدها الأم التي مات صغارها أمامها تحتفظ بر ائحتهم طيلة الزمان.

أوصت مُديرة الملجأ صاحب المنزل بها ووعدتها أن تُساعدها في إيجاد عمل يُؤمّن لها معيشتها الضنكة، زميلاتها في السكن فتيات مُراهقات في المرحلة الثانوية وفي أول و ثاني أعوامهن بالجامعة وهي بينهن تائهة غريبة, حزينة بين أفراحهن عجوز بين شبابهن وهن ينظرن إليها بنظرة عوراء كفتاة مُعقدة يابسة الروح، عجوز لم يرين منها اليمامة التي تسكن رُوحها، كُن يتحدثن فيما بينهن بهمس وأعينهن تدور ثم يصمتن حين تقترب كأنها بينهن جاسوسة.

مرثا دائمًا غريبة عمن حولها وما حولها غريب عنها, هي لا تأنس سوى مع الأطفال ومُغتربة مع غيرهم, فكّرت أن تذهب إلى الدير كي تُقابل الأب تعترف لهُ بما اقترفت من ذنوب وهي لم تقترف شيئًا، تُريد أن تُهيئ نفسها لتكون راهبة عروسًا للمسيح، تنزع من قلبها الرقيق حب الأمومة لتكون بتولية مريمية خادمة المسيح، مع توالي الأفكار قررت ذلك سريعًا.

بالصباح اغتسلت كما لو أنها تغتسل من لوث الدُنيا التي عاشت بأهلها ثم ارتدت زيًّا طويل الأكمام يُغطي رقبتها حتى كعبيها وربطت شعرها، نظرت للمرآة كالتي تودعها ثم توجهت شطر الكنيسة, رفرف قلبها حين رأت الصليب شامخًا فوق الكنيسة، يبرق كأنه بُراق النجاة فار بها تنور الشوق رسمت على صدرها صليبًا كي يزيد قرارها ثباتًا، ولجت للداخل وزاد الحماس حين رأت الكراسي مصفوفة على الجانبين بها بعض النساء ورجال والأب وخدامه، كان الوقت مُبكرًا ثم نظرت لصورة المسيح و اقفًا بآخر الممروعلى جانبيه الشموع كالذي يحثّها على الاقتراب، جلست بأحد الكراسي تملأ رئتيها بر ائحة البخور وعينيها بمنظر المسيح والعذراء من ورائه لا تشعر بما حولها إلى أن لفت انتباهها طفل صغير تحمله سيدة بجوارها يحدث نغمًا بصوتهِ، نظرت لوجهه الدائري

الصغير فانتشى مُبتسمًا مُحرّكًا يديه لها كما لو كان يُحييها وكأنهُ اعتاد رؤيتها، غمغم بلغته الفطرية تأججت بقلبها حمم الأمومة فأيقنت أن محاولتها لوأد أمومتها ستبوء بالفشل وأن الأمومة ستظل تتداعى عليها طوال عمرها، ظلت تُداعب الطفل بعينيها الممتلئة بالأمومة، انتظرت لحين انتهاء الأب من أداء القُداس مع الحضور والصلاة والدُعاء ثم انصرفت بغير ما أتت تبحث عن عمل تهرب منهُ من طفلاتها اللاتي أضحين كالطيور تلاحقها بالسماء حيثما حلّت.. بحثت كثيرًا ولم يُفتح لها أي باب قرعتهُ سوى الباب الذي تُجيد طرقه، فرحت كثيرًا لحصولها على فرصة العمل في إحدى رُوض الأطفال حيث تسكن رُوحها ولاقت إعجاب القائمين عليه فقد أثبتت مهارتها في تعليم وكسب ثقة ومحبة الأطفال لكن أبدًا لم تنسَ وجه طفلتها الضعيفة كالفراشة العذراء حين قالت لها: خذيني معك ماما مرثا.

ملهى سياتل

تحت سماء سوداء صافية تسر الناظرين مرصعة بالنجوم في ملهى ليلي وحيث الموسيقى الكلاسيكية القديمة تطير بقلوب الجالسين وعلى طاولة وكُرسيين وكأسي نبيذ جلسا إقليدس وروز، إنها ليلتها الأخيرة التي ستُغادر بعدها سياتل مُتجهة إلى فر انكوفر بعد إبداء والدتها الامتعاض من طيلة مُدة بقائها بسياتل وقد عادت فرقتها منذ أسبوعين بينما هي لم تعد.

كان إقليدس يتأمل عينيها الزرقاوتين كحجر اللازورد الأزرق وبشرتها الشقراء التي تنتشر عليها نقاط بنية صغيرة زادتها جاذبية، قامت من كُرسيها كالأميرات ترتدي فستانًا أرجو اني يُظهر معالم جسدها متقونة الصنع، مدّت يدها تُر اقصه فابتسم وقام مُمسكًا بها كاليمامة مُتجهين إلى مسرح الرقص وحيدين والكل جلوس.

عليّ أن أذهب اليوم إلى فر انكوفر.. أخبرته همسًا في أذنه بينما إحدى يديها تُمسك يده والأخرى تعانقه وقدميها تتنقلان كالفراشة على المسرح بين قدميه يبدو أنها اختارت أن تُخبره بذلك بعد مراودته للرقص كي يتقبّل الخبر بصدر أقل ضجرًا وهي تمنحه فرصة التحليق سويًّا.

ألا يُمكنكِ البقاء ليلة أخرى.. قال وهو ممُسك بخصرها وكأنها ستطير من بين يديه الآن لفر انكوفر، قالت وهي تميل بظهرها للخلف: سوف ينتهي العام الدراسي قريبًا ويُمكنك المجيء فهي مُناسبة لقضاء العطلة وسوف أساعدك لتعلم الموسيقى ورُبما تعمل مع فرقتنا. ثم ابتعد جسداهما مندفعين يربطهما طول ذراعيهما ثم قبض ذراعيها فدارت حول نفسها ثم ارتمت بين ذراعيه بظهرها، قال لها بصوت تسمعه هي: "أحبك". فاستدارت وبقيا وجهًا لوجه، قالت: رُبما سأُحبك لكن لن أعدك.. ابتسمت بخبث، أنثى مُشاكسة دفعها بيديه ليعود ويحتضنها، صَفّق بعض الحاضرين، ثم نزلا وجلسا على الطاولة.

رمقها بنظرة تشي بغرور رجل شرقي ثم بابتسامة فيلسوف، قال لها: إذًا لا تحاولي أن تُحبيني، أنصحك بأن تتريثي.. ثم غمز بعينه فابتسمت قائلة: مَن قال لك سأحاول؟..

أمسكت بيديها كأس الشراب الذي أمامها وتناولت منه تحتسي جرعة غرور محاولة أن تثير غضبه المازح تُوحي له بعدم مبالاتها، لكن إقليدس كان يُجيد أكثر منها الإثارة والغرور, نظر لسيدتين تجلسان بجواره إحداهما سمراء فاقع لونها بشفتين مُكتنزتين و أنف أفطس وشعر قد اجتهدت في جعله حريريًا، وأُخرى سمراء بدرجة أقل أربعينية العمر، لم تهتم بمنظرها كثيرًا مما يوحي أنها سيدة أعمال جادة, ثم اتجه صوبهما ومدّ يده للسمراء الفاقع لونها مقبلًا يدها قائلًا:

- سيدتي، هل تسمحي لي بشرف الرقص معك؟

انفجر وجه السيدة بابتسامة واسعة وكأنها حصلت للتوّ على ورقة يناصيب ر ابحة ثم أمسكت بيده ورقص معها خفيفًا كر اقص مُحترف يستعرض عضلاته أمام الحبيبة التي أظهرت عبثًا أنها غير مُبالية والر اقصة السمراء التي كانت تُبادله الرقص رغم بدانتها إلا أنها كابدت لكي تُظهر براعتها القديمة بالرقص التي وارتها السمنة وهو ينظر لروز نظرة مُشعلًا بها فتيل الغيرة.. وهي رغم محاولاتها غير المُجدية بإظهار اللامبالاة إلا أنه وضح جليًا أنها تشتاط غيظًا.

أقبل نحوها كمصارعٍ قد فاز بجولته ثُم امتصّ غضبها الأنثوي بقُبلةٍ غفرت لهُ ما تقدم من ذنبه.

خرجا سويًا متلاصقين متخاصرين كما لو أنهما عاشقين التقيا بعد فراق يحيط بهما شبق الحياة وسطوة الحب من كُل جانب.

في بيته المتواضع فتح بابه كما لو كان يفتح باب الحياة على مصراعيه، جلسا سويًا يتنفسان الهواء الدافئ ثُم أخذ يُفرجها على أسطو انات الموسيقى التي يفضل، ورو اياته، وصوره مع أصدقائه صالح وسعيد، كان يبتسم حين يطلب منها أن تنطق صالح فتقول "صاله"، وأن تنطق سعيد فتقول "سييد"، ثم آسر فتقول "ايسر".

وضعت روز لمسات الأنثى على منزله الذكوري فجعلته في وقت قصير مُختلفًا كُليًّا، قصّت الشراشف ووضعت منها على الطاولات الصغيرة ورتبت الزهور وبدلت الأغطية وطهت طعام من مطبخه البسيط؛ شوربة ملفوف على الطريقة الروسية وسلطة بازلاء لامست روحه الفلسفية. تناولا طعامًا شهيًّا لكنه ليس كروز، أدرك إقليدس قيمة أن تكون معه أُنثى مُقيمة وليست عابرة.

وقفت روز تجلي الأطباق وخلفها إقليدس يتأملها وهو يصنع القهوة، كانت تبدو كزهور الخط طويلة الساق زهرة التبروز وزهرة الفيرونكا وزهرة الروز وزهرة التوليب، وقد كان إقليدس ماهرًا في نزع الأشواك من فوق كتفي الزهور فتسقط بالمزهرية عارية من الأشواك ممشوقة تسر الناظرين يغمرها الماء من حولها فتدب في ساقها وعروقها وأوراقها الحياة فتُزهر.

قُرى الحزن

نام صالح مُستلقيًا على الأريكة بعد ليلة كانت بدايتها ليست كنهايتها الرائعة.. البدايات غالبًا تكون أفضل من النهايات ولكن العبرة بالنهاية وليست البداية، ظل وجه ماري الملائكي يحوم حوله كالملاك الحارس حتى تسلل إليه النوم فهزم خياله الذي يعدو خلف ماري، أفاق بالظهيرة على صرير المارة وصوت أبواق سيارات الإسعاف التي بددت سكينته، أدرك بحسّه الصحفي أن ثمة أحداثًا جديدة في يوم آخر ولا بد أن يستبق إلى ذلك المكان الذي قد حط عليه طائر الموت بجناحية الرماديين.. أيقظ سعيدًا وإسماعيل، يبدو أنهما لم يشعرا أنهما قد ناما حوالي اثنتي عشرة ساعة مُتصلة.

كان صالح بكل يوم يخرج فيه إلى الشوارع وبكل صباح يتمنى أن تنقضي الساعات والأيام هُنا سريعًا كي يعود ويترك ذلك المكان لكن هذا اليوم اختلفت قناعاته و كُل شيء اختلف.

ارتدى سترته الصحفية في هدوء وحمل آلة التصوير مزهوًّا كجندي بساحة القتال، إنها ماري جعلت من الموت حياة، تتلاطم أفكاره كموج البحر، كيف سيُقنع المُدير أن يمدّ في فترة بقائه هُنا كي يكون مع ماري؟ وماذا لو رفض سعيد وإسماعيل، هل يستطيع أن يحل محلهما؟ أو الأفضل أن يكون هو حلّ من كل شيء فيستقر هُنا ويعمل في أي جريدة عراقية ويكون قريبًا من ماري ويتزوجا.

ويحك كف عن الضجيج.. قال سعيد وهو يحاول كتمان صوت هاتفه الذي يصرخ من نفاد بطاريته.

لماذ لم تضعه بالشاحن و أنت نائم؟.. سأله صالح فلم يُجب, إنهُ مُتعكر المزاج ووجهه مشوب بخليط من النُعاس المُنصرم والصحو غير المُكتمل، شفتاه منتفختان وعيناه أيضًا، وعلى الجانب الأيمن من وجهه خطوطًا غير مُنتظمة، علامة تجعّده بفعل الوسادة النائمة.

نزلوا ثلاثتهم على الدرج لأن المصعد كان مزدحمًا، تناولوا باقلاء بالدهن؛ فطور عراقي شهير، ثُم شربوا في الطريق شاي الزنكين من الباعة الجائلين ثُم ولّوا وجوههم صوب الأحداث.

طلبوا من السائق التوجه إلى المكان الذي أُلقت عليه السنة اللهب سعيرها, إنه سوقٌ شعبي لعوام الشعب البسطاء الذين يضعون بصمات دمائهم على الطرقات بسخاء، كانت ألسنة النار عالية كأنها جملات صُفر، والدخان يحلق في السماء بجناحيه ذات الألوان الأسود والرمادي والبُرتقالي والسماء مُنفطر به، على الأرض هياكل لسيارات بإحداهن رجل متفحم جالس بهيكل السيارة في سكينة كأنه ينتظر أن تُفتح الإشارة فيُكمل عبثًا سيره، وسيارات أُخرى غير متفحمة على كراسيها اللوحة الزيتية الحمراء تتسع رقعتها، إنها دماء الركاب الذين ساقهم القدر.. ورجال قد اجتمعوا للفُرجة، يبدو أن مشهد الموت هو الأكثر تشويقًا و إثارة، ليس فقط بالسينما بل بالواقع هُنا قد عجزت هوليود أن تُخرجه، وصالح قد ملَّ تلك المشاهد التراجيدية، فقد نزفت روحه على أثرها حدّ أن اصفرّت كالجادي, كان يلتقط الصور وهو يتجول هُنا وهناك، لفت نظره ممر دموي يتقدم نحوه تتبع مصدره، سمع صوت أنين بطيء كهديل الحمام قريب منه ثُم رأى صاحب الصوت والنزيف؛ رجل جالس فاردًا أحد قدميه وقد بُترت والأُخرى مقوّسة كأنها تبكي الأُولى، وضع كاميرته بحقيبتها كي يستطيع أن يساعده، كان منطفئ الملامح شاحب اللون عيناه غائرتان تكسوهما التجاعيد السوداء وحُرقة الشمس والفقر، بالكاد كان صالح يشعر أنه حي ليس سوى عينيه تتحركان، حاول حمله لكنهُ كان يتألم كثيرًا، حاول استدعاء الإسعاف، حرّك الرجل يده في الهواء كالذي يُشير له بالكف عن ذلك، قال بصوت مُتهدج كأنه يتحدث داخل الماء:

خذ قدمي و أكرمها بالدفن.. مُسرعًا تلفت على كيس وجده ثم وضع قدم الرجل به في اللحظة التي وصل فيها رجلان يحملان سرير الإسعاف، حملاه ووضعاه به فأومأ برأسه أن اذهب و اقضِ أمر قدمي، فأوما صالح بالقبول مُبتسمًا بحزن كي يُشعر المُصاب بأمل الشفاء.

رحل الرجل وبقي جزء منه بيد صالح الذي لم يعرف مصيره في المستقبل ولا يعرف مصير قدمه المعلّق برقبته في الحاضر، ماذا سأصنع بقدمه و أنا هُنا غريب ليس لديّ

خبرة كيف أقوم بدفنها؟ وهل نُصلي عليها ونُكفنها أم أذهب بها إلى المستشفى؟ ثم راودته فكرة أن يُصوّرها ويبعثها للوكالة فهي تستجلب المُشاهدة لكنه رجم حيو انيته ورغبته السيئة في التجارة بإنسان حمّله أمانة جسده، الأمانة قد أبت السماوات والأرض أن يحملنها وأشفقن منها وها أنا أحملها.

أخرجها من الكيس، تعجب إتقان الصانع وجحود القاطع صاحب القذيفة، وارها بالكيس وأخرج هاتفه، طلب سعيد الذي كان بالمكان نفسه لكن فرّقتهما خيوط الأدخنة، وصف له أين يقف: إني بجوار عمود أسود نصفه وعليه علم عراقي مُتآكل. أقبل سريعًا ومعه إسماعيل قصّ عليهما الأمر، طرحوا أفكارًا كثيرة، قال سعيد نضعها بمكانها ونمضي، رفض صالح قطعًا ذلك ثم قال إسماعيل: نذهب للمستشفى ونُسلّمها.

قرر صالح أن لا يبرح هذا المكان إلا إلى المقبرة، وأمام تصميمه صمتا اثنيهما، أوقفوا سيارة أُجرة، فتح السائق الزُّجاج, طلب صالح من السائق أن يذهب إلى مقبرة فهز رأسه ر افضًا وذهب و أتى غيره، عرضوا الطلب نفسه فقال السائق: إلى مقبرة الشيعة أم السُّنة؟

قال صالح يهزّ رأسه مُستنكرًا: إنني لم أسأل الجريح أنت من أي طائفة؟ ولا أظن أن الموتى في المقبرة التي سنذهب إليها لديهم الآن تلك التفرقة.. أول مقبرة تصادفك أنزلنا عندها.

مضت مسافة ليست بقصيرة، وقف السائق أمام مقبرة واسعة على مرمى البصر، نزلوا، انتظر سعيد وإسماعيل خارج المقبرة التي كان بها رجال ونساء يبكون وأطفال صغار لا يدري صالح هل تعي طفولتهم شيئًا من هذا المشهد الذي أمامهم من بُكاء البكائين أو صمت المقبورين؟ لكن يبدو أن تكرار ذهابهم للمقابر مع ذويهم أفقد المكان رهبته لديهم فقد كانوا يُلاحقون بعضهم بعضًا يختبئون ويصرخون: أنا هُنا والآخر هاه قد أمسكت بك أيُها اللص.. أعمارهم بين سبع وخمس وثلاث سنوات, كان يظن صالح أن المقابر أهدأ الأماكن نوعًا ما في بغداد حيث لا حاجة للقذيفة بقتل الموتى ولا تفجير القبور لكن بالحقيقة حتى المقابر كانت هدفًا لكثير من التفجيرات ومخبأ للهاربين من المُطاردة والهاربين من الموت بين الموتى يختبئون.

اقترب من رجل مسنّ نحيل يمسك المصحف يقرأ في تجمجم يكاد ظهره ينكسر من انحنائه، بجواره رجلين يحفران قبرًا وميتًا مكفنًا ببيض القماش تتسرب منه بقع الدماء، وامر أتين ترتديان عباءتين سوداوتين، إحداهن شابة جلست بجوار الميت ساكنة إلا من عينين حمراوتين تذرفان الدموع بسخاوة والأخرى عجوز تتحس بيدها بقعة الدماء الكبيرة التي تتمدد وتتسع رقعتها على كفن الميت, تهز رأسها ر افضة الحياة، عيناها جافتان من فرط الحزن.

سأله صالح بحياء من حداده: كيف يمكن أن أدفن هذه القدم، وهل يحتاج الأمر لكفن يُناسبها؟

قال له الرجل بصوت كهل شاخت حنجرته فَرَقّت:

يا بُني ادفنها بأي مكان وبأي حال هي عليه فهي ستعود لله كما بدأها، هاتها مع ابني أدفنها بجواره ثُم خبأها في كفن الميت الملفوف بالأبيض والذي فهم صالح أنه ابن الشايب وتلك العجوز أمه والشابة الباكية أرملته والأطفال أبناؤه الذين أصبحوا أيتامًا.

أدى الأمانة لمثواها، شعر بالارتياح, ثُم استقلّوا سيارة أُجرة حيث الفندق، كان إسماعيل وسعيد يختلقان القصص التافهة للخروج من مشهد المقابر الذي بالتأكيد وضع لمسات الهَمّ عليهم جميعًا، ظلّا يختلقان القصص، يتحدثان عن جوعهما وماذا سيأكلان وعن ارتفاع أسعار كروت الاتصال و انقطاع الكهرباء، أما صالح فقد هرب بعيني ماري إليها وعن الحضور.

وصلوا مُنهكين، صيف بغداد أعلن قدومه، ولجوا يستسقون هواء الغرف البارد قليلًا ثم ذهب إسماعيل ليطلب من الفندق طعامًا، جلس سعيد على الطاولة الموجودة بغرفة الفندق كالذي يريد الحديث بينما صالح و اقف يضع ثيابه المغبرة من تراب المقبرة، خلع قميصه وحذاءه وبنطاله وهو ينظر لصاحبه من طرف خفي يقرأ عينيه دون أن يعي، أدرك أن وراء الأمر زيارة لأصدقائه هُنا.

ذهب للحمام يغتسل وأطال الغُسل كي ينسى سعيد طرح أمره أو يُعيد النظر فيه، طرق إسماعيل الباب بعنف: هيا يا صالح تعال تناول غداءك.

خرج صالح وجلده قد تجعّد من فرط مكوثه بالماء، جلسوا يتناولون الطعام؛ باجا و كوارع، وهي أرجل ورأس الخروف قد أحضرها إسماعيل من مطعم شعبي عراقي.

أخذ سعيد يأكل وهو يسترق النظر وصالح يتجاهل ذلك مُبديًا كأنه لا ينتبه لنظراته.. سعيد لم يكبر أبدًا، ما زالت طريقته الحمقاء ببدء الحديث ولا يدري خيرًا أُصيب به أم شرًّا، أحاط بهم جميعًا, كان يتناول الطعام وهو ينظر لصالح حتى شعر صالح كأنهما طفلين قد خططا لشيء سخيف وينظران لبعضهما خلسة من بين الحضور, ذهب إسماعيل يأخذ حمامًا بعد أن تناول غداءه.

إيبه، موعدنا اليوم للذهاب إلى الجماعة.. قال سعيد بعد معركة مع أفكاره وبعد نضوب الطعام.

- نعم أتذكر لا تقلق لكن هل تخبرني كيف سنذهب وكيف سنعود ومتى؟

- يُمكننا الآن الذهاب ويمكنك العودة قبل منتصف الليل، وعن الكيف سوف يرسلون لنا سيارة تنقلنا حيث هم.

قبول صالح بعرضه شر لا بد منه كي يتَّقي جداله وكي يعود قبل منتصف الليل حيث وقت دوام ماري، خرج إسماعيل فقطع سعيد الحديث وقام يُلقي ما تبقّى من فضلات الطعام في سلّة المُهملات، سقط إسماعيل على السرير الصغير الخاص به, شعر سعيد بالرضا لذلك وتنفس الصعداء, أومأ لصالح بأن هيا لنذهب إلى حيث سيذهب منه الحب ويتفلّت من عروقه كما تتفلّت الحياة من الذبيحة.

خرجنا و أنا أنظر لمكان ماري حيث كانت تقف مثل "كيبوبيد" إله الحب عند الإغريق، ذلك الصغير بجناحيه الحالمين لطيف الطلة يشبه الملائكة الصغار، تقدمنا إلى الخارج مُنتظرين حتى دق هاتف سعيد أخبروه أن نذهب لآخر الشارع حيث تنتظرنا السيارة لأنها لن تستطيع الوقوف أمام الفندق، ذهبنا وكانت سيارة كبيرة بها ثلاثة رجال، حيّاهم سعيد وردّوا السلام معًا مُبتسمين ابتسامة لم أفسّرها، ملامحهم مُتقاربه كأنهم إخوة لُحاهم كبيرة كالمقشة وعيونهم تتلفت بالأماكن كالهاربين بنا بلا توقف، جلسنا بالمقعد الخلفي بجوارنا، رجل صامت يحمل حقيبة صغيرة.. انطلقت السيارة ثم أخرج الرجل الذي بجوارنا من حقيبته كيسًا أسود قد فهمت ماهيته فور وقوع عيني

عليه مثل هذا الذي يضعوه فوق رأس المحكوم عليهم بالإعدام عند دخولهم منطقة تنفيذ الحكم.

هذا أمر وقائي فقط لا غير، لا تضجرا منّا يا إخوان.. قال الرجل الذي بجورانا بصوت مُسترقق، نظرت لسعيد فأومأ مو افقًا الرجل على رأيه بينما كان السائق والذي بجواره مُنشغلين بحديث آخر، وضع الكيس على رأسي وعلى رأس سعيد بعد أن طلب منه الرجل أن يقترب قليلًا، كانت السيارة تتحرك ببطء وسرعة، تهتز كأنها جان والأرض غير مسطحة بها حجارة والطريق وعرة بعض الشيء لأنها زراعية، كنت أسمع صوت حيو انات وأشم رائحتهم و أتخيل منظر الريف هذا والخُضرة النضرة: هل تُشبه بلادي أم أجمل؟ وهل توجد آبار مياة كما نرى بالتلفاز؟ أرسم صورًا كثيرة بمُخيلتي للأماكن وجميعها صادقة الوصف، الخيال نعمة لا تُعد ولا تُحصى.

وصلنا..هذا ما شعرت به حين توقفت السيارة، خلع الرجل الذي بجوارنا من على رأسينا الكيس الأسود الذي يحجب به أعيننا كي لا نرى معالم الطريق لكن هم لا يعلمون أنه حتى الأعمى يُمكنه أن يرى مسار طريقه إذا ما تفقد الطريق بعين حواسه.

قادنا الثلاثة رجال بمكان عوان بين الخضرة والصحراء، ريفي الخضرة، بدوي الشمس التي ذّهّبت فوهبت المكان رونقًا خلّابًا، بكل مكان تدور رأسي أجد رجالًا مُسلحين يشبهون الأفغان و اقفين بالطرقات مُتفرقين بتنظيم دقيق، على رؤوسهم عمامات صغيرة من الجانب تتدلى فمنهم من يتنقب بالطرف المُتدلي ومنهم من يتركه مُتساقطًا، كانوا مُختلفين ليسوا أبناء مكان واحد، ملامحهم مرسوم عليها ملامح سفر شاق طويل مع شقاء وبؤس وخوف ونقص الغذاء تدور أعينهم حرصًا وخوفًا, أمام بيت صغير بسيط يقف عدة رجال مصطفين مُسلحين هزّوا رؤوسهم بالدخول للثلاثة الذين يقتادونا، ولِجنا بالمنزل البسيط حيث يجلس أربعة رجال يتناولون الشاي، أمامهم علب المياه الصحية وعلب عصير فارغة وغير فارغة، قاموا جميعًا وسلّموا علينا بترحاب مُبالغ فيه ثم جلسنا على الأرض فوق مجلس عربي مُغبّر لكنه جيد القماش، ما إن جلسنا حتى أذّن رجل من الو اقفين بالخارج لصلاة المغرب، توضأنا واحدًا تلو الآخر واصطففنا، دخل رجال كُثر من الر ابضين بالخارج، صلينا الثلاث ركعات ثم فرغنا، ذهب المر ابضون لثكناتهم، جلسنا وزعق الرجل الجالس بالوسط على رجل كان اسمه

"زهار" فتقدم زهار مُسرعًا عريض المنكبين لا بالطويل ولا بالقصير أزرق العينين مفحم الوجه يأخذ وجهه شكل الدائرة، لم يتحدث فأخبره كبيرهم بلغة غريبة تُشبه الفارسية أن يحضر لنا شايًا، هذا ما علمته حين عاد الرجل وقدّمه لنا بينما كان منُهم رجل ينظر نحوي بتفرُّس حتى شعرت بالضيق و أقبل آخر من بعيد نحيف وجه طويل ولحيته أيضًا، عندما اقترب وضحت ملامحه وعرفت أنه "الشيخ ناصر"، شيخ سعيد ومُربّيه كما يقول، ألقى السلام ووقف أمامنا فوقفنا من جلستنا الأرضية، سلّم على سعيد بترحاب ثم مدّ يده لي مُصافحًا وقد ارتسم بين حاجبيه خطّين عموديين متوازيين يشيان بالتعجب ثم جلسنا وتحدثوا حديثًا ما إن ينهوه حتى يعودوا ليبدأوا فيه ثانية حتى حفظته عن ظهر قلب، تحدثوا عن حال الأمة وحال الإسلام والمُسلمين وتطبيق الشريعة ومُحاربة الكفرة، ثم أقبل غلام من بعيد عمره ثلاث أو أربع عشرة سنة، يبدو ذلك لأنه أمرد جلس بجواري، كان نحيفًا يرتدي طاقية بيضاء مُتّسخة وثوبًا أبيض قصيرًا به أثار التُّراب والغبرة ورائحة حظيرة حيو انات, كانت عيناه مُنتهى البراءة وجيدة الحزن، لم يفتح شفتيه المُغلقتين أبدًا، عظام وجنتيه بارزة من وهن نحافته، ابتسمت لوجهه البائس فلم يُبادلني الابتسام, اقتربت برأسي منهُ ووشوشته قائلًا: ما اسمك؟

قال وهو ينظر لي بعفوية طفل: اسمي عُمر، ثم جاء صوت من الداخل لطفلة: عُمر، هيا تعال نلعب. كانت تنادي من خلف أحد الأعمدة الطينية من الداخل، تُظهر رأسها وتبتسم بخوف من ملامحهما المُتشابهة مع الغلام، أدركت أنها أخته، يبدو أنها تصغره بعامين رغم أنها كانت تٌغطي شعرها بحجاب يُغطي وجهها وصدرها وجسدها الصغير النحيل الذي يُشبه جسد أخيها، كأن جسديهما قد تآكلا بفعل عثّة الفقر، يبرز وجهها من الحجاب كالقطة.

عمر دكوم إحجي ويه أختك كلهه عيب لا تصيحين لين صوتج عورة.. قال الرجل المُتفرس فذهب الغلام وقدماه النحيفتان الحافيتان تحفران بالأرض فتوارت الفتاة ولم تظهر ثانية.

نظر الشيخ ناصر لسعيد مُبتسمًا، ملأ فكّيه وقال: كبرت البنية وصارت عروسًا يا سعيد. ابتسم سعيد، يبدو أنه والشيخ ناصرقد خططا لشيء ما وتحدثا في أمر الفتاة سابقًا وأعدا العُدة لوأدها وهي التي تبدو كمصباح زيتي ضعيف الإنارة بالكاد زيتُها

يضيء، بهذه اللحظة شعرت كم وجودي هُنا مؤذٍ لروحي و إنني سوف أندم على ذلك كثيرًا، رُبما ما بقي من عمري.

كي أرحم عقلي من الأفكار شاركتهم الحديث ولم أجد ما أسأل عنهُ وليتني ما سألت: مَن والد الفتى والفتاة؟

نظر إليّ كبيرهم، علمت ذلك من توسطه بينهم وجلوسه على وسادة كبيرة زيادة عن البقية ومن جلسته المُستريحة أكثر من البقية وقال:

- هما يتيمين اختُطف والدهما من قبل جماعات شيعية منذ العام 2003، قتلوه ثُم ألقوه بالطريق.

- وماذا عن والدتهما؟.. سألت فصمت الرجل ولم يتكلم مُتجاهلًا سؤالي وكأنه لم يسمعه.

ثم قرّب سعيد رأسه من أذني وقال في صوت خفي: الأم ألقت عليها الشرطة القبض ولم يعرفوا مصيرها وحتى إن عرفوا فإنهم لن يهتموا بها فهي وقت ولجت للسجن قد حملت إليهم العار فتتنصل منها العشيرة ويعتبرونها ميتة أو يقتلونها، هذا إن خرجت.

- وماذا عن والدة الفتى والفتاة، هل خرجت من السجن و أين هي؟.. سألت هامسًا.

يقول الشيخ ناصر لقد أُخلى سبيلها ولكنهم أخذوا الطفلين منها كي لا تربيهما فهي قد حملت العار لهما لأنه بالتأكيد قد زنى بها الضباط أو جنود الاحتلال.. أجاب سعيد مؤكدًا بهمس.

عجيب! وما ذنبها هي في ذلك؟! هي مغلوب على أمرها ولم يأمر الدين بفصل الأطفال عن أمهما في حالة الشك بأن أحدًا ما رُبما قد اغتصبها.. قُلت مُستنكرًا.

نظر الجميع لصالح بحنقٍ، فقال سعيد كالذي ينقذه من موقفه: هي قصة تقاليد عشائرية.

نُودي صلاة العشاء فقام الرجال مُلبين، توضأنا جميعًا واحدًا تلو الآخر ثم اصطففنا خلف الإمام كبيرهم, كان عدد المُصلين أقل من المرة السابقة، من عادتي أن أكون بالصف الأخير، لا أدري لماذا لكن أشعر براحة في الصف الأخير، يبدو أنهم لاحظوا ذلك واستنكروه دون أن يجهروا به.

صلينا الأربع ركعات مُنتظمين، كان صوت الشيخ رخيمًا لكني سهيتُ هذه المرة مرتين وحين انتهيت من الصلاة استحيت أن أسجد أمامهم سجدتا السهو، دعا الإمام بالنصر والثبات لهم كأنهُ و اقف بجبهة القتال والعدو يقابله بالناحية الأُخرى، ثم دعى بالرحمة للفدائين والمُجاهدين، أمّنا على دعائه معًا وجلسنا بأماكننا نفسها, ثُم نادى كبيرهم على زهار.

فأقبل ومعه صينية طعام كبيرة عليها أرز ولحم وقطع من الليمون والطماطم والفلفل الأخضر، تذكرت طعام القرية الهندية الصغيرة وأهلها الطيبين. جلسوا للطعام وجلست معهم، مرّ الغلام "عُمر" فطلب منه كبيرهم أن يجلس للطعام فجلس كأنه جندي ينتظر أوامر قائده، أفسحت له مكانًا بجواري فنظر مُمتنًا وعيناه الحمراوتان غائرتان. ابتسم أخيرًا فبرزت عظام وجنتيه أكثر وغارت عيناه أكثر، بعد الطعام تمنيت أن أجدني بالفندق قبل أن يرتدّ إليّ طرفي، وقفنا مصطفين أمام "زاهار" وهو يصبّ لنا لنغسل أيدينا بالماء وعلى كتفه المنشفة حتى انتهينا جميعًا.

جلسنا فاقتربت من سعيد وهمست قائلًا له: ترخص منهم لكي نذهب لدينا بصباح الغد عمل.

فهم كبيرهم ما قُلت بدون أن يسمعني، نظر لسعيد بينما أعلم أنه يوجه الكلام لي وقال: "الصباح تأخذكم السيارة لمكان قريب من الفُندق، ابقيا هنا الليلة لا يمكن نحن لا نتحرك بالليل إلا لأماكن الهدف". شعرت بأن الأرض تدور بي من بينهم و أني سيُغشى عليّ، قلت بصوتٍ مُتقطع: لكن يا شيخ لدينا عمل ولا بد لنا أن نكون بالفندق ثم إن زميلنا سوف ينتابه القلق علينا. قاطعني قائلًا: لا بأس من ليلة تنامون فيها بيننا هي فقط سويعات الليل وبالصباح تقلكم السيارة حيث تُريدون.

نظرت لسعيد فوجدته مُرحّبًا برأي الرجل و أنا أستشيط غضبًا فالمجيء هُنا أسوأ قرار أخذته في حياتي، هم لا يعلمون أني قد أتيت هُنا كي أُبدد ساعات انتظاري لماري ثم أذهب للفندق بموعد حضورها كي أتحدث إليها طوال الليل. لقد وأدوا حلم لقائي بملاكي، كرهتم كثيرًا وتمنيت أني لم آتِ كما تمنيت أني لم أرَ سعيدًا بهذا النهار أبدًا، كما تمنيت أنه لم يأتِ معي إلى العراق!

ظلوا يتحدثون والكثير من حديثهم وكلماتهم لا أفهمها غير تلك التي يُريدون أن أفهمها عن بطولاتهم في أفغانستان وعدد القلتى الذي أسقطه كل واحد منهم يعلقونهم كالنياشين في رقابهم كُلما تحدثوا برزوه، وهم يتحدثون يُلقبون بعضهم بأسماء لا تجد لها مكانًا في ذاكرتي فقد أسميت الحُضور حسب ما رأيت فأولهم "الكبير" والثاني "المُتفرس" والثالث "ناصر" رأس الفرقة، كُنت جالسًا أُشبّك أصابعي ببعضها على قدمي تارة وأنا أجلس ظهري مُستندًا للجدار ثانيًا رُكبتي أو أجلس مربوعًا ويداي تمسكان رُكبتي حتى لامست ساعتي عقاربها الثانية عشرة فدق قلبي بلا هوادة وكأن أجراس الساعة تواسي قلبي بصوتها الخافت، ركض بي الخيال رأيت ماري وهي تدخل للفندق تضع حقيبتها وكُتبها وتقف شامخة برقبتها التي كاللؤلؤ المكنون بمكان موظف الاستقبال، تُرى ماذا ترتدي؟ وهل وجهها اليوم مُتورّد أم شاحب؟ أظنّه شاحبًا، أشعر بذلك، هل سيجلس في مكاني أحد وتقدم له الشاي وينظر لعينيها، تُرى هل ستفتقدني أم أنني بالنسبة لها رجل عابر، تُرى ماذا ستقرأ الليلة؟ يا إلهي ما أسوأ هذه الليلة!

الليلة رائعة الجمال، البدر مُكتمل والصُّحبة أيضًا.. قال أحدهم أثناء تجوال صالح في طُرقات الهذيان نظر فلم يجد سواه والشيخ المُتفرس جالسين والشيخ ناصر قد لملم قدميه النحيلتين وضمهما قرابة صدره ونام ملء جفنيه، لم يجد خيارًا إلا أن يسأل المُتفرّس: أين ذهب سعيد والبقية؟

رد عليه بصوتٍ رقيقٍ وعينان قد تكلف في جعلهما ذابلتين: لديهم عمل لا بد من القيام به.

ليلًا؟!.. قال صالح مُستنكرًا ثم سحبها سريعًا حين وجد عينيّ المُتفرس قد عادتا للسابق.

وسعيد هل ذهب لينام؟.. سأل كالذي يُريد أن يظهر أُلفته وهو يعرف أن سعيدًا لم يأتِ هُنا لينام فهو يقتله الفضول وحُب الظهور.

- لا، إنهُ يُترجم العدد الأخير من واشنطن بوست للأمير.. قال المُتفرس.

يا إلهي متى سيأتي الصباح؟ الآن فهمت لماذا عقارب الساعة أسموها عقارب؟ هي الآن تلدغني بالصبر كُلما تمنيتها أن تمر!

وضع وسادة صغيرة تحت رأسه محاولًا النوم والتخفي من عينيّ المُتفرس مُستجلبًا في خياله وجه ماري كي يجلب له الطمأنينة، ومع أصوات نقيق الضفادع وصرير الصراصير وعواء بعض الكلاب البعيدة كوّن له سيمفونية تهبه نومًا يهرب به من انتظار الصباح، رُبما نذهب باكرًا وأرى ماري قُبيل خروجها من الفندق ولو بقليل، فالقليل منها كالكثير من كل شيء. متى يولد الصباح؟

صباح الخير.. قال الشيخ ناصر وقد قرّب وجهه الطويل الشاحب من وجه صالح وغطّت لحيته الرؤية حين مال عليه.

- أوه، صباح الخير يا شيخ ناصر، هل أذّن الفجر؟

- نعم، ألا تشعر بجشأة ريح الفجر؟! هيا فقد نُودي للصلاة قم فتوضأ واطرد الشيطان.

حمِد الله على انقضاء الساعات الماضية ثم توجه تلقاء بيت الخلاء ثم تلقاء الوضوء.

صلوا الثلاثة؛ المُتفرس والشيخ ناصر وصالح، لم يكن سعيد قد حضر ولا بقية الرجال.

انتهوا من الصلاة والقنوت, شعر صالح بالضجر يُريد أن يسأل عن سعيد لكن الخجل ألجمه وعين المُتفرس لا تُشجع سائلًا.. أثناء ضجره وصمته وخوفه وقلقه وتسبيحه دخل كبيرهم ومن خلفه سعيد تنفس الصعداء ثم تبدد بعض مما سبق.

أين كُنت؟.. قال له مُغتاظًا حين جلس بجواره فتجاهل سؤاله، كان يبدو عليه آثار سفر من غبرة وتعرّق ثم قال: عند شروق الشمس سوف نذهب لا تقلق.. هكذا قالها ببرود وهو لم يعِ حرارة قلب صالح المُحترق إذا لم يرَ ماري، بل وعليه الانتظار ليومٍ كاملٍ كي يراها أو رُبما خطب ما سوف يحصل الليلة القادمة أيضًا ولن يراها، أخذت تراوده الهواجس، سوف أموت حسرة هُنا إن لم أمت بالرصاص أو بالتفجيرات.

...

لم يكن صالح مُصدّقًا أنه عاد أخيرًا إلى الفُندق بالثامنة فقد أخذ الطريق ساعتين، تأمّل مكان ماري الفارغ التي تركت عليه عطرها ورحلت دون أن يحظى بلقائها ولم يكن معها.

ألم أكن معكما؟.. قال إسماعيل لهما ووجهه مُكفهرّ مشوب بالغيظ بصوت حاد وقد وقف أمامهما.

م مماذا؟.. سأله صالح مُستفهمًا بخوف: هل تراه يعلم شيئًا عن تلك الرحلة المشوبة بالضجر؟!

- ألم أكن معكما منذ خروجنا من بلدنا ومعًا كُنّا طوال شهر لماذا تذهبان وتتركان هاتفيكما؟ بل وتباتان خارج الفُندق دون أن تهتما لأمري وكيف سينتابني الخوف عليكما؟ وكيف قضيتُ ليلتي؟

- آسف أخي، أعتذر منك لكن أمرًا ما قد طرأ، كان لسعيد صديق هُنا وقد ذهبنا لزيارته وطلب منّا المبيت.. قال صالح مُستعطفًا.

- لا يهم أين كُنتما لكن هل تخبراني لمَ تركتما هاتفيكما هُنا؟!.. سأل إسماعيل مُستنكرًا

قاطع سعيد الحديث قائلًا: لقد نسيناهما، هذا كل ما في الأمر.

- حسنًا لا بأس.. قال إسماعيل وهو يهزّ رأسه للأسفل كالمُصدِّق لكذب سعيد ثم أضاف:

- أنا أخبرت المُدير أنني سوف أعود لأني مريض ويمكنه استبدال أحدكما مكاني حتى يُرسل لكما بدلًا مني، وسوف أستقل طيارة الغد قد حجزت التذكرة.. ثم أخرجها من جيبه دليل صدقه كالذي يُريد أن يُلقن سعيدًا درسًا في الصدق.. نظرا لبعضهما ثم ذهب سعيد بلا مبالاة يطلب من الفندق طعام, خرج إسماعيل بدون أن يخبرهما إلى أين كالذي يُريد القصاص من ليلة أمس، جلس صالح على الطاولة الصغيرة مُستنكرًا لكل ما يحدث منذ الأمس، ثُم تذكر الفتاة الصغيرة والفتى الحزين ووالدتهما كيف تعيش كأرملة ثكلى بيدَ أن طفليها يتربيان في مكان لا يأمن به سُكنى.

أحضر سعيد الإفطار؛ قيمر عراقي ودبس (مربى من التمر) وراشي، وبيض مسلوق وجبن وحليب بالشاي وخبز.

سأله صالح وهما جالسان دون النظر لوجهه: إيبه! أين ذهبتما بالأمس بينما كُنت أنا نائمًا؟

- ليس لمكان مُهم، كُنت أستمتع بالطبيعة و أتعرف على الرجال المُجاهدين.

نظر لهُ ووضع كأس الشاي بالحليب جانبًا و ابتلع ما بقي في فمه مُغتاظًا قائلًا:

- لكن الشيخ ناصر أخبرني غير ذلك.

توترت ملامح سعيد وارتعشت وجنتاه و ابتلع ريقه على مرتين ثم قال بصوت مُتحشرج وهو يغمس الخبز في القيمر: وماذا قال لك الشيخ ناصر؟

لا يهم، الآن يبدو أنه قد أصبح بيننا الكثير من الأسرار.. والأكاذيب. وبين الجملتين فاصل، صمت ثم أخذ قدرًا من كأس الحليب بالشاي وقطعة خبز محشوّة بالمربى.

- لا، ليس بيننا أسرار وإلا لم أكن لأصطحبك معي لمكان كهذا.. قال سعيد وقد زادت وجنتيه ارتعاشًا.

- إذًا ما أمر الفتاة، لم تُخبرني به؟.. سألهُ صالح مُستنكرًا.

إنه ليس أمرًا مهمًّا كثيرًا، هذه فتاة يتيمة مثلي تستطيع أن تحافظ على بيتها وزوجها وأن تُطيعه وتُعينه على الجهاد.. قال سعيد وهو يمسك بيده بيضة مسلوقة أخذها من الطبق ثم كسرها على حافة الطاولة كالذي يُبدد بذلك توتره.

فتاة ذات الاثنتي عشرة سنة سوف تتحمل مسؤولية زوج وبيت بل وجهاد أيضًا؟!

ما لكم كيف تحكمون؟.. قال صالح وقد استبدّ به الغيظ بينما سعيد كان يتصنع اللامبالاة ويحيد بوجهه بعيدًا عنه مُتّقيًا قراءة صالح لعينيه.

خلق الإنسان اللغة ليُخفي بها مشاعره

(أوسكار و ايلد)

في أول الليل كان صالح جالسًا يتوكأ على عصا الصبر ثُم نام وقبل أن ينتصف ليل بغداد كان قد هيأ نفسه بعد أن أفاق مذعورًا على صوت مُنبه الحب مؤذنًا بأن حان موعدهُ.

جلس على كُرسي بصالة الاستقبال التي تستقبل ماري بعد منتصف الليل وتارة يقف يذهب للباب ينظر للشارع يُر اقب أنين المارة القليلين وصوت أبواق السيارات وصوت الرصاص متمنيًا أن تُشرق ماري من بين كُل هؤلاء لتحمل على كفّيها مسيح الصباح، ثم يعود ليجلس ويُمسك بالجريدة مُوهمًا نفسه بالقراءة يُقلّب سريعًا صفحاتها ليقرأ نصف العناوين ثم يعود ليطويها ويضعها على الطاولة كأنهُ يُلقي معها عبئًا بؤس انتظاره، ثُم ما بين انتظاره اللّامرئي لمن حوله موظف الاستقبال المسائي وعمال النظافة قد جمعوا مناشف وشراشف النُزلاء لتغتسل، ورجل يجلس في الجهة المُقابلة له لا يلتفت عن يمينه أو شماله مُمتلئًا حدّ البلاهة بمشاهدته أغاني ما بعد البرتقالة على شاشة التلفاز أمامه.. نظر صالح لموظف الاستقبال، سأل كرجل ثرثري كي لا يفضح اشتياقه: متى سينتهي دوامك؟ وكأنه يقول متى يحين موعدي مع الحب؟

رد الرجل: بعد ساعة؛ لأن زميلتي التي تناوب بالمساء قد اتصلت واعتذرت عن تأخرها ساعة.

ساعة وسعت جحيم اشتياقي هي ساعة تسع أكثر خيباتي، أليس قيام القيامة في ساعة؟ ساعة سوف ينشق فيها القمر وتضع فيه كل ذات حمل حملها وتذهل كُل مُرضعة عما أرضعت وتسكر فيها العيون والأبصار، وخلق آدم في ساعة وعصى في ساعة ونزل إلى الأرض بساعة؟ وأي ساعة تلك التي ستحمل لي بعدها جنة انتظاري؟ لماذا لا يُدرك الوقت حجم بشاعته حين يكون حجمهُ أكثر مما يحتمل إناء الصبر لدينا، لماذا أيُّها الحب تتعجّلني وتُمهلها؟ لماذا أيُّها الوقت تتحرك بتلك الثمالة التي كُنت تتحرك

بها بالأمس؟ كيف أبتلع لهيب اشتياقي دونما تتغير ملامحي؟ ولماذا يعبث بي هكذا كعُتُلٍّ زنيم؟.. رُبما إن لم يكن هُناك انتظار، لم تكُن هُناك روعة اللقاء، لا بأس من مصالحة الوقت فلا ذنب له غير تحرش أشواقي لعقاربه.

خرج من الفُندق إلى غير صوب ومن بين استنكار منْ حوله ونظراتهم حيث كان ضربًا من الجنون السير بذلك الوقت بشوارع مُفترشة بالموت ومُلتحفة بسماء تنفثُ دُخانًا أسود كأنه مارد الشر العملاق قام يُحلق حيث يكون الخراب وحيث تكون البشرية مقصوفة ومقذوفة بلعنات الحروب والطائفية السرطانية.

أعلم أنهُ مكان لا يليق به الحُب أو لا يعترف هو بالحب كطفل الخطيئة, لكن دومًا لي قناعة: ما جئتُم به من اللاحب إن الله سيبطله، يا إلهي من يعث بتراب الأوطان فسادًا، هل القادمون أم القائمون عليه؟ هُنا وقبل أن أرى ماري لكم تنميت أن أرحل بدون أن ألتفت ورائي!

ليتها تعلم كيف صنعت مني رجلًا آخر غير رجل الأمس! وحدهُ الحُب يُعيد صياغة الجُمل التي كُنّا نظنّها ختامية ثم نكتشف أننا ما زلنا في الحرف الأول من مُقدمة القصة وإن قبله كم كنّا في اللغة نخوض ونلعب مُغرر بنا وغرورين به.. في هذه الشوارع الصامتة كما حوائط ملجأ الأيتام أسير حيث لا أعلم وحيث لا أشعر وحيث لا أسمع سوى وقع أقدامي وبعض السيارات التي تقل العابثين بصمت الجسور التي تبكي بحرقة تحت أقدام عجلات السيارات.

يا إلهي لقد مضت ساعة من الصبر ومن السير حبوًا فوق جسر الأمال العصي، مضت ساعة من الضجر والشوق والسمر، مضت ساعة من الخدر بمشهد الحب بقاعة عقلي الشاغرة إلا عنها.

عُدت لعُشّي الصغير أُطعم أشواقي الجائعة بلقاء بات قريبًا، قد فقدتُ القدرة على كبح جماح جواد الشوق الذي يركض بي كالثور الهائج، تُرى كيف سأُعانق عينيها من الأمام أم من الجنب؟ كيف سأُخبرها دون خدش حواسها الحالمة باشتياقي، والعبور إليها بمحاذاة الحب دون أن تبرق عينيها وترتسم في عدستيهما ألسنة نار جرّاء التحديق

في نيران اشتياقي، أخيرًا رفق الوقت بي ومنحني موعده و أنا أدوس بقدمي باب الفُندق كما لو كُنت أدوس قسوة انتظاري.

رأيت منها طرفًا وقد التفّ مجموعة من الصحفيين الجُدد قادمين من أوطانهم يرصدون و اقع أوطان غيرهم، أي وقت آخر يسخر مني وهو يُلقي بعابئته الثقيلة على عظامي النخرة يُرغمني أن لا أتقلب بينهم.. لا بأس بالمزيد من الوقت حتى تُنهي عملها، عز ائي أنها أمامي و أني برفقة أنفاسها وبحضورها الناعم والناغم.

ذهب اثنان وقد ناولتهما مفتاح غرفتهما ثم أفسح الثالث مسافة قد كانت مسافة بين جيلين من العشق وقرنين من مُلتقى حضارتين، مسافة قد منحت لي فُرصة عناق عينيها والتحليق بهما عاليًا حيث لا يرى الحضور.. وقّعت عيناها اتفاقًا لا مرئيًّا مع عينيّ أن لا حُدود تمنعنا من ممارسة شعائر الحب وأن الحب رُقعة عملاقة من الأماكن التي لا تعطي للحدود وزنًا.

رمقتني بنظرة سلام لكنها كانت نظرة استسلام، تقول: كيف أنت؟ لكنها بالحقيقة تقول أين كُنت؟

أجبتها بنظرة: إني بخير وبالحقيقة أقول أنتِ الخير الذي أخبت إليه من كُل الشرور.

رحل الجميع وبقيت عينانا في عناق مُستمر ومستتر تقديره الحب، ثملان بكأسٍ لن يفيق منه أي منّا بتلك السهولة التي يفيق منها شارب الخمر بسطل من الماء أو بفنجان قهوة، كانت في هذه الليلة شهية أكثر من ذي قبل، أو الشوق قد أضاف لها نكهة أُخرى ولون من جنون النقاء بلون قميصها الأبيض.

ألقيت بحُرمة المسافة أرضًا ثم رُحت مباغتًا صمتها ومُجتاحًا لُغة عينيها الأثلة قائلًا:

- الآن صدقت المقولة الهندية القديمة.

ابتسمت وشعّت بريقًا كحجرالمرمر وقالت: حقًّا؟! وما هي تلك المقولة؟

- إن المرأة قد أخذت خُلاصة جمال الخلائق, أخذت من الغصن البان قوامه ومن النسيم رقته ومن الأرنب وداعته ومن الطاوس خيلاءه وزهوه ومن النجوم لمعانها ومن القمر مسامرته ومن البحر عمقه ومن الورد لونهُ وعطره ومن الأغصان تمايُلها ومن

الأوراق خفّتها ومن النخيل شموخها ومن الجبال رسوخها ومن حفيف الأشجار حنينها و أنينها ومن المها عيونها، ثم قُلتُ غير مُعطٍ لها فرصة الرد: هل تمنح الأشياء الجميلة كل ما لديها لشخص واحد؟ وهل يحتمل ذلك الشخص أن يحمل بمفرده كل تلك الأشياء الجميلة؟

في الحقيقة لا يُشبه الإنسان سوى ذاته.. أجابت وفاضت عليّ بالفضول الذكوري فقُلت فاتحًا باب الحديث الذي رُبما ليس أكثر فائدة فقد تبادلت الحديث عينينا مما لا تحدّه أزمنة ولا يحيطه شرح، هل يُعقل أن يُحب رجل امرأة بكل ما أُوتي من قوة الحب في فترة قصيرة كليلةٍ واحدةٍ مثلًا؟!

الزمن الحقيقي هو زمن التفاعل الداخلي بين قلبين وليس الزمن الدنيوي.. قالت وهي تتجه صوب نزيل قد أتي يستلم مفتاحه فليتها تناولني مُفتاح قلبها لأستريح به قليلًا من معاركي طوال يومين مع الوقت بلا هوادة.

شعرتُ بوهن فجلستُ مُستترًا من مجون نظراتي التي تُحيط بها كالموج من كل جانب ومن فرط نهمي بحديثها، أعطيت فرصة للنزيل الجديد معها، وبالحقيقة أعطيت فرصة لحديثٍ آخر يجمعني وعينيها بعد أن بلغ الشوق مني عتيًّا.

ذهب الرجل وبقيت هي تُقلّب بيديها أوراقًا صغيرة وقلبي بين أصابعها أشد وهنًا من تلك الأوراق الصغيرة يتطاير في خفّة كريشة رقيقة، نظرت إليّ فابتسم الليل الباكي خلف الزجاج الذي يفصل بيننا وبينه، ثم قالت: هل أحضر لك قهوة؟

- لا، بل نعم، أحضري لي أنتِ.. قُلتُ وقد اقتربت منها وهي ما زالت و اقفة بمكانها وقد فقدت سيطرتي على الكلمات فخرجت مُتدافعة كأنها تنفلت مُتحررة من داخل سجن حربي:

"منذ رأيتك أحببتك وفقدتُ النوم بدون اصطحاب ملامحك معي حيثما توجهت ركائبي، لقد قضيت ليلة أسوأ ما يكون بالأمس لأني لم ألتقِ بكِ ولو على سبيل نظرة على محمل السرعة أرتوي بها من ظمأ يوم زمهرير، بدونك قد يكون في هذا شيء من الجنون ولكن للجنون إغراء".

قالت: لكن في الحقيقة لديّ مُشكلة بالثقة في الحب، لم أثق به يومًا ورُبما لن, ماذا أضاف الحب للعُشاق سوى الكثير من الأفعال الأكثر حماقة.

جلست بجواري كالتي تكفِّرعن خطيئة كلماتها أو أجلسها رنين كلماتي الخارجة للتوّ من أعماقي دافئة كالطفل الوليد مصطدمة بسكونها الواهن.

- أعطني الفرصة كي أجعلك تثقين بي.

قُلت مُترجيًا فرصة وصُدفة قد راهنت عليها عمري.. تحرّكت من مكانها، ابتعدت قليلًا مُترددة كالتي تعيد قياس الحديث بالمسافة، راودتها بأمان الحب لكي تقترب مرة أُخرى فأبلغها الهوى مأمنها فجلست.

المرأة الجميلة لا تثق كثيرًا في الحب.. قالت مُبتسمة ولكنها صادقة بما بررت به موقفها المُتردد.

هل أحببتُها لجمالها؟ سألت نفسي مُختليًا بي دون أن تلحظ تلكؤي.. لا لقد رأيت الكثيرات وتحرشت بي الكثير من الجميلات وما سبق أن تعلق قلبي بواحدة إلا أنتِ, ثم توجهت تلقاء عينيها الدافئة أستجلب منهما القوة كي أكمل حديثي دون أن أتعثر و أفشل في استكمال عدوي نحوها.

لقد رأيت من النساء الجميلات والبارعات في استعراض أنوثتهن ولم ألتفت إليهن أبدًا على قناعة أن المرأة التي تحب لا تركن إلى أنوثتها وإغرائها إلا بعد الحب وليس قبله، وإن الأولى سرعان ما تتلاشى كالسحابة الشريطية العابرة بلا ذكر، أما الزبد فيذهب جفاء وأما التي تُلامس القلب فتبقى في قاعه.. و أنتِ فإن صادف أن تكوني هكذا جميلة فهو من قبل الكمال الذي لم يكن كل شيء، ثمة شيء تسلل منكِ إليّ على غير تدبير، رُبما رفرفة جناح قلبك أو حفيف رُوحك أو الشعاع المُنبعث من عينيكِ الذي أزاح جليد قلبي وأراح فكري عناء الكلام، لامس قلبها حديثي وشعشع في عينيها بريقه، دخل نزيل آخر فقامت إليه سلّمتهُ مفتاحه مُتوترة، عيناها عليّ وعلى المفاتيح وعلى الرجل، أخذ الرجل مفتاحه وذهب وقبل أن تغلق الخز انة من خلفها وهي تنظر لي كأنها وجدت شيئًا لطالما

نقّبت عنهُ، عاد الرجل ليُخبرها أنها أعطته المُفتاح الخاطئ، ابتسمت على استحياء فتفتّح وجهها كوردة الجوري الزهرية اللون.

- ما الذي يجعلك تُعاودين الثقة بالحب؟.. قُلت لها وقد حشرتها في مربع الثقة.

- رُبما سأعيد النظر.. قالت ثم اقتربت وبيدها كتاب: هذه رواية في إحدى صفحاتها أنت، سوف تعود لتقرأها كُلما بحثت عنك.

لم أنتبه للاسم، مسكت كتابها ولامست بصمة إبهامي ظفر إبهامها فأجابت تلك اللمسة الخفيفة الوقت كبيرة الوقع عن أسئلة كل العاشقين التي تنبت فور بذر بذور الحب.

ظفر إبهامها وكأنه فتح أمامي باب القدوم على مصراعيه رافعًا راية التسليم كي أجتاح ممرات العروق التي تنبض بالحب, وهي ما أجملها! ما أجمل النساء حين يُباغتهن الحب بدون سبق إصرار وترصد! وما أجمل النساء حين تُحب وحين تمنحن بلا مُقابل!.. لمسة، بصمة، وظفر هي بالنسبة لي عطاء بلا حدود كأنها عقد قران بين قرنين من الزمان، كأنها رباط مُقدس بين إلهين قد عزما على توحيد دينهما.. وقفت هي فوقفتُ احترامًا لقداستها، استدارت لتتحدث مع أحد العاملين فمنحتني بسخاء فُرصة استنشاق عبير شعرها، كان لشعرها رائحة المطر ولون الكستناء وهدوء المخمل وحفيف أوراق شجر الزيتون.

ذهب الرجل وترجّلتُ من فرط ما سكنتني تلك الأُنثى، كيف غدوت في حضورها بلا حضور؟.. أيقظتني من غيبوبتي بها حين نبهتني لأذان الفجر, جلستُ مُمسكًا يدها أراودها للجلوس كي أمطّ في عمر اللقاء الذي عانق روحي وكي أحظى بجلوسها وحديثها بضع دقائق أُخرى وقُلت:

- إلى أن تُقام الصلاة أخبريني عن ديناتك فأنا لا أعرف عنها شيئًا.

قالت: الحديث عن الدين هُنا بهذه المدينة جُرم ومُرتكبه يركض لحتفه، هذه مدينة تكره الأديان، ألحدت بها كما ألحدت بالإنسانية، الحديث عن مُعتقدك هُنا كالحديث

عن البغاء وعن السياسة وعن أسلحة الدمار وعن الموت وعن التفجيرات، جميعهم مُتشابهون.

- لا عليكِ من المدينة فأنا الذي أسألك بدافع الفضول ليس إلا، فأنا لا أحمل بجوفي جيفة الطائفية.

قُلت وقد انسدلت خُصلات من شعرها على وجهها فأخفت نصف عينها وهذا ما لا أقبله فرفعتها بيدي ر افعًا بذلك حملًا قاسيًا من الشوق على طرفي و أنا لا أُجيد لعبة إخفاء الشوق.

- حسنًا، الصابئة ديانة قديمة من أقدم الديانات ولها شعائر، إذا أردت تعال غدًا كي تراها بعينك، غدًا نذهب للنهر نصطبغ بمناسبة عيد "دهوه هنيننا".

الاسم مُختلفًا وفضولي مع رغبتي في مدّ فترة الحديث جعلتني أسألها عن سبب الاسم ومناسبة العيد؟ فقالت بنبرة حماس بعد أن زال توتر الحوار:

- معناه العيد الصغير، وفي هذا اليوم عرج الملاك "هيبل زيوا" إلى السماء بعد أن جبلت الأرض على يديه وتفجّرت المياه الجارية فيها وخُلق جميع الكائنات الحية بأمر الحي الأزلي وبصعوده ابتهجت عوالم النور والملائكة وخُلقت الحيو انات والطيور والحشرات والأسماك، هذا يوم الخلق.. هل ستأتي؟

قالت ماري بعد أن سرحت مع صوتها وتخيلت حديثها وروعة إلقائها ثم عُدت من حيث ذهبت، وقعت عيناي على شفتيها فلم أرَ أشهى منهما قطّ.

- بالطبع سوف آتي، أعطنِي العنوان.. قُلت مُتحمسًا ولكن ما كُنت لأُخبرها بقدومي في قرارة نفسي، اتخذتُ قرارًا لئيمًا عاشقًا بأن أراها تؤدي شعائرها بلا توتر حتى أحظى بها أكثر طبيعة ونقاء كالطبيعة القديمة في بلاد الر افدين، بعد أن أخذت العنوان وخبأته في محفظتي كما أُريد أن أخبئها بقلبي.. لماذا الأشياء الثمينة فقط هي التي نحتفظ بها في حافظتنا الشخصية؟ هل لأنها تُشبه قلوبنا لا يعلم أحد ما فيها سوى صاحبها؟

أوه ماري! أعتذرغدًا لديّ عمل، أعتذر منكِ لكن أتمنى أن أحصل على فرصةٍ أخرى لرؤية شعائركم.

قُلت وقد ضحكت خلف شاربي كالثعلب، الحب يحتاج مراوغة كثيرًا كي يظهر كُل ما فيه من جمال وبالحقيقة لن يمنعني من موعد كهذا هذا إلا الموت.

ها هو الصُبح لوّح وقد أنساني حديثها اللحاق بركب المُصلين حيث كانت هي قبلتي.. الجمال بعض الأحيان فتنة.

ماري، أعطنِي رقم هاتفك النقال.. قُلت لها وهي على قيد الخروج من بقعة عمل وبقعة حب أحاطت بِنا, أخرجت لتُدخل على قلبي الطمأنينة كارت عليه اسم مكتبة ورقم هاتفها وذهبت أترقب خطواتها وهي تمر حتى أخذها مني سائق الأُجرة.. وقفت أتأمل ذلك الكارت، اسم المكتبة وعلى ظهره أتامل رقمها وحروف اسمها التي نُقشت على جدار قلبي بمهارة، ثم الكتاب الذي أعطتهُ لي، تُرى لِم قالت في صفحاته أنت؟ هل كانت تعلم بشغفي بالأساطير أم قالت ذلك لشيء آخر؟ بكل مرة تذهب ماري تُشعل في قلبي عشق الأماكن.. قررت أن أذهب إلى نصب شهرزاد وشهريار في شارع أبي نواس الذي يطل على نهر دجلة حيث تسكن روح ماري كي أنعم بصباح فني رائع وليد شغفي بها وبتلك الأماكن التي صنعت ثقافة ماري، وألتقط الصور التي تُحيي في آلة التصوير روح الحياة.. كانت الجارية شهرزاد و اقفة بشموخ لا تزال تروي قصّتها، لم تتغير عبر الزمن المُتغير لكنها لا تحكي فقط لشهريار بل تحكي لكل العراق "أن كُل شيء يفنى إلا الحب خالد".. ليت الجميع يعي قصتها الأخيرة الطويلة التي لا تنتهي بينما تنتهي أعمار الجميع من حولها.

العرب لا يعرفون الحب

على مائدة العشاء المكوّنة من كرسيين ومائدة صغيرة عليها طبقان من مربى التوت البري وجبن وعصير البُرتقال وطبقان من سلطة الخضروات وآخر من سلطة الفواكه على جنب وخبز، تجلس روز مع والدتها ذات الخمسين عامًا، تنظر إحداهما للأُخرى حين ترفع الملعقة إلى فمها ثم تنخفض إلى الطبق حين تنخفض الملعقة.

لديكِ ما تودين قوله أليس كذلك؟.. قالت الأم التي تُجيد قراءة عيني ابنتها التي منذ عادت للبيت وهي تتلكأ في تقيؤ ما بجوفها أمام والدتها، تلك السيدة العاملة والأم الأرملة التي لا تشبه نساء العرب ولا حُزنها يُشبه حزنهن، هي ما زالت تحتفظ بما يخصّ أنوثتها فلم تهدره في الحُزن كما تفعل نساء العرب، لديها قناعة أن من رحل يُعطي للباقي فرصة العزف مُنفردًا.

بلى لديّ ولكن حقًّا هل تهتمي لأمري؟.. قالت روز بنبرة الشك تلك التي تفسح للمزيد من المسافات التي تمتد بينهما وكنوع من الاستعطاف الموبوء بالخيبة ونوع من العاطفة المقصوفة معالمها.

- ليس كثيرًا ولكن يُمكنني الإصغاء لما تودين طرحهُ.. قالت الأم وقد مددت المسافة بينهما وكأنها غير مُبالية بما ستقصه الابنة والتي تعرفه فهي الأم التي تقف مُتفرجة من بعيد بعد أن سبق وعلمت دون علم روز بما ستقصه وها هي ذا تطفئ شهوة ابنتها في سرد الحديث الذي يستعر بها.. قامت روز من طعامها تتدثر بالهروب من مواجهة قاسية حين أمسكت أمها بيدها وهي على حافة الهروب وحافة المائدة قالت وهي تطوي المسافة تلك التي مدتها:

- ابنتي يُمنكِ أن تواعدي مَن شئتِ وسأدعك حتى تكتشفي وحدك أن ذلك العربي ليس أكثر من إرهابي وقبيل ذلك الاكتشاف تذكري والدك الذي قتلوه في مبنى البنتاجون وأخاك الذي اختطفوه في العراق، كيف نمرعلى جثمانيهما عابرين لقتلاهما؟! أكان أي منهما يستحق منكِ ذلك؟

سوف يُعذّبك ويعري أنوثتك من نعومتها وستعودي إليّ بعد أن يهبك طفلًا لن يعترف به. العرب لا يعرفون الحب ولا يُجيدونه حتى نصًّا في كتاب، ثم تركت يد ابنتها لتفك سراح الحزن بها لتلاقي مصيرها الباكي فوق فراشها الشائك، قبل غلقها لباب غرفتها الذي يفصل بينها وبين أوجاعها قالت: ألن تكُفّي عن التجسس على خطو اتي؟.. أغلقت الباب ثم قادها الحزن للاتصال بإقليدس كي تفسخ معه عقدًا قد وقّعت عليه مو افقتها بكامل رغبتها وبكل أنوثتها, بيدَ أنه حين أجابها من الطرف الآخر من المدينة التي شهدت حبهما: "مرحبًا حبيبي".. شعرت بالتردد في فسخ ذلك العقد وتلكأت، قادها الحب لعكس نو اياها ثم تبرمت وعادت للحزن حين نظرت للباب الذي خلفه أمها تنتظر خلاصها من العربي ثُم عادت لرغبتها في الانفكاك.

- أُريد أن أكون معك دائمًا لكن لن أستطيع.

قالت ذلك وهي تتأرجح بين ضفتين وبين موتين، الماضي والحاضر، يقودها الحب ويعيقها الكره، هي لا تستطيع أن تنسى يوم وفاة والدها حين شيعوه مُتفحمًا, طلبت يومها من والدتها أن تراه قبل إلقائه في ذلك القبو على حد فهمها، كان عمرها ثلاثة عشر ربيعًا، وخريفًا قد انقضّ عليها في يوم الحادي عشر من سبتمبر فأسقط أوراق دفئها العائلي، أمام توسلاتها الباكية لترى وجه والدها للمرة الأخيرة لم تجد أمها بُدًّا من أن تُريها إياه لكنها لم ترَ وجه أبيها بل رأت وجه العرب والمسلمين بدلًا منه مسخًا مشوّهًا مُفحّمًا لا يحمل أمنًا ولا أمانًا ولا طمأنينة وجه أبيها الذي كان يحمله بالماضي، لم يكن وجه أبيها فقط الذي تفحم لكن قلب أُمها أيضًا وهي بينهما تحاول أن تبكيهما على طريقة أخرى بلا دموع ولا حزن.. أغلقت الهاتف قبل أن تسمع ردّه على الطرف الآخر الذي لم يكن أقل منها يأسًا وحزنًا وبؤسًا وخيبة، أجهشت ببكاء مرير حتى احمرّت عينيها الزرقاوتين كالدماء وهي تتقلب على فراشها الشائك تتذكر وجه والدها وهوان إنسانيته وتهاويها وتتذكر أخاها، لعبهما معًا وصراخهما معًا وأحاديثهما معًا، والذي كان يكبرها بخمس سنوات.. وبعد طول احتراق وصراع بين الأمس واليوم وبين الحب والكره كفّفت دمعًا ووقفت صامدة أمام غزو الحزن، استنشقت هواء باردًا من نافذتها ثم أطلقته، خرجت لوالدتها التي كانت لا تزال جالسة على مائدة الطعام صامتة بيدها الملعقة كأنها تمثال، شبّكت روز يديها خلف ظهرها ورفعت حاجبيها كأنها عائدة من معركة مُنتصرة،

قالت بنبرة أسى: لم أنسَ والدي ولا أخي. ثم أضافت بنبرة تحذير: لكن لن أسمح لكِ بالتجسس عليّ.

ابنتي.. قالت الأم بنبرة عطف مُصطنعة وهي تقف واضعة يديها على ذراعي ابنتها المُتشابكين خلف ظهرها: لم يعد لديّ سواكِ وتعلمين كم أخاف أن أفقدك كما فقدت أباك وأخاك. ثم وضعت رأسها على كتف روز كي تُثبت حقيقة مشاعرها فنجحت بذلك، ضمّتها روز هي أيضًا، لمعت عينيها بدمع جديد ثم ألقت بدمعتين حارتين.

في الناحية الأُخرى كان إقليدس متوترًا، كلما يعاود الاتصال بهاتف روز تنتهي المُكالمة برسالة الاعتذار من الشركة أن الهاتف غير مُتاح وهو أيضًا بدا غير مُتاح للحياة، هل روز مثل الأُخريات ورفضتني كوني لقيطًا؟ أو لأني لا أملك ثروة؟ هل هي لم تكن تُحبني؟ لا يُمكن.. رأيت في عينيها الحب الذي لا يحتمل شكًّا.. هل هل هل؟ حرفان لكلمة زادت على معدلها أضعافًا من بين حُزن وخيبة وألم وفراق قد حدق بعينيه المُخيفتين بوجه إقليدس فأرعب أمنه وأحلّ به الوهن والحُزن، هل أذهب لبيتها؟ هل أذهب لمعهد الموسيقى الذي تدرس به؟ نعم سوف أفعل.

بعد أن استقر رأيه خرج خائفًا من غد، قد يحمل له أكبر الفاجعات وأكثرها إيلامًا.

لِمَ الأمس يُشبه اليوم ويُشبه غدًا؟ لِمَ كُل شيء يُصبح مُتشابه بلحظة وقوع الحُزن؟ الشارع الذي مرّ فيه مع روز قد اختلف، لا يعلم لماذا؟ السماء ليست هي، البيوت ليست هي، كُل شيء هُنا كأنهُ ارتدي الحداد، ليتها تعي ما كانت لترحل مُخلفة وراءها جرحًا لا يندمل.. تُرى هي التي فقدت طريق الحب أم الحُب الذي فقد طريقه إليها؟ سوف أعيد وصلها به، لن أتخلى عن معركتي.. كان يتحدث كثيرًا وبينما هو جالس فوق رصيف ذكرياته غلبتهُ الدموع وتسارعت في السقوط وهو يضع وجهه فوق كفّيه كالأب المفجوع في ولده.

في الصباح كان عليه أن يتجه إلى الجامعة في مُراجعة نهائية قبل الاختبارات لكنهُ اتجه نحو اختباره الأكبر وعشقه وتحدّيه، إما أن يخسر فيه أو يكسب، إما أن يعود عاشقًا رابحًا أوعاشقًا خاسرًا، ارتدى قميصه ذلك الذي كان يرتديه حين رقصا معًا لعلّهُ يحمل لها فيه رائحة ذلك اليوم، ثم البنطال ذاتهُ مع إضافة نظارة شمسية, استقل السيارة إلى فر انكوفر حاملًا معهُ حب وتحدّي وأمل وألم الأمس.

وصل بالظهيرة، ظلّ ينتظرها عند بوابة الجامعة، بوابة المعركة، يقف بمكان يستطيع أن يراها من حيث لا تراه، ثم حين رآها خارجة تتلفت كأنها على علم بقدومه أو حاستها الأنثوية قد وشت به إليها سار خلفها أمسك بذراعها من الخلف فاستدارت على عجلٍ وقبل أن يعطيها فرصة للدهشة والروع من مشهد كانت بالأساس ترتقبه احتضنها واختصر بذلك غبن الحديث وثقله.

اشتقت إليكِ، لو تعلمين كم أُحبك، لن تبتعدي.. استمر في عتابه العاشق قائلًا وهو يمسح على ظهرها كالذي يمسح خوفه: أيُعقل أن ينتهي الحب بكلمة وداع هاتفية ساذجة دون روعة العناق. قال ذلك ويشعر أن بعناقه لها قد ضعفت كلمة الفراق ثُم تهاوت وسقطت أرضًا.. احتضنته بشوق كما يحتضن المُدمن زجاجة النبيذ ويحتضن العاشق الذي أرهقته المسافات عمن أحب وسادته، ثم خارت قوى الفراق ووجدت نفسها بلا حِراك تسبح في نهر الحب الجارف الذي سقطت فيه من طائرة الفراق التي سقطت اضطراريًّا في أحضان اللقاء.

و أنا أيضًا اشتقت لك.. قالتها بنبرة خافتة وهو يعلم باشتياقها ذلك من احتضانها القوي لهُ، لَم يُربك أمنها بالسؤال لِماذا؟ وكيف؟ ومتى كان قرارك بالفُراق؟ فبعض العتاب غياب عن لحظة الحب.

في مقهى الجامعة جلست خائفة ترتقب قدوم والدتها أو عينها التي تترصد أخبارها لكن أمان الحب الذي شعَّ من عيني إقليدس قضى على أغلب الخوف، تنهدت وهي تنظر عن يمينها للزهور البيضاء والحمراء المصفوفة بإتقان ثم قالت بنبرة حزن وقد لمعت عيناها بالدموع: أخاف أن أفقد أُمي أو أُسبب لها الكثير من الأذى، قد عانت بما يكفي رغم أن علاقتنا ليست قوية بما يجعلني أُضحي بك فأنا أيضًا لن أستطيع أن أُضحي بها. ثم نظرت لوجهه، أمسك بيديها ليهبها المزيد من الأمان وقال مُستفهمًا: ولماذا سوف تُضحي بأحدنا؟! سأل وقد تجعد جبينه بخطوط.

سحبت يديها من يديه كي تقوى على حديثها ذي نكهة الفراق، قالت بعد أن نظرت للزهور مرة أُخرى تستوحي منها القوة:

لأن أبي قُتل في البنتاجون وأخي اختطف في العراق ومؤكد أنه قُتل وأمي قد تكبّدت عناء وويلات الفُراق بما يكفي ولن تُجازف بي.. ثم نظرت لوجهه تقرأ رد فعلهُ على فجيعتها القديمة.

- لكنّي أُحبك يا روزولن أتركك، ومن قال لكِ كُل العرب قتلة؟ هكذا قالت أُمك؟

- لا لم تقل لي ذلك.. قالت بنبرة حادة يشوبها الغرور ثم همّت للوقوف فأمسك يدها كما فعلت والدتها بالأمس فرضخت لعنفوان قبضته العاشقة. قال دون النظر لها بنبرة ثقة: لن أتخلى عنكِ، لن يحدث ذلك أبدًا، سأنتظرك في بيتي بسياتل كي نعيش معًا دون خوف. ثم وضع على الطاولة نسخة من مفاتيح شقته وهو بالحقيقة ترك لها نُسختهُ الأصلية, وبالثقة ذاتها حرك الكُرسي ووقف ثُم نظر لها نظرة سلام غير ذي استسلام ومضى.

....

في سيارة العودة تتلاطمه الأفكار، تعدوعدو الخيل، يسمع أصوات حو افرها بقوة، تارة يتذكر الخطب التي كان المشايخ يلقونها عليهم في الملجأ وفي صلاة الجمعة وتذكر فرحة سعيد حين قُصف البنتاجون وبرج التجارة والشيخ ناصر الذي ظل يحفز سعيدًا على الذهاب إلى أفغانستان حتى ينضم لهؤلاء، تذكر كُل حديث جمعهُ بأحد المشايخ وبصديقه صالح الذي لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ظلت الأفكار تركض بداخل ذاكرته ثم تمشي ثم تحبو وهو يترنح على الكُرسي ينظر للطُرقات ويتفكر كيف بدايتهُ النقية شوّهتها يد أمهُ وهي تتخلى عنه مقابل الدين والعائلة والسمعة ومُقابل ثوب والدها الأبيض ولحيته.

بعد معاناة وطول تذكر وتفكر تصدع رأسه بالشقيقة. وضع جبهته على الكُرسي المُقابل لهُ محاولًا عبثًا أن يضمد تصدعه ويقفز من شلال أفكاره قبل أن يجرفه للنهاية.

وصل سياتل بعد ثلاث ساعات حيث الأرض التي جمعتهُ بروز، نزل وحيدًا كما ذهب لكنهُ لم يعترف بهزيمتهِ. قد فتح للمعركة جولة أخرى سوف تُسفرعن نتيجة نهائية، وصل شقته صعد لفراشه و ابتلع جرعة الخيبة بلا اعتراف ثُم لاذ بالنوم من كُل ما أحلّ به.

جلست روز على مائدة الغداء مع والدتها المكونة من طبقين من حساء الخضروات مع قطعتين من الدجاج وسلطة الخضروات وكأسين نبيذ، لم تكن تترك وجبة الغداء مع أُمها منذ زمن إلا حين تكون بإحدى سفراتها، كان ذلك عهدًا قديمًا بينها وبين نفسها ململمة به المسافات التي بينها وبين الأُم الأرملة نصف الثكلى.

كانت تنظر خِلسة لأُمها دون أن تنتبه لذلك كي تفهم إذا ما علمت بقدوم إقليدس أم لا؟ لكن حين وقع نظر أمها عليها بآخر نظرة و ابتسمت الأخيرة اطمأنت روز وقالت لنفسها تُزيد جرعة الاطمئنان: ما كانت لتبتسم لو علمت بقدومه.

كيف تسير أمور الدراسة؟.. سألت الأم بنبرة عطف محاولة فتح باب الحديث مع ابنتها المُهجرة من قلب حبيبها.

بخير، سوف نخضع للاختبارات النهائية بعد بضعة أيام.. أجابت روز بالنبرة نفسها كما لو كانت اقتبستها من أُمها: ثم بعدها سنذهب إلى لاس فيجاس لدينا حفل.

حين سمعت الأم لاس فيجاس تركت الملعقة كالتي سمعت بخبر موت عزيز أو خبر كانت تتحاشى سماعه؛ حيث لاس فيجاس لا يفصلها عن سياتل سوى عشرين دقيقة وبذلك تكون روز قريبة من إقليدس.

لاس فيجاس ليس غيرها؟.. قالت بنبرة حادة وبعينين حادتين تحدق بروز، وضعت الأخيرة الملعقة و ابتلعت ما في حلقها من الطعام الذي يحتوي على جرعة من الخوف والأسى ومسحت فمها.

- هل لاس فيجاس تُثير لديكِ الضجر؟.. قالت روز وهي تحاول أن تكون هادئة لتتفادى نقاشًا هي ليست مؤهلة له بما يكفي.

- نعم، وتُثير أيضًا اشمئزازي.. قالت الأُم وكأن روز تحولت لجيفة تحولت على إثرها ملامح الأُم عكس ما كانت تمامًا قبل قليل.

- ماما لقد وعدتك بأن لا أُواعد ذلك الشاب مُجددًا وسوف أفي بذلك، سأذهب إلى لاس فيجاس لأن هذا الحفل يهمني كثيرًا وكونها قريبة من سياتل ليس معنى ذلك أني سأذهب إلى آسر، فلا داعي لأن تُثيري أنتِ اشمئزازي من كُل الحياة.. قالت روز وهي تُلوّح بيديها في الهواء مُستاءة.

عادت الأُم وأمسكت بالملعقة كما لو كانت تمسك بزمام الأمور وعادت ملامحها إلى الليونة بعد أن كانت تصلبت قبل قليل حين سمعت بلاس فيجاس, تناولت روز القليل من الطعام فحالتها النفسية بعد الأمس ما تزال غير مُتزنة تتقلب بين الحب والكره بين الفراق واللقاء، مسحت يديها بالمنديل المعطر ثم ذهبت إلى غُرفتها، فتحت حقيبتها الصغيرة أخرجت مفاتيح إقليدس تأملتها شمت عطره بها، أغلقت يدها عليها ثم قبّلتها واحتضنتها ثم وضعتها في حقيبتها مرة أخرى واستلقت على فراشها مُتعبة.

ماذا لو ذهبت إليه؟ سوف تنسى أُمي أمري بعد فترة من الحداد ثم قد تُبارك زواجي به عِندما تعلم مدى حُبي لهُ، خاطرت نفسها ثم تذكرت والدها الذي مرّ على ذاكرتها بسرعة كالذي يُذكرها بوعدها لأمها، قامت من فراشها بعد فُسحة نسيان للعائق الذي سيظل بينها وبين إقليدس.

فجر جديد

كُنت مُتحمسًا لأرى ماري وهي تؤدي شعائرها الدينية والتي لم أكن أعرف عنها شيئًا، حملت آلة تصويري كُنت بذلك اليوم أُحبها جدًّا، أخيرًا سوف ترى عيونها الحياة بعد صور الموت.

في بقعة تمتلئ بالثياب البيضاء هُناك مجموعة من الصابئة قد اجتمعوا، نساء ورجالًا جميعهم يرتدون الأبيض، الرجال و اقفون بالماء منهم مُغتسل ومنهم من يرش على ظهره الماء، بجوارهم علم صغير يُشبه الصليب يضعون عليه ثوبًا أبيض، من بعيد كُنتُ أتابع حركاتهم و أنا في سيارة أُجرة قد أعطيت صاحبها مبلغًا مُقابل كُل ساعة، كانوا كالطيور البيض المُهاجرة تستسقي من النهر قبيل السفر، منهم من دخل يغتسل ومنهم من وقف يلوح للماء يتوسطهم رجل يحمل كتابًا بين يديه يقرأ فيه وينظر للماء، كان للنهر وقتها جاذبية مُختلفة و أنا أبحث عن ماري التي ظهرت من بينهم ترتدي ثوبًا أبيض مع حجاب بدت فيه كاليمامة البيضاء تشبه صورة مريم العذراء معها طفل صغير يُشبهها عمره زهاء الخمس سنوات يرتدي فوق رأسه عمامة بيضاء وفرع شجرة مورقة، شعرت قليلًا بالحسرة؛ هل هي مُتزوجة وهذا طفلها؟

كانت تتلفت عن اليمين والشمال خلسة تبحث عني بين القادمين، شعرت بذلك دون أن أقترب.

جلست ماري على ضفة النهر تضع الماء على جسدها وجسد الصغير، للماء روعة حضور بيدها لا يُضاهيها جمال، أخذت لها صورًا بعضها من ظهرها وبعضها وهي بين الناس، تمنيت لو أقترب فأستطيع أن أصوّر وجهها المُغتسل بماء النهر الجاري كقطرات الندى فوق الزهور، وقفت كثيرًا أتأملها من بين المُتصبغين، ضغطت زووم بالكاميرا فالتقط لها صورة جانبية وهي بالنهر يتطاير حجابها بالهواء وثوبها يُرفرف ووجهها لصفحة الماء مُنعكس عليه ضوء الشمس مع الماء كالحورية بين كُل تلك الأضواء ثم راودتني خاطرة أسميتُها:

"تلك الراهبة قديسة

ذات سكينة بليالى البيات الطائفى
رأيت تلك الجميلة ترتدى سواد الليل السرمدى
ولا شىء فى الظلام يعى سوى بياض كفيها الصغيرة
سِرت خلسة أُراقب تموج ثوبها خلفها
رفرفة ردائها مع النسيم نغم يَشفى عليله
من هى ؟
لا يهم فكم من أسامى مرت على قلبى ثقيلة
وكم من حروف لا يحمل أصحابها منها وصوف
وكم من صواب وداخله رذيلة
جلستُ من فرط تعب أشواقى
أُراقب حركاتها ورفرفة جناحها البطيئة
كطفل يُراقب فراشة ذات ألوان فيروزية
رفعت بالدعاء كفيها المريمية
قبلتها النهر وسجادتها المياه الجارية
من هى ؟ من بنات الحور أم جنّية
تُصلى كالعذراء وآسيا وماريا
كأنها سمعت ما بقلبى فقالت غير مُلتفتة إلىّ
(يا أنت قُم فصلِّ) فخلتنى فى محرابها زكريا
سقط الكلام من فمى، سجدتُ وأنا ما زلت أسأل نفسى
هل تُصلى مثلنا أم أنها مسيحية؟
رفعت وجهى للذى أماتنى وأحيانى بين يدى ملائكية
هدأ الكون، التفت حولى فلم أجد سوى أبيات قصيدة
يا من شغلتك ماهيتى عن قُربتى إننى مندائية".

......

هممت أن أنسحب من مكاني قبل أن تراني ماري لكي أحضر لها الصور ليلًا أُفاجؤها بها، رأيت رجلًا تقترب منه تُقبّله على جبينه ومعها الطفل تصطحبه جميل أيضًا مثلها جالس على كُرسي مُتحرك، كم رغبت أن أرتمي بينهم كغريب يرتمي في أحضان من يحملون ريح وطنه، كان يجب أن أسألها عن عائلتها لكن شغلتني هي عن كُل من حولها.

في مساء حبنا القادم سوف نحكي كثيرًا وسأُخبرها عن يُتمي، لن أخفيها شيئًا وسوف أخبرها عن روعة تصبُّغها بالماء وسوف تحكي لي عن ديانتها أكثر وعن عائلتها أيضًا.

وضع صالح آلة التصوير بحقيبته ثم توجه تلقاء الفُندق حيث ينتظره سعيد، لقد تضاعف عليهما العمل بعد أن تركهما إسماعيل وقد أخبر المُدير أن يمدّ فترة بقائهما في بغداد مُعللًا ذلك لتوهج الأحداث وتكالب الأخبار.

كيف أصبحت بغداد من مدينة موت لمدينة حب؟ وكأن كُل الموتى قد بُعثوا للحياة من جديد. استقل صالح سيارة الأُجرة للفندق مُبتهجًا بينما سعيد كان ينتظره مُتحمسًا كي يصطحبه لزيارة أُخرى لأصدقائه.

صالح أين كُنت؟.. سأل سعيد بينما صالح يضع الكاميرا على الطاولة ويفتح أزرار قميصه، على وجهه فرحة الصغير بيوم عيد قد طلّ صباحه.

كُنت أُصوّر طقوس الصابئة، رُبما يُعجب المُدير بهذا الموضوع الجديد من بين صور الموتى.. أجاب صالح مزهوًّا بما فعل غير آبه لنظرة التجهم على وجه سعيد الذي كان يستبد به الشك:

هل جُننت؟ وكيف صورت هؤلاء؟ هل قمت معهم بأداء طقوس شركهم ونلت شرف الرِّدة؟ وتُريد أن تنشر هذه الديانة وتدعو لها على صفحات الوكالة؟ يا له من سُخف!.. قال سعيد وقد بدا التوتر على وجهه، ينظر لصالح بقرف.

هل عيّنك الله لتقبل وترفض مُعتقدات بدلًا منه؟ دائمًا تخلط بين غيرتك الدينية وحقدك الدنيوي.. سأل صالح مُستنكرًا سنوات عجاف من فكر سعيد يتحملهُ كُرهًا

وأنت دائمًا تقلب النقاش من الجد للسُخرية كي تنجو بفعلتك.. قال سعيد بسخرية وغيظ.

نعم أُريد أن أنجو بفعلتي من نقاش قد يفقدني فرحة يومي.. قال صالح وهو يضع قميصه وبنطاله على الكُرسي وذهب ليغتسل وترك سعيد يتميز من الغيظ وذهب الأخير إلى أصدقائه ظنًّا منهُ أنه بذلك سوف يُعاقب صديقه على ما اقترف من إثم الجدال معه على حد تفكيره.

خرج صالح من الحمام واكتشف غياب سعيد لكنهُ لم يكترث لانشغاله، أخرج صورًا للرجال المُصطبغين وصورًا لنساء وصورة وحيدة لماري من ظهرها قام بطبعها ثُم

أرسل الصور للوكالة مع موضوع عن الديانة الصابئية كان قد نقله من الإنترنت ثُم أمسك الصورة التي بها ماري بين الشمس والبحر تأملها، تنفس نفسًا عميقًا كالمُنتصر في معركة ليس فيها خصم، تناول غداءه من بقايا طعام الأمس، لم يكن لديه رغبة أن يذهب ليشتري طعامًا، أخرج زفيرًا مُتنهدًا ومعه كُل تعب اليوم ثم أمسك هاتفه النقال وطلب بشوقٍ غامرٍ رقم ماري لأول مرة:

- مرحبًا.. وقبل أن يسمع الرد من الطرف الآخر قال: اشتقتُ إليكِ.

- مرحبًا، هل أنت و اثق لهذا الحد بأنني التي سوف أرد؟! رُبما يكون شخص آخر.. قالت ماري.

- بل على يقين لأن أنفاسك قد سبقت حديثك ولستُ أجهل أنفاسك أبدًا وإن كانت عبر اللاسلكي.

- ظننتك ستهتم بأول عيد يجمعنا لكنك لم تفعل.

- ومن قال لكِ إنه أول عيد يجمعنا؟! لقد سبقه العيد الأول مع النظرة الأولى.

أحسّت ماري أنها هُزمت، ثم أخبرته: أنا في المكتبة.. وطلبت منه أن يأتِ يلقي نظرة على الكُتب. شعر صالح بالنشاط والقوة التي تجعلهُ لا يُريد النوم، فأخبرها أنه سيأتي فورًا.. ارتدى ثيابه قميصًا ورديًّا مع بنطال بني كان يشبه فيهم القبطان، في وقت قصير وصل للمكتبة حيث وجدها تمسح على جلود الكُتب المصفوفة بعناية ودقة وترتبهم حسب الكاتب، فاجأها بوجوده، ألقى السلام حين وضع صورًا فوق المكتب: انظري لهذه الصور، لا أعلم لمن هي؟.. قال صالح بينما هي تحضر لهُ كُرسيًّا ليجلس مُقابل لها.

آه إنها لي أين، حصلت عليها؟ لقد أتيت إذًا ولم تُخبرني.. قالت وهي تتفقد الصور مسرورة ثم نظرت له بعد أن وضعت الصور جانبًا وقالت بنبرة تحدي: لن أُعيدها لك. ثم أخذتها وخبأتها خلفها فقام صالح كالطفل الذي يُريد أن يسترد لعبته مُحاولًا الحصول على الصور يدور حول المكتب كي يمسك بها، أخذا يجريان خلف بعضهما حول المكتب الصغير ثم عاكس صالح اتجاهه وهي مُندفعة نحوه ظنًّا منها أنها تندفع في عكس اتجاهه فقبض عليها، ظهرها للحائط ذات صدفة شوق نارية قبض عليها بين ذراعية، صرخت كما تفعل الفتيات في لعبة الغُميضة، ضمّها بلا سبق تخطيط منهُ ولا منها فسقطت الصور خلفها واحدة تلو الأخرى وبادلته العناق بتألف بينما كانت

شفاهه العطشى تُلامس نهر شفتيها العذب، انتفض مُبتعدًا مسافة كبيرة بمقياس الحُب صغيرة بمقياس الهندسة، شعرت به فهو يُشبهها تمامًا، ثمة شيء يحمله في قلبه يُشبه ما تحملهُ هي، جلسا أمام عتبة المكتبة كقائدين مهزومين في معركة الحب، قالت وهي تنظر لوجهه وقد تكبّدت العناء في جعل صوتها بلا تغيير بينما قلبها يفيض إليه شوقًا: أنت أيضًا لا تثق في الحُب. نظر كالمصعوق لعينيها ولشفتيها اللتين فشل في العبور إليهما، قال بصوت أخن يخرج من أنفه: ليس تمامًا، لكني أخاف من العهود والمواثيق التي تُرهقني، أخاف ألّا أؤدي حقها وأخاف عليكِ من طعم قبلة الشقاء والجوع والفقر والحرمان.

ومن قال لك إني لا أُضاهيك بذلك الطعم، رُبما من سبقتني إليك لم يكن لديهن الطعم نفسه لذلك لم تفي لها بالمواثيق والعهود تلك.. أجابت ماري مُتسائلة كأنثى تقطر من عسل الحب المصفى.

نظر كثيرًا لوجهها ولجبينها ناصع البياض، كانت تبدو كالغزالة الصغيرة (الرشا)، أزاح شعرها المُنسدل على كتفها للخلف وقال وهو متجعد الجبين كالذي شاخ فجأة:

- هل تُصدقين لم أفضِ لامرأة قط، رغم وجود من راودني لذلك منهن.. نظرت ماري له نظرة وكأنه بدا مغرورًا أمامها لكن نبرة صوته وملامح وجهه الشديدة الصدق جعلتها تعدل عن فكرة غروره، أنصتت لهُ باهتمام وهو يُكمل حديثه.

- إن الرجل لا يهوى إلا واحدة ولا تليق به سوى واحدة هو آدمها وهي حواؤه، هكذا كُنت أقول لنفسي دائمًا منذ عرفت معنى الذكورة، أن لكل رجل امرأة واحدة قد خُلقت لهُ تُشبهه تمامًا رُبما يجدها وربما لن يجدها ورُبما يجدها بعد انطلاق صفارة نهاية الشوط الأخير في لعبة الحياة ومحظوظ جدًّا من يجدها, قِسط كُل نفس من الحب محفوظ سيجده يوم ما.

ثم ارتخى جبينه وهو ينظر للأرض وتابع قائلًا: ذات ليلة كان صديقي إقليدس يُريد أن يحتفل معي على طريقته، كُنت وحدي بينما صديقي سعيد ذهب ليبيت عند أصدقائه فوجئت بعد مُنتصف الليل بجرس الباب، عندها توقعت أنهُ إقليدس، سمعت ضحكات نساء معه فتحت الباب مُندهشًا، فإذا هو إقليدس ومعه امرأتان إحداهن قد وضعت كفيها مُتشابكين على كتفه مُلتصقة به والأخرى تتفحصني بنظراتها

وعيناها تجوباني بحماقة أُنثى فارغة، أدركت أن إقليدس قد حدثها عن وجودي معه بل و اقتادها بكل سهولة كأنثى الماعز الصغيرة لي كي ألتهمها كالذئب الجائع, كان كُل شيء يمر أمامي كمشهد بالتلفاز، نظرات إقليدس لي الضاحكة والمُتحدية وكأنهُ قد وضعني أمام اختبار نصف نهائي لفحولتي, ونظرات المرأة البغي، قادتني و أنا ثمل بجسدها وبالوقت الذي كانت أصابع يديها تتفحصان صدري كطلقات الرصاص بالحلم التي لا تؤلم لكنها تنزف، اقتربت مني تحتضني شممت بشعرها رائحة رجال ثملين، ورجال مُفترسين، ورجال جائعين ورجال خائبين ورجال مطعونين، ورجال خائنين حتى جسدها العاري الذي أدهش فحولتي بعد أن اقتربت مني تلاشت لمعته حتى انطفأت, رأيته مُهترئًا رأيت فوقه بصمات موتى وأحياء ورائحة القمار والتبغ والموت، رأيت آثار أسواط عذاب المارّين بها مُعلّقة على جلدها المتهدل من فرط من عاشوا به خرابًا، رأيت فيها أُمي التي لا أعرف أي مصير يقودها الآن بعد أن خيم عليها شبح الشيخوخة، أو رُبما تكون أُختي، دخولها بيتي مأجورة هو نوع من دخولي مُجددًا عالم اللقطاء، كلمة واحدة نطقتها شفتاي التي عزفت عن تقبيل عُريها بعد أن كُشف لي عن حقيقة جسدها المُنكّل به والمَغرور بأنوثته:

هل تقبلين أن تتزوجيني؟ سألتها وعيناي مُثبتتين بجسدها وهي تضحك ظنًّا منها أنني قد افتتنت به ولكن بالحقيقة أني أشفقت عليه، أجابت بسؤال: وماذا سوف تقدم لي؟ هل تُقدم لي ما أحصل عليه في الليلة الواحدة؟.. قالت وهي تترنح أمامي عارية على الفراش تستعرض أنوثتها التي دنّستها الأقدام والتي تظنها المرأة البغي كنز لا يفنى, سحبت الملاءة وغطيتها ثُم قُلت:

لا بالطبع لكن سوف أحظى على الأقل بترميم وتضميد جسدك النازف، قامت ورمت الملاءة من فوق كتفيها وكأن كلماتي عرتها من أوراق التوت التي لم ترتدها، ارتدت فُستانها الفاضح تتجرع الخيبة تنظر لي بعينين دامعتين، حاولت الخروج بها من تلك اللحظة التي ألقيتها بها، أمسكت يديها كي تشعر بالأمان ثم أجلستها بجواري على الفراش وهي موبوءة بحقيقية كانت تظن أنها لن تظهر لها على فراش يجمعها برجل سيُضاجعها حتمًا، كانت تعتقد أن ذلك لن يحدث سوى حين تقف تصفف شعرها أمام المرآة وهي شاردة أو حين تنام مُختلية وحيدة برائحة فراشها الخالية من الرجال،

لكني باغتها بذلك ولم تكن مُستعدة له, قُلت لها وكأنني أعتذر: أنا مثلك عار يسير في هذه المدينة، لقيط أتخفى من القوم من سوء ما بي وإذا تزوجنا لن يُنكر ذلك عليّ أحد ولا عليكِ.. نظرت وعيناها تلمعان بدمع الحسرة وقالت بصوتٍ خافتٍ حزينٍ وهي ترتدي حذاءها: لا ذنب لك في يُتمك, فحين تُنجب طفلًا لن يتبرأ منك، ولكن ذنبي من صُنع يدي ولن يغفره لي يومًا أحد ولا حتى طفلي. همّت بالخروج تجر ذيول الندامة والخزي وجلست أنا وحيدًا مُتسائلًا ماذا لو منحتها مُتعة ما جاءت لأجله؟ بدلًا من أن أُذكرها ببغيها وبالرجال الذين تحمل بصماتهم على جسدها المُنتهك وأضغط على جرح متقيح بكلينا، هل يليق أن يندم إنسان على أنه لم يرتكب ذنبا بدلًا من الندم على الذنب؟ وهل الذنب أحيانًا أفضل من تأنيب المُذنب؟

كانت ماري تستمع في إصغاء بعينين دامعتين سارحتين كما لو كانت تُشاهد مباشرة ما يرويه لها، ثم في ختام حديثه دمعت عينيه ووضع رأسه فوق حجر ماري مُتكأ عليه من حزن وجرح قديم وقال بصوتٍ يقطر ألمًا: ما كنت لأضع نُطفتي أبدًا برحم امرأة عابرة تاركًا في أحشائها في القريب طفل خطيئة تضعه بملجأ الأيتام وأضيف نسخة مني لقيطة تتجرع مرارة اليُتم, ليس هُناك أسوأ من رجل يضع نطفته في رحم امرأة عابرة، وليس هُناك أسوأ من امرأة تُلقي طفلها بملجأ الأيتام أيًّا كان السبب، ثُم ضرب قدمه بالأرض قائلًا: تبًّا أكره الحديث عن ذلك.

وقعت الكلمات الأخيرة على ماري كالقنبلة، ترجّلت و انتابتها رعشة في كفها التي كانت تعبر أصابعها في شعر صالح ثُم تسارعت ضربات قلبها كزخات المطر، شعر بها فرفع رأسهُ من حجرها مُطيلًا النظر إلى وجهها الذي بدا مُتغيرًا حتى ظن أنهُ قد ارتكب في حديثه جرمًا ما.

قامت كالإنسان الآلي، جمعت الصور من الأرض كالتي تجمع شظايا قلبها ثم جلست على كُرسي مكتبها واضعة وجهها فوق كفيها اللتين ترتعشان كالمفجوعة، وهو ينظر لها آسفًا لما قصهُ، ضرب به الشك، ظن أن حديث الملجأ هو من غيّر معالم وجهها الحالم، وإن بعض الظن فُراق، هو لم ينتظر حتى تدلّهُ حواس العشق لمُدن الوجع بها، ولم ينتظر أن يلمس جُرحها الغائر الذي كان هو أفضل من يضممه، خرج من حضرة الألم غضبان أسفا مُتعجلًا الذهاب بأصعب الأوقات و أكثرها إيلامًا وأضعفها، وبقيت

هي وحيدة تتخبط بين موتين؛ موت الماضي والحاضر، بين خطيئة الأمس التي حلّت بها وعشق اليوم الذي قد ينحلّ منها وهي من الاثنين في لحظتها حلّ، لم يسمع عويل قلبها و أنين جسدها المُنتهك سوى كتب صماء وصور قد نسيها الحبيب غير المُدرك حجم الحُزن بقلبها وحتى قبضة يدها على المكتب التي تعوي من شدة اللحظة الباكية، وضعت الصور في دُرجها وأغلقته، أقبل صاحب المكتبة فاعتذرت منه للذهاب بحجة المرض، مرض الحزن أشد الأمراض و أكثرها فتكًا ببني البشر، ذهبت لمنزلها، قبّلت جبهة أبيها واحتضنت أخاها ببرود مُتحاشية أن ينزف حزنها بفعل ذلك الحضن ثم وارت جرحها الغائر بتراب النوم، في غرفة الفندق جلس صالح وقد قضى منهُ الحزن وطرًا، فتح رسائل بريده الإلكتروني وقرأ رسائل إقليدس ورأى الصور التي أرسلها لهُ، كان يتمنى أن يكون بجواره يُشاركه حزنهُ ويُشاركهُ صالح فرحه غير المُكتمل النصاب.

تُرى إلى متى سأدفع ثمن يُتمي؟.. كان يتحدث لصورتها التي احتفظ بها ويُكيل لها التُّهم ويبكي في حضورها كطفل فقد أمهُ حديثًا، ثم يعود ليأخذ قسطًا من الصمت ثُم أنصت لحواسه ذات عشق فنام قريرًا، في الثانية عشرة بتوقيت الحب استيقظ بلا سابق تنبيه، قد اعتاد عقله الباطن موعده مع أنثى المساء والصباح التي لا تُملّ مُتناسيًا كُل ما مرّبه وكل إحساس راودهُ،

أخذ حمامًا مليئًا بالأمل، رُبما تكون غفرت لهُ خطيئته التي انتسبت إليه زُورًا وبُهتانًا، و اثقًا في الحُب القابع في عينيها، تفقد سعيد فوجدهُ نائمًا فاطمأن لوجوده ثم نزل الدرج يتفقد القادمين يبحث بينهم عن موعده مع السهر في صُحبة الحب، انتظر و انتظر ثم انغمر في موجة حزن جديدة لا يُنقذه منها قراءة الجريدة أو الأخبار الكثيرة.

تفقّد الطُّرقات لمرات عديدة، خرج يتمشى بصحبة الحزن في الطرقات المُتعثرة بأسباب الموت العديدة وعاد فارغ الجوف من الأمل وبحُزن لا يكفّ عن الأنين، قاده الحب للخوف من مُستقبل لا يحمل لهُ سوى المزيد من المُفاجآت غير المرغوبة.

ساعة وساعتان وثلاث كأن شمس هذا اليوم لا تعرف شروقًا، كأن الصبح غطَّ في نوم عميق، من يُخبر الشمس المُختبئة في عينيها أن تفيق، قولوا لها أن تطلق سراح الشمس.. إنه الشروق، أخرج هاتفه يُريد أن يسمع أنفاسها لكن الهاتف لم يهبه سوى

رسالة اللاوجود المؤسفة، لكم حلمت معك بما لا يليق بي، هل كانت كُلها أضغاث أحلام؟ هل الأحلام على من هم مثلي حرام؟

اشتدَّ به الحزن وحين قرر الصعود لغرفته كي يُخبر مُدير الوكالة بأنه يريد العودة إلى وطنهُ نظر لموظف الاستقبال حيث كان من المُفترض أن تكون ماري و اقفة بمكانه، قرأ الحيرة والسؤال في وجه صالح ثم قال وهو يمطّ رقبته: ماري مريضة وسوف أناوب عنها حتى الصباح. أومأ صالح برأسه ثُم ابتسم، هدأ بعض الشيء وعاد ليتوكأ على عكاز العذر.. إنها مريضة لذلك لم تأتِ.

أُذن للفجر فصلى ونادى ربهُ نداء خفيًّا: ربي إني مسني الحب و أنت أرحم الرحمين، ربي ارزقني حُبك فهو الدُعاء المُستجاب اللهم سُقيا عشق.. نام وفي نومهُ رأى الشيخ الذي يزوره في أحلامه يقف على قمة صخرة وصالح يحاول التسلق فقط كي ينظر لوجهه المصنوع من السكينة يشع منه ضوء قنديل أخضر بتمعن فشقى بتسلقه وقبيل الوصول أفاق مُتسائلًا:

لماذا وفقط بتلك الأوقات التي أُقاسي فيها تأتي أنت حقيقة على هيئة نوم كي تواسيني بصمتك الذي يضج بالحديث لروحي، ليتك فقط تُخبرني ما سرك؟ ولماذا تُحيط بي كأبي أتكون آدم أب البشر أم أنت نبي أم ولي؟ أم أنت مُجرد روح هائمة؟

....

في المساء بعد منتصف النهار جلس صالح يغسل ثيابه بعدما أنساه الحب والحزن أن يضعهم بالمغسلة، بينما سعيد لا يزال نائمًا حتى أيقظه اتصال خرج على إثره خارج الغرفة، لم يُبدِ صالح امتعاضًا ولا تأسفًا من زيادة حجم أسرار صديقه كثير الجدل، كان ما به يكفي ليُرديه صامتًا قرنًا من الزمان، حتى أتاه رنين الحب فلم يكد يُصدق نفسه أنهُ رقم هاتف ماري، ظل صامتًا ينظر للرقم وهو يُراوده رُبما خوفه من أن يكون الخيال قد فعل به فعلتهُ وخوفه من عدم اكتمال نصاب الفرح ولكنه أجاب وباغتها قبل أن تتحدث:

- صمتُك أجراس بساق الريح، صداهُ جهير مدوٍ، حرفه برق يمضي وكياني عداء كسيح.

قال وهو لا يدري ماذا دهاه، هل يتخيل؟ لكنهُ على يقين فقد حفظ ذرات بخار أنفاسها عن بعد.

- مرحبا صالح، أُريد أن نلتقي إذا كانت لديك فرصة، سأكون أمام الفُندق بعد نصف ساعة.. قالت بصوت النوم والتعب الذي لم تكن تحررت منهُ.

بالتأكيد سوف أكون مُتفرغًا تمامًا.. رد فرحًا فرحة الطفل اليتيم وقت خروجه للنزهة بصحبة الأمان، أغلق سماعتهُ ثم تذكر أن كُل ثيابهُ مُبللة أمامهُ ولم ينتهِ من غسلها بينما موعدهُ بعد نصف ساعة مع ماري، كيف لم يحسب حساب ذلك؟ هرع لدولاب سعيد يبحث, كُلها ثياب مُختلفة عن ما يرتديه فسعيد يُحب القمصان المُلونه ذات الخطوط والتعرجات وصالح يرتدي قمصانًا سادة ثم إن مقاس سعيد يكبره بدرجتين إذا ارتدى أيًّا منها فسوف يظهر كالمُهرج أمام ماري وأمام من يراه، ما هذا الحظ اليوم! ظل و اقفًا لحظات ثُم لم يجد بُدًّا من أن يرتدي قميصًا وبنطالًا لسعيد إلى أن يذهب ويشتري لهُ شيئًا قبل النصف ساعة ويُخبر ماري أن تنتظرهُ في صالة الاستقبال بالفُندق حتى يعود، ثم يعتذر لها بما شاء من الأعذار، لكنهُ لا يعلم أن ماري هي أكثر منهُ عجلة من أمرها، لبس قميص سعيد وبدا فعلًا كالمُهرّج، أكمامهُ طويلة مُتساقطة والبنطال واسع يُثير الضحك والسُّخرية.. خرج على عجلةٍ من أمره كي يشتري ما يلزم قبل قدوم ماري ثم أدرك أن العجلة من الشيطان، حين خرج وجد ماري مُنتظرة أمام الفُندق في هيئة على عكس هيئتهُ تمامًا، فهي ترتدي معطفًا طويلًا بلون زيتي ضيق على الخصر برز مفاتنها وبنطالًا أسود وشعرها قد صنعت منهُ تاجًا على رأسها، أعطاها ذلك هيئة غريبة عما اعتاد زادتها فتنة وزاد من شعوره بالسّخف من مظهره، لا يزال على وجهها آثار حزن ثم تبددت تلك الآثار حين رأتهُ بذلك المظهر، ضحكت بقهقهةٍ واضعة يدها على فمها بينما هُو قد تصبب عرقًا من فرط خجله ثم ومن فرط ضحكها وجمال وجهها الذي تضاعف مع الضحك انتابته عدوى الضحك، قال بصوتٍ خجولٍ: لم أعدّ نفسي للخروج اليوم ولكن ما كُنت لأُضيع فرصة لقائك، استعرت ملابس صديقي مفتول العضلات طويل البنية، توقعت أن أخرج وأشتري ما يلزم للخروج معك وأعود قبل موعدنا. سكنت ملامح ماري، وخجلت من ضحكها، أمسكت يدهُ وهي تسير وتُحفزه على السير معها مُوحية إليه أنها مُتفاخرة به مهما كان مظهره، وهو قد انبسطت

ملامحه بعد أن أنقذتهُ من موقفه المُثير للسخرية وقالت: تعال نذهب سويّا، أعرف مركزًا تجاريًّا قريبًا من هُنا.

أمام مركز تجاري عليه آثار القذائف برغم التجديدات دخلا يتفقدان البضاعة، أخرج صالح قميصًا أبيض مع بنطال أسود جربهُ لكنهُ لم يُعجب ماري فهزت رأسها بالرفض ثم أخذت هي واحدًا لونه سماوي على البنطال الأسود نفسه، ثم دخل يُجربه وحين خرج رفعت إبهامها بالإعجاب، فرح صالح لاختيارها ثم وضع ملابس سعيد في كيس وأخذها معهُ.

ما رأيك نذهب لتناول الغداء؟.. قال صالح بعد أن اطمأن لمظهره وهو يتفقد ياقة قميصه.

- لا بأس، لكني كُنت أُريد أن نتحدث ونحن نتمشى بإحدى الحدائق.. قالت ماري وهي تضع يدها على كتف صالح مُبتسمة.

- نتناول الغداء بعدها سوف نذهب بعد أن تختاري لنا مكانًا هادئًا.. قال هو بصوت يقطر فرحة.

- ردّت بحماس: فلنذهب إلى كورنيش أبو نواس هُناك مطاعم للأسماك الشهية مُطهاة على الفحم ثُم يمكننا السير هُناك ونتحدث مُستمتعين بالكورنيش.

- حسنًا فلنذهب أيتها الحورية لنأكل السمك.

في أحد مطاعم شاطئ أبو نواس جلسا متجاورين يتفقدان قائمة الطعام ثُم اختارا طبق سمك عراقي اسمه "المسكوف" ومعه خبز تنور وسلطة وطحينة, أخذا يأكلان من الطبق نفسه ويشربان من الكأس نفسه، كانت هذه فكرة ماري التي نالت إعجاب صالح كثيرًا، ثُم جاء من يسرق الفرحة ويُلقي بها في غياهب الجُب، أعداء الفرح وأعداء الوطن، دخل جُنود أمريكان يرتدون ما يُحصنهم من بأس من لا بأس لهم، تغيرت ملامح ماري، الفَرِحة المُستبشرة لملامح حزينة مُنكسرة، شعر صالح بعينيها اللؤلؤتين يسدلان الأهداب والفم البلوري يصمت ويهتز، ثم فجأة ودون نذير يدها الصغيرة ترتعش، أمسك المنديل المُعطّر ومسح يديها كطفلته بينما كان الجنود يتفرسون بها ينظرون بقرف لصالح الذي وضع على الطاولة ثمن الطعام دون أن ينتهيا منهُ والذي نهاهم عنهُ حُزن ماري، خرجا وهما متخاصرين ومُتحاصرين تستند عليه ماري كما لو كانت خارجة

من مستشفى بعد عملية جراحية، وبالخارج أمام المطعم تقف سيارات عسكرية همر، وجنود آخرون يحرسون الجنود الذين بالداخل.

وقفت سيارة أُجرة بعد أن أشار لها صالح، أخبرالسائق أن يأخذهما إلى أقرب حديقة أو منتزه أو حتى شارع آخر بعيد عن هُنا وبالرغم من جمال الكورنيش لكن الخوف الذي استقر بعيون ماري جعل صالح ينبذه، في الأرض فرش جريدة كانت على أحد المقاعد حين دخلا الحديقة، جلسا على الأرض مُتجاورين، وضعت ماري رأسها على صدره ورائحة شعرها التي تُشبه البابونج تغلغلت في أعماقه فهو يشعر أن كُل يوم لها رائحة مُختلفة بحضور الحب.

تنهدت بحرقة وهو حائر: هل يسألها عمّا ألمَّ بها أم يتركها حتى تبلُغ مأمنها وتحكي من تلقاء نفسها؟ ولكن الفضول دفعه دفعًا للسؤال فلم يجد بُدًّا منه، سحب ما يربط شعرها وأطلق سراحه فانسدل شعرها عليها كعروس البحر ثم سألها بعد أن بلغت مأمنها وارتاحت ضربات قلبها السريعة كالطفل الذي أيقظهُ من النوم اجتياح كابوس.

- ماري، ماذا حلَّ بكِ بعد دخول هؤلاء إلى المطعم؟.. سألها وأصابعه تتخلل شعرها، فتشبثت بياقة قميصه كما لو كان ثمة من سيخطفها منه الآن، أو مكروه ما سوف يمسها تتوقعه هي بحدسها، شعر صالح بالقلق، صمت كي تعود للأمان حتى ظن من صمتها وخوفها أن لا أمان اليوم، لا يدري ماذا يصنع ثم سألها سؤالًا آخر عسى تتحدث وتخرج من صمتها المُخيف ذلك.

- ماري هل الطفل الذي كان معك بيوم الصباغة ابنك؟

تنهدت وبكت بصمت ثُم بحرقة وتساقطت دموعها كحبات الندى الدافئة على قميصهِ وبللت صدره، هل كانت وجبة الطعام تلك بنكهة النحس؟ قد أكلتهُ مع بضع اللقيمات التي أكلتها مع السمك أو أن بهارات السمك تلك كانت بنكهة الحزن والدموع وإلا ماذا جرى؟ ما الذي أصابها؟! آثر الصمت، ضمّها إليه وهو يشعر بأزيز صدرها الذي أضحى كالمرجل، كان الغروب يزحف ببطء والشمس وهنت و ابتلعت أشعتها الحارقة إلا عن تلك البُرتقالية الدافئة.

- ماري هل أنتِ حزينة لكوني لقيطًا؟.. سألها يُخفف عنها بعض ما يعتريها لكنها كُلما تحدث زادت خوفًا وحزنًا ثم قامت ومسحت بكفيها وجهها كأنها انتبهت لشيء ما بعيد ونظرت في الأفق وقالت بصوت مبحوح:

- صالح في الأيام القمرية يكون النهر في أجمل طلّاته والصباغة في أطهر أوقاتها، هل تُريد الذهاب؟

- بالطبع حبيبتي أُريد أن أرى كُل ما ترين بعينك.. قال لها وقد أوجعه تورم عينيها وتعكر بياضهما الصافي بالحمرة.

- هل تعلمين أنكِ أجمل حين تبكين كما يقول نزار؟.. قال مُبتسمًا فنظرت له قائلة:

- هل تعلم أني لا أُريد أن أبكي؟ لقد مللت الدموع والبُكاء خاصة أنها لم تعد تُجدي فقط تفتح السد لتجري أمواج الحزن القديمة لتختلط مع الجديدة.

- آه يا حبيبتي! لو أعلم ما الذي يُحزنك؟.. قال وقد تآكل صبره، قالت وهي تنظر لوجهه وقد قرأت تفاصيل الاستفهام المُهلكة به: صالح أُريد أن أخبرك شيئًا.

وهي تعلم أنه يفور فضولًا ليعرف، ثم صمتت وعادت لتنظر في الأفق وقالت:

- منذ عام ونصف العام كُنت أعمل بائعة جرائد، تعقّبني أحد جنود إبليس وقد شعرت قبيل الحدث بجرمه حين حدق بي كما يُحدق الذئب بفريسته، لقد استباح حُرمتي ولطّخني بطين العار الذي لا غُسل منهُ ولا طهارة.

ثُم عادت عينيها لتسيل بالدموع، ضمها إليه بقوة، سقطت الشمس ونامت مُطمئنة بجوار الأرض، لكن ماري لا تزال غير مُطمئنة.

- لا يهم حبيبتي فأنتِ دفعتِ ضريبة تدفعها كُل الشعوب العربية ولكن ليس اللوم عليكِ فأنت حجة عليهم يوم القيامة.. قال ثُم وضع رأسها على حجره كالطفلة في حجر أبيها فكان وجهها للسماء ودموعها الجانبية تسقط على الأرض، ثُم قالت: لقد كان معهُ مُرافقه، أرادا أن يتناوبا عليّ، وحين اشمأز الأخير مني كتب على ورقة: "هذا الجُندي اغتصب أُختي" ووضعها في يد أخي الصغير والتقط له الصور ليسجلها التاريخ كواقعة يتفاخرون بها وتلطخنا بالهوان مدى أجيال، وأمام أبي العاجز وقف يلتقطان الصور لي وأنا عارية من كل مأمن ليُريه بلا أمل النسيان وأد ابنته أمامه مُوثقًا يبتسم كالشياطين مزهوًّا بعفن فعلته، لا بأس أن ينشرها في مواقعهم فقد وهبته أمريكا حصانة أن يفعل

في العراق ما يشاء فهو بطل مُجاهد يُدافع عن العراق على حد إفكهم الذي يأفكون به في نشراتهم وقنواتهم.

كان صالح يسمتع مُنكّس الرأس كالذي يجلس، بعزاء يسمع لقلبه دقات تضخ خليطًا من الألم والحزن والغيظ والكُره والحقد والحسرة والخيبة والعطف والحنان على ماري والرغبة في البُكاء بغير جدوى حيث فقد وقتها الطريق للبكاء من شدة ما ألمّ به، صمت كأنهُ الأرض مُستمعًا لحديثها المؤلم كملحمة موت.

قالت وقد رفعت يدها تمسك القمر بين أصبعيها السبابة والإبهام: كان يُمكنني التحمل والمُضي قُدمًا بعد أن تركنا ذلك المنزل بذكرياته المُهينة القاتلة، لكن حين شعرت بروح السفاح تدب في أحشائي مُجددًا وطوال تسعة أشهر كل يوم وليلة أشعر بتلك اللحظة نفسها، حين سقطت كالأرنب المُقتنصة فوق فراش الموت الدامي؛ ما كُنت لأتحمل من وجعي ذكرى تعيش معي بأحشائي تكبر أمامي كُل يوم وأصغر أنا و أنكمش من قسوة ما ألمّ بي، ماذا أفعل؟ أأمسكه على هون أم أدسّهُ في التُراب؟.. ثم أجهشت بالبكاء ودسّت رأسها في حجر صالح الذي شعر أن أطر افه تجمدت وعيناه توقفت في نقطة واحدة وتبلدت مشاعره حين علم بوجود طرف آخر من الجريمة ليس لهُ ذنب سوى وطن مُستباح مالهُ وأرضه وعرضه ودمه.

استجمع بعض قواه التي خارت ثم بلع ريق الخيبة والحزن والجزع بصعوبة قائلًا بصوت رقيق كامرأة عجوز: ماذا وضعتِ أُنثى أم ذكرًا؟.. صمتت وقد خيم الليل ولم يبقَ سوهما في ذلك المكان الذي آويا فيه من الحزن للحزن.

- حبيبتي، سوف يكون مولودك ابني، وسوف نُربيه سويًّا مهما كان من وضعه برحمك، بالنهاية أنتِ من ولدتهِ. رفعت رأسها من حجره ونظرت له قائلة بصوت لا يكاد يخرج من تكوم البُكاء بحنجرتها: لكنه... بالملجأ.. "ليس هُناك أسوأ من امرأة تضع طفلها بملجأ الأيتام".. أليس كذلك؟

- حبيبتي هذا غير مُنصف أبدًا.. قال ثُم ضمها لصدره.

شعر صالح بمرارة سوء ظنه بها بالأمس، وفهم لماذا تجهمت حين سمعت بحديثه عن اليُتم وكم قسى عليها حتى إنها لم تأتِ عملها رُبما كانت تبكي مثل الليلة وأرداها البُكاء والحُزن والخيبة مريضة بحمى الذكريات لذلك بلغت زميلها أنها مريضة.

- كم ظلمتك يا حبيبتي!.. قال في سرّه.

- أنتِ تعلمين اسم الملجأ صح؟.. سألها مُتحمسًا: سوف نذهب ونبحث عنهُ ونعود به.

- لا أعلم اسمه فأنا وضعتهُ أمام أحد المساجد القريبة من ملجأ الأيتام، وضعتهُ هُناك كي يظنوه مُسلمًا ويحظى بالاهتمام ولا تُهينهُ الطائفية.. قالت ماري بصوت أكثر وضوحًا من السابق.

- تعالي الآن نذهب ونبحث عنهُ.. قال وقد وقف مُنتصبًا مُتحمسًا يده تمتد لتمسك بيدها وهي ما زالت جالسة ثم قالت وهي تسحبه للجلوس بامتعاض: لا يُمكن، لا يُسمح لنا بالدخول إلى الملجأ إلا في الصباح وبعد موعد سابق ثم إننا لا يُمكن أن نذهب نبحث عن طفل من بين الأطفال، ماذا سيظنون بنا رُبما شكوا بأننا تُجار أطفال و أبلغوا عنّا الشُرطة.

- سوف نُخبرهم أننا قدِمنا كي نتبنى أحد الأطفال و أنتِ مؤكد سوف تتعرفين عليه، كم يبلغ عمره الآن؟.. قال بنبرة حماس وهو يجلس وجهه مقابلًا وجه ماري.

- عشرة أشهر وبضعة أيام، لقد وُلد ويده اليُمنى لم يكتمل نموها إلا من عقلة إصبع صغير، وُلِد مُشوهًا كما وُضع مشوهًا وكما كُنت بأوقات حمله مُشوهة القلب ومن كثرة محاولاتي البائسة لإسقاطه.. قالت ماري وقد لمعت عينيها الحمراوتين بدمع جديد.

- لكنهُ ابنك وسيكون ابني ولن ندعهُ يتربى وحيدًا، لقد كسيته من لحمك وعظامك ودمك بينما لم يضع المُجرم منهُ سوى ماء مهين.. ثُم رفع شعرها الذي غطى وجهها أمامه ويرفع بكبرياء ذقنها المُطأطئ خيبة وقال: من الآن لا تخجلي من شيء، ارفعي عينيكِ في فخر فإنك أُنثى لا تتكرر مع عاشق لا يتكرر.. ثم سحب يديها لتقف على قدميها وتطرح الحزن أرضًا ويسيرا معًا وقد ألقيا كُل الماضي وراء ظهريهما، بينما هما خارجين أيديهما مُتشابكة معًا ومُتشابكة في يد الأمل سألها: ما اسم ابننا؟.. مُستحضرًا في قلبها الفرح الغائب عنها.

- لا أدري ماذا أسموه لكني كتبت على يده السليمة يحيى.. قالت وقد تشبثت بيده وكأنها تستوحي منه الشوق للصغير.

- اسم جميل، على اسم النبي يحيى عليه السلام.

•

إذا كنت عظيمًا فلا بُد أن يُساء فهمك

(أفلاطون)

في العاشرة صباحًا كانت مرثا تعطي الأطفال درسًا في التلوين حيث يجلس الأطفال على سفرتين كبيرتين مُتوازيتين ممُتدتين تحمل كل واحدةٍ منهما ثمانية أطفال فرحين بالألوان الكثيرة, تُشاركهم التلوين وهي تمر بمحاذاة كُل منهم تُحدثهم قائلة: "واو هذا جميل ورائع ألوانك جميلة سارةّ".. ثم انتقلت إلى الطفلة المجاورة وكررت التشجيع نفسه ثم للولد المجاور، وخلال ذلك دق أحدهم الباب المفتوح، إنها إحدى المُعلمات: أُستاذة مرثا هُناك ضيف يُريد مُقابلتكِ.

هيا يا صغاري الحلوين أكملوا تلوينكم حتى أعود، قالت وهي تقف أمام السفرتين قبيل دخولها، ومن نافذة مكتب المُعلمات رأت مُديرة الملجأ من قفاها وهي تجلس ووزنها الثقيل قد زاد أكثروشعرها قد زحف عليه البياض.

مرحبًا.. قالت مُبتسمة ملء خديها ثُم عانقت المُديرة وبادلتها الأخيرة العناق ثم جلستا مُتقابلتين. بعد لحظات صمت قصيرة بدأت مرثا الحديث:

- كيف هو الملجأ وكيف الصغيرات وكيف زميلاتي؟

- بخير يا ابنتي، افتقدناكِ كثيرًا.. قالت المُديرة بصوتها الخشن وهي تربت على فخذ مرثا التي لمعت عيناها بالدموع ولكنها تبتسم خشية تسرب دمع الحنين. ثُم أضافت المُديرة بصوت رقيق بعض الشيء وهي تنظر في أصابعها القصار وقد شبكتهم:

- تعلمين يا ابنتي لقد كبرت وسوف يستغنون عن خدمتي قريبًا أو رُبما أموت قبل ذلك, وأُريد أن أطمئن عليكِ، كل زميلاتك تزوجن و أنتِ لا زلتِ وحيدة.

قرّبت كُرسيها أكثر من المُديرة فقد تأثرت بنبرتها الحزينة قائلة بصوتها الرقيق فعليًّا وهي تربت على فخذ المديرة: أطال الله عمرك يا أُمي.

- اسمعي يا ابنتي، لقد طلب مني أحد أولادي من الذين ربّيتهم بملجأ أيتام صغارًا وقت كُنت مُعلمة أن أجد لهُ عروسًا, وهو يعمل في إحدى الدوائر الحكومية ولديه مُرتب جيد سوف لن ينقصكما شيء، لديه سكن ولم يتحدث عن أي شروط , اسمه "رامي" وهذا عنوانه.

بالكاد أخرجت من حقيبتها المُمتلئة بالأوراق ورقة صغيرة بها العنوان عثرت عليها أخيرًا قائلة: يُمكنك أن تذهبي وتريه دون أن يراكِ بحجة أي مصلحة حكومية، لم أُخبره بأنني أخذت العنوان لكِ.

أخذت مرثا العنوان عطفًا منها على مجهود المُديرة بالقدوم والبحث عن تلك الورقة المختبئة بين كومة الأوراق وقالت بابتسامة حالمة: سوف أذهب.. ثُم دسّت الورقة في جيبها وقامت بعد أن استأذنت منها كي تجلب لهما الشاي، أتت به فورًا ووضعته على المكتب المجاور لهما قائلة:

- كيف حال الطفلة زينب؟

تجعدت ملامح المُديرة العجوز البدينة تُوحي بعدم فهمها مَن تقصد؛ فهي بالطبع لا تحفظ بذاكرتها أسماء كُل الفتيات، شرحت لها مرثا الفتاة التي لا تتحدث المنطوية كثيرًا، عادت ملامح المديرة لسيرتها الأولى كأنها تذكرت بعد نسيان شكل الفتاة وليس اسمها، قالت وهي تهز رأسها للأسفل: بخير، الجميع بخير. لم تُجب ولم تفِ بإجابتها، فهمت مرثا أن لا أحد يهتم بالفتاة، تخللتها حسرة بدت على وجهها السارح حتى برد الشاي واستأذنت المُديرة بعدما شعرت بالحرج منها لكونها لم تُساعدها حين طالبوا بترحيلها ولم يشفع لها حبها للأطفال ولا عملها المُتفاني، فالمُديرة لديها قناعة أن أصحاب العاطفة يفشلون بحياتهم، كانت تودّ لو أن مرثا تكن أقل عاطفة وواقعية أكثر، ذهبت المُديرة وعادت هي كي تنهي حصة التلوين مُعلنةً فوز الجميع ودخول وقت الفسحة اليومية.

على أحد المقاعد بغرفة المُعلمات جلست مرثا بجوار مُعلمة وجهها مُبعثرة ملامحه حزينة ومُضطربة, سألتها مرثا برقة وهي تنظر لوجهها المُتراخي: ما بكِ؟

ردّت عليها بصوتٍ مُتهدّل وهي تفرك كفيها ببعضهما ووجهها تجعّد: لقد مضى من زواجي خمس سنوات ولم أُنجب، وقد راجعت الكثير من الأطباء والكل أخبرني أنهُ ليس لديّ ما يمنع ذلك. ثُم شبّكت ذراعيها وأراحت ظهرها للخلف وأغمضت عينيها كاليائسة.

تحركت الأمومة بداخل قلب مرثا وقالت وهي تهز رأسها دون أن تُشعر المُعلمة بفضولها: رُبما المُشكلة في زوجك؟

- ليس لديه مُشكلة، راجع هو الآخر الأطباء وكلهم أخبرونا بأن كُلًّا منّا قد يُنجب لكن مع شخص آخر. ثُم وقفت من جلستها ونظرت من النافذة وقالت: كيف وقد مرّ من العمر خمسة وثلاثون عامًا وفرصة الحمل قد تضاءلت، كيف أبني حياة جديدة مع رجل آخر رُبما تكون لدينا المُشكلة نفسها؟ ثم أضافت بصوتٍ أكثر حسرة: ليتني قبلت عروض الزواج الأولى و أنا عشرينية العمر، رُبما كانت الفُرصة أكبر لإنجاب طفل. ثُم دلّت رأسها من النافذة تطلق سراح طير الدمع. تحسست مرثا الورقة التي في جيبها، أحدثت خشخشة صغيرة كأنها تحتفظ بداخل جيبها بموعد مع الفرص، شعرت أنها ستكون نُسخة من هذه المرأة فيما بعد، فكرت بشأن الارتباط جديًّا قبل فوات الأوان، وقفت بجوارالمرأة وقالت وهي تُربت على كتفها بعد أن ابتلعت ريقها: لا تيأسي. خرجت ولم تجد ما تقولهُ أكثر كونها شعرت بأن الأدوار ستتبدل يومًا ما وستكون هي ذات يوم مكان تلك المرأة اليائسة التي لا يجبر كسرها أي كلمات.

في صباح اليوم التالي خرجت مُتعذرة ببعض الأشغال لديها مُتجهة صوب العنوان المكتوب في الورقة التي نظرت لها كثيرًا وهي تشقّ طريقها إليه بسيارة الأُجرة، تتخيل كيف سيكون صاحب العنوان وهل ستكون ورقة اليناصيب تلك التي بجيبها رابحة أم خاسرة؟

أمام باب مصلحة التأمينات سألت موظف الأمن عن مكتب الأستاذ رامي فأخبرها أنه يوجد أستاذ رامي مُدير مكتب التأمينات ويُوجد أستاذ رامي موظف بالأرشيف، والأخير مكتبه مُشترك مع أربعة موظفين غيرهُ، يُمكنها أن تسأل عليه بينهم فيدلوها على مقصدها, قالت مُتلكأة: شكرًا لك، أظنهُ موظف الأرشيف من أقصد. ثم أومأت بالسلام وصعدت الدرج.

في الدور الثاني على يمينها مكتب المُدير وعلى اليسار غرفة شاغرة بها ترميمات، وداخل ممر قصير على اليسارغرفة بها أربعة موظفين رجلان وامرأة كانوا يتبادلون الحديث، رجلان عمرهما بين الخمسين والخمس وخمسين جالسان على كرسيين متقابلين أمام مكتب المرأة والمرأة بين الأربعين والخمس والأربعين، سألتهم أين أستاذ رامي؟ فأشارت المرأة إلى المكتب المُقابل، التفتت فوجدت شابًّا رأسه مُندسّة بين الأوراق كرأس السُلحفاة، يرتدي نظارة ليست سميكة كثيرًا، على أصابعه أثار حبر وصبغة أداة الختم الوزاري مما يدل على أنه موظف مجتهد كما أنهُ الوحيد الذي يجلس بمكتبه مما يدل أيضًا على جدّيته في عمله وإخلاصه فيه، رفع وجهه من الأوراق حين وقفت أمامهُ فظهرت ملامحه المُتشابه؛ وجهه صغير، أنفه صغير، فمه صغير، عيناه صغيرتان، شاربه عليه خط بالقلم الأزرق عشوائي يبدو أنه دون أن يلحظ قد خطّه بالقلم الموضوع فوق أُذنهُ اليُمنى، آثار لحيته كالفتى الأمرد، لم يكن يحمل ملامح مُعقدة أو غليظة مما جعلها تشعر بالأمان العابر، جلست بالكُرسي المُقابل لمكتبهِ في حين لم ينقطع الثلاثة الآخرون عن حديثهم وكأنهم لم ينتبهوا لقدومها، التفتت صوبهم مما جعلها تُركّز في حديثهم، يتناقشون بغلاء الأسعار وعدم تغطية المُرتبات ومطالب أسرهم، وقالت المرأة وقد كانت أعلاهم صوتًا بصوت أجشّ وهي تغزل بالخيط الصوف طاقية: منذ سنوات و أنا العائل الوحيد للبيت ومع ذلك لم تستمع الوزراة لشكواي ولم تُعرني انتباهًا. ثم قال أحد الرجال بصوت ساخر: لو كانت لديكِ واسطة كُنتِ الآن على غير هذا المكتب الذي لا يُسمن ولا يُغني من جوع.

مرحبًا، هل أستطيع مُساعدتك؟.. سألها رامي مما جعلها تلتفت صوبه فجأة وهي تشعر بالحرج.

ابتسمت قائلة: الحقيقة أنا قد بعثتني لك مُديرة الملجأ، خجلت حين قاطع حديثها بنظرة تعجب سميكة من عينيه فقالت كالتي تدافع عن نفسها: لا أعرف أن ألفّ وأدور صراحةً.

نظر لها مُتعجبًا من جُرأتها مرة أُخرى بعد أن أعاد النظر في الأوراق التي بيدهُ ثم وضعها جانبًا وقال بصوتٍ جادٍّ كموظف حكومي ذات نُسخة أصلية يمطّ رقبته ويمدّ رأسه الصغير نحوها:

- هُنا مكان عمل, بعد الر ابعة مساء أكون قد وصلت المنزل وتناولت غدائي وأخذت قيلولة ويُمكننا أن نلتقي في مكان عام لنتحدث.

فصمت الرجلان والمرأة عن حديثهم ونظروا جميعًا إلى مرثا ورامي، ينصتون بفضول لحديثهما، سحب رامي القلم من فوق أُذنه وفتح دُرج مكتبه أخرج ورقة صغيرة كتب عليها رقم هاتفه النقال، أعطاها الورقة. كل ذلك دُون أن يبتسم، أخذت الورقة مُبتسمة مُجاملة بلا فرح, ثُم وقفت حييت زملاءه برأسها وهي تحترق خجلًا من ردّة فعله أمامهم، ثُم ذهبت وهم ينظرون لها حتى توارت عن أنظارهم ثُم عادوا ليُكملوا أحاديثهم.

لم تستغرق مقابلتها الخمس عشرة دقيقة مما يجعلها قد تُفكّر بأن تعود للروضة ثُم تلكأت: لا سوف أذهب إلى الملجأ كي أرى زينب والفتيات، اشتقت لهن كثيرًا بعد غياب ما يُقارب الثلاثة أشهر، قررت سريعًا بلا تردد الذهاب هُناك بحجة أن تُخبر المُديرة بأمر مُقابلتها برامي, في سيارة الأُجرة بعد أن وصفت للسائق العنوان ترددت؛ فكيف تذهب لمكان كانت به منبوذة، طُردت منهُ كما طُرد آدم من الجنة، كانت تئن شوقًا حين اقتربت من الملجأ، أعطت السائق أُجرته، نظرت للمبنى من الخارج كالذي ينظر لوطنه من الطائرة بعد الإقلاع، وقفت كثيرًا لكن حرارة الشمس وحرارة الشوق دفعاها للدخول إلى عالمها التي لطالما أحبّته ووهبته عطاءً دون ندم.

من إحدى النو افذ بالغرف الأرضية نظرت إحدى الفتيات وصاحت بصوت الفرحة: ماما مرثا.. فخرج الأطفال يصرخون جميعًا: ماما مارثا. ومن كُل الغرف خرجوا حيث سمعن صياح زميلاتهن وبالدور العلوي أيضًا قد استبقوا الدَّرَج مُهللين كأنهُ العيد هلّ فجأة مع مرثا, والمُدرسات ينظرن مُندهشات لهذا الموقف,أخذ الفتيات يتسابقن في عناقها وهي حائرة بينهن تحمل هذه وتُقبّل تلك وتمسح شعر هذه وتردّ على تلك، تشتت فلم تعد تدري على منْ ترد؟ هذه تسألها لماذا ذهبتِ وتلك تسألها لماذا ذهبت؟ وأُخرى تسألها هل ستبقى معهن؟ وهي ما زالت لم تنتهِ من عناق سوى بضع فتيات والأُخريات يتسابقن في دورهن والمُدرسات تنظر إحداهن بتعجب والأُخرى بغيظ . وأُخرى مُبتسمة ابتسامة صفراء، وأُخرى فرحة لتعبير الفتيات الفطري عن حبهن وحاجتهن للحنان الذي كانت تهبه مرثا بسخاء.

انقضى عمر السعادة سريعًا، حيثُ أخبرت إحدى الحاقدات المُديرة فجاءت بدورها تُفرّق جمع الأحبة بعصا سوء الفهم والجهل والخيبة. فتفرقت جموع الفتيات وذهبن إلى غرفهن وهُن ينظرن لمرثا نظرة الحرمان الآسفة عن و اقع لا يعرف الأسف.

- في الحقيقة جئت كي أُخبركِ أني ذهبت لمُقابلة رامي.. قالت بصوتٍ مُتقطع مُتحشرج الدمع بعينها وبحلقها أكثر.

- جميل.. قالت المُديرة وقد وضعت يديها مع العصا خلف ظهرها ثُم قالت وهي تهز رأسها كالتي تطردها بالذوق: تفضلي نشرب الشاي.

- لا شُكرًا، أردتُ فقط أن أُخبركِ وأمضي.

أدارت ظهرها تجر ذيول الألم, تذكرت إنها لم ترَزينب فنظرت خلفها حيث ما زالت المُديرة و اقفة وقالت:

- لم أرَ زينب، هل هي مريضة؟

أومات برأسها أن لا، ثم عرضت عليها أن تجلبها لها كي تذهب ويعود الملجأ لهدوئهِ قبيل ثورة الحب التي هيجتها في أرجائه، أخبرت إحدى عاملات النظافة أن تحضر الطفلة زينب فذهبت وعادت على الفور وهي تمسك الطفلة بيدها تجرها، كانت الفتاة تسير بخُطى مُتثاقلة، وحين اقتربت منها مرثا لم تعرفها وحين قَبَّلَتها واحتضنتها بدت الطفلة كالتي فقدت الذاكرة، تشبثت بيد عاملة النظافة خائفة، أشارت المُديرة إليها بالذهاب فذهبت وهي تنظر خلفها كالتائهة.

ماذا بها؟ هل نسيتني بعد غياب شهرين و أقل؟!.. سألت مرثا المُديرة وهي لا تزال تنظر صوب الفتاة حتى ابتلعتها الغرفة التي بنهاية الممر.

هي لا تتذكر أو رُبما لا تُريد أن تتذكر.. قالت المُديرة وقد ظهرت على وجهها علامات الانزعاج، خرجت مرثا من الملجأ حزينة تتأسف لعجزها وفقرها، رُبما لو كان معي مال أو متزوجة من رجل ثري كُنت استطعت أن أتبنّاها أو آخذها معي للمنزل، ظلّت تتحدث إلى نفسها حتى لا تعلم كيف عادت لمسكنها وغرقت في نوم الهرروب.

يسهُل خداع الشباب لأنهم يستعجلون الأمل

(أرسطو)

في فناء الجامعة بينما إقليدس يتهيأ للخروج أوقفه نداء شخص من خلفه: "هاي توقف". فالتفت خلفه ليتعرف على صاحب النداء القادم من خلفه، إنه "سام"، ذلك الشاب الذي تحدث إليه من فترة في المعمل ومن وقتها لم يكن يجمعهما سوى إيماءات السلام من بعيد أو حين يلتقيان بالمكتبة بين زملائهما أو بالمعمل.

مرحبًا كيف حالك؟.. قال إقليدس وهو يرفع يده يُصافح سام فقام الأخير بمد يدهُ ليُصافحه.

- أنا ذاهب أحضر درسًا في المسجد القريب، تعال معي هُناك شيخ جديد, شاب مثلنا ويُمكننا أن نتحدث إليه كما نُريد ودون خوف أو خجل.. قال سام وهو يضع يدهُ مُتحمسًا على كتف إقليدس الذي أُحرج من هذه الدعوة ولم يجد مخرجًا إلا التلبية فقال: حسنًا لنذهب، هل هو قريب؟

- نعم قريب، ويُمكننا الذهاب سيرًا على الأقدام حتى نحصل على الكثير من الحسنات.. قال سام مُتفاخرًا رافعًا حاجبيه بحماس أكثر، في حين إقليدس كان مُعجبًا مُتعجبًا لذلك؛ فهو من ناحية يحتاج لمن يشدّ أزره ويُشجّعه للصلاة، وبالوقت نفسه يكره حدّة العرب المُسلمين في دعوتهم ويفقد الثقة في توجههم الديني، رُبما هذا شخص مُختلف.. خرجا من بوابة الجامعة، أشار سام إلى اليمين فسارا مُتجاورين.

- لماذا لا أراك في المسجد ولا تحضر الصلاة حتى يوم الجُمعة؟.. سأل سام وهو ما زال يضع يده على كتف إقليدس ويدهُ الأخرى تحمل كتيبين صغيرين وأجندة اصطحبها ليُسجّل عليها الدرس.

- في الحقيقة الدراسة ألهتني عن أشياء كثيرة, حتى كُنت أنوي تعلّم الموسيقى لكني حتى الآن لم أستطع.. قال إقليدس وهو ينظر للشارع الطويل المُزدحم بالمارة حيثُ كان وقت الذروة.

- أوه، تُريد تعلم الموسيقى؟ ألم يُخبرك أحد رجال الدين بأن الموسيقى لغة الشيطان؟.. قال مُستنكرًا ونظر لإقليدس الذي كان يُضاهيه استنكارًا وتعجبًا, ثم حمل

يد سام من فوق كتفه ووضعها جانبًا كالذي يزيح حملًا ثقيلًا من فوق كاهله قائلًا: بلى قد سمعت بهذا وكثيرًا ولكني لا أقتنع بآرائهم ولا بأكثر أحاديثهم. فامتعض لرأيهُ سام وتغيرت ملامحه وواصل السير صامتًا.

اقتربا من مسجد صغير هادئ البُنيان كبير الأعمدة، ولِجا وخلعا نعليهما، كان المسجد ممتلئًا بالمُسلمين من كُل الجنسيات من عرب وأمريكان ومن الصين والهند وباكستان وبنجلاديش وتُركيا، كلٌ قد علم صلاتهُ وتسبيحه، ثم جلسا مُتقاربين بعد أن وضعا كُتبهم على أحد الأرفف.

هذا الشيخ دروسه رائعة، سوف تعتاد المجيء إلى هُنا كي تستمع إليه.. قال سام بينما دخل شاب طويل يرتدي ثوبًا أبيض وغترة كثيف اللحية، قال السلام عليكم بالعربية فوقف الجلوس جميعهم إلا إقليدس، إنه الشيخ الذي يتحدث عنه سام، جلس الشيخ وأشار إليهم بالجلوس فجلسوا, كان سام ينظر لإقليدس ماطًّا شفتيه من سوء أدبه حسب ظنّه لأنه لم يقف احترمًا للإمام.

لكنّ إقليدس كان يشعر بالدهشة حدّ الامتلاء, ينظر إلى الشيخ حتى كاد أن يجن، شعر أنهُ رُبما يُصاب بنوبة هستريا إثر تلك المُفاجأة، إن الشيخ الذي أمامه هو نفسه "جون"، ذلك الشاب الثمل الذي كاد أن يتقاتل معهُ في الملهى الليلي حين ضرب بقدمه الفيولا التي تحملها روز وكان يطلب راقصة.. يا إلهي إنهُ هو؟! لا لا هذا لا يُعقل!.. نظر لسام فوجدهُ فرحًا مسرورًا وهو يستمع باهتمام كاد يصيبهُ ذهولًا، أخذ يُحدّق يُراجع ملامح الشخص الثمل وملامح الإمام الذي يتحدث بلغة الخطباء ذاتها، فلم يجد فرقًا، هي تلك الملامح، حتى مكان القرط الذي كان قد نغزه في أحد حاجبيه ما زال واضحًا، يا إلهي أيُعقل ذلك؟! همَّ بالوقوف فشدّه سام للجلوس, نظر للحضور، شعر كأنهُ ذُبابة سقطت في خيوط العنكبوت، لم يستطع الحِراك، ثم أخذ ينظر بوجه الشيخ الذي يُلقي درسه بالإنجليزية عن تحريم الخمر والزنى ويُوصي الشباب بالصوم وغض الأبصار، قام شاب عربي يسألهُ ماذا إذا تزوجت بأجنبية يا شيخ جاسم؟

أجابه: "يُمكنك الزواج من الأجنبية ولكن شريطة أن لا تقع في حُبها". ثارت إجابتهُ سُخرية وضحك إقليدس، قام آخر وسألهُ عن زواج ابنته البالغة من العمر اثنتي عشرة عام، فأجاب: هذا ليس بحرام وعلله بزواج السيدة عائشة بالنبي مُحمد في هذا العُمر

وروى لهُ من الأحاديث ما لذَّ وطاب.. شعر إقليدس بالاستياء، استجمع قواهُ للنهوض، همس بأذن سام إنه سوف يذهب لقضاء الحاجة، بيت الخلاء بالنسبة لي أفضل من الحديث داخل تلك القاعة، يا إلهي ماذا ينتظرني؟! هل تركت بلاد العرب ورائي كي أجدها هُنا أمامي قد سبقتني؟! تنهد كثيرًا ثم غسل وجهه بالماء كي ينسى ما سمع ثم خرج موليًا وجهه شطر بيته وهو يتلفّت خلفه يترقب مخافة أن يتبعه سام ويُعيدهُ للمكان الذي شعر فيه بالغثيان، مُتسائلًا: كيف يُمكن لهذا الشخص أن يتحول فجأة من ثمل بملهى ليلي يعتدي على فتاة إلى خطيب وإمام وربُما مُفتي قريبًا؟! كيف أصبحت الديانات الإنسانية رغبات حيو انية وسُلم ترقيات حسب إمكانية ممارسة فن الكلام؟! هل هي شهوة الشهرة؟.. تنفس الصعداء حين وجد نفسه أمام بيتهُ، نزل من سيارة الأُجرة، أعطى السائق أُجرته وجر قدميه المُتعاجزتين عن السير من وهن التفكير وقسوة الانتظار، فهو من ناحية لا يُصدق أنه لن يرى روز ومن ناحية أخرى قد رأى جاسم أو جون، أي لُعبة نتنة تلعبها معي الحياة في حين أنتظر من لا يأتي أرى من لا أُريد ولا أتوقع حيث لم أُرد ولم أتوقع.

دخل شقته وهو ظالم لشوقهِ عازمًا على الانتقام من الانتظار، قرر أن يذهب بعد أن يأخذ قسطًا من النوم والنسيان إلى لاس فيجاس بمساء اليوم كي يتخلص من الطاقة السلبية الذي خلفها نهار غير سار من انتظار روز ومن حديث جون، وكنوع من الانتقام من عروبته ومن وحدته.

أفاق في السابعة، تناول طعامه على عجلٍ ثُم أخذ حمامًا وارتدي فانلة زهرية وبنطالًا قصيرًا جينز يتناسب مع طبيعة لاس فيجاس (مدينة الخطيئة)، ثم بخّ الكثير من العطر الذي أهدته له روز، أخذ هاتفه وأغلق الباب وراءه مُودعًا فيه يومًا من الضجر، ثم استقلّ سيارة وبعد عشرين دقيقة وصل لاس فيجاس، أمام أحد الملاهي وجد إعلانًا عن قدوم فرقة موسيقية شابة سوف تُحيي الليلة الثالثة على التوالي، دخل فرحًا كأنهُ وجد ضالّتهُ وكانت هذه المرة الأولى التي يصدق فيها ظنهُ بالفرح؛ ذلك لأنه حين كان يتناول الشراب دخل رجل وأعلن عن موعد المعزوفة المحببة، وبعد التحية دخلت الفرقة تتقدمها فتاة حين وقفت بمنتصف المسرح اتضح أنها روز، سطو المفاجأة عليه أشد وطئًا من كُل ما سبق، جلس يستمع لعزفها محاولًا التخفّي منها كي لا تنتبه لوجوده

وتشتت ولا تُجيد نوتتها مع الفرقة.. انتهت من العزف مع الفرقة وبدت معزوفتها الفردية التي أخذتهُ إلى مُدن الحنين فوجده كما هو لم يعتريه شيء ولم ينقص الفُراق منهُ أُنملة.

"يقول الدوس هكسلي: الموسيقى أقدر وسيلة للتعبيرعما لا يُمكن التعبير عنهُ بعد الصمت"، وهو الآن محشور بين مُعبرين عملاقين؛ الموسيقى والصمت.

لم تُبعثر رياح الاختلاف أوراق العشق من منضدة قلبي، ليتها تعي كم خلفت برحيلها أوجاعًا لا تكف عن التصدع، وكم هو حجم الفراغ الذي أضحت فيه حياتي برحيلها! إن لم يأت بها الشوق فلا خير في احتياجي لها، إن لم تهدها حواسها إلى طريقي، فكيف أقطع عليها الطريق أنا كمُرتزقة الحب، كثير من يتحدث عن الحب كونهُ ثُلثي الحرب تظل تشتعل حتى تسقط راؤها إن لم تُحارب خوفها وحُزنها القابع بالراء فلن تنعم بالحب ذات يوم حتى مع سواي، ليتها تُدرك...

انتهت المعزوفة ووقف الجميع يُصفّق وبقي إقليدس مُتشوقًا ومن حيث لا يدري أحاط بهما الحب فوشى لها بحضوره، رمقته من بعيد بنظرة حيرة وشوق مُغتالة بقذيفة الراء، وقف مكانه كالكثيب المهين ينتظر رُبما يغلبها الشوق فتعود لسيرتها الأولى محشورة بين الحاء والباء.

بعد عتاب وغياب وذهاب و إياب و انتظار كانت روز تروح وتجيء بغرفة الملابس يحترق قلبها حيرة وشوقًا، وحين فار تنور الشوق لم تجد بُدًّا من أن تذهب للصالة حيث يجلس إقليدس بلا تردد لكنها لم تجدهُ بمكانه، وبعد جرعة خيبة ودقائق حداد على لحظة اللقاء المُغتالة كانت مُستندة فيها على مقعد بجوار الطاولة التي كان يجلس عليها تتحسسه كما لو كانت تُبدي الندم في انتظار قرار جديد قد تتخذه، خرجت بخيبة وحزن وندم للشارع الذي كان المارة فيه ثملين في مدينة الخطيئة يرمقونها بنظرات إعجاب فاضحة و إيحاءات غليظة، انتبهت لرجُلها، إنه يسير على اليمين في اتجاه السيارات، أسرعت وهي بالكاد تستطيع السير من ردائها الضيق حول قدميها والذي يجرّ خلفها، تعبت من العدو فنادته بصوتٍ مُرتفع كي يسمعها من بين أصوات أبواق السيارات وقهقهة المارة المُتسكعين فالتفت خلفه، عاد سريعًا وهي وقفت قليلًا ثم أقبلت تمشي الهوينى وحين اقترب منها قالت بصوت رقيق يقطر شوقًا: أفتقدتُك كثيرًا

كثيرًا. لم يكن هُناك خيار آخر سوى أن يحتضنها وهي كذلك فليس للحظة لقاء الأشواق تعبير خير من الاحتضان, في تلك اللحظة التي يسرقها فيها عطره أو عطرهما للحظات كانت عالقة بذاكرتها، استجلبها العطر فخرجت من الذاكرة إلى جسدها تستخرج منهُ الحنين وتقطره قطرة قطرة على مشاعرها التي نُفخت فيها روح الحُب مُجددًا برؤية إقليدس.

لا حياة لي من دُونك روز.. قال وهو يضع رأسهُ على كتفها كالذي يُريد الاختباء داخلها من وحشة الفراق, بينما هي ظلت صامتة والشارع من حولهما يغوص في الصخب, حبان مُتعانقان في مدينة الخطيئة، حبان مُتعامدان بين مدينة يتمايل المارون بالشوارع ثملين عن يمين وشمال، شوقان يلعبان لُعبة العشق وقد ربح الحب في مدينة المُقامرة حيثُ يربح الأكثر مالًا ونفوذًا وسُلطة غرباء اثنهما جمعهما الحب ثانية بعد أن كادت تُفرقهما العُنصرية والحروب والدماء.

هل انتهيتِ من العمل هُنا؟.. سألها بعد أن رفعت رأسها من فوق كتفه وسارت بجواره.

- لا، ما زال لدينا ليلة، ثم... أجابت وصمتت عن بقية الإجابة.

- ثُم ماذا؟ هل ستعودي إلى فر انكوفر؟.. سألها ببعض الأسى، فأومأت بإجابتين نعم ولا، فأنزل يدهُ من حول خصرها بالخيبة ذاتها التي جاءت به إلى لاس فيجاس.

- حبيبي امنحني بعض الوقت كي أُثبت لأُمي أنني راشدة وسوف أتحمل مسؤلية اختياري.. قالت وهي تُعيد يده حول خصرها كما لو كانت تُعاتبه على سقوط يده وترك خصرها مُطفأ بذلك، لحظة لقاء ما زالت مُشتعلة، وكالتي تُعيد له الثقة في رغبتها بوجوده.

- حسنًا عودي إلى عملك و أنا سوف أعود إلى سياتل.. قال بنبرة الأسى ذاتها وهو يسحب يده ببطْء ثانية من حول خصره ثم أمسك بكفّيها وقبّلهما.

- ابقَ معي لبعض الوقت، سوف أُقدم معزوفة "القادمون"، أعلم أنك تُحبها.. قالت وهي تجلس على أحد المقاعد بالطريق وتسحب يدهُ تحثه على الجلوس بجوراها، ففعل مُستسلمًا.

- روز، كيف يفترق حبنا عن عنصرية؟ هل يستحق حبنا تلك النهاية المُسيئة له وللحب كُليةً.. قال وقد رجع إلى الخلف يستند ظهرهُ إلى المقعد الحديدي بينما هي كانت مُنحنية مُنشغلة بثوبها الطويل تلملمه من الأرض، رفعت وجهها ومطّت رقبتها الطويلة كأنها سمعت ما لم تكن تود سماعه، فهي برغم تأثير الأم عليها وأسباب ذلك التأثير فقدان الأب والأخ ولكنها ليست عُنصرية مثل أقاربها الساسة الذين تجتمع معهم الأم وتحث روز على حضور اجتماعاتهم والذين حين يجتمعون لا يكفون عن بث السموم في إنسانيتها من طائفية وعنصرية وكراهية للعرب.

- حبيبي هل تعتقد أنني كذلك؟.. سألت مُستنكرة وقد تجعد جبينها مسندة ظهرها للخلف تنظر إليه.

- لا، وإلا ما أحببتك.. أجاب وهو مُمسك بيدها كأنه يُحاول أن يتخطى بها مُستنقعًا كادت أن تسقط فيه. نظرت للساعة التي على هيئة خاتم في إصبعها، انتبهت لموعد معزوفتها القادمة وكانا قد ابتعدا عن الملهى مسافة خمس دقائق, قامت على عجل أخذت بيد إقليدس تحثّه على النهوض: هيا سينتبه الحضور لغيابي. نهض وسارا إلى الملهى مُتخاصرين ومُحاصرين بالحب.

وصلا الملهى، جلس هو على طاولة غير تلك التي كان قد جلس عليها وأخبر روز بأنه سوف يُغيّر مكانه كي لا تتشتت وتبحث بعينيها عنهُ فتفقد معزوفتها فطرتها على حد فكره.

كان وحيدًا يستمع لأحد عازفي الأورج إلى أن تأتي روز, حينها اقترب منهُ رجل اتضح من هيئته الناصعة أنهُ رجل ثري، ملأ عطره أرجاء المكان، جلس أمام إقليدس، اندهش الأخير وهمَّ بالقيام حرجًا من ذلك الذي احتلّ سكينته، أمسك به الرجل وأومأ برأسه أن يبقى ففعل، وضع قدمه فوق الأُخرى وهو يقول: اسمي "روبرت". أعمل مُخرجًا سينمائيًّا، ثُم أخرج من حافظته كارتًا تعريفيًّا عليه اسمه ورقم هاتفه، وضعه أمام إقليدس ثم أخرج غليونه وقال وهو يُشعله: هل تُريد أن تقوم بأحد الأدوار السينمائية؟ ودون أن يُعطيه فرصة الرد أضاف: لديك رقم هاتفي يُمكنك الاتصال بي.. أخرج دخان غليونه عاليًّا وقال بنبرة غرور: لكن ليس لدي وقت أكثر من ليلة كي أعرف جو ابك.

ظلّ إقليدس ينظر للكارت يتفحصه، إنها فرصة كي يحقق حُلمًا قديمًا لطالما حلم به، أو رُبما فخّ قد يُرديه قتيلًا وسط أضواء المدينة الصاخبة التي تضج بالأكاذيب، حين كان يقلب في كارت الأحلام والأماني ذلك الذي يُشبه طاولة القمار المُحاذية لهُ يحمل نتيجة الفوز والخسارة، المال واللامآل، خرجت روز في ثوب جديد مع لحنه الذي حمل الذكرى الأولى للقائهما ولقائه بالرجل الذي فسّر إقليدس تغيّر حاله بأنه دخل آلة المُتحولين فتحول من ثمل يرتاد الملاهي إلى شيخ يعظ الناس ويحرم عليهم تلك الأفعال التي رُبما هو ما زال يفعلها في الظلام مُختبئًا بكهف الثياب البيضاء واللحية الكثيفة, إقليدس لديه دومًا اعتقاد أن فاقد الشيء دائمًا يتحدث عنه وكأنما يملكه.

انتهى اللحن ولم تنتهِ حيرته التي اشتدت وتيرتها حين اكتشف اختفاء الرجل من أمامه فظن أن عرضهُ ذلك قيد الانفكاك، عرضًا زائلًا قُدمه لعربي وهو ثمل دون وعي منه.. من أكون أنا ليُقدم رجل مشهور تلك الفُرصة لي؟ الذي رُبما حين يعلم بأنني عربي سوف يتبرأ من ذلك الاتفاق.

أخذت روز تبحث عن إقليدس بين الطاولات الكثيرة المُتكدسة بالحضورالمُقامرين والمتواعدين والنساء اللاتي يستعرضن أنوثتهن على الزبائن.

آسر، هذا أنت؟.. قالت حين وجدتهُ واضعًا رأسه فوق الطاولة يتساقط شعره الناعم فوق وجهه كالنائم ثُم رفع رأسهُ فظهر وجهه و انزاح شعره للخلف وهو يُقرب كُرسيه منها، رفع يده بالكارت أمام عينها يمطّ شفتيه باللامبالاة دون أن ينظر إليها.

- ما هذا؟ هل هذا المخرج بشخصهِ قد أعطاك ذلك الكارت؟.. سألت وقد وقفت فاغرة فاها.

- نعم هو.. أجاب بهدوء وهو ما زال غير مُبالٍ, ثُم نظر إليها يقرأ تعابيروجهها الكثيرة.

- إنها فرصة رائعة، قد أخبرتني سابقًا أن لديك موهبة تمثيل وكُنت في صغرك تقوم بعمل أدوار. أخذت تُحدق في الكارت كالتي تذكرت شيئًا مُهمًّا: أعرف ذلك الرجل، مُخرج مشهور وسوف تكون قريبًا نجمًا حبيبي. فقام إقليدس بعد أن جعلتهُ يثق في ذلك الطرح تمامًا وكما لو أنه بالفعل أصبح نجمًا، وأخذ الكارت ينظر فيه وكأنه يراه لأول مرة.

- سوف أتحدث معه في الصباح.. قال إقليدس بحماس.

- لا بل الليلة قبل أن يسبقك أحد.. قالت روز بحماس يُضاهيه.

- معك حق، الليلة يا حبيبتي.. قال ثُم وقف بجوارها، حملها وهما يضحكان عاليًا، لم يكن يلتفت إليهما إلا عجوز تجلس وحيدة تبتسم لهما في صمت وهدوء.

- الليلة أتحدث معهُ لكن بحضورك، ستكونين معي في طريقي أليس كذلك؟.. سألها وهو ينظر لعينيها التي أومأت بالقبول, لم يعطِ لها فرصة أُخرى فقد قص جناحيها الطائرين حيث الفُراق حين حملها بين يديه كما تحمل المرافئ طائر النورس.

عاد من لاس فيجاس على عكس ما ذهب، كان قد ذهب حاملًا معه الهزيمة والهروب حيثُ الوجوه التي لن تُذكره بروز ولكنه عاد بالانتصار من حيثُ لم يكن يتوقع معركة بالأساس، عاد بالأمل وبالحب، كان قلبهُ يتخبط فرحًا كالوطواط في سقف غرفة مُضيئة.

حين كان يقوم باتصاله الهاتفي الأول مع الدُّنيا مُبتهجًا كانت روز تُلقي ثياب الماضي البالية التي كادت تبللها العُنصرية غير اللائقة أبدًا بالحب. كان إقليدس يتحدث بلسانه اللبق وعينه العاشقتين تتطلعان بروز التي كانت تمتطي جواد العودة للوطن الذي هجرتهُ ظنًّا منها أنها بذلك تُرضي وهم ودكتاتورية الوطن الحقيقي، وبين حلم وحقيقة انتهى اتصاله و اتفاقه الذي أتقنهُ مع الدُّنيا والنجومية كي يبدأ اتفاقًا و اتصالًا آخر يُتقنه جدًّا مع روز.

ماذا سيكون دورك بالفيلم؟.. قالت روز بنبرة سعادة وهي أمام المرآة تصفف شعرها وتنظر لوجه إقليدس المعكوس بالمرآة.

يقول المُخرج لي دور ثانوي وفي حال أجدته فستكون فرصتي أكبر فيما بعد.. قال وهو ينهض من فراشه يحتضنها من الخلف: روز أنتِ لن تذهبي مرة أُخرى صحيح؟.. قال بصوت خافت كأنه يتحدث بأنفاسه وهو يضع رأسه فوق كتفها ويفتح الأزرار التي أغلقتها.

- لا، لقد أدمنتُك ولا أمل في شفائي.

قوس قزح

في أحد ملاجئ بغداد للصغار دخل صالح ومعه ماري بعد أن أخذا الإذن بزيارة الأطفال مُعللين ذلك أنهما زوجين محرومين من الإنجاب, من بين طفل باكٍ وآخر ضاحك, وطفل يصيح وآخر صامت ومن بين طفل يحبو على الأرض وآخر جالس, وطفل تحملهُ المُربية وآخر نائم على أحد الأسرة يرفس ويبكي يفحصه الطبيب, وقفت ماري تتلفت من بينهم على طفلها الذي رُبما هو هُنا بعد أن سبق وبحثا في ملجأ قبل هذا ولم يجداه وصالح يتلفت معها كأنهُ يعرف الطفل بل كأنهُ يحفظ ملامحه، أخذ يُلاعب هذا ويُقبّل هذا ويحمل هذا ويُدغدغ ذاك والصغار مِن حوله مَنْ يضع يدهُ في فمه ومَنْ يبكي ومَنْ يعبث بقميصه, وفجأة ظهر طفل يتدحرج على عربة صغيرة من تلك التي تُدرب الأطفال على السير، يلوّح بيده اليُسرى في الهواء ويدهُ اليُمنى مركونة على السيارة كأنها ثقيلة لا يقوى على حملها.

إنهُ هو هو، هو يحيى.. صاحت ماري فجأة ثم خجلت من موقفها حين التفت الطبيب وممرضته صوبها وإحدى عاملات النظافة, فارتبكت وشعرت بالحرج، قالت بصوت مُتهدج كالتي سقطت من صخرة كي تتفادى سوءة الحرج: هذا الولد يُشبه يحيى ابن أُختي.

عاد الطبيب ونظر للطفل الذي يفحص نبضه وكأنه لا يهتم, كان الطفل ما زال يصيح والمُمرضة باشرت عملها في تغطية الطفل عاري البطن بعد أن انتهى الطبيب من فحصه.

- نعم صحيح يُشبهه.. قال صالح بعد أن نهض من وسط رهط من الأطفال كي يُنقذها من الحرج الذي انتابها, ثُم أخذ الطفل وضمّه كأنهُ كان يفتقده والطفل ينظر لكليهما وهو يعضّ شفته السُفلى ثم تلوى وبكى, فطرة الأطفال لا تقبل غرباء، دهشتهم لا تقبل بالوجوه العابرة.

تألمت ماري من بكائه ورفضه لها وكأنها تلومهُ هو على تركها له هُنا، بينما صالح يتأمل وجهه الباكي، كم هو يشبه وجه أُمه بالأمس, عينيه اللوزيتان ووجهه الأبيض وطفولتهُ اللامعة هي تلك التي تحملها ماري، جاءت المُربية لتأخذه منهما كي تُهدئ من

نوبة البكاء التي أصابته، وكأنهُ يلوم هو الآخر أَمه، كل طرف يلوم الآخر على جريمة، كلاهما ضحيتها.

إذا سمحتم لي سأعود به حال يهدأ.. قالت المُربية وهي تحمله مِن صالح ثم توارت في أحد الغُرف فاختفى يحيى عنهما. وقفا ينظران أحدهما للآخر، ضمّها صالح لصدره وهو يخرج بها من بقعة أرض قد أخرجت لأمومتها ماءها ومرعاها.

سوف نعود لنأخذه، أعدك بذلك، وسوف يكون ابننا.. قال وهو يُقبّل رأسها المُنحني مُعزيًا لها في موت اللحظة التي جمعتها بقطعة منها أرادت قديمًا أن تواريها التراب وهي ما زالت تنبض ففشلت.

- ماري، يحيى يُشبهك كثيرًا، كيف أترك نسخة منكِ في مكان ما دون أن أسعى للاحتفاظ بها؟

كان يتحدث كي يستدرجها للحديث فيطمئن قلبه لنجاتها من طعنة الصمت، فوقت الحزن يكون الصمت قاتلًا مُستأجرًا من الحياة لن يصفح عنك وسوف يقتلك لا محالة، على النقيض منهُ في وقت الحب يتحول الصمت فيه إلى لغة غاية في الإبداع والشروح.

في أحد الشوارع جلسا على رصيف بعد أن فرشا بعض أوراق الجرائد، قال صالح مُتعجبًا كي يُشجعها على الحديث: ما أكثر الجرائد هُنا!

- نعم هي كثيرة ولكن ليست للقراءة فهي تحمل الأكاذيب أكثر من حروف الجمل والمقالات بها، لكن ثمة فائدة أُخرى لها فهي تستعملها المارة كأكفان يسترون به عورة الوطن حين تتساقط أوراق التوت منه مع القذائف الكثيرة المعلومة والمجهولة.. قالت وهي تنظر للأسفل في خجلٍ كأنها فقط هي التي حملت أوزار خطيئة الأوطان.

الأوطان العربية جميعها مُتكشفة العورة، فلا يغرينك تسترها ببعض الأوراق النقديه كانت أو أوراق الجرائد، إن الوطن الذي إن تطهر من حيض الشِّقاق لن يتطهر من نفاس حكومات السفاح ليس لديه أدنى الفُرص، يُقيم صلاة الوصال بالإنسانية ولو على سبيل النفاق، قالها وكأن عدوى اليأس تسربت إليه من قلب ماري.

- أوطاننا جميلة يا صالح, جميلة جدًّا, لكننا لا نرى هذا الجمال لأن الفقر يحجبنا عنهُ.. قالت وهي شاردة ثم أضافت: هل تعتقد حقًّا أننا سنتزوج ويكون يحيى طفلنا؟.. سألته بمرارةٍ كأنها تبكي.

- ولم لا؟ هل لديكِ شك في ذلك أم بلسان الخوف تتحدثين؟.. أجاب سائلًا وهو يضمها ويضع رأسها فوق كتفه.

- بلسان الخوف أتحدث.. أجابت ثم شهقت بقوة وقالت: الخوف من فُقدانك, عِندما أحببتك خفت أن أفقدك, خوفي من الفقدان لطالما منعني طوال عمري من الاقتراب من الحب أو تبادله مع أحد حتى بأوقات المراهقة التي تتوق فيها العاطفة وتتأجج في انتظار منْ يُبدي لنا عن حبه أو منْ نُبدي لهُ عن حُبنا حتى ولو على سبيل إيماءة, حين كُنا أطفالًا كُنا نخاف دائمًا أن نفقد أحد آبائنا، ووقت نضع رأسنا ندسه في رقبة أحد منهما نظل نتخيل فقدانهم وكيف سيموتون بيوم ما، أسوأ اللحظات تلك هي التي نظل نتخيل فيها نهاية لدفئنا الأُسري، حتى نظن وقوع الفراق أفضل من انتظاره، لكني لم أكن أتخيل بل كُنت أرى أنني بيوم ما سوف أفقد من أُحبهم وإن وجودهم بحياتي وقتي وسيرحلون فُرادى أو معًا، كُنت دائمًا أتفقد أُمي بالليل حين يبلغ بي الخيال أقسى الدرجات فأذهب مُتسللة أُراقب أنفاسها وحين أرى أنفاسها تعلو وتهبط أشعر بالاطمئنان الكاذب وذلك كُل ليلة وحين بلغت العمر الذي أينعت فيه كان الخيال قد بلغ أشُده وزادت نوبات التفقد الليلي لكليهما أُمي و أبي, ظل يُطاردني ذلك الشعور، إلى أن وقع الخيال على أرض الواقع مقصوفًا حين فقدتها وفقدت إخوتي وجدي فعصيت عادة التلصص تلك؛ فقد أدركت أن الموت لا يختطف النيام فقط بالليل مُتسسلًا إليهم بل يختطفهم بوضح النهار أيضًا وعلى يقظة منّا وهم بيننا ونحن حضور ودون أن نُقدم لهم شيئًا البتة أو نمنع بقعة الموت من الاتساع لتشمل أكثر من نصف عائلتي بينما البقية نصف أحياء يقفون بالطابور المُتهاوي مُنتظرين دورهم.

أخذ صالح يمسح بظهر كفّه دمعها قائلًا: لكن أنا لن أموت، أشعر أن عمري طويل وسوف نتزوج ونُنجب عشرة أطفال كُلهن فتيات وكلهن ماري.. فابتسمت ابتسامة مُبللة بملوحة الدمع وقالت: صالح، أتعلم أن زواجي منك بمثابة تخلي عن ديني وربما لن يسمح

أبي بذلك مُطلقًا فنحن قلة ونعتز بديننا كما يعتز الموتى بأكفانهم, نتهجر ونُقتل لكننا لا نترك التصبؤ أبدًا.

قال مُبتسمًا: حبيبتي، إذا كان الدين هو الذي يُفرقنا فمن الذي سيجمعنا؟ من يملك المحبة لا يعنيه الاختلاف.. ثم شبّك يده بيدها وقال: ألن تُعرفيني بأخيكِ و أبيكِ؟ وهو ينظر لوجهها الذي احمرت وجنتيه من حرارة الشمس.

- سوف أُحدّث أبي عن أمرنا في أقرب الفرص.. قالت ثم وقفا يستأنفان الحديث سيرًا.

- صالح، هُناك شيء أريد أن أخبرك به.. قالت وهي تنظر للأرض ثُم للطريق أمامها.

- أخبريني، وكُلّي آذان صاغية يا حبيبتي.. قال وهو يُحرك يدهُ بيدها ذهابًا و إيابًا وهما يسيران.

- كُنت قدمت طلبًا للهجرة إلى السويد حيث عمتي وقد قُبل الطلب، ولديّ تقريبًا شهر كي أُعدّ نفسي و أبي وأخي وجدتي لذلك، ما رأيك هل تلحق بِنا؟ أم نتزوج وأذهب معك لبلدك؟ لكن لن أستطيع أن أترك عائلتي وحيدين بلا عائل، كما لم أعد أستطيع العيش هُنا، كُل يوم لي في هذه المدينة يُضاهي الذي سبقه، ما عُدت أحتمل البقاء بها.

- لا يُمكنني أن أدعك تُسافرين بدوني, كما لا يُمكنني السفر معك, كما أنه أيضًا لا يُمكنني أن آخذك لبلدي من دون عائلتك و ابننا يحيى.. قال صامت الوجه بعد أن ثبت يديه بيدها بلا حِراك.

- ذكرتني، آه لم يكن يحيى بحساباتي مُطلقًا، يا إلهي لكم انتظرت تلك الهجرة والآن ماذا أفعل؟

- دعي الله يُرتّبها من فوق سبع سماوات.. قال وهو ينظر إلى السماء التي كانت تُغطيها سُحب بيضاء بغير سوء.

أوقف صالح سيارة أُجرة ثم فتح الباب لماري أولًا وجلس هو بالناحية الأُخرى، قالت ماري: منزلنا قريب يُمكنني أن أنزل قريبًا من هُنا وتستأنف أنت طريقك.

قال مُبتسمًا وهو يضع يدهُ على كتفها: سوف أوصلك وأعود بالسيارة نفسها للفندق، لديّ أعمال لم أُنهها، وبالليل نلتقي يا أُنثى الشروق.. نظر لهما سائق الأُجرة في المرآة العاكسة أمامه في تعجب مما يُبديان من اختلاف لهجتهما واختلاف بطريقة

الحب، وحين قال صالح: نلتقي ليلًا بالفندق افتعل السائق ابتسامة خبيثة تنُمّ عن شكوك شهو انية وعلّق عينيه بالمرآة على ماري.

أمام إحدى البنايات القديمة قالت ماري للسائق توقف هنا لو سمحت، فتوقف السائق, ونزلت وهي تبتسم لصالح مُلوّحةً له وفجأة تعلقت كفّها بالهواء حين نظرت للسائق الذي وترتها نظرته التي تنم عن الخبث والشهوة، وأخذ يتفحصها فاستاءت لذلك وشعرت بالغيظ والاشمئزاز دون أن تتغير ملامحها كي لا تدع صالح يُلاحظ ذلك ثُم أدارت ظهرها لكليهما دون أن تلتفت وراءها.

وصل صالح الفُندق، بينما كان سعيد يفرك على يديه مُغتاظًا ينتظر صالح في قلق, وحين دخل سأله بصوتٍ حادٍ مُتوترًا: أين تذهب هذه الأيام بدون أن تُعلمني، هل ستُخبرني؟

- ليس لمكان.. أجاب صالح ببرود وهو يُمشّط شعرهُ أمام مرآة المغسلة مُبديًا عدم القلق بينما كان بالحقيقة يعتريه القليل من القلق بسبب تصلب ملامح صديقه التي لا يعلم لها سبب.

- صالح، صالح إذا حدث مكروه ما للمُجاهدين فلن أُسامحك على هذا أبدًا.. قال سعيد وهو يُشير بإصبع التهديد لصالح بينما الأخير قد انفجر في الضحك قائلًا:

- لا يعنيني أمرهم بشيء كي أؤذيهم أو أُساعدهم ثم ربت على كتفه الذي ما زال يرفع إصبع التهديد والتحذير في وجهه قائلًا: اطمئن، ليست الخيانة من طبعي، ولا الوشاية من صفاتي.. ثم فتح جهاز الحاسوب الموضوع فوق المكتب يتفحص بريده، وجد رسائل لإقليدس يُخبره بها عن عودة روز والفيلم الذي سينال فيه أول أدواره، رد على رسائله برسالة فرح وتمنى له كُل التقدم والسعادة في عمله ودراسته وفي حبه.

كان سعيد يغطّ في القيلولة حين دوى انفجار قريب منهما، فزلزل المنطقة وكأنه قامت القيامة، أيقظه صالح بصعوبة وهو يرتدي ملابسه ثُم وضع زي الصحافة فوق قميصة فقام سعيد مُتثاقلًا بعينين ناعستين يسير كالرجل الآلي, وحين انتهى من ارتدائه الملابس وغسل وجهه كان ما يزال مُتكاسلًا بالسير حتى وصلوا المكان الذي به رهط من المُتفرجين، منهم من يبحث عن ذويه ومن يقف مُتفرجًا حزينًا, ومن يقف مُتفرجًا بحزن يشوبه الذعر، ومن بين الأشلاء المُتناثرة والجثث الكاملة أخذ صالح يتنقل بآلة

التصوير خفيفًا خشية أن يدوس الأشلاء البشرية التي ينظر لها بقداسة كأنه يدوس الكتب المُقدسة, يتنفس بصعوبة من ذرات الدُّخان التي تجتاح رئتيه بلا إنذار، ومن عوادم سيارات الإسعاف التي تصرخ بالطرقات بلا جدوى الإنقاذ، كان أصعب ما رآه بذلك النهار تفحم جسد طفل رضيع مع والدته, تفحمت يدهُ وهي عالقة بردائها المُتفحم على جسدها المُتفحم أيضًا, التقط الصورة ووقف مُحدقًا بالمشهد يبتلع ريق الحسرة وقلبه يقطر ألمًا، لم يجد نفسه قد اعتاد مشاهدة إهانة مُقدسات الله دون أن يُحرك ساكنًا ومن هو ليُحرك ما أسكنهُ الله، توجه تلقاء بقية الجثث يلتقط لهم صورًا تذكاريه لن يروها أبدًا بل سيراها غيرهم، منهم الآسفون ومنهم غير المُبالين ومنهم كمدير الوكالة مُتاجرون بالصور.

في المساء عاد مُتعبًا استلقى على فراشه دون أن يخلع نعليه أو زي الصحافة فقد وضع آلة التصوير بجواره على طاولة صغيرة، وبعد أن تناول القليل من الطعام غط في نوم عميق حتى آذان العشق بتوقيت الثانية عشرة لم يوقظه, ظل مُمسكًا هاتفه الذي يصرخ بيده كما لو كان أمسك بلص مُتلبس بجريمته وهو غائب عن المشهد، لم يعِ تنبيه الهاتف من فرط إرهاقه حتى أفاق بآذان الفجر مذعورًا وهو يستمع لآذان الصلاة بهاتفه وينظر لساعة الحائط غير مُصدق أنه لم يفق في موعد الحب اليومي, هرع، خلع ثيابه التي تجعدت من النوم وغسل وجهه ثم توضأ وصلى سريعًا وقفز يخرج من الغرفة وفي الممر وقف ينتظر المصعد الكهربائي لكنه لا يصعد رُبما تعطل, قرر أن ينزل للدور الأرضي على قدميه فأسرع حيثُ الدرج والأفكار تتسلق إلى مُخيلته, تُرى هل حزنت لأنني لم آتِ بموعدي؟ تُرى هل ذهبت؟ هل ضايقها أحد النُزلاء أو المارين؟.. ثم أخيرًا وصل إلى صالة الاستقبال بالدورالأرضي, فرح حين رأى ماري و اقفة وزادت الفرحة كأنها تكاثرت سريعًا حين نظرت إليه، كانت مضفرة شعرها ضفيرة السمكة, ترتدي قميصًا أخضر بدت فيه رقيقة شفافة كحجر الزمرد الأخضر، أقبل عليها ممنونًا لتلك الفترة الصغيرة الباقية في عُمر لقائهما، ألقى عليها السلام واعتذر لها بغلبة النوم ثم أقبل وفد صحفي جديد فتنحى جانبًا كي يتسع لهم الطريق، خرج وجلس أمام باب الفُندق يتنفس هواء الفجر الطيب وهو يتساءل لمَ هو أطيب هواء؟ رُبما لأنه مُمتلئ بأنفاس العاشقين.

بعد انقضاء زُهاء العشر دقائق من عمر لقائهما الذي أضحى أمام صالح قصيرًا جدًّا أقصر من عمر الفيموتو ثانية، نظر فكان هُناك آخر الو اقفين يأخذ مفتاحه ويُسجل حضوره، ذهب ومثل أمامها كالمُتهم قائلًا كأنه يحتضنها دون أن يفعل: اشتقت إليكِ. ثم قدّم يده لها يسحبها من مكانها لتخرج من مُحيط الاستقبال العام لمُحيط الاستقبال الخاص، جلسا على المقعد متجاورين، شعرت هي بالأريحية، شهقت بهدوء ثم قالت بنبرة حزن حين أتيت ولم أرَك جالسًا تنتظرني شعرت بالخوف.

- لا حبيبتي لا تخافي, لن أدعك بعد هذا اليوم تخافي.. كُنت مُرهقًا ولم أنتبه لجرس هاتفي، لن أخلف موعدك ثانيةً، قال وهو ينظر بشغف لتعابير وجهها الذي يقطر عشقًا، وقد جلبت أفكاره مقولة قديمة يحتفظ بها في عقله "لـ نديم الوزة": "وحدها كهوف الأنوثة تُحرّك من الوحشة والوحشية"، ثم سألها عن تلك الرو اية التي لم يفهم لما قالت ستجد نفسك في صفحاتها بينما هي أسطورية كلها صناعة الخيال.

- ماري لماذا اخترتِ لي رو اية عن جلجامش لأقرأها؟

- لأنك تُشبهه، كان جلجامش دائم البحث عن الحقائق، تكبد الويلات في طريقه نحو الحقيقة والخلود، حتى عرف كُل شيء واخترق ستار الحكمة الذي يحجب كُل شيء وكشف الغطاء عما كان مُغطى، ورأى ما كان خافيًا.. ثم قاطع حديثها بحميمية وهو يضع إصبعه على فمها الذي يشبه حجر الياقوت الوردي قائلًا بصوت فرح:

- حبيبتي، لم ولن أكون ذلك البطل الخرافي، هل انتقلت إليكِ عدوى الأساطير مني؟

قالت وهي تُمسك بأصابعه فوق فمها تقبلهم: سوف تتذكر حديثي هذا بيوم من الأيام، ر أيت بقلبي ما لم ترَ أنت، أشعر أنك مُختلف من اللحظة الأولى التي جمعتنا، أنا على يقين بأنك رجل عاشق حتى لذرات الكون.

أراح ظهره للوراء وهو يحتفظ بيدها في يده وقال: كل إنسان فيه الجانبان؛ الطيب والشرير، كان لكل أصدقائي أحلام وأمان جميعها مُتشابهة في مضمونها؛ ثروة، وشهرة، وامرأة فاتنة. أما أنا فلم أحلم سوى أن يأتي يوم لا أحلم فيه بشيء ولا أُريد فيه شيئًا سوى السلامة والسكينة مع نفسي، إلى أن ر أيتكِ من بين حطام الأماني تخرجي، دبت روح الحُلم بي وأعدتِ ترميم الأماني بداخلي، ولكني لست أقل منكِ خوفًا وحيرة، أشعر

حين أكون مرتاحًا من حِمل الأماني بيد الله تربت فوق كتفي، وحين ألهث خلفها يتقلص ذلك الشعور.

كانت ماري مُتفهمة بعين ثاقبة تتفهم كل ما يتفوه وما لا يتفوه به، قالت كي تُخرجه من لحظة العودة للذكريات الحزينة: هل تعلم أنك أجمل حين تُفتش بأوراق قلبك تتفقد خواطره اللطيفة، ثُم قالت بفضول جميل: هل سبق أن أحببت في الطفولة أو المُراهقة؟

ابتسم صالح وشعر بأنها حشرته بين حُبين أحدهما غاب واحتجب والآخر يراه رأي العين، يخترق شغاف قلبه مع حديثها، قال بصوتٍ خافتٍ وهو يتحاشى النظر إلى وجهها الباسم كي لا يعطيها فرصة مُقارنة غير مُجدية بينها وبين الماضي:

- كُنت مُعجبًا بإحداهن لكن لم يكُن حبًّا كمثل الذي أحمله لكِ. ثم عاد ونظر لوجهها يستشعر تغير ملامحه من الفضول إلى الحب، وهي بدورها قد تعمدت إظهار ذلك فقالت بنبرة عشق مع دلال: كُل الرجال يقولون ذلك للمرأة التالية, وما يدريني بأن تلك هي الحقيقة؟ رُبما لا تزال تحتفظ بها في عقلك الباطن أو رُبما بقلبك، ثم قوّست حاجبيها بامتعاض لطيف.

استفز صالح ذلك الكلام، أمسك بأرنبة أنفها يشدّها وهي تتأوه وتتلوى، تخلصت من قبضته وقد تورد أنفها ودمعت عيناها، لكمته بقبضتها في صدره، فردها عليها برفق فوقعت فوق أسفل عنقها، انتبها لأحد عمال النظافة؛ آسيوي الملامح قصير القامة قد وقف مُتفرجًا يبتسم فحدقا ببعضهما البعض, ثُم انفجرا ضاحكين، إلى أن قضى وطر الدهشة الرجل حين أشار إليها أن تُعطيه مفتاح المغسلة كي يغسل الشراشف والمناشف التي كان يحمل أكوامها فوق العربة.

أشرقت الشمس وحان وقت ذهاب ماري، وكان صالح قد غفى دون أن ينتبه حتى أيقظت هي كي يذهب لغرفته, وهي ذاهبة إلى منزلها تأخذ قسطًا من الراحة قبل أن تُباشر عملها بعد العصر في المكتبة, وقف مترنّحًا يودّعها أمام باب الفُندق حتى ركبت السيارة واختفت بين السيارات التي أمامها وخلفها, كان ما زال يشعر بغلبة النعاس حين وضع جسده على الفراش كالجثة الهامدة، لم يوقظهُ إلا صوت سعيد يصيح: صالح، صالح.. وهو يهزّ كتفيه وحين فتح عينيه كان كالميت الذي دبت فيه الروح.

- ما بك يا صالح، لماذا تنام كثيرًا هذه الأيام؟.. قال سعيد وهو يضع الماء بسخان الشاي.

- لا شيء، فقط لا أنام بصورة مُتصلة.. قال بصوت مُتكاسل وهو يقف على قدميه يُمسك بمنشفته مُتجهًا حيث يأخذ حمامًا يستعيد بعده نشاطه ويبدأ يومه، ثم خرج فوجد سعيدًا قد انتهى من عمل الشاي وأحضر قطع الخبز مع جبنة ومربى، وحين جلسا قال سعيد وهو يلتهم قطعة خبز كبيرة محشوة بالمربى: صالح، أشعر أن بك خطب ما؛ أنت مُتغير، مُبتسم، شارد، مُتفائل، هل هذا حُب أم حالة نفسية طارئة؟.. تلعثم صالح فقد كان لا يزال يفقد ثقته بحديث يجمعه مع سعيد وخاصة إن كان هذا حديثًا عن الحُب، قال مُترددًا بصوت مُتقطع:

- حب, ومن أين يأتي الحب؟ أفي هذه المدينة التي تقتلع من أرضها الأخضر واليابس؟

- وهل للحب مكان أو زمان؟ إنك تعلم ولستُ أنا من سيُعلمك.. قال سعيد مُتحديًا ثُم أضاف بصوت رقيق: لا عليك أخي، أعرف أنك قد تتهمني بالقسوة أو بالعداوة للحب لكني لستُ كذلك، أنا فقط أحاول أن أعيش حياتي بأقل قدر من الأخطاء, وأودّ دائمًا أن أقف بجوار الحق ثُم أخذ يصبّ كأس شاي آخر قائلًا: وليس معنى ذلك أني أنتمي لأحد الأطراف هُنا فإني أقبل بكل ما يطرحوه.. فأحدثت هذه الجُملة فرحة بقلب صالح بدت على وجهه سريعًا وشعر بذلك سعيد لِذا تحمس يُتابع حديثهُ قائلًا بعد أن رفع كأس الشاي لفمه:

- أنت مثلًا ترى أني سأتزوج الفتاة بدافع التقرب للجماعة, لكن في الحقيقة لا, أنا أحببتُها, وشعرت بطفولتها تجري داخلي وهي الوحيدة التي لن تُخيفني ولن تعتريني أي شكوك حين أضع رأسي بعيدًا عنها، ثُم استأنف حديثه بعد أن انقطع قليلًا ليرى ردة فعل وملامح صديقه كيف تبدو؟ ثُم بعد أن اطمأن لصمته قال: رُبما أذهب إليهم قريبًا و أبقى معهم ليس لأتزوج بالفتاة وحسب لكن أود أن أُشاركهم جهادهم، و أقوّم بعض العِلل هُناك التي أرفضها فوقعت تلك الكلمات على عكس سابقتها أحدثت حزنًا ورنينًا قويًّا بصالح، حتى إنهُ كان ينظر لسعيد وهو يتحدث ويأكل دون أن يفهم ما يقول, ترك الخبز من يده الذي كان يقطعه ليحشوه بالمربى ثم شرد بفكرهِ، ها هو سعيد يُودعني كما سبق ورحل إقليدس، ولم يعد يجمعنا سوى رسائل البريد الإلكتروني؛ ثُم تمتم في

حُزن وهو ينظر لوجه سعيد: لن أدعك ترحل.. نظر لهُ سعيد في عطف تاركًا من يده كوب الشاي الذي تبقى نصفهُ وقال بصوت غير واضح ونبرة ضعيفة:

- سوف أعود.

- لا لن تعود, وإن عُدت لن تكون كما ذهبت.. قال وهو ينظر بعينيّ سعيد وكأنهُ قرأ بها الطالع ورأى بها طريقًا طويلًا قاحلًا شاقًّا مُمتلئًا بالجثث، والحيوانات الزاحفة والطيور آكلة اللحوم، وأصوات بكاء وعويل, ثم بزغت من عينيه دمعتان كبيرتان كحبّات العقد, فقام سعيد وعانقه بقوةٍ كما لو كان صالح يحتضر قائلًا بصوتٍ مُتحشرجٍ كالذي يُلقنه الشهادة:

- لن نفترق، أعدُك, لكن لا يُمكنني البقاء فقد أخبروني أنه إما أن أنضم و أكون بينهم أو سيعتبرونني ضدهم. ثم ضمّه بقوة أكثر كالذي يُكفرعن ذنب الرحيل, وصالح يذرف دموعًا متواصلة وصدرة يئن كالمرجل, ثُم انقضى عمر الوداع نصف النهائي حين قرع الباب عامل النظافة كي يقوم بتنظيف الغرفة، أراح صالح ظهره للخلف وسرح.

"الكُل مُودع ومن بين صفوف المُودعين والقادمين أبحث عنك من بينهم, فأنت لست من المُودعين ولا القادمين, لا أنت بهذهِ الصفوف ولا بتلك, ألتفت فلا أنت بهذا الاتجاه ولا بذلك, لا بُد أنك بطريق لا ينتهي بالوداع والرحيل مثلهم, حتمًا أنت بطريق يبدأ بك وينتهي إليك وليس فيه وداع أبدًا ولا حُزن ولن أتعثر بخيبة، طالما أبحث عن وجهك، أيُّها المُحتجب خلف السماء التي آراها مرات هشّة ومرات رُخامية صلدة ومرات ستارًا مخمليًّا، لا ترحل مثلهم".

ذهب صالح وسعيد إلى عملهما دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة إلا من بعض النظرات، ثم عادا مُنهكين، جلس كل منهما يتناول الغداء على عجل من أمره، سعيد يُريد أن يأخذ قسطًا من الراحة أما صالح فأراد أن يلحق بماري في المكتبة قبيل خروجها لمنزلها، نجح سعيد في تناول قسط من الراحة بينما صالح أدرك حين وصل المكتبة أن ماري ليست موجودة، الساعة الآن الثامنة إلا رُبع وهي الآن رُبما تتناول طعام العشاء مع أُسرتها أو تُشاهد التلفاز ثُم فكر بفكرة جنونية أن يقتحم عليها عالمها مفاجئًا لها بزيارة في بيتها ولأسرتها، فهو يعلم بيتها حين أوصلها بعد عودتهما من ملجأ الأيتام, قرر سريعًا الذهاب دون تردد، ولكنهُ يُريد أن يصطحب شيئًا معهُ للطفل عبد الواحد، لم

يجد سوى مكتبة صغيرة لبيع الأدوات المدرسية في طريقه، أخذ منها قصصًا ملونة وأُخرى غير ملونة كي يستمتع عبد الواحد بتلوينها, واشترى ألوانًا ولعبة صغيرة رنانة تُقلد الهاتف النقال، أوقف إحدى سيارات الأُجرة فطلب منه السائق مبلغًا مُضاعفًا مُقابل أن يقله بهذه الساعة التي يعتقد المواطنون وبسبب حالة البلاد السيئة أنها مُتأخرة.

كانت ماري واقفة في مطبخ بيتها تصنع حساء الخضروات لجدتها رأفة بمعدتها الجافة التي لا تستطيع الهضم, ودجاج مسلوق بالزعفران على الطريقة الصابئية مع أرز لها ولأبيها وأخيها الصغير مع طبقين دولمة (ورق عنب محشو بأرز ولحمة مفرومة متشربة بالصلصة)، كان عبد الواحد يروح ويجيء بطيارته الورقية مُحدثًا جلبة بالمنزل، وجدّتها تُشبك أصابعها ببعضهم وتعود لتفرقهم كالطفل الصغير، وأبوها يُقلب في الجريدة مُتظاهرًا بالقراءة بينما هو في الحقيقة يقرأ الأبراج ويتأمل الصور والعناوين الكبيرة المُتشابهة.

دقّ جرس الباب برفق، فَهَمَّ عبد الواحد أن يفتح الباب لكن أباه نهره عن ذلك لأنه ليس بالعادة أن يأتيهم زائر بهذه الأوقات ولا غيرها، منذ تركوا منزلهم القديم, وبعد ما حدث من الجُندي المُغتَصِب خلفَ فيهم جميعًا الخوف من الزوار ومن طرق الباب وخاصة بالليل.

فتحت ماري الباب بعد ثلاث طرقات، ذُهلت حين رأت صالح يُلقي التحية، فهمّت أن تغلق الباب ولكن أباها كان يطل برأسه من الكرسي النقال خلف باب الغرفة المقابلة يراقب الأمر الذي بدا غريبًا, سمحت لهُ بالدخول دُون أن ترد التحية من فرط المُفاجأة، قادتهُ إلى غرفة صغيرة بها ثلاث كنبات، خرجت حين رأت والدها خلفها, دخل بكُرسيه النقال مُتجمد الملامح مُستغربًا من أمر ذلك الشاب الذي دخل بيتهم دون سابق موعد وابنته دون أن تُبدي ردة فعل قد سمحت لهُ بالدخول، خرجت وقلبها قد تسارعت ضرباته تختبئ بالمطبخ تتوارى من تلك المواجهة، ثُم عصفت بها نوبة من الخوف جراء التفكير المُتشتت, ارتعدت أطرافها وصكّت أسنانها حين سمعت صوت أبيها يُنادي: ملكا ملكا ملكا ثلاث، خرجت خطوتين للأمام ثم عادت للخلف خطوتين ثُم خرجت حين سمعت صوت أبيها يضحك فتحمست وزال عنها بعض الخوف, وحين

ولجت الغرفة ووجدت والدها يمسك بيدها فرحًا فاستشعرت دفء يديه واستشعر هو برودة يديها المُرتعشة الخائفة, قال بصوتٍ مُطمئن يحمل الحنو في طياته كالذي يطمئنها: احضري الطعام لنا وللضيف.

تنفست الصعداء، يبدو أن صالح استطاع أن يُخلصهما من الحرج بذكائه، خرجت ودخل عبد الواحد بطيارته الورقية، فقام صالح من مجلسه وقال: ما رأيك أن تطير مثل هذه الطائرة؟ فابتسم الطفل, قال الأب وهو يهزّ رأسه حسرة: إنه لا يتحدث. فأومأ صالح برأسه أنه يعلم، ولكن لا يُريد أن يسمع الصغير ذلك الحديث عنهُ الذي ربما يُصيبه بالمزيد من الإحباط، أمسك صالح بالطفل، حملهُ ثُم رفعهُ عاليًا وهو يصرخ حين يرتفع وحين يسقط ينفجر ضاحكًا، ثُم حمله فوق كتفيه وأخذ يتجول بهِ في أنحاء الغرفة وماري تُتابعهم من بعيد وهي تتخيل كم سيُسعدها وجوده دائمًا بينهم وسط أُسرتها, ثُم وضعه على أحد المقاعد بجوار طاولة وجلب الألوان المائية التي كان يحملها معهُ والقصص وأخرجها لهُ وأخذا يلونان سويًّا، أحضرت ماري الطعام وهي على استحياء من موقفها، استجمعت بعض شجاعتها وقالت بصوت يشبه الثقة: هيا للطعام ودع التلوين يا عبد الواحد. نظرت لصالح فوجدت وجهه قد انقلب لوحة زيتية مُضحكة, نظرت لأبيها مُبتسمة فقال وهو لا يزال يبتسم: خُذيه إلى المغسلة يا ابنتي، لقد لوّن عبد الواحد وجه الضيف.

في الطريق القصير إلى المغسلة احمرّت وجنتاها وهي تضربه بقبضتها في جنبه قائلة:

- لماذا أتيت؟ كِدتُ أموت من هول المُفاجأة.

- فقال وهو يغسل وجهه: أليست مُفاجأة جميلة أن تريني؟

- نعم جميلة، ماذا قُلت لأبي عنك؟

- لا شيء، قُلت لهُ إنني وقعت في غرام ابنتك من أول نظرة.

وقفت مُبتسمة تُر اقب الماء المتدفق من كفّيه على وجهه, حتى تعجلهما صوت أبيها يُنادي: ملكا هيا للطعام.. بجوار حائط الغرفة كانت تجلس العجوز تنظر لصالح بصمت، حملها فوق يديه كالصغار ووضعها أمام مائدة الطعام:

- أنا أعرفك أيها الولد الطيب وأعرف أُمك، كانت طيبة مثلك تبحث دائمًا عن شيء تفقده فتجد أشياء أُخرى كانت تفقدها أيضًا بينما تظل تبحث عن الشيء الأول الذي لم تفقده بالأساس.

قالت الجدة بعد أن استقرت بمكانها، بصوت كصوت الطفلة، بكلمات لم يكن يعي صالح معناها، ثُم انحنت رقبتها للأسفل كالتي لا تطيق حمل رأسها وعيناها معلّقة بصالح وقالت:

- هل ماتت أُمك يا ولدي؟

فهمهم صالح: لا.. نع..لا.. وكأنهُ أُصيب بالتيه بين الكلمات فأنقذت موقفه ماري، وضعت الطعام في فم جدتها وكأنها تُخرسها عن الحديث الحرج، جدتي مُصابة بحالة مُتأخرة من مرض الزهايمر وهي لا تذكر أيًّا منّا حتى أبي، فأومأ الأب برأسه أن نعم وقال: تناول الطعام يا بني. وأخذ يتناول هُو من حساء والدته وصالح يُطعم عبد الواحد من الدولمة حتى شبع وأخذ يهز رأسه يرفض تناول المزيد.

صمتت العجوز عن الأكل والطعام وكأنها أُصيبت بالنوم على حين غرة، ثُم قالت بصوت طفولي وهي تنظر لنقطة بسقف المنزل كأنها ترى شيئًا لا يراه الحاضرون: سوف تجد هُنا الخلود بعد أن كنت تبحث عن الموت.. ثُم أسقطت رأسها تنظر لصالح الذي تبسم وهو يضع إصبع الدولمة بفمه وقلبه قد ارتفعت ضرباته وكأن ما قالته العجوز ليست كلمات بل مُستقبل ينتظره فكيف سيبحث عن الموت ثُم يجد الخلود؟! بينما هو على مشارف حياة سعيدة رائعة مع ماري ومع تلك العائلة الطيبة المسكينة.

بعد العشاء وضع صالح الطفل عبد الواحد على فخذه، يردد معه كلمات قصيرة: أبي، أُمي، مااااري.. كي يحثه على نطقها، والطفل يستجيب معهُ كما لو كان صالح طبيب تخاطب ماهر فأحدث هذا فرحة بقلب ماري كبيرة، وبقلب الأب الكسيح.

أحضرت ماري الشاي، و كانت الجدة يتساقط رأسها للأسفل من مُداهمة النوم لها كالطفل الرضيع، حملها صالح فسارت ماري أمامهُ كي تُريه مكانها حتى وصلا غرفتيهما.

وضعها بالفراش، ضمّت ساقيها النحيلتين لبطنها في وضع الجنين، غطتها ماري ووقف صالح يتأملها وفي نفسهِ يتمنى أن يكون بدلًا من العجوز فيحظى بتلك اللحظة الدفء منها.

الساعة قد قاربت الحادية عشرة، شعر صالح بالحرج فقد كان يظن أنه سينتظر حتى يأخذ ماري معهُ إلى الفُندق حيث موعد مُناوبتها، قد نسي أن الليلة عُطلتها فشكر الحظ الذي ساقهُ كي يراها الليلة. لو أنهُ لم يأت ما كان ليراها طوال تلك الليلة، فتمر عليه كعام ثقيل من الأعوام العِجاف.

استأذن بالانصراف، فحيّاه الأب قائلًا: لا بد أن تعود لزيارتنا يا بُني. ففرح لذلك كثيرًا وعتب بقلبه على ماري لأن لم تُعرّفه على أُسرتها وكانت هي تخشى ذلك حتى داهمها هو بالزيارة.

المرأة بلا محبة امرأة ميتة

(أفلاطون)

أمام بعض أصدقاء مرثا القُدامى وبعض زملائها في العمل ومُديرة الملجأ، وأمام بعض أصدقاء رامي الذين لا يتعدون الثلاثة, منهم السيدة التي تعمل معهُ بالمكتب، حضرا ماثلين أمام الكاهن البدين بعد أن انتهى الحاضرون من غناء مارشال العُرس.

كانت مرثا ترتدي فُستان عرس أبيض يُغطي سائر جسدها وكأنها ارتدت طوقًا حديديًّا أبيض من عنقها إلى قدميها، ملامح وجهها باهتة مُستسلمة كأنها ترى حُلمًا أمامها تتمنى أن تفيق منهُ, ورامي ذلك الزوج الذي و افقت أن تقضي معه عمرها، كان يرتدي بدلة سوداء مُبتذلة برباط عنق مُثير للسخرية، ملامحهُ صلبة ووجهه عبوس كقبضة اليد، تقدما أمام الكاهن بخطوات ثابتة كأنهما يمتثلان أمام قاضي ينتظران أن يصدر الحكم عليهما بعد أن ثبت إدانتهما.

قال الكاهن البدين الذي يرتدي ثوبًا أسود وعمامة سوداء وشالًا ذهبيًّا مرصعًا بالصلبان:

- أيُها العزيزان، لقد جئتما إلى بيت الله كي يُعطي الرب زواجكما طابعًا مُقدسًا أمام الكنيسة, إن المسيح يُبارك الحب الزوجي ويقي المُعمدين ويُقويهم بسعر مقدس خاص فيحافظون على الأمانة المُتبادلة، ويقيمون بما يُمليه الزواج من واجبات، لذلك أطلب منكُما أن تُجيبا صراحة أمام جماعة المؤمنين وبحرية تامة، ثم وجه وجهه ينظر من خلف نظارته تلقاء رامي العريس الذي وقف مُتصلبًا كمسمار في لوح خشبي قائلًا:

- لقد تقدمت أيُها الابن المُبارك رامي وحضرت لتقترن بالابنة المُباركة مرثا, بموجب السنة المسيحية وقو انين الكنيسة، فهل تُريد أن تأخذها قرينة لك بزواج شرعي ثابت غير قابل للانفكاك من دون جبر و إكراه وبرضاك التام؟

- قال رامي بصوت جهوري: نعم. كأنهُ يُريد استعراض فحولته أمام الحضور لا قبوله، بينما ابتلعت مرثا ريقًا بطعم لاذع في حلقها يشبه الخل.

التفت الكاهن إلى مرثا وقال:

- لقد تقدمت أيتُها الابنة المُباركة مرثا وحضرتِ لتقترنِ بـ رامي بموجب السنة المسيحية وقوانين الكنيسة، فهل تُريدين أن تأخذيه قرينًا لكِ بزواج شرعي ثابت غير قابل للانفكاك من دون جبر أو إكراه وبرضاكِ التام؟

نظرت مرثا للمديرة التي هزت رأسها بالموافقة، بينما هي كانت تبتلع ريقًا أكثر مرارة ولاذع أكثر من السابق، كانت تشعر وكأنها ذبابة سقطت في طبق عسل، وقفت "نعم" بحلقها كالشوكة ثُم خرجت كأنها تلفظ معها آخر الأنفاس: "ن ن ن عم".. قالتها وهي غير واثقة من صدقها، تلك الكلمة التي حددت مصير سنواتها القادمة من عقد لا انفكاك فيه، وخطوة لا رجوع منها، كان رامي واقفًا كالصخرة يضغط على يد مرثا بيده مادًّا ذقنه للأمام، بينما هي كانت تود أن تخلع ثوبها وتتخلص من قبضة يده وتهرب خارج الكنيسة من الجميع ومن تلك القيود التي أحاطتها، من وجه ذلك الزوج الصلب المصنوع من الصخر ومن ذلك الزواج الذي يبدو كأنه بائس.

قدم الكاهن الأوراق فقام رامي بالتوقيع أولًا ثُم مرثا بيد ترتجف فعلت، قال الكاهن بصوت رخيم:

- بسم ربنا وإلهنا ومُخلصنا يسوع المسيح نعلن زواج الابن المُبارك رامي والابنة المُباركة مرثا، بسم الأب والابن والروح القُدس مبارك الله الأب القدير. أجاب الجمهور بخشوع: آمين.

- مبارك ابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا.. ردد الجمهور: آمين.

- الكاهن: مُبارك الروح القُدس المعزي. ردد الجمهور: آمين.

- الكاهن: اجعلنا مُستحقين أن ندعوك قائلين يا أبانا الذي في السماوات.

ردد الجمهور بصوت رخيم: يا أبانا الذي في السماوات

- يشهد الله عليكما، الرب يُباركهما، ويسكب عليكما غزير إنعاماته الإلهية، ويكثر نسلكما، وينجح أموركما، ويجعل هذا الاقتران واسطة لخلاصكما، ويربطكما بوثائق المحبة طوال مدة حياتكما بشفاعة العذراء وجميع القديسين.

فأجاب الجمهور في خشوع: "آمين".

كان وجه مرثا مُتعرقًا كأن ليس بينها وبين الشمس حجاب، تسقط عليها من دون الحضور أشعتها الحارقة حتى اختلطت على وجهها المساحيق التي وضعتها احتفاء

بُمناسبة لا تتكرر سوى يوم واحد بالعمر، وحين شعرت بذلك أخذت المناديل الورقية من أمامها جففت عرقها ومسحت المساحيق عن قصد, فبدا وجهها أجمل في حين ظهر جليًّا عليه الحزن والقلق والخوف أكثر، بينما كان يُتابع الكاهن المراسم فقدت مرثا الحضور، وغابت في مكان سحيق تسمع فيه أصوات من حولها كأنهم بداخل كهف، تراهم كالأشباح، فبدا الكاهن أمامها شبحًا أبيض بلا ملامح يُحرك يديه، تسمع صوته يعلو وينخفض يغلُظ ويرق، حتى فقدت الوعي ثُم استردتهُ بعد أن سكبوا عليها عُلب الماء الصغيرة، ومن رائحة العطر النفاذة التي وضعوها بأنفها شعرت بحرقتها كماء النار على وجهها، تنظر لمن حولها، أحاديثهم كثيرة؛ منهم من يقول إنها مُرهقة ومن يقول إن ذلك أثر الفرحة، فستان زفافها تبلل وفقد حيويته كما وجهها الذي شحب وتغيرت ملامحه وجحظت عيناها السوداويتان، وتشعث شعرها الناعم وبدا مظهرها مُثير للشفقة والحزن والسخرية أيضًا.. تفرق الجمع، خرجت هي وزوجها إلى المنزل الذي ستقضي به سنوات عمرها القادمة.

الساعة تُشير إلى الثانية عشرة بعد مُنتصف ليل الليلة الأولى لمرثا في ذلك البيت، كانت مُرهقة شاحبة، ظهر السواد تحت عينيها أكثر، جلست على حافة الفراش ترتجف كالمُصابة بالحُمى بينما رامي كان يأخذ حمامًا كالبجع، تسمع صوت تغوّطه المُقزز وصوت جسده يصطك تحت الماء, مع كل حركة وصوت تزداد ارتجافًا وخوفًا كأنها تُشاهد فيلم رعب, يدها عاجزة حتى على رسم إشارة الصليب على كتفيها كي تستنشق منه رحيق الأمان.

خرج رامي يرتدي معطفًا قطنيًّا ليس تحتهُ شيء فانتفضت من مظهره، ثُم ودون أن ينبس ببنت شفة انقضّ عليها حتى قبل أن يعطيها فرصة تغيير فُستانها, شعرت أنها جيفة لغزال صغير ينهشه أسد عجوز جائع رائحة فمه تُسفر عن جوع مُنتن, وبرغم الماء الغزير الذي كان يتدفق فوقه أثناء حمامه الطويل إلا أن جسده ظل مُحتفظًا برائحة العرق التي أشعرتها بالغثيان.

بعد أن قضى مُهمته بالروتينية ذاتها التي يُنهي بها المُعاملات الحكومية في عمله، تناول سريعًا وبنهم عشاءه الموضوع على الطاولة القريبة من الفراش، ثُم استلقى بجوارها على الفراش جثة هامدة بلا حراك, بينما هي كانت تحمد الله على تخلصها

سريعًا من ذلك الشيء الذي كان أسوأ ما حدث لها، شعرت بتضخم الندم في كُل كيانها، راقبت نومه السريع بهدوء وذهبت على أطراف أصابعها، ولم تكن في حاجة لفعل ذلك فهو ينام كالموتى، أخرجت من خزانة الثياب ما ترتديه بعد أن تتخلص من الثوب الأبيض الكئيب ذلك الذي بدا لها كأنهُ صندوق موتى، تسللت خارج غرفة الخوف, خلعت الثوب الذي ربطها بميثاق غليظ طويل العمر كالسجن مدى الحياة وارتدت قميص نوم قطني، جثت على ركبتيها وأخذت تبكي وتبكي وتبكي حتى أرداها البُكاء في غيبوبة نوم عميقة وهي مُستلقية بالأرض كالقتيلة, في الصباح أيقظها رنين المُنبه العالي، كان رامي روتينيًّا بكل شيء حتى بوقت نومه لم يعطِ للروتين إجازة حتى ليلة عُرسه.

قام من نومه مُتكاسلًا لم يجدها بجواره، وحين خرج من غرفته ووجدها بالصالة على الأرض نائمة أيقظتها يديه المُتحرشة بجسدها فقامت مذعورة تغطي ما تكشف منها، قال بصوت صلب: أحضري الفطار سريعًا. وكأنه يتبرأ من شهوته، قامت وهي لا تزال تشعر بالوهن، فتحت الثلاجة، فلم يكن بها سوى بعض قطع الجبن وعلبة حليب وخمس بيضات, صنعت له ما يُمكن صُنعه، التهمهم على عجل دون أن يطلبها المُشاركة معه ولو على سبيل المُجاملة، بينما هي ذهبت تتوارى منهُ بالفراش تُمثل النوم ظنًّا منها أنه سوف يقدم على مضاجعتها مرة أُخرى, لكنه خرج، سمعت صوت إغلاق الباب فاطمأنت وقامت تتفقد نفسها بالمرآة تلومها وتبكيها وترثيها، كانت مُحبطة وحزينة وخائفة لا تدري ما الذي سوف تحملهُ لها الأيام, تزيدها المرآة اضطرابًا كُلما نظرت لها وتسأل السؤال ذاته كل مرة: لماذا فعلت هذا بنفسي؟ هل هو يُتمي أم فقري أم حظي أم أم... لكن المرآة تسمع ولا ترد.

دقّ هاتفها النقال فنظرت لهُ، لم يكن لديها رغبة في التحدث لأحد, داهمها التردد كثيرًا ثُم خضعت لرغبة الهاتف في الردّ، إنها مُديرة الملجأ تُبارك لها وتطمئن عليها، فأجابتها بكل ما تودّ سماعهُ وبما هو محض أباطيل وليس بحقيقي وختمت: أنا بخير يا أمي.

لماذا نقول دائمًا أننا بخير في الأوقات التي لا نكون فيها بخير؟! ولماذا أنا كُلما سلكت دربًا للسعادة كان كحقل الألغام محشوًّا بالندم؟ ولماذا رحم الحياة لا يلد لي سعادة؟

ظلّت تتخبط في ظلام غرفتها كلصٍّ أغلق عليه صاحب البيت دون أن يعلم بوجوده, كانت تتمنى لو أن تصفع نفسها كفًّا يجعلها تفيق من ذلك الكابوس كثير التفاصيل السخيفة الساذجة الكاذبة، لكنها لن تفعل فهي موقنة أن ذلك كُله حقيقة لا بد أن تتقبلها وتتعايش معها، عزاؤها في ذلك أن الحياة الدُنيا كُلها شقاء، هكذا كانت حياة السيدة مريم و ابنها المسيح وكل القديسين، من تكون هي لتعترض؟! فهي لديها بيت بينما غيرها يبيت بالشارع ولديها زوج بينما غيرها ليس لديه.

جعلوني مُلحدًا

كان إقليدس مُتجهًا نحو باب الخروج من الجامعة يحمل على أحد سواعده معطفه الطبي وعلى الآخر كتابين, حينها قطع طريقه سام مُتوقفًا أمامه فَهَمَّ إقليدس أن يتجاهله مُبديًا وكأنه لم يره بحجة سقوط الكتابين من يده الذي أسقطهما مُتعمدًا, فلم يفلح، فقد انحنى سام ليتناول الكتاب قبله ثُم ناوله إياه وهو يُلقي عليه التحية وصافحه ثم عانقه، و إقليدس يكره ذلك العناق الثقيل، ثُم تابعا السير, قال له سام بتودد: لماذا ذهبت سريعًا من درس الشيخ جاسم؟

- لأني شعرتُ بألم شديد في بطني.. أجاب إقليدس وهو يتحسس بطنه، كأن الألم الوهمي ما زال موجدًا.

- أوه حسنًا، فلتذهب معي الآن، يوجد درس بالمسجد نفسه للشيخ جاسم.

تجهّم وجه إقليدس الذي كُلما سمع باسم ذلك الشخص لم يغب عن باله لحظة تعدّيه الثمل على روز، ذلك الشخص نتن الأنفاس مُرتديًا زي الراب الآن يرتدي الثوب الأبيض ويُنظف فمه بالسواك، هزّ رأسه بالرفض واعتذروهو يبتسم ابتسامة صفراء:

- آسف، لدي مراجعة دروس فأنا أتهيأ للتخرج، اعذرني.

ثم نظر له وكأنه مُهتم وقال: كيف تعرفت على الشيخ جاسم؟.. وهو بالحقيقة يُريد أن يعرف لماذا جاء إلى هُنا؟ وكيف جاء؟ وكيف كان جون ثُم أصبح جاسم؟ أم هُو بالحقية كان جاسمًا ثُم أصبح جون, ولكن سام لم تفِ إجابته بالغرض فهو لم يكن يعرف عنه الأمر الكثير فأجاب مُتحمسًا: كان الشيح جاسم يدرس هندسة حاسبات لكنه ترك الدراسة بعامهِ الأخير ليتفرغ لحضوردروس العلم بالمساجد، واستطاع بفترة قصيرة أن يُصبح داعية ويُعطي دروسًا، ولديه طُلاب كثيرون. أخذ إقليدس يستمع وهو يهز رأسه للأسفل كالمُعجب بينما هو بالحقيقة يهزها استهزاء ووجهه يكاد ينفجر ضحكًا, يشعر بأنه يُريد أن يصفع جاسم هذا كفًّا يُرديه مصروعًا، نظر لساعته يُوحي وكأن لديه موعدًا مُهمًّا, ثُم رفع وجهه إلى سام قائلًا: شكرًا لك سام، أراك قريبًا، إلى اللقاء. ثم ولّى وجهه شطر مسكنه دون أن يلتفت للخلف، بينما سام ظلّ و اقفًا ينظر إليه يحكّ ذقنه ويمط شفتيه حتى اختفى ظل إقليدس.

في المساء جلس إقليدس يقرأ دوره بالفيلم السينمائي, يتخيل كيف سينفعل بذلك الموقف وكيف هُنا سيبكي وكيف هُنا سينظر بقسوة وروز تتفرج عليه باهتمام بالغ تُشجعه وتُصفق له كأنها الجمهور، إلى أن أحدث رنين هاتفها بينهما ضجة غير متوقعة, فأخذته وخرجت بعد أن نظرت إليه وعلمت بأن أُمها المُتصلة وضعت الهاتف على أُذنها وهي تُجيب بصوت مُتقطع:

- م م رحبًا ماما.

- مرحبًا ابنتي, هل ذهبتِ لذلك العربي ونسيتِ أبيك؟.. ثُم رققت صوتها وقالت: هل أنساكِ العربي أيضًا أُمكِ التي تنتظركِ وتبكي كُل ليلة من أجلكِ؟

كان صوت الأم حادًّا فسمعها إقليدس بالغرفة الأخرى وفهم من يكون المُتصل, غمغمت روز: أوه ماما! أرجوكِ.. بصوت محشور بين إقليدس الذي خلف الشباك الزُّجاجي المفتوح يُبدي أنهُ لا يسمع شيئًا يروح ويجيء وهو يقرأ الأوراق التي بيده وبين والدتها التي افتعلت البُكاء المُتحسر على فُراق ابنتها, استندت للجدار وقالت بصوتٍ هادئ:

- ماما سوف أعود لكن أرجوكِ لا داعي بتذكيري دائمًا بأنكِ تنتظريني، ولا داعي لأن تُلقبي آسر دومًا بالعربي. ثُم أخفضت صوتها قائلة: ماما أرجوك أنا أُحبك ولن أتخلى عنكِ وكذلك أُحب آسر ولن أتخلى عنهُ.

ردّت الأم بصوت مُتمارض هزيل: ابنتي، لقد قتل الإرهابيون أباكِ وأخاكِ وسوف يقتلني حسرة صديقكِ العربي الذي واعدتيه مُتناسية ما حلّ بنا .

ما كان من روز إلا أن أنهت المُكالمة بالمزيد من التودد وترديد كلمة أُحبك لوالدتها التي على الجانب الآخر من الحياة تُقاتل باستماتة من أجل أن تحصل عليها كي تخلصها من ذلك العربي.

بدأ إقليدس تصويره للفيلم وحاز على إعجاب الجميع بجدارة، كان يعمل ويدرس بجد وروز تقف بجواره بكل قوتها وبكامل إرادتها، شاع خبر فيلمه بين زملائه بالجامعة من بين عرب وأجانب، كانوا كُلما نظروا إليه من بعيد حيّوه بعلامة النصر, رافعين السبابة والوُسطى وهو بدوره يردّها لهم مُبتسمًا.

في العاشرة صباحًا وبيوم مُمطر بغزارة حيث زخّات المطر تُحدث على الأرض فرقعة حين تسقط حبّاته الكبيرة على الأرض وعلى أسقف المنازل والطُّرقات ومبني الجامعة، والناس بالطُّرقات جميعهم يحملون مظلات والطُّلاب بالجامعة كذلك, بينما إقليدس كان مُحتميًا بسقف المقهى الجامعي يجلس مُنحنيًا أمام كتاب في يده يقرأ فيه باهتمام, نظر بجواره فوجد الشيخ جاسم و اقفًا ومعه سام فلم يُبدِ ردّة فعل, ألقى جاسم عليه السلام فرد السلام، ثُم اضطر أن يقوم من مكانه كي يُصافح الشيخ الذي كان فاغرًا فاه ينتظر الإذن بالجلوس, ثُم عرض عليهما الجلوس دون أن يكون راغبًا بذلك فجلسا, تنهد إقليدس بصمت وظل ينظر للكتاب مُبديًا القراءة.

- أخي آسر كم تمنيت أن أراك من كثرة ما حكى عنك أخي سام.. قال جاسم بصوتٍ رقيقٍ باللغة الإنجليزية وهو يبتسم ابتسامة عريضة ثم تابع حديثهُ قائلًا: وكم افتخرت بك لأنك فخر للشاب العربي المُجتهد مُتفوق ومُتدين, كان إقليدس يستمع مُبديًا الاهتمام وهو يعلم أن ذلك ليس الحديث الذي جاء من أجله وأن تلك مُقدمة سخيفة لما سيأتي بعدها, ثُم تابع جاسم حديثهُ باللغة العربية قائلًا: إنني أُقدّر انشغالك بالدراسة وأعذرك على عدم حضورك للدروس بالمسجد. فتنهد إقليدس وبرطم قائلًا: وصلنا للمُهم.

- أدعو دائمًا لك الله أن يهديك وأن لا تترك صلاة الجماعة, لكني حزنت جدًّا جدًّا حين علمت بأنك تختلط بالوسط السينمائي حيث الكفرة الفاسقين والشواذ المثيلين وشاربو الخمر.

نظر إقليدس بتجهم لجاسم, ورمق سام بنظرة باردة, فقد علم أنه الذي وشى به، ثم قال وهُو يهمّ بالقيام يُحرك الكرسي من مكانه: شُكرًا لك، لا تحزن لأجلي فأنا أعرف ماذا أفعل لن يُدخلك الله النار بدلًا مني ولن ينقص من إيمانك ما أفعله أنا.

تغيّرت لهجة جاسم الرقيقة وقال بصوت مُتحجر: ماذا ستقول لربك يوم القيامة حين يسألك لماذا لمست من لا يحل لك وشربت ما حرمت وقبضت ممن يقتل إخوانك في فلسطين والعراق و أفغانستان؟ فانتصب إقليدس وأمسك بيديه كتابه ووضعه أمام صدره كالدرع ثُم مال على أذن جاسم وقال بسخريةٍ وهو ينظر له بقرف: سوف أقول لهُ ما ستقوله أنت يا سيد جون.

تجهّم وجه جاسم وتصلبت ملامحهُ، ضاقت عينيه تفرّسًا بإقليدس وظلّ ينظر إليه حتى بعد أن تلاشت صورته مع المطر واختفى.

عاد إقليدس لمسكنهِ غضبانَ أسفًا مُبللًا بالماء والضجر تراوده شتى الأفكار وتتقلب داخله شتى القرارات, أخذ يتلفّت بحثًا عن روز ليختبئ فيها مما يُحاصره, يبدو أنها لم تأتِ، استلقى على فراشه لا يسمع سوى خشخشة المفاتيح الخاصة بباب شقته تحت قدميه.

وبعد لحظات استرخاء وشبه نوم قطع عمر الهدوء رنين هاتفه النقال فقام مُتكاسلًا مُزمجرًا: أوف من يطلبني الآن؟!.. إنه صوت روز على الطرف الآخر يبدو كأنها ليست بخير.

- حبيبي أعتذر منك، اضطررتُ للعودة إلى فر انكوفر لأن أُمي قد نقلها الجيران إلى المستشفى إثر إصابتها بنوبةٍ قلبية.

- لا عليكِ حبيبتي لكن كان يجب عليكِ إخباري كي أكون بجانبك ونذهب سويًّا.

- لا، الأفضل أن أكون وحدي.. ثُم أضافت روز بنبرة حنوّ: سأفتقدك!

- أنا أيضًا حبيبتي، سأفتقدك كثيرًا, بل افتقدتُك بالفعل.. قال بعد أن اطمأن قلبه ثم أضاف بعد أن أخذ نفسًا عميقًا: طمئنيني حال وصولك فر انكوفر وحين وصولك المستشفى.

وحال أنهى المُكالمة جاءه اتصال آخر عقب اتصال روز من المُخرج السينمائي يحثّه على التوجه إلى نيويورك غدًا حيث يستأنف هُناك مشاهده السينمائية, فكان مُحيرًا كيف سيذهب وحده بينما روز ستكون برفقة أُمها المريضة؟ وهل ستعتبر روز ذلك تخليًا عنها أم ستتفهم وضعه, قرر أن يعرف ذلك منها شخصيًّا باتصاله, ولكنه تردد لا يُريد أن يُزعجها وهي على سفر، ثُم عاد لينام تقضّ مضجعه الحيرة التي أصابته بعد مُقابلته لجاسم على ترتيب من سام, لم يرد النوم على توسلاته ولم يبدِ له أي قبول, وحين يئس من ذلك فتح حاسوبه يبعث لصالح مشاعره الثقيلة تلك على هيئة أحرف قد يتفهمها الطرف الآخر وقد لا يفعل, لكنهُ على علم بأن صالح وإن لم يفهم جيدًا حقيقة ما يمر به فهو على الأقل لن يسيء فهمه، ثُم دون تردد فتح حاسوبه المكتبي وأخذ يكتب يسبقه نقرة إصبعه على الأحرف سقوط دموعه.

"مرحبا أخي صالح كيف حالك، اشتقت إليك كثيرًا و افتقدك هذه الأيام أكثر من أي وقت مضى، اشتقت لمن يتقبّلني كما أنا ويُرشدني دون المساس بكبريائي، اشتقت لأحد يُحدّثني عن الله دون أن يرفع بوجهي سيفه أو إصبع التهديد، يُحدّثني بقلبه لا بحنجرته وحجره, سئمت كُل تلك الوجوه المُبرقعة, ويبدو أني سئمت أي حديث عن الله كُليًّا, أخاف أن أصحو بيوم فأجدني لا أراه، لا أعترف به وإن كان اعترافي به حاليًا فقط من قبيل استشعار الأمان الذي يتساقط مني كما تتساقط وريقات الشجر بالخريف، أخاف أن يحتلّ الخريف كل فصول عمري، أحتاج لأن أعترف بوجود الله كي أجد معنى لوجودي.. أخي صالح لماذا الله قاسٍ؟ هل يُمكن أن أجد عندك الإجابة؟ لماذا يحثنا دومًا أن نُقاتل أو نفعل بمن هم دوننا ما نشاء؟ ولماذا منح بعض البشر الذين هُم رُبما أراذل البشر حرية التحدث بلسانه؟ هل جاء بنا لهذه الدُنيا فقط لكي نتقاتل من أجله؟ ثُم بعد ذلك يدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار؟ هل إن جلست وحيدًا بزاوية حُزني وأخبرته أني أكره ذلك أكون قد كفرت به ويحل لهم قتلي بأن يقطعوا يدي وقدمي من خلاف ويصلبوني بجذوع النخل؟

هل إذا عاتبته لأن أُمي تركتني وحيدًا من أجله ومن أجل أن تحافظ على إيمانها من الشكوك سوف يُعذبني ويُلقيني بجهنم؟ وهل يجب عليّ أن أُسامح جدي الذي تنكر لي من أجل الله وألا أكون منبوذًا بين المؤمنين؟

هل أمر نبيه حقًّا أن يتزوج بفتاة قاصر, وأن يقتل الزناة بضربهم بالحجارة تسديدها إلى رؤوسهم حتى الموت, أجبني أخي صالح إن كان الله يفعل ذلك بنا فلماذا خلقنا وخلق فينا الضعف والشهوة والحب, ثُم أخبرني كيف أكفر عن ذنوبي تلك دون الندم عليها بينما أنا أرى من يفعلها ليلًا ويحرمها نهارًا بين الناس؟!".

أنهى إقليدس رسالته وقد أعياه البُكاء, بالكاد كان يرى الأحرف، لم يكن يعرف أن صالح لن يرى رسالتهُ هذه إلا بعد فوات الأوان، بعد عام يأس وأمل، عام فقد ووجد، عام كره وحب، عام موت وحياة، عام رحيل وعودة، أخذ يسترجع ذكرياته مع صالح كأن بالأمس قد ودّعه.. كيف كان يتحدث له عن الله وكأن هذه آخر ذكرى له مع الإيمان وكأنهُ يلتقط لنفسه صورًا تذكارية مع الإيمان الذي كان يتحلل منهُ رويدًا رويدًا.

في الصباح عليه أن يتوجه إلى نيويورك بصحبة روبرت، تخلص مما كان يعبأ به بالأمس، وضع بحقيبته ما سيحتاجه بسفرته؛ معطف ثقيل وقفازات وحذاء جلدي أنيق وزجاجة عطر، ثُم تحدث مع روز يشرح لها ما سيقوم به فرحّبت بذلك ولم تبدِ أي امتعاض وأخبرته بأنها ستكون معه في سياتل قريبًا بعد أن تتحسن والدتها وتخرج من المستشفى، ثُم طلبت منهُ أن يهتم بنفسهِ ويرتدي ثيابًا ثقيلة تحسبًا لبرد وثلوج نيويورك.

توجه إقليدس إلى المطار بعد أن اتفق مع روبرت على اللقاء هُناك، وهُناك كان الأخير يجلس كما يفعل الأمراء العرب ر افعًا ذقنه للأعلى بكل غرور، ألقى عليه إقليدس التحيه فردّها برأسه ولم يجمعهما حديث حتى نُودي على الرحلة فتوجه إقليدس إلى عالمه الجديد بين نجوم هوليود.

ما تبحث عنهُ يبحث عنك

(جلال الدين الرومي)

الخامسة مساء حيث الشمس قد وهنت قواها بيوم ربيعي, كانت ماري تنفض أكداس الكتب وتُعيد ترتيبها وهي شاردة بينهم، صرخت بصوت عالٍ حين فوجئت بصالح من الخلف قد أفزعها كما يفعل الصغار، ثُم ضحكا بطفولية عاشقين, قال وهُو يُساعدها في ترتيب الكتب: هل قرأتِ كُل تلك الكتب؟

- لا، قرأت منها ما أحببت.. أجابت وهي تمسح بقطعة قماش التراب الخفيف فوق الكتاب.

- وكيف قرأتِ ما أحببتِ يا فيلسوفتي الصغيرة؟.. قال صالح بتعجب ينم عن الحب.

- ليست كُل الكُتب تُثير لدي حب القراءة من بداية الكتاب حتى نهايتهُ.. أمسكت بيدها كتابًا صغيرًا موضوعًا بركن الكُتب القديمة مكتوب عليه "ديوان الحلاج" وقالت: هذا مثلًا يجعلني أقرأ دون أن أشعر بأنني أقرأ كتابًا، أشعر كأنني طائر يشدو.

- واو! أرني أنظر إليه.. قال باهتمام وهو يقترب، أمسكه وأخذ يُقلّب فيه: نعم أذكره، كان لديّ صديق بالجامعة يُغني بعضًا من تلك الأشعار بصوت رائع.

- أما هذا فلهُ معي قصة عجيبة.. وأشارت بيدها فوق أعلى رفّ بالمكتبة على كتاب فوق خمسة مُجلدات، فرفع صالح يدهُ عاليًا كي يجلبه لها، قال: امم "المثنوي"، وما قصّتك مع هذا يا محبوبتي؟

- قالت وكأنها ترى منامًا في وقت يقظة: هذا شاعر وفيلسوف صوفي، كُنت أقرأ له ذات ليلة ثُم سمعته وهو يُلقي لي شعره بصوتٍ هادئٍ وكأنه يتحدث بأنفاسه, لا أدري كيف خرج صوته الداوودي من بين الورق ليتحول من أحرف لكلماتٍ تُلقى في أُذني كالترنيمة.

- أممم.. هل أحببته يا فتاة؟.. قال صالح بنبرة مزاح وهو يرفع حاجبه فضحكت ماري، ثُم أضاف وهُو يُقلب بديوان شمس تبريز يقرأ مُتعجبًا ومُعجبًا: وماذا أحببتِ أيضًا من قراءة؟

- انتظر، سوف أُحضر لك "منطق الطير" لـ فريد الدين العطار.. قالت ماري ثُم وقفت فوق كُرسي تبحث عن الكتاب.

- ماري، كيف يُمكن أن يتعلق شخص بآخر دون أن يراه؟ أو بالأحرى كيف ولماذا يبحث شخص كشمس تبريزعن تلميذ مثل الرومي وبالوقت نفسه يبحث الرومي عن مُعلم مثل شمس ثُم يلتقيان فيُحدث هذا الأخير تغييرًا كاملًا بالرومي؟.. قال ثُم دسّ رأسه بالكتاب يُقلّب في صفحات المثنوي.

- لا أعرف، لكنهما مؤكد قد التقيا بعالم آخر ثُم افترقا بهذا العالم ثم عادا والتقيا.. قالت وقد انتهت من ترتيب وتنظيف الكُتب بينما صالح ظل مزهوًّا مشغول الفكر يُقلب بالكتاب في اهتمام بالغ.

- صالح، ما رأيك اليوم أن نذهب لشاطئ النهر؟.. قالت وهي تجلس بجوار صالح الذي يُحدق بالكتاب ثُم انتبه لها وقال: بالطبع يا حبيبتي. وهو ينظر لوجهها، ثُم عاد ونظر بالكتاب.

- أتعلم، لقد ندمت على إعطائك هذا الكتاب.. قالت ماري بلهجة غيظ ثُم اختطفت الكتاب الذي أثار اهتمامه من يده, فقام وحملها وطاف بها وهي تضحك, فسقطت بعض الكُتب من المكتبة وسقط الكُرسي وتزحزحت الطاولة من مكانها ثُم تركها بعد أن كاد يسقط هو من الدوار.

- كُنت سأموت.. قالت وهي تتنهد بصوت عالٍ بعد أن تركها، قال وهو يلتقط أنفاسه:

- كُنت أودّ أن أشعر بما يشعر به المولوية وقت الدوران.

قالت وهي تبدو أفضل حالًا منه، تتنفس بسهولة: لا ليس الرقص ما يستجلب الشعور بل هو شعورك ما يُرقصك أيها الدرويش. ثُم ابتسمت.

استعار صالح كُل الكُتب التي قرأتها ماري ونالت إعجابها ووضعها على المنضدة لكنه سينساها ولن يقرأها ثُم جلسا على عتبة باب المكتبة.

- ماري، أتعلمين شيئًا؟ في الأوقات الصعبة بحياتي والليالي القاسية أرى شيخًا صبوح الوجه ملامحه لا شرقية ولا غربية، لم يتحدث لي بكلام مباشر ذات يوم إلا بإشارات لا أفهمها, أشعر أنه في مكان ما ينتظرني، هل هو ملاكي الحارس؟

- ها، لا أعرف رُبما تلك مُجرد أضغاث أحلام.. قالت دون أن تتغير قسمات وجهها.

- رُبما، لكنهُ يحمل دومًا لي طمأنينة وحين أفيق أشعر بقلبي مُستقرًّا وروحي تُرفرف، أحب أن أراه دائمًا بمنامي كأني أرى نبيًّا أو قديسًا أو كُل هؤلاء في واحد، هل هذا مسّ جن؟ وكيف يكون المس قبسًا من نور؟!

قالت وهي تنظر إليه وبصوتٍ رقيق كصوتِ العصفور: صالح، ألم أقل لك شيئًا؛ أحب إيمانك, إنك تُشبه الأرض، أُمّ حنون لكل البشر بينما لا أُم لك, لا يليق الحزن على وجهك لا تحزن في يوم.

وضع صالح رأسه على كتفها وقال وهو يتنهد: أتعلمين أني أشمّ فيكِ رائحة أمي, ولن أحزن أبدًا فأنتِ حبيبتي، إنني مُجرد إنسان يبحث عن الله بقلوب عباده وما سبق وبحثت عنهُ في قلبي، رُبما ريبة مني أو ضعف الطالب وقوة المطلوب، نظر لها في حب وقال: أتعلمين حبيبتي إنكِ تُشبهين كثيرًا صديقي إقليدس.

- إيبه!.. ومن هو صديقك العالم الفذّ الذي تلقبه إقليدس أم هو ليس عربي؟

- إنه صديقي من أيام الملجأ تربّينا سويًّا، يُشبهك كثيرًا حتى بصوت نبضات قلبك، ثُم ألصق رأسه بصدرها وقال: دعيني أتحقق أكثر.

- قالت وهي ترفع رأسه بدلال: يبدو أنه وسيم وذكي وطيب، متى ستُعرّفني عليه؟

رفع رأسه وعيناه تلمع بالحب والغيرة التي أثارتهما هي عن قصد وقال وهو يضيق عينيه: بعد أن نتزوج سأعرّفك عليه.

لصقت جبهتها بجبهته في تودد وقالت: لا تخف، فأنا قد فقدت رؤية الأشخاص بعد أن أحببتُك. ثُم رفعت جبهتها: إنني أُحبك أنت وفقط.

- ماري قولي لي أُحبك مرة أخرى.. قال وقد استبدّ به نهم الشوق.

- أحبك.

- أُنظري، إن الشمس التي غربت تكاد تعاود الشروق.. قال صالح بعشق.

نظرت ماري في الشارع الذي افترش بالظلام به قائلة: لا، لن تشرق هههه, هيا ساعدني كي نغلق المكتبة. فقام صالح وأغلق معها المكتبة وترك الكُتب التي قد أعارتهُ إياها ماري ناسيًا, ثُم طفقا يبحثان عن وسيلة للرجوع كُل إلى مكانه, بالطريق قال صالح لماري: ألن نذهب إلى شاطئ النهر، ذاك الذي كُنتِ تصطبغين عندهُ؟

أمسكت بيده فرحة وتقدمت به إلى الأمام وقالت: إذًا فلنذهب. ثُم تلكأت هُنيهة قائلة: ولكن اليوم الجو بارد، ثُم إذا اختطفتنا إحدى الجماعات وقتلتنا فماذا نحن بفاعلين؟

- هههههه، لن نفعل شيئًا، نموت عاشقين، وتكوني إزادورا شهيدة الحب والغرام.

....

بجوار النهر جلسا مُتلاصقين, لم يُلقيا بالًا لقرصات البرد الليلة التي كانت تتسلل إليهم عبر فتحات الثوب ومن برودة تراب الشاطئ كانت الليلة قمرية جميلة, يضيف القمرعلى ماء النهر الكثير من الروعة.

- ماري، أتعلمين أن هذا النهر لا يكتمل نصاب الجمال لديه إلا معك, قال وهو يضع رأسها فوق كتفه: أُريد أن أصطحبك لوطني لكن أخشى عليكِ الاغتراب.

- ليست الغربة عن الوطن اغتراب حبيبي, نحن مُغتربان داخل وطننا أنت وطني والغربة عنك هي الأقسى.. قالت وهي تضع يدها على كتفه مُلصقة رأسها بصدره.

لم يجد ما يفعله فكي يتفادى الصمت أخرج من جيبه الحافظة وأخذ يفرجها صوره وهو صغير ثم صورًا لصديقيه سعيد و إقليدس.

- هذا إقليدس له شعر ناعم جميل وعينان لوزيتان تشبه عينيك.

- أوه جميل!.. قالت ماري وأخذت الصورة تنظر إليها.

- وهذا صديقي الشيخ سعيد.. ثم ناولها الصورة.

- يختلفان كُليًّا, وكأنك جمعت في صداقتهما بين قطبي الأرض!.. قالت بتعجب.

- نعم مُختلفان، الاختلاف سُنّة الكون.. قال صالح وقد سلّمته ماري الصورتين، دسّهما في حافظته ثُم عادت لتضع رأسها فوق كتفه وهُو يستنشق رائحة شعرها التي كانت هذه المرة برائحة الحناء، كان يودّ أن ينام باقي العمرعلى هذا الشاطئ يستنشق رائحة شعرها, أو أن يصنع تمثالًا لكليهما بتلك الجلسة نفسها ولكن اللحظات الجميلة دومًا قصيرة العمر, حيثُ كل شيء بتلك المدينة قصير العمر، سمعا دوي انفجار قريب فاهتزت الأرض وغاب القمر خلف سحابة الدُّخان, ارتعدت أطراف ماري خوفًا, فقام وأمسك بيدها، كان الوضع لا يتحمل أن يبقيا هُنا للمزيد من الوقت.

أخذا يسيران بترقب وحذر، يسعلان بقوة من الغبرة والدُّخان اللذين خلفهما الانفجار, وحين اقتربا من الشارع لم يجدا أي وسيلة تنقلهما, أخذا يلتفتان يمينًا ويسارًا كالمُتورطين بالحادث, ثم سارا بمحاذاة الشارع, انطفأت الكهرباء فأظلم الشارع, أخذت ماري تُتمتم صلواتها وصالح يُردد أدعيته، لم يكن بالشارع سوى بعض القطط الضالة وأصوات زعيق بعض الناس ببيوتهم يسبّون الكهرباء، وأطفال يبكون ونساء تصرخ في أطفالها.. ابتعدا عن مكان الانفجار و أتعبهما السير فجلسا يستريحان.

- صالح، أتعلم أني أخاف أن أموت فجأة هكذا, مثلما يموت كُل شيء بهذه المدينة فجأة ودون أن يمنحهم الموت فُرصة عناق أحبتهم وتوديعهم أو حتى يمنحهم حق أداء شعائر الموت بل و أيضًا لا يمنحهم حق الاحتفاظ بأجسادهم فيغتسلوا ويُشيعوا ويدفنوا بطمأنينة.

- لا تخافي حبيبتي، برغم كُل شيء تستمر الحياة، بمخاوفها وموتها، بصمتها وصُراخها، بحربها وسلامها.. تنهّدت وقالت بصوتٍ مُتعبٍ:

- أُتمنى فقط أن أشعر بالأمان، أُريد أن أسير في الشارع بدون خوف، أُريد أن أذهب لعملي دون أن أترقب الموت بالطُرقات، هل أصبح هذا شيء مُستحيل؟ لقد سئمت الخوف.. ثُم وضعت رأسها على فخذ صالح الذي لم يعرف حديثه الطريق إلى المواساة، لا يدري أهو الذي يبكي أم هي؟ أصبحت الكلمات صعبة المنال وكأنها في مكان بعيد عنهُ يصعب الوصول إليها, وحين استشعر فشلهُ في المواساة وبدا مُتصلب المشاعر لم يستطع سوى أن يمسح على رأسها وكأنهُ بذلك سوف يمسح حزن الواقع وجرحًا لا يبرح قلبها.

لمع من بعيد ضوء سيارة قادمة، اتضح أنها شاحنة صغيرة، وقفا سريعًا يُلوّحان بأيديهما حتى توقفت بعيدًا عنهما، اقترب صالح من السيارة ففتح السائق النافذة الزجاجية وسأله: إلى أين؟

- قال صالح في عجل: حي القادسية ثُم فُندق أربيل إذا سمحت.

- قال السائق وهو يُحرك السيارة وينظر إليه بتجهم: سوف آخذ عشرين دولارًا. ثُم أضاف دون أن يُبدي صالح أي اعتراض: وإذا لم تقبل فسوف تقضي الليل هُنا لأنك لن

تجد من يقلك في هذه الساعة. وكأن الساعة بعد مُنتصف الليل وقد كانت الساعة بوقتها التاسعة.

صمت صالح بُرهة ولم يكن لديه خيار آخر, وقال: لا بأس. فتح الباب لماري كي تدخل وجلس بجوارها، رمقها السائق بنظرة تشي بالتعجب والشك، كانت ترتعد وأسنانها تصطك، قال السائق بصوت يشبه الغمغمة:

- هل سمعتما ذلك التفجير؟.. وكأنهُ يُريد بالحقيقة أن يعرف ماذا كانا يفعلان بهذا المكان في هذا الوقت؟.. نظرت ماري لصالح نظرة خوف في حين أمسك هو بيديها الباردتين يُشعرها بالطمأنينة، قال دون النظر إلى صورة السائق المُنعكسة في المرآة: نعم سمعناه.

قال السائق بثقة وكأنه صاحب فضل عليهما: من حسن حظكما أني مررت بهذا الشارع بعد أن فرغت بعض البضاعة التي كُنت أحمل، إن لم أمرّ ما كنتما لتجدان من يقلكما. ثُم نظر لماري بالمرآة وهي لم ترفع بصرها أبدًا اتجاهه، ثُم أكمل حديثهُ وهو ينظر لصالح:

- أنت لست من العراق، أليس كذلك؟

فصمت صالح بُرهة ثُم قال أيضًا دون النظر للمرآة: نعم، لست عر اقيًا، أنا مصور صحفي.

تصلّب وجه الرجل، اتضح ذلك من بروزعينيه, وكأن صالح أخبره أنهُ أحد أكبر أفراد المافيا, سعل بصوتٍ غليظ مُفتعل، أشارت إليه ماري بالوقوف، فوقف مُحدثًا زفيرًا بضجر، نزلت ماري على عجل دون أن تودع صالح, تابع السائق السير وهو ينظر في الطريق وينظر بالمرآة، شعر صالح بضجره فلم ينظر إليه ولم يتحدث معه مُطلقًا ثُم خشخش شيئًا تحت قدمه وهو جالس فنظر أسفل المقعد, وجد أكياسًا فسحب كيسًا بهدوء دون أن يحدث صوتًا فوجد صور ذخيرة، تعالت ضربات قلبهُ ولكنهُ استعاد موضعهُ سريعًا, نظرللمرآة فوجد السائق يحدق به، ارتعد قليلًا من تلك النظرة التي وشت بصاحبها, تظاهر وكأنه يمسح حذاءه بمنديل ورقي ثُم ألقى بالمنديل خارج نافذة السيارة مُتلافيًا أي نظرة قد تجمعهُ على حين غرة بوجه ذلك الرجل العابس.

أمام الفُندق توقف السائق, أخرج صالح له عشرون دولارًا من حافظته دون النظر إليه برغم عِلمه بتفرس السائق المُستفز له وتحديقه به طوال الطريق وكأنه يحفظ ملامحهُ.

حين وصل غرفته وجد الباب مفتوحًا, لم ينتبه لذلك لأنه كان مُتعبًا يتلاطم موج الأفكار برأسهِ حتى أحدث له شقيقة, فأخذ يستند برأسه على الجدران ثُم شهق بقوة أثر مفاجأة هزته حين دخل على سعيد ورآه يُخرج ثيابه ويضعها في حقيبة كأنهُ يستعد للرحيل فوقف يحدق بقطع الثياب التي تخرج دون عودة وعينيه تلمعان بدمع الفُراق الذي رآه بكل قطعة ثياب تخرج، انتبه سعيد لوجوده فنظر إليهِ مُبتسمًا رافعًا قامته المُنحنية أمام الحقيبة وقال ببرود: مرحبًا صالح. وكأنه لا يفعل ما يستحق الحزن، فقال صالح بصوتٍ حزين: هل سترحل الآن؟

فعاد ونظر إلى الحقيبة ثُم انحنى يُرتّب بها الثياب قائلًا: لا، سوف أرحل في الصباح. كان لوقع كلمة لا فرحة مرّت كلمح البصر, وحين سمع في الصباح طأطأ صالح رأسهُ هامسًا: أليس الصُّبح بقريب؟ وهل يعتقد سعيد أن تلك الليلة طويلة كي يقول لا ثُم يتبعها في الصباح وكأن الليل والصباح مُنفصلين؟!

تقدّم صالح خطوتين للأمام ثقيلتين ثُم جلس على حافة السرير مُطأطأ الرأس كالطاوس النائم فنظر إليه سعيد وقد استشعر بعض الحُزن الذي ألمّ به, جلس بجوارهِ فبديا كامر أتين أرملتين سِمعا للتوّ خبر موت الزوجين، نظر سعيد لصالح وربت على كتفه قائلًا كمن يواسيه: يجب عليك أن تكون فرحًا فخورًا بي، ها أنا ذاهب للجهاد في سبيل الله وسوف أعود مرفوع الرأس بعد أن تعود الخلافة الإسلامية وتُحكم كُل البلاد العربية بشرع الله. فنظر إليه صالح وكأنما ينظر إلى شخص قد أصيب بطلقة و يحتضر، ثُم قال بصوت يائس وهو يهز رأسهُ:

- لا لن تعود يا سعيد، لا أنت ولا إقليدس.

تنهد سعيد ومسح وجهه بيديهِ كأنهُ يُريد إعادة ترتيب حديثه وقال: حسنًا فلتذهب معي وسوف يعتقد مُديرالوكالة أننا اختُطفنا وسوف ييأس من عودتنا وينسانا ونكون معًا ولا نفترق.

قام صالح وسار إلى الخارج وهو يترنح يقول بصوتٍ همهمة: بل أنا اليائس, بل أنا اليائس. وقع بقلب سعيد ما ألمّ بصديقهِ, سار خلفهُ ثُم أمسك بيدهِ وأجلسه على مقعد بجوارهِ وجلس هو مقابلًا له وقال وعيناه تفيض من الدمع وهو يهز يده بيد صديقه الذي كانت عيناه غارقتان بالحزن:

- ألن تكون سعيدًا من أجلي يا صالح؟ سوف أتزوج و أكون بمكان أُحبه بين أُناس أحبهم.

لم ينجح استعطافه ذلك؛ فصالح يشعر أن سعيد قد تعرض لغسيل المُخ وأن رغبته بالانضمام ليست عن قناعة قدر ما هي تجربة يود سعيد أن يخوضها ليصنع لنفسه كيانًا بأن يكون لهُ شأن بين مُجتمع لا شأن فيه ليتيم مهما علا قدره, صالح دائمًا لا يثق في قرارات صاحبه.

سادت فترة صمت على كليهما, كانت الحجرة أشبه بقبر يضم اثنين أحياء، لم يكفّ صالح فيها عن البكُاء، ولم يكن يعلم قبل ذلك أن البُكاء يحيي الذكريات الحزينة كُلها ويقلب صفحات الألم واحدة تلو الأُخرى، والوداع كالجمر يُحيي بقلبهِ ذكرى كُل من ودعهم ويُجدد مشاهد الفُراق جميعها وأن الحزن يسن بدعة الندم.

أنساه كل ذلك موعده مع الحب, وأصبحت ذاكرتهُ صغيرة جدًّا بالكاد تسع الآن صاحبيه سعيد و إقليدس و أيام طفولتهم ومُراهقتهم و أيام شبابهم الذي لم يكملوا أشدهُ, تورّمت عينيه وتورم قلبه من ذلك الخبر المهين, ينظر للمُستقبل من خرم مخيط وحيدًا غريبًا يائسًا ويتيمًا، الكُل يرحل وهو ما زال بمكانهِ في محطة قطارات الحياة لا مُودع ولا مسافر, لماذا يجب عليّ أن أقف دائمًا على حافة الحياة أرى دائمًا مشهد الفُراق نفسه؟ وكيف أُريد أن أرسم الابتسامة على وجه ماري وشفتاي تقطر دمًا؟ هل سيعود حقًّا سعيد و إقليدس صباح يوم ما؟

صباح الخير.. قال سعيد لصالح الذي غفى على كُرسيه وأشرقت شمس صباح الفراق, قام صالح وهو يشعر بالوهن، بالكاد استطاع القيام, نظر لحقيبة سعيد التي يحملها في يدهِ وقد استعد للرحيل مُرتديًا ثوبًا أبيض وكأنهُ على موعد مع صلاة الجمعة وهو في الحقيقة على موعد مع صلاة جنازة الصداقة. تعانقا حتى لم يعد يدري أيًّا منهما

لمن تلك الدموع التي بللت ثياب الآخر, ثُم فرّق عناقهما رنين هاتف سعيد الذي رفض الرد عليه وكتم صوته.

- صالح أخبر المُدير بأني قد خرجت أشتري طعامًا ثُم لم أعد.. قال سعيد فكان وقع تلك الكلمات على صالح أقسى من لحظة العناق، وكأن سكينًا قد غرست في أحشائهِ وأخذت تقطع بلا هوادة ثُم قال بنبرة يأس كالذي يمسك بشبكة صيد كخيوط العنكبوت يرميها فوق صديقه المُفارق:

- أرجوك لا تذهب.

نظر سعيد للهاتف الذي عاود الرنين ثُم كتم صوته وقال بصوت مُتحشرج: إنهم ينتظرونني، يجب عليّ أن أذهب ولا يجب أن تتبعني, سوف نودع بعضنا هُنا.. أفسح له صالح الطريق مُتنحيًا عن تَمَسكهُ بآخر أمل لبقاء صاحبه, ووقف يستند إلى مقعد مجاور وكأن طعنة السكين تلك قد نحرت خصره ينتظر الموت كما ينتظر المرضى الشفاء.

ذهب سعيد وبقي صالح لا يستطيع تصديق ذلك, لقد أصبح وحيدًا بتلك المدينة، ماذا سيفعل بعد رجوعه؟ ومن سيشاركهُ أفراحه وأحزانه؟كان سعيد كُل ما تبقى لديه من حُلم العائلة, كان الأخ والابن, وها هو صالح يقف وحيدًا بلا عائلة مُجددًا ثُم تذكر هجرة ماري وكيف أنّ أمامه فترة قصيرة وقد يرحل هو أيضًا بلا ماري وبذلك ينتهي كُل شيء، حُلم الأسرة وحُلم الحب.

لا، سوف أطلب منها اليوم الزواج وعليها أن تُرتب لذلك, نتزوج قريبًا ثُم تُسافر هي و أنا أعود لبلدي ثُم ألحق بها إلى السويد ونعيش سويًّا هُناك، لكن سعيد قد يعود ويبحث عني و إقليدس أيضًا رُبما يأتي ويبحث عني, لا, لا بد أن أعتاد العيش دونهما، منْ يرحل لا يعود..

أخرج هاتفه النقال مُتصلًا بماري, ردّت عليه: صباح الخير يا حبيبي، هل كُنت مُتعبًا هذه الليلة؟

- صباح الخير حبيبتي, لا, في الحقيقة نعم, لقد سافر صديقي سعيد وكُنت أودعه ثُم غفوت بلا إرادة.

- الله يحفظه بسفره ويصل سالمًا.. قالت ماري.

- حبيبتي، أُريد أن نتزوج.

- تنهدت ماري برقه ثُم قالت بصوت كالخجول: وما تلك القرارات الصباحية؟

- أرجوك لقد فكرت كثيرًا, فلنتزوج هُنا ثُم تُسافري مع عائلتك و أنا سألحق بكِ بعد فترة قصيرة.

- سوف أتحدث إلى أبي بهذا الشأن لكن أنت تعلم أن هذا شيء حساس وصعب.

- أبوك رجل طيب وسوف يتفهم حبنا, و أنا من جهتي سوف أعدك بأن تظلي على ديانتك.

- حبيبي سوف أحاول ذلك, والآن سأرتاح، أنا أيضًا مرهقة وأُريد النوم.

استلقى صالح على فراشهِ وقد وهنت الأفكار بمُخيلته حتى أصبحت كخيوط قوس قزح فنام كالمغشي عليه.

فصول خيبة وأضغاث أحلام

وقف سعيد أمام المرآة يرتدي ثوبًا ناصع البياض وقد كبرت لحيته قليلًا، كان ينظر إليها في المرآه مُتنميًا أن تكون أطول, ثُم أخذ يثقب الحبوب الموجودة على وجهه برأس الإبرة وهو مُستمتع بذلك العمل حتى باغتهُ صوت أحد الرجال القادمين, غليظ الحنجرة برغم نحوله الواضح وكأن ذلك الصوت لم يكن لذلك الرجل: سعيد، هيا الأمير ينتظرك.

نعم في الحال.. قال سعيد وقد كان يستعد لعقد قر انه على الفتاة التي اختارها لهُ شيخه ناصر.

في ساحة صغيرة اجتمع عدة رجال بملابس مُختلفة ووجوه مُختلفة من أماكن مُختلفة، اجتمعوا ليشهدوا عقد قران سعيد على الفتاة أحلام, والتي كانت في إحدى الغرف المجاورة تُزينها الخالة زوجة العم ناصر شيخ سعيد بمساحيق تجميل رخيصة تلمع بطريقة مُبالغ فيها. كانت الفتاة تبتسم فرحة بطلتها المُختلفة بالمرآة وبمنظر المساحيق الزاهية على وجهها النحيل الطاعن في الطفولة.

سوف تصبحين زوجة لرجل مؤمن وبعد فترة سوف يكون لديكِ طفل، حافظي على زوجكِ وكوني له مُطيعة فهذا واجبك.. قالت الخالة زوجة العم ناصر وهي تضع الكحل الأسود بعينيّ الفتاة التي لم تكن تنتبه لحديثها، أو بالأحرى لم تفهمه فهي مشغولة بالنظر للكحل الأسود المخطوط فوق عينيها وبأحمر الشفاه الفاتح فوق شفتيها وبفستانها المُزان بالقليل من الخرز الذي حازعلى إعجاب طفولتها التي لم يسبق لها أن ترتدي مثل ذلك, بينما لو كبرت الفتاة بالقدر الذي تعي فيه أبسط الأمور لنفرت من ذلك الوضع السخيف, من تلك المساحيق المُثيرة للسخرية ومن ذلك الثوب المُضحك الذي تبدو فيه وكأنها تُقدم عرضًا مسرحيًا ساذجًا لفرقة أطفال ولصاحت في كل الحضور موبخة, لكن عزاءها طفولتها غير المُكتملة النمو، وبيئتها الغاية في البؤس، فمن ذا الذي ينفض يديها الصغار من تُراب الجهل ويمنحها فُرصة التفكير والتعبير أو حتى الحوار؟ فها هي لم تجد لها قلبًا يُقاسمها أحلامها الصغيرة بعد أن انقضى نحب الدفء العائلي، لم يكن غير زوجة العم ناصر وأُخريات ممن يحطن بها لا يألونها إلا

خبالًا، حتى أخوها الوحيد وهو كُل ما تبقى لها من دفء العائلة لم تكن تستطيع التحدث معهُ ناهيك عن اللعب، فقد حذرتها النسوة القائمات عليها بأن ذلك عيب ومشين وحرام، هي وأخوها لا يجوز عليهما أن يتحدثا مُنفردين؛ فقد كبرا بما يُوجب التفريق بينهما حتى بالحديث، وحين تود أن تسأل عن شيء أو تُريد الحديث فليس أمامها سوى زوجة العم ناصر التي هي المؤتمن الخائن على طفولتها الموءودة.

انتهت زوجة العم ناصر من حديث الوصايا ومن تلميع أحلام, ثُم جلبت لها عباءة سوداء غطتها من شعر رأسها حتى أخمص قدميها مما أثار استياء أحلام فقد كانت تظن أنها ستخرج بثوبها الأبيض الطويل ووجهها الملون بقوس قزح وشعرها المسدول كالأميرات في الأفلام الكرتونية ولكن ذلك كلهُ لم يكن سوى أضغاث أحلام سرعان ما تبدد حين تغطت معالمها الصغيرة بالجراب الأسود وأصبحت مثل الشبح تسير وتتعرقل من فرط طوله. ارتدت الخالة هي الأُخرى عباءتها وسارت بجوارها والنساء الأُخريات كُن يسرن كما لو كن يُشيعنها لمثواها الأخير, أنزلن الطرح السوداء على وجوههن حين أقبل أخوها عُمر يستلمها من زوجة العمر ناصر، يحمل كفها الصغيرة فوق كفه إلى مصيرها المجهول المُنتظر.

انتهي عقد القران و انتهوا في الداخل من طهي الطعام, فاجتمع الجميع لتناول الطعام؛ لحم الخراف والماعز مع الأرز، وأرسلوا للنساء نصيبهن من الوليمة بينما أخذ سعيد نصيبه يحمله له أحد الخدم إلى غرفة العروس التي جلست أمام المرآة تعاود فحص وجهها فرحة بالألوان تُغريها فتصفف شعرها يمينًا ثُم يسارًا ثُم تجمعه فوق رأسها وتسقط خصلًا صغيرة منهُ بما لا يُناسب طفولتها أبدًا, الطفولة لا تُجيد سوى الضفائر التي تنكرت لها أحلام ظنًّا منها بأنها كبرت وأصبحت امرأة متزوجة وأن بذلك سوف يحترمنها الصغار وسيُلقوبنها أم فلان ولن يُضايقها أحدهم أو تضربها إحدى الفتيات, ولن يلقبوها باليتيمة وأن الخالة زوجة العم ناصر سوف تُعاملها من الآن كامرأة مثلها ولن تنظر لها باستخفاف أو تُعاقبها على الأخطاء من سوء التنظيف أو زيادة الملح بالطعام أو ضرب أحد أبنائها.

دخل سعيد غرفة النوم ينظر لأحلام وهي مُنشغلة بالتحديق بالمرآة, تُبرز شفتاها للأمام ثُم تمطهم وتشفطهم للداخل فرحة بلون الحمرة التي كالدماء فوقهما، وتنظر

لانعكاس ظهرها بالمرآة فرحة بالثوب الشفاف، وضع الطعام وهو يبتسم لها فانقضى وقت تأملها لنفسها سريعًا، شعرت بالغرابة والخجل وبعض الخوف، قرّب إليها الطعام، كانت تشعر بالجوع لكنها مُستحية أن تتناول الطعام أمامه فقد أخبرتها زوجة العم ناصر أن تنتظر حتى يأكل زوجها ثُم تأكل هي بعده، لكن سعيد أصرّ على تناولها الطعام فعجزت أمام تصميمه وجوعها، أكلت ويدها ترتعش وهي تحمل الملعقة إلى فمها فيسقط المرق على ثوبها الأبيض وبعض الأرز، شبع سعيد وقام بحمل الطعام ووضعه جانبًا وغسل يديه ببعض الماء الموجود بجواره وغسلت هي أيضًا.

خلع ثيابه سريعًا كما لو كان لديه موعد مع النوم فجائي سينتهي بعد قليل، وخلع عنها فستانها وهي ترتعد، وحين بدت عارية تبخرت أمامه أنوثتها التي صنعها جُزافًا الفُستان كبير الحجم فبدت كاليمامة الصغيرة، ليس سوى عظام يكسوها لحم هزيل، شاخت فرحة أحلام الطفولية واحدب ظهر الطفولة، وسعيد لم يمنحه غروره فرصة الندم على تلك الخطوة بأن يتزوج من فتاة لا تصل حد منكبيه, هو مفتول العضلات وهي كفصيلة الطيور النحيلة التي لا تكبر, لم يكن سعيد يعترف بالندم مُعللًا أمام نفسه كل شيء بأهون التعاليل يُصدقها وكأنها برهان ودليل لا يحمل شكوكًا، نزع عنها طفولتها سريعًا فبدت كالعصفور الذي بلله المطر، تنتفض ساقاها النحيلتان كما لو أصابها مسّ كهربائي يكاد يُصعقها، أفاقت أحلام من أحلامها ولم تفق من الكابوس الذي احتل للأبد مرقدها بلا هوادة, إنها أصبحت مضطرة كل يوم أن تجلس كاليمامة على فرع شجرة غير مورقة تُشاهد كيف يُنتف ريشها.

الصورة قصة لا نهاية لها

كان صالح وماري قد تواعدا على الذهاب إلى النهر عصرًا مُستمتعين بحرارة الشمس في ذلك اليوم وقد اصطحب معه آلة التصوير؛ كي يأخذ لها صورًا ولكليهما، حين وصلا كان النهر رائقًا والشاطئ جميلًا كأنه يحتفي بجلوسهما.

أخذ صالح لماري صورًا وهي جالسة كعروس البحر ترتدي الأبيض، وصورًا وهي واقفة من الخلف كأنها تعزف للنهر معزوفة سرية، وصورًا وهي تقف في الماء كأنها حورية، وصورًا لكليهما معًا بتعليق آلة التصوير فوق الدرفش (رمز ديني عند الصابئة يرمز إلى السلام وهو عبارة عن تقاطع أغصان خشبية مع شجر الزيتون يشبه الصليب ويضعون فوقه ثوبًا أبيض تعبيرًا عن سلميتهم ويوضع أيضًا فوق سفح بيت المندا كشعار للديانة.

أدت ماري تصبغها وصالح يصورها يُراقبها بحب واهتمام بالغ وبفرحة تُرفرف بجناحيها على كليهما، ثُم جلسا كعاشقين أنهيا نُسك الله ليبدأ مناسكهما، أخذت تجفف ملابسها المُبللة وهو يُراقب انعكاس اللون الأبيض من حجابها على وجهها ومنبت شعرها وهو يتحرر من الحجاب مُتراصًّا فوق جبهتها كغرة قصيرة ناعمة، ولون حاجبيها الكستنائي الذي يُضاهي منبت الشعر الرقيق في جبهتها, فكأنما زادت تلك الطقوس من براءة ملامحها ونقائها وجاذبيتها البالغة، كانت أُنثى من قطن ثُم قاطعت تأمله بها حين قالت بصوتٍ رقيقٍ وهي تنظر لذيل ثوبها المُبلل وتعصره:

- صالح، أتعلم لقد كتبت خاطرة لك أسميتُها مسيح الهوى.

- حقًّا! وما تلك الخاطرة؟ أخبريني أنا كُلي آذان صاغية.

- مسيح الهوى.

حين ابتعد كأن الليل بوضح النهار بدا... شمس عينيه تلوح خلف الأفق السرمدا

ألحان الصباح بوجنتيه تتنهد... انتظر يا مسيح الكفين عليهما سلام ربي حين توضأ

فأتى واضعًا ناظره بالأرض ريثما، ناديته وما أبى

يا صاحبي في العشق يا شذا... ما ألقيت عليك عشقي لتشقى وما طلبتُك البوح ولا..

فإني أعلم من عينيك سرهما وما خفى... يا صاحب الذكر أتنهاك صلاتُك عن الهوى؟

فأجاب على استحياء تعس الهوى الكثير من الورى... حاشا أن أتبع هواي فأُردى

فصمتُ قليلًا عن المراودة بلا جدوى... ومن فرط هدوء العشق توارى

ياعزيز النفس يا يُوسف زمان قد ولى... أتر اني أعصر للناس خمرًا؟

وكذا لستُ ابنة عمران أو العدوية رابعة... فقط عشقتك يا مُلبي النوى

وما افتريتهُ عليك قد خاب من افترى... وإن فارقت سأكتفي بك نجوى

وبعدك حرام علي الهوى... سأنسفه من قلبي نسفًا

فنظر على استحياء أشفق علي مسيح الهوى... اقترب, ضنك الحياة بقربه ولى

أتراه سيمنحني القبول بقُبلة... أسأت الظن وإحساسي غوى

كم قبلهُ ظننتني ذات نُهاِ!... وهل بعد إثمي ذاك غُفران يا تُرى؟

البوح بالحب لقديس معصية!

ودعني ثكلى بُلقياه, بهواه حُبلى... يا صاحبي في العشق أولى لنفسي فأولى

قد زادني اللقاء بعد الفراق والفراق بعد اللقاء ألمًا... استغفر الله لم يكن عشقك هزوا

غارقة فيك ولا أجد لي عنك مصرفًا... أأصوم عن هواك و أنا أموت نصبًا؟

حتى الصمت كذّب بنا وعربدا... أيا سلام أبلغوه ومأمنا.

......

انتهت ماري من إلقاء خاطرتها وهي تنظر للماء، أما صالح فقد غفى على صوتها ولم يسمع منها سوى البداية فنظرت له في غضب وصاحت:

- صالح؟!

- فأجاب بصوت النائم: نعم حبيبتي، رائعة.

- أنت لم تسمعني، كُنت نائمًا.

- لا كُنت أسمعك لكني غفوت من حلاوة صوتكِ.. ثُم قال وهو يُمسك بيدها يقاوم النوم الطارئ: ماري هل تحدثتِ مع أبيك بشأن زواجنا واستعادة يحيى؟

- تحدثت لكنه لم يرفض ولم يقبل, هو لا يعترض على استعادة يحيى وبالرغم أنه لم يبدِ امتعاضًا تجاه زواجنا لكني أشعر به مُترددًا من تلك الخطوة, والسبب العائلة والتقاليد أكثر من كونه عقيدتنا لا تسمح بذلك.

- لن أسمح أن تُسافري دون أن نعقد قر اننا ونصبح زوجين، لن أسمح بذلك مُطلقًا أبدًا.

هزت ماري رأسها للأمام بالمو افقة على رأيه وهي ترمي بحجر في ماء النهر، مدّت قدميها أراحت ظهرها للخلف على سواعدها، أغمضت عينيها فباغتها صالح بالنوم على فخذيها كطفلها, نظرت لوجهه الذي يشع حب و ابتسمت فقال مُحتفيًا بابتسامتها تلك: أُريد أن يجمعنا الحب في بيت وفراش. ثُم مسح بأصابعه جبينها النديّ وقال بنبرة عطف واستفهام وغزل وهو يرفع حاجبيه: يقولون العسل البغدادي من أجود أنواع العسل و أنا أُريد أن أتحقق من مدى مصداقية تلك المعلومة.

لا هذه معلومة كاذبة, فالعسل أصبح رديئًا جدًّا بعد الاحتلال مما قد يُصيبك بالغثيان واضطراب الذوق.. قالت ضاحكة بخجل بينما هو يبدي نظرات عدم التصديق المازحة.

فرق شمل الحب المشوب بالغزل رنين هاتفها ليُخبرها والدها أن حرارة جدتها مُرتفعة و أنه لا يعرف ماذا يفعل، فقامت من مقامها وصالح يتبعها، رفض أن يتركها وحدها، تركا الشاطئ الذي لن يزوراه سويًّا مرة أُخرى.

عندما وصلا للمنزل على عجلة من أمرهما, جلست ماري أمام جدتها النائمة على الفراش مُغمضة العينين يداها ترجفان، لاحظ صالح شحوبة جلدها واصطباغه بلون الموت, فتحت ببطء عيناها واحدة تلو الأُخرى بوهن، لم يظهر منهما سوى بؤرة العين وخرم من عدستها الخضراء، نظرت لصالح مُبتسمة فابتسم لها, ثُم نظرت لماري وسقطت من عينيها الواهنتين دمعتان وقالت بهمهمة: عندما تأتي سأكون أول المُنتظرين. لم يفهم أحد شيئًا, رُبما هو خرف الموت، ثُم تعلقت عيناها الصغيرتين الواهنتين بصالح ولم تحد عنه حتى سكنت حركاتها وعلم الحضور أنها فارقت الحياة.. بكت ماري وهي تضع رأسها على صدر جدتها النحيل الذي توقف عن العدو خلف التنفس، بكى الابن والحفيد الصغير، خيم الحزن على المنزل، ذهب صالح وعاد مُحضرًا

معه الكفن والحانوط والصندوق، وشيعوا العجوز ليلًا بهدوء لتبيت في مسكنها الجديد، عاد صالح معهم للمنزل لا يستطيع أن يترك ماري بتلك الليلة و آثر أن يكون بجوارها وإن كان ذلك مُحرجًا, أخذ يُلهي الصغير عبد الواحد ويحاول معه الحديث فأخذ يُغمغم الصغير بما يُوحي أنه على استعداد أن يتحدث وكان ذلك مُفرحًا رغم الحزن المُخيم بالمنزل, انتصف الليل، نام الجميع ونامت ماري على فخذ صالح وهو جالس يستند بظهره إلى الحائط. قالت وهي في عداد النائمين: هل تعتقد الموتى مثلنا يشعرون بالخوف والوحشة, أم يموت الخوف مع الموت؟ وهل حالنا في العالم الآخر سيكون أفضل من تلك الحياة؟

حبيبتي لا تقولي هذا، أنتِ كُل من تبقى لي في هذه الحياة, ولا حياة لي من دونك.. قال بنبرة حنان وقلق وهُو يسمح بيده على شعرها الكستنائي المخملي.

ردت مُشاكسة: إذًا حبك لي هو نوع من النرجسية؛ إذ تجد في وجودي نفسك وبغير وجودي لا تجد نفسك، يعني تُحبني لذاتك أليس كذلك؟

رفع صالح ظهره المُستند على الجدار ليقترب منها وقال وهو يمسح على شعرها كالذي يوشوشها: أتعلمين أن نرسيس بطل الأسطورة اليونانية التي تُنسب إليها النرجسية كان ضحية انعكاس صورته الجميلة على سطح الماء, ذلك النبع الذي لم يسقط فيه فرع شجرة ولم تعكره الطيور أو الأغنام, كان شابًّا جميلًا جدًّا وحين انثنى ليشرب من نبع الماء وقع في حب الصورة الجميلة المنعكسة. لم يكن يعرف أنها صورته، أحب ذلك الوجه الجميل الذي ظن أنه لفتاة أحلامه فأخذ يأتي ويذهب للنبع حتى أصابه الهم والحزن جراء عدم خروج صاحبة الوجه لمُلاقاته فمات وسقط في النبع، من هُنا كانت النرجسية. فمن الضحية؟ كان نرسيس ضحية الحب ولم يكن ضحية النرجسية, فهو لم يعلم بأنه قد أحب نفسه؟ و أنا أيضًا ضحية الحب الذي جمعني مع من هي انعكاس لروحي بمرآة قلبي والتي هي أنتِ.

رفعت ماري رأسها من فوق فخذيه كالقطة, أخذت تعانقه بأنفاسها حتى خدرت أنفاسه هُو، تمسح بخدها الرقيق بحنوعلى خده وقربت شفتاها من شفتيه اللتين تتوقا شوقًا لها. وحين التقيا كانت كُل شفتين تلهثان لتضم الثالثة وتضع كلًّا منهما بصمتها الخالدة الأبدية على الأخرى، بدأت ماري القبلة ولم تستطع أن تُنهيها, كان لقبلة

ماري الأولى والأخيرة نكهة الفراولة وطعم العسل وخدرة النبيذ, وكانت رائحة عرقها كرائحة الطفل المولود مما زاد من انتصاب الشوق به، وفي حين كان يخلع ثيابه ليرتدي جسدها خجل من شوقه عاد وارتدى ثيابه سريعًا وهمَّ خارجًا من بيت ماري في أشدّ اللحظات عشقًا وأكثرها دفئًا, ذهب يتخبطه الشوق بالطرقات.

وصل صالح الفندق وطعم قبلة ماري يُطارده ويُحاصره في خياله لا يبرحه، ما زال يتلذذ به كأن القبلة أصابته بجنون العشق و أيقظت فيه إلهام الرسم وأحيت في أنامله الرغبة في نحتها على الورق, أخرج صورتها التي يحتفظ بها وأحضر الورقة وقلم رصاص, ورصاص تلك الصورة سيقتله فيما بعد كُلما نظر لها.

خطط وجهها الجانبي وحجابها المُتطاير وجسدها المصقول في جلباب أبيض، وأظهر ضوء الشمس المُتعاكس مع النهر, وهو يُعيد مشهد القبلة في مُخيلته مرة بعد مرة ويعيشه بكل تفاصيله حتى انتهي من رسمته, وقف ينظر لها مُعجبًا بصنيعه ثُم وضعها وغطّ بنوم عميق لم يخرجه منه سوى ثقل كابوس, رأى ماري تستحمّ بالنهر, ثُم أقبل طائر ضخم ريشه يُشبه الشعر وجناحيه من لحم ليس بهما ريش أو شعر بل شوك, فَرَد جناحيه فوق ماري و ابتلعها فاختفت في الحال وصالح يحاول أن يصرخ ولكنهُ مُقيد وكأن شخص ما قد حبس حنجرته في مكان بعيد وقد رُبطت يديه وقدميه حتى أُدميت وحين خرج الصوت صارخًا: "مااااري"، كان الكابوس قد ولى هاربًا تاركًا خلفه تُراب الخوف ينخر نبض صالح.. قام وغسل وجهه وأمسك هاتفه وطلب ماري وقبل أن ترد بصوت النوم قال لها: أُحبك جدًّا. فردت: و أنا أحبك جدًّا.

صمتا وأغلقا بعد طول فترة الصمت وكأن الكلمتين اختصرتا أحاديث عدة، تركها لتعاود الاتصال بأحلامها بينما هو فتح حاسوبه حيث وجد رسالة من إقليدس لم يفتحها فهو على عجلة من أمره, يُريد مُراسلة الوكالة يخبرهم باختفاء سعيد ورغبته في أن يبقى هو فترة وأن يرسلوا إليه نفرًا يعينوه، ثُم قام واصطحب آلة التصوير وخرج و أثناء وجوده بصالة الاستقبال لمح موظف الاستقبال قد داوم بدلًا من ماري، فابتسم له وقال الموظف وهو يبتسم: لقد اعتذرت ماري فبقيت مكانها كي لا أُسبب لها مشاكل مع إدراة الفُندق. هز صالح رأسه و اقترب منه مُبتسمًا ثُم ربت على كتفه وقال: أنت ولد طيب وسوف يُجازيك الله خيرًا.

ماري أيضًا طيبة، هل ستتزوجا؟.. سأل الولد بفضولية طفل قد شهد مولد الحب بينهما, فقال صالح بعد أن تقدم خطوة للأمام، نظر إليه: نعم سوف نتزوج قريبًا إن شاء الله.

خرج إلى السوق يصور الباعة والمُستهلكين والأطفال المُستهلَكين الصغار الجالسين بمحاذاة الأمل يبتاعون الحلوى للمارة، وأطفالًا آخرين يحملون زجاجات الماء يبيعونها للسيارت وللمارة على الجانب الآخر من الطريق, ثُم التقط صورة لامراة عجوز تبتاع الخضرة وجهها كثرت عليه الخطوط المُتعرجة وكأنها تحمل الزمن فوق وجهها وكفيها وتمضي، ثُم أعجبه شال من القطن أبيض مخطط بخطوط حمراء رفيعة رقيق يُشبه ماري التي كزهرة القطن النضرة, اشتراه من البائع ودسّه في حقيبته ثُم تابع التصوير وطرح الأسئلة على الباعة وعلى الزبائن؛ منهم من يُجيبه ومنهم من ينظر إليه بتجاهل ويمضي.

في شارع الثقافة؛ شارع المُتنبي، وقف يتفرج على باعة الكُتب حيث توجد كُل أنواع الكُتب على جو انب الشوارع, ومطبعة قديمة تعود للقرن التاسع عشر الميلادي والكثير من المباني العر اقية القديمة, وحيث سيتعرض هذا الصرح الثقافي بعد عام لمعجزة الثقافة المفخخة التي ستودي بحياة ثلاثين شخصًا وحياة الملايين من الكُتب والمخطوطات النادرة.

عاد صالح مُتعبًا، تناول غداءه على عجل, بعث للوكالة الصور والحديث الذي جمعه ببعض الباعة عن السلع وغلو أسعارها وعن تأثير التفجيرات على حركة السوق وعن خوفهم منها وكيفية التصرف حين وقوعها بالقرب منهم، وعن آمالهم الغائبة وطموحاتهم, وصورًا لشارع المُتنبي ومبانيه القديمة والكُتب المصطفّاة على جانبيه, ثُم أخرج الشال قبّله ووضعه حول رقبته، أخرج هاتفه النقال يطلب ماري وقبل أن تُجيب كعادتهُ حين سمع أنفاسها باغتها بشوقه أخبرها بأنهُ يُريد أن يعرف عنوان بريدها الإلكتروني فقالت:

- حبيبي لا أستخدم سوى موقع واحد هو الفيس بوك، ابعث لي بريدك وأنا أُضيفك.

- فقال: ليس لديّ حساب فيس بوك.

فاقترحت عليه أن تصنع له حسابًا كي يتبادلا عليه الرسائل إذا سافرت قبله إلى أن يلحق بها فرحب بالفكرة ثُم أخبرته بأن والدها مريض ولن تتمكن من الذهاب إلى الفُندق وسوف تأتي لتطلب إجازة وأخبرته بأن صاحب المكتبة قد يبيعها ويهاجر وهي بذلك لن تداوم إلا في الفُندق بعد أن يشفى والدها من وعكته تلك وبعدها سوف تجهز أمرها للزواج منه.

كتب صالح أولى خواطرة على الفيس بوك العالم الافتراضي الذي حلّ عليه ضيفًا بمُساعدة ماري ولم يُشاركه فيها الرأي بأول أيامه سوى ماري وماري فقط.

إذا الموءودة سُئلت

جلست الصغيرة أحلام على حافة الفراش وقد أعياها البُكاء بعد أن تعرضت للضرب من سعيد تقريبًا لليلة الثالثة على التوالي، بجوارها الخالة زوجة العم ناصر تشرح لها ما تفعله كي تُرضي زوجها وكيف أن ضربها ذلك قد ذكره الله في القرآن, وإن ذلك عقاب لها على رفضها مُعاشرة زوجها، وكيف أن الزوجة الصالحة يجب أن تُطيع زوجها فيما يطلب دون إبداء أي امتعاض وذلك كُله لم يكن يُثير لديها رغبة في الإنصات, ولكن لا شيء تستطيع فعله سوى الإنصات حتى خرجت المرأة من الغرفة بعد أن أنهت مُحاضرتها تلك, دخل سعيد وطلب منها أن تغسل وجهها وترتدي العباءة لأن أخاها عُمر سوف يأتي ليُودعها قبل أن يُسافر لأن الجماعة اختارته ليسافر في مكان آخر, آلمها ذلك كثيرًا فلم يكن يجمعها بأخيها منذ فترة حوار خاصة بعد أن حصلت على لقب الزوجة, فكان لديها مسؤوليات كثيرة هي لا تُحيط بها مقدرة، زادها ذلك حسرة. دخل أخوها نظرت لوجهه الشاحب, لاحظت خوفه واضطرابه، قامت لتعانقه وهو كذلك انتبه لالتصاقها به، أبعدها عنه ببطء، جلسا وجهًا لوجه لكن لا ينظران إلى بعضهما، قالت بصوت طفولي بائس:

- أخي هل تذكر يوم قُلت لك إن أبانا قد مات بتلك الليلة؟ ولم نكن نعرف أنه قد مات, وأخبرتك بأني رأيته بالحلم وهو يموت ورأيت القتلة وهم يلقونه على قارعة الطريق.

- نعم أذكر.. قال مُطأطئ الرأس حزنًا ينظر ليديه يُفركهما يخفي في نفسه ما عيناه تُبديه.

- وتذكر يوم جئنا هُنا وأخبرتك بأني أرى بالمنام أنّ أُمي ما زالت حية تُريدنا وتبحث عنا بكل مكان؟

- نعم أذكر، ولماذا أنتِ الآن تذكرين ذلك كُله؟

- طأطأت رأسها هي الأخرى بحزن و انكسار وقالت وهي تقاوم الدموع: أُمي ما زالت على قيد الحياة، قد سمعت خالتي زوجة العم ناصر وهي تحكي للنساء عن أُمي, و أنت

قبل أن تأتي اليوم رأيتك أنت و أبي سويًّا صامتين في مكان لا أذكر معالمه، هل ستذهب عند أبي ولن تعود؟

تنهد الغلام بقوة وسقط رأسه مُنحنيًا خجلًا من دمعه: أُختي سأقول لكِ الحقيقة، أنا ذاهب إلى الجهاد وسوف أموت, ولكن لا تحزني فقد أمرنا الله بذلك, وسوف أنتظرك بالجنة، أخبرني الأمير بأنه سوف يكون لي هُناك قصر وزوجات كُثر وسوف آخذك معي ونسكن سويًّا.

هزم أحلام الدمع وبكت حتى تمخطت، مسحت بكم عباءتها الدموع المُمطرة والمُخاط وقالت بصوت يرتعد، أتعرف شيئًا يا عُمر، أنا أكره الله!

وضع يده على فمها وكأنه هو من نطق بها, وقال بدهشة في همس: لا تقولي هذا وإلا تكوني من الكافرين، وإذا سمعك أحد سوف يقتلونك. ثُم حدق بوجهها مُبديًا القسوة: أجُننت! ماذا دهاكِ؟! مسحت مرة أخرى الدموع الغزيرة المُنهمرة من عينيها الحمراوتين وقالت: لماذا يأمر الله سعيدًا بضربي ويأمرك أنت أن تذهب لتموت و أبقى أنا وحيدة؟ اطمئن لم أخبر أحدًا بذلك حتى حين قرأت لي زوجة العم ناصر آية في القُرآن تُبيح ضربي لم أخبرها بأي شيء, لم أقل ذلك إلا لك. غمرت رأسها في صدر أخيها كالتي تُريد دفن رأسها فيه: أرجوك لا تذهب أخي. سمع عُمر صوت وقع أقدام بالخارج، وقف قائلًا بصوتٍ خافتٍ: لو علموا أني قد أخبرتك بأمري سوف يمنعوني من أداء المُهمة وأكون بينهم كالمرأة ولن أحظى باحترام, بل رُبما يلقوننا سويًّا بالشارع. ثُم مسح بكمه دموعها المُنهمرة ومسح أنفها ثُم جلس وقال بهمس بعد أن اطمأن لابتعاد صوت الخطوات:

- لا تخافي سيكون سعيد لكِ الأخ والزوج والأب.. أحدثت مواساته هذه فوضى بقلبها وزيادة في البُكاء مما أثار ندمه على القدوم لوداعها, وصّاها بعدم البوح بما قاله الآن وودعها بقبلة فوق جبينها المُتصبب عرقًا وحُزنًا وهمّ أن يغادر, أمسكت بيده كأنها تتعلق بثوب أبيها في الحرب، خرج وترك بقلبها جرحًا غائرًا لن يندمل، تعرّت من طفولتها وبراءتها ومن أحلامها الصغيرة.

استسلم الفتى لمن يخلعون عنهُ ثيابه يغسلونه ويكفنونه وهو حيّ دون أن يعارض ما يفعلونه به، كان صامتًا مُستسلمًا لمصيره كالميت فعليًّا، يتخيل أخته تبكي فيحزن ويعود ليتخيل قصره بالجنة فيفرح، يتذكر الموت فينهشه الخوف هاط به الفكر، حتى

أنهوا الحضور المراسم تلك وودعوه بنظرات إعجاب وتفاخر تُثير به الحماس والفخر, حماس إلى جنة لا يدري أحد هل هي ستستقبل القاتل أم المقتولين؟ ذهب لمصيره فرحًا مزهوًّا أمامهم خائفًا هلوعًا من خلفهم، تضرم نار الخوف بقلبه أشد الحرائق و أقساها وأسخطها على كُل الحضور، عزاؤه في ذلك أنه سيكون بينهم بطلًا وسيلقبونه بينهم بالبطل بعد موته و أنه سيسبقهم إلى الجنة.

فناء الجامعة سياتل

وقف إقليدس أمام رهط من زملائه يحتفون به, يسألونه عن تجربته ويطلبون منه التوقيع مثل كبار النجوم وهو بينهم حائر كيف يرد على الجميع دون أن يتجاهل أحدًا, وكيف يُجاملهم جميعًا ومن بعيد عيون أُخرى تُر اقبه، إنه سام ينظر إليه من بعيد مع بعض أصدقائه الذين اجتمعوا ليتفرجوا على فُحش ما فعله إقليدس على حد قولهم، ثُم أجمعوا أمرهم أن يطلبوا من الشيخ جاسم سرعة التصرف في أمر ذلك الذي يعتبرونه خروجًا عن الدين وارتدادًا، فمن ناحية إن إقليدس لا يُصلي ومن ناحية أُخرى أقدم على عمل سينمائي فاحش, ثُم إنهم رآوه مع فتاة أمريكية أكثر من مرة يسيران كعاشقين.. أنهى إقليدس لقاءه المزدحم مع زملائه, اعتذر منهم بأنه مُتعب وعليه أن يذهب لمراجعة دروسه، حمل معطفه الطبي وكتبه وذهب, وصل لبيته مُتعبًا أخرج هاتفه من معطفه كي يتصل بروز ليطمئن على أخبارها فأجابته أنها بخير, وفاجأته بأنها سوف تأتي إلى سياتل بعد غد, فرح لذلك كثيرًا وأخذ يعد نفسه للقاء روز فأحضر ورودًا كثيرة وغيّر مكان المكتبة ووضع لها صورة كبيرة وهي تعزف الفيولا, ثُم وقف أمام اللوحة يتأملها كثيرًا: "أخيرًا سوف تتحرر روز من إطار تلك الصورة وتخرج لنعيش معًا قصة حبنا".. عاد و أكمل ترتيباته ولم يخرج من البيت حتى موعد وصولها، أقبلت روز لكنها ليست على ما يُرام، كان لقاؤها به باردًا جدًّا حتى كاد إقليدس أن يكره قدومها وحين استجمع قوة الحديث سألها بقلق بادٍ على وجهه الر ائق كصفحة النهر العذب: ما بكِ؟ ماذا حدث في غيابك؟ قالت وهي تنظر للأرض في ضيق:

- حبيبي أعتذر، لقد تعرضت لمناقشات حادة مع أُمي تعرّضت فيها أُمي للمزيد من الألم. ثُم قطعت شهيقها القوي حديثها وعادت تقول بعد هدوء أنفاسها وقد وقفت تنظر لصورتها كالتي تُريد أن تصدم وجعها بوجه الحائط: ثُم إنني اكتشفت وجود جنين بأحشائي و أنا لست على استعداد لذلك أبدًا.

أحدث ذلك الخبر سرورًا على وجهه فقام وعانقها دون أن تُبادله العناق.

- حبيبتي سوف يكون لدينا طفل، هذا شيء رائع!.. تخلصت من عناقه وهي تهز رأسها بالرفض وقالت بنبرة استياء: لا أستطيع أن أحتفظ به.

أمسك بيديها وأجلسها على المقعد كالأميرات وقال برقة وهو يمسح بظهر كفه على وجهها : لا بأس حبيبتي، لا تقلقي، هذا لن يكون سببًا في خلافنا فإن شئتِ احتفظي به وإلا فلا، لكن الطفل أَبَى إلا أن يحضر للدنيا كي يعيش الحياة مع غيرهم. ثُم قال كالذي يواسيها: المهم أنتِ معي. قَبّل يدها فهدأ روعها بعض الشيء ثُم اقتربت منه قالت وكأنها اكتشفت للتو لقاءها به ولم تنتبه لذلك إلا الآن: لقد اشتقت إليك كثيرًا.

تِيـــــــــــــــه

ربط صالح الشال الأبيض حول عنقه فرحًا كأنه سوف يحمل إلى ماري العناق عبر خيوطه القُطنية, ثُم زاد من حجم الفرحة حين باغته اتصال ماري تُخبره أنها تنتظره في منزلها كي يلتقي بوالدها ويتفقا سويًّا على عقد قرانهما, أخرج من حقيبته القلادة التي تحتفظ بر ائحة أُمه وحقيقته ليهديها لها فإن ماري هي أفضل من يهديها عمره القابع في تلك القلادة, أما الصورة التي رسمها لها قرر ألا يُريها لماري إلا ليلة عرسهما, ثُم ذهب لشارع النهر وسط بغداد حيث محلات الصاغة، يفيض قلبه من الفرح كي يشتري لها خاتمًا يُلاقي إعجابها ويربطهما.   كُل الخو اتم جميلة وكُلها تليق بماري, وكأن كُل تلك المصوغات والخو اتم قد صُنعت من أجلها، أخذ يتنقل محتارًا ماذا سيختار وماذا سيأخذ, وقع اختياره على خاتم رقيق أُنثوي بفصّ أخضر يُشبه روح ماري النقية، أخذه واختار له عُلبة خضراء وذهب يحمل فيض الفرحة بقلبه دون الخوف من غرقه بها. فتحت له الباب وكانت ترتدي فُستانًا ورديًّا بدت كحجر الكوارتز الكريم، مشدودًا على خصرها يبرز معالمها الأنثوية بدقة, إنها أُنثى من كريستال، كاد يصعقه ذلك لم يتحمل بريقها الآخاذ فوقف شارد العقل لا يدري هل هي حلم أم حقيقة؟

وقفا يتبادلان نظرات الحب والإعجاب فصالح أيضًا كان يحوزعلى إعجابها، فمنذ اللحظة الأولى التي جمعتهما رأت فيه رجلًا مُختلفًا يقطر نقاء وحبًّا لا مثيل لهُ وهو حين صرح لها بالحب لم يكن منها إلا أن تُصدقه ولا تشك في ذلك النقاء أبدًا بل وبادلته ذلك الحب بسرعة غير اعتيادية. دخلا مُتشابكي الأيدي حيث يجلس أبوها وقبيل الولوج إليه سحبت يدها برقة وخجل من أن يرى الأب ذلك, جلس صالح وذهبت ماري كي تُحضر لهم شراب التوت بينما عبد الواحد كان يقفز فوق الأر ائك فرحًا بشيء لا يعيه, بمناسبة يشعر بها لكنه لا يعلمها.

أحضرت عصير التوت, قدمت لأبيها ثُم لصالح وجلست على استحياء تنظر له خِلسة ولأبيها، شعر أبوها برغبتها في سماع ما بداخله: ابنتي يُريد صالح أن يتزوجك ويعقد قر انه عليكِ يوم غد فلم يتبقّ سوى بضعة أيام ونُسافر إلى السويد فماذا قُلتِ؟

احمرّ وجهها ولمعت عيناها وقالت وهي ترفع شعرها الذي تساقط مع طأطأة رأسها خجلًا: مواف.. قة يا أبي.

أخرج صالح من جيبه العلبة الخضراء، فتحها ثُم أخرج منها الخاتم، وقام ووضعه في إصبعها، أفقدته الفرحة التركيز فقد اشتراه واسعًا جدًّا على أصابعها الرقيقة, فكان يتزحزح وهي تبتسم دون أن تُحرجه، قالت سوف أرتديه في إبهامي. تناولوا الغداء جميعًا الذي أعدت لهم والمكون من تبسي دجاج مع كبة الأرز وأطباق سلطة.

أخبرت والدها بأنها سوف تخرج مع صالح بعد العصر تتسوق كي تُجهز ليوم غد الذي لن يأتي، ودّعته إلى الباب على أن يلتقيا بعد ساعتين، عانقها بفرحة ثُم تذكر القلادة التي ورثها من أمه التي لا يعرفها, وضعها حول رقبتها: "هذه القلادة لكِ، إنها إرثي الوجودي"، عانقها كي يشم رائحة الطفل الوليد بعنقها, وذهب وهو يحتفظ في أنفه برائحتها تلك التي تُساوي عنده الحياة. وصل غرفته بالفُندق, أخرج من خزانته قميصًا نظيفًا وبنطالًا وعلقهما, ثُم أخرج الشال الذي كُلما أراد أن يعطيه لها أنساه الانشغال ذلك, ثُم أخذ يعد ما لديه من مال كي يشتري لماري كُل ما تُريد، لم يكن لديه الكثير ولكنه غير قلق, فهو يعلم أنها لن تطلب الكثير, وبعد بضع أفكار وترتيبات وأمور مرت ساعة ونصف, خرج بعد أن تهيأ ليلتقي بها بعد النصف ساعة الأُخرى التي تسقط كمسافة بين الفندق وبيت ماري، خرجت ماري بفرحة الأطفال يوم العيد حين دق هاتفها فعلمت دون أن تخرجه أن المُتصل صالح, التقيا مُجددًا، شبّكا ذراعيهما ينظران لبعضهما البعض في حب, كان السوق قريبًا من بيتها لذلك لم يكونا في حاجة لوسيلة مواصلات تقلهما, بالطريق أخرج الشال القطني الأبيض ذا الخطوط الحمراء الدقيقة، لفّه حول عنقها. حبيبي إنه جميل ورائع.. قالت وهي تضعه على أنفها، فقد شعرت بأنه يحمل عرقه ثُم قالت:

- أتمنى أن لا نفترق أبدًا ولو ليوم، أخاف أن تطيل إجراءات سفرك إلى السويد.

- لا تخافي حبيبتي, بعد اليوم لا تخافي أبدًا, لن أسمح لكِ بذلك ولن أسمح للخوف أن يقربك، غدًا سنتزوج ونكون معًا ولن نفترق والباقي اتركيه يُدبره القدر.

- قالت: أتعلم أنا آفتي الخوف و أنت آفتك الحزن, حين تحزن تجدب وتتشقق رُوحك ويجف قلمك و أنا أيضًا لن أسمح لك أن تحزن. خاصرته بقوة وقالت: أتعرف شيئًا، أرى فيك شاعرًا متوهج العاطفة كمولانا جلال الدين الرومي.

- قال وهو ينظر لعينيها بعشق: نعم سأكون يومًا كذلك فكل عاشق شاعر بالفطرةِ، طبيعيًّا أن يصنع مني حبكِ شاعرًا. شغلهما حديث الحب عن نظرات المارة

حولهما, فالشوارع العربية لا يسير بها عاشقان مُتخاصرين إلا وكان عاقبتهما التفل أو السخرية من المارة.

- اقتربا من سوق الخضار. قالت: حبيبي سوف أشتري بعض الطلبات للبيت من هنا.

- قال: و أنا سأذهب للبقالة أشتري كارت شحن لهاتفي. ثُم ذهب غير بعيد, وفجأة رأى غلامًا يمر كالبرق على الحافة الأُخرى من الشارع، يُشبه "عُمر"، ذلك الولد الذي رآه عند أولئك صُحبة سعيد.. لا, لا بد أنني أتخيل, نعم أتخيل، ما لذي سيجيء به هُنا؟! ثُم يبدو ذلك الغلام مُنتفخ البطن بينما عُمر نحيل جدًّا، هذا هراء.. وقف ينظر للولد الذي اندفع كحجر المنجنيق ثُم نظر لماري التي ابتعد عنها مسافة. كانت مُبتسمة كعروس البحر, وفي ثوانٍ خُيّل إليه أنها ترتدي ثوب العرس الأبيض ثُم تتحول ليمامة بيضاء تُحلق في السماء ترتفع بجناحيها إلى أعلى حتى اختفت، في تلك اللحظة اقترب الولد من ماري ومن مُنتصف السوق، سقط الهاتف النقال من يد صالح دون أن يشعر به، إنه يشعر بشيء آخر يسحبه إلى الفُراق, حدق بها كما لو كان يحدق بمَلَك الموت، ابتسامتها ما زالت مرسومة ولم تنظر للبائع الذي يتحدث إليها, تعلقت عينيها بصالح الذي ثبت هو أيضًا عينيه عليها، تقدم خطوة ثقيلة وكأن قدميه تحملان أطنانًا من الحديد, أدرك أنه ابتعد عن ماري مسافة موت. خلع الغلام قميصه سريعًا قاطعًا حبل خيال وظنون ويقين صالح، دوى صوت انفجار بالسوق كالنفخ بالبوق. اختفت ماري مع ابتسامتها خلف ستائر الدُخان السوداء وألسنة النار البُرتقالية المُتوهجة.. ليتني مِتُّ قبل هذا وكُنت نسيًا منسيًّا، أخذ صالح يجري ويتعرقل يسقط ويقف كالمجنون، يبحث في غياهب الدُخان عن خيط نور، اسودّ وجهه من الانفجار وهو كظيم، صُبغ وجهه باللون الأسود وهو يجري بين أمواج الدخان المُتلاطمة هُنا وهُناك يبحث عنها، فهذا بائع الطماطم قد اختلطت دماؤه مع عصير الطماطم التي تفعصت حين سقط عليها ميتًا، وهذه امرأة عجوز كانت تبتاع النعنع قد خرج خيط الدم الأحمر الدافئ من أنفها وهي جالسة على الرصيف تستند إلى الجدار، عينيها نصف مفتوحة مُستسلمة للموت بكل ما أوتيت من حياة، وهذا طفل قد تفحم نصف جسده بينما النصف الآخر ما زالت تشتعل فيه النيران، وهذا سائق شاحنة صغيرة تفحم بهيكل سيارته وما زال ينتظر عبثًا أن تفرغ باقي حمولة الخضار من سيارته السوداء كُليةً، وهُناك سقط رجل بعد أن رفعه

الانفجار مسافة أربعة أمتار في الهوء ليعود ويسقط مُنفجر الجمجمة، وجميعهم يغمغمون بنبرات صوت الموت ذاتها, وهُنا خمسة نفر يحترقون وأصوات عويلهم تلتهمها النيران.

بين هؤلاء وهؤلاء لماذا أنا أقف مُتفرجًا لم يمسني سوءًا؟ لماذا ماري تشظى جسدها ولم يبقَ منها ذكرى بينما أنا حي؟.. أخذ يصرخ بصوت وامق بكل عزمه وألمه ومرارة الفقد: ماااري مااااااري!.. يتلفت يمينًا ويسارًا بلا جدوى، يسقط على الأرض مُترنحًا يجثوا ويحبو ويسعل بكل قسوة حرائق الفُراق، لم ينتبه لتورم يديه التي لامست كُل مُشتعل ظنًّا منه أن ماري خلفه، اقترب من السيارة التي كانت بجوارها، التصقت جبهته بحديد السيارة المتوهج، جعلته الصدمة يظن أنها رُبما بالداخل، رفع جبهته التي خط فيها الزجاج المُحترق علامة التيه.

لحظة قد أحرقت كيانه ولم يتبقَ في ذاكرته سوى ابتسامتها، لم تدع له اللغة بعد تواريها خلف قضبان الحنجرة سوى حروف اسمها ولا لوجهه سوى صِبغة المحرقة السوداء على جبينه.

هدأت النيران وعادت لأوكارها الفئران وخفت لون الدُخان وهو ما زال يجثوا على ركبتيه يلهث في البقعة ذاتها يبحث عن ماري, أعياه البحث، كان يستنشق الدُخان ويُخرجه من صدره أكثر حُرقة، أعياه الصراخ حتى كادت حباله الصوتية أن تتمزق, بُحّ صوته وتقلص حتى تساوى بزمجرة القطط، أخذ يجثوا وبجوار أحد الجدران وضع ظهره مُستندًا، كان رأسه يهتز للأسفل كالذي يحتضر لا يظهر منه سوى بياض أسنانه التي تقطر مرارة بعد أن غطاه سواد الحرائق.

دُخان الأجساد البشرية المُشتعلة ليس سهلًا حين يترك على الأحياءِ بصمته!

وهو يلفظ أنفاسه المقتولة وجد قطعة من الشال الأبيض الذي أهداه لماري, أخذ يحبو على ركبتيه ويديه، أمسك بها كأنهُ غريق وجد طوق النجاة, كان يتصاعد منها الدُخان، نظر فوجد فيه قطعة من لحم ماري قد التصقت بالشال وكأنها لا تُريد فُراقه, ضمها لصدره ولسان حاله يشكر أن وجد من حبيبته قطعة وأن حبيبته لم تقبل بفراق شاله، قبّلها وضمها بين كفيه ثُم ضمها في صدره الذي ينقبض وينبسط سريعًا، أخمد القادمون بقايا الحريق بينما ظل الدخان يأبى أن ينتهي، هدأت الضجة وتقبل الباقون رحيل الراحلين، وبقى صالح في مكانه ليس سوى ابتسامة ماري في الذاكرة وحروف

اسمها في اللغة.. غفى فرأى المشهد ذاته؛ ماري تبتسم وبعد ثوانٍ ابتلعها صوت التفجير وحجبتها ألسنة النيران واختطفها الدخان الأسود الكثيف، فاق وتلفت: من أنا؟ ما اسمي؟ غاب عن اسمه وكأن ذاكرته أصبحت هُلامية فارغة من كل شيء، حتى قطعة القماش تلك التي بيده والمُلتصقة بقطعة لحم ما هي؟ من هؤلاء؟ هل أنا ميت؟ أين أنا؟ من أنا؟ أي عالم هذا وأي أرض تلك؟!

شعر بوخز في قلبه يشبه قرصات النحل، تذكر اسمه والحال الذي كان عليه قبل قليل وداهمه شعور غريب؛ خليط من الجوع والغثيان ورغبة شرهة للطعام ورغبة أقوى في تقيؤ كل ما في جوفه، كان الإحساس الأخير الأرجح, بعد أن تقيأ بقوة حتى كاد مريئه أن يخرج من حلقه، وقف مُترنحًا كالعجوز المُصاب بهشاشة العظام؛ كأس الهم الذي تجرعه كُلما فرغ منه يمتلئ دهاقًا ليعود ويتجرعه مرة أُخرى، أخذ يسير ببطء في الشوراع يتلفت عن شيء لا يعلم ما هو، وجد جر ابًا مصنوعًا من خرقة قديمة رفعه من الأرض ربطه بشريط، وضع فيه قطعة الشال المُغمسة بلحم ماري و أكمل سيره، ساد الظلام والظلم بالليل العتيّ الذي فرد جناحيه السوداوين على الطُرقات، ظلّ يتنقل من زُقاق لزُقاق ومن طريق لطريق، يُردد بصوت خافت: "مااا اري" وكأنها سوف تخرج له من ظلام الليل بردائها الأبيض الملائكي، قد وهنت قواه وفرغت معدته وأمعائه لكنه لا يشعر بالجوع أو الشبع، لا شيء سوى طعم المعدن في فمه ور ائحة لحم الآدميين المشوي في أنفه ور ائحة الريش المحروق في صدره.

مر يوم ويومان وأسبوع وأسبوعان، يمر على الجالسين والو اقفين والمارين فيراهم كُلهم ماري، التف حوله رهط من الصبية الصغار يدورون حوله ويرجمونه بالحجارة وهم يصرخون بعبط الطفولة: مجنون مجنون، وهو يدور بينهم ويقول بصوت مقصوف: مااا اري مار ااري.. حتى سحبه من بينهم رجل عجوز ر افعًا عصاه مُهددًا الصبية بالضرب، أخرج من جيبه ورقة نقدية، تأملها صالح ببطء وهو يقول: ماري, ثُم هزّ رأسه بالرفض، ألقاها على الأرض ر افضًا كل ما يقبله العقلاء، ربت الرجل على كتفه و انحنى يأخذ قطعة النقود ليشتري له بها قطعة خبز من البائع الجوال، لم يلتفت له أحد ولم يتعجب من أمره نفر كثيرون، فهذا أمر قد جعلته الحروب مع تكرار مشاهد الموت ذاتها آلاف المرات أمرًا اعتياديًا.

تغيرت ملامح صالح فقد نحل بشكل ملحوظ، تشعث شعره وطالت لحيته وما زال يحمل سواد الحريق بثيابه التي تقطعت أزرارها وترهلت, فلم يعد بنطاله يتماسك على خصره، يظل يسحبه بيده وهو يسير، وقميصه لم يعد يخبئ أكثر مما يكشف لكن لم يكن هذا يلفت انتباهه أو يُصيبه بالخجل فقد منحه موت ماري وتشظي جسدها ممحاة لوجوده وتقبل ما يرفضه الآخرون

ها هو يسير بالطُرقات يتحرش بالموت، بينما الموت كان يستلقي على الأرض مُنفجرًا من الضحك يُشير إلى صالح بسبابته في سُخرية، فتلك الأسواق التي تفتح بابها للباعة كي يرتزقون بعض القروش يحملوها إلى عو ائلهم فرحين بها, أو يتم حملهم هُم على أذرع الناس موتى إلى عو ائلهم، لكن صالح لا تُمنح له التفجيرات فرصة للموت فهو يأتِي بعد أن ينتهي الانفجار أو يذهب بعد أن ييأس من انتظار الموت وبعد ذهابه يأتي الموت لمن لا ينتظرونه.

مرّعام وهو ما زال هائمًا على وجهه بالطُّرقات، يحمل في جر ابه قطعة الشال التي تآكلت خيوطها بعد أن تجمعت الديدان على قطعة اللحم المُتجيفة، بينما هو لا يعترف قلبه المُنفطر بتآكلها، ما زال يُخرجها يستنشق ريحها ويعود ليضعها في جر ابه ويمر، أردَاه الفُراق هيكلًا يلتصق الجلد بالعظم مُخيفًا, إذا رأيته حسبته ميتًا يسير بين الأحياء قد نخر جسده المرض العُضال، ما زال يُردد بين الصحو والمحو: مااارى مااارى...

هذا يسخر منه، وهذا يضرب كفًّا على كفّ شفقة على شاب مجذوب، وهذا يطرده حين يجده نائمًا أمام بيته وهذا يؤنبه حين يراه نائمًا أمام دكانه، وحين يستبد به الوهن يأخذ عصاه يتوكأ عليها يحمل جر ابه ويمضي يتسكع بخياله في طُرقات الفُراق يتسول لقاء لن يأتِي.

فقـــــــــــــــد

هكذا إذًا رحل الجميع وما زلت في محطة السفر حيث الكُل راحل لا يوجد قادمون، أودع الجميع من أعرف ومن لا أعرف، أقوم من مكاني أُلوح بمنديلي الممتلئ ببقع دمي والكل يسخر مني لا أحد يعلم أني أودع معهم عمرًا لم يكتمل به نصاب الحب, مُصاب أنا بجروح لا تندمل، آمالي مُعلقة فوق حائط العمر المتهاوي، أتسكع بالطرقات مُتحرشًا بموت لم يأتِ بعد، قد أقسم أن لا يأتي إلا بغتة كما يأتي الحب بغتة، إنه يأتي بالوقت الذي لا يُطلب فيه أبدًا كما الحب لا يأتي عند البحث عنهُ، بل حين تكون رافضًا له، كلاهما لا يأتيان طوعًا ولا كرهًا.. واقعي كشوارع تلك المدينة المقصوفة تئن تحت أقدام المارة كثيرة الرماد، كثيرة السعي بلا جدوى، الرصاص لُغتها الوحيدة والرسمية، مساجد وكنائس تكاد تطرد الحضور، أضحى كل شيء بي صامت، كُل من حولي مصنوعين من ورق يشتعلون من أبسط الشرر، مُوسم الحرائق هُنا لا ينتهي، بريء منه عود الثقاب كبراءة الذئب من دم ابن يعقوب, بالنهار كل ما حولي مُضيئًا وأنا الوحيد المُنطفئ، في الليل كل ما حولي هادئ وأنا الوحيد المُزدحم، يقبل الليل غير مُبدد مخاض النهار لروح فشلت أن تجهض الحنين المُكتمل النمو وزاغ الليل كما النهار آفلًا وإنني لا أُحب الآفلين، فلا الحنين طفلًا يصرخ تحت صمتي أملًا ولا هو يقين، إن الحنين هو عقابي السرمدي فأنا لا أعلم كم من الليل سأقضي فيه وطرًا من حُزني كي أُحيط علمًا بظلام رُوحي وتفاصيل لوعتي ومسافة غُربتي؟ موبوء بالوجع في كُل أنحائي، لا أعلم متى سأنتهي من ارتكاب جُرم الحنين لمن لن يعودوا أبدًا ولا يُشاركوني ما صنعوه، إنّ الحنين يُحملني ما لا طاقة لي به ولا مقدرة, لمَ لا يجيء الموت؟

ها لقد جئت مجددًا.. قالت طفلة صغيرة تجلس بجوار صالح, قد برقت روحه حين أضاءت تلك الصغيرة بابتسامتها وجهه، عمرها خمس سنوات من أعوام الطفولة لكنها آلاف السنوات من عمر الحقيقة، قد وهبها الفقر عمرًا لا يساوي عمرها؛ كانت بالقرب منه تبيع الحلوى لم يلحظ وجودها فهو لا يرى أحدًا، اقتربت منه واضعة إصبعيها السبابة والوُسطى في فمها مثلما يفعل الأطفال حين يُريدون التعبيرعن الخجل وقالت: لقد رأيتُك هُنا سابقًا, عمو هل أنت مجنون حقًّا؟

كانت عيناها تبرقان ولا خوف يقربهما، لم يعرف بما يجيب، إن قال لا كذب وإن قُال نعم رُبما تخاف منه ويخفت نور وجهها المضيء، قُال بصوت رجل كاد أن ينسى الكلام: لا أعلم يا ابنتي. أخرجت إصبعها من فمها، لتضع يدها في جيبها، أخرجت له ورقة نقدية وقالت: عمو، هذه ثمن الحلوى التي أبيعها. لقد أعطته كُل ما تملك، هز رأسه مُستعطفًا دمعه كي ينزل ويُريحه لكن الدمع قسى وجحد كفرًا بنعمة الرحمة، قالت بصوت الطفولة: هل لديك عمل تقوم به؟.. لم يكن لديه ما يقوله، من بين كل أُولئك المارة الذين لا يراهم تأتي الطفلة هذه لتشعره بالحياة تدب في داخله مُجددًا، ماذا يقول؟ أجاب كالذي فقد السيطرة على الأحرف: عاشق..

ضحكت كما كان يضحك الصباح بوجه ماري، وقالت: وكم تتقاضى مُقابل عملك كعاشق؟

الحُزن..

أجاب كما لو كانت الأحرف تتساقط من فمه كاللعاب بلا إرادة منه. ما هو الحزن؟.. سألت الفتاة كما لو كانت تُريد أن تسأله كم هي قيمة الحزن وكم سيبقى من آونة.

لا أعرف ولكن الحزن أجر الحب.. أجابها بعد أن نكس رأسه فترة حداد جديدة بفعل هزيمة الألم الطاعن في العمر أمام فرحتها الطفولية التي تبرق كالماس فوق رقاب الفقر، رفع رأسه كي يقول لا أُريد المال يا طفلتي إنه لكِ، لكنها ذهبت لتجلس بالقرب من الحلوى التي تبيع، كم من ماري في هذه البلدة! وكم من ماري أُخرى ستسقط ككبش الفداء تُنقي بدمائها الزكية نجس الفكر، إن الوطن العربي كُله ماري وكُله عُمر وكُله سعيد وكُله ناصر... آه يا ألمي!

~~~~~

بجوار أحد المزارات الدينية عليه علامات انفجار حديثة العهد، جلس خارج السور ثُم غفى بجوار الحائط مُمسكًا بيده قطعة خبز ألقاها في حجره أحد المارة عطفًا عليه، ثُم رأى بالمنام الشيخ الذي يراه بأوقات الحزن تلك وأوقات الصفاء لكن هذه المرة لم يره من بعيد فقد جلس صالح بين يديه كالطفل.

- هل أنت جائع؟.. قال الشيخ بصوت شجي.
~~~~~

- لا لست بجائع ولا أشعر كالأحياء بالجوع، لكنني أحمل قطعة الخبز تلك تحسبًا لجوع قد يلمّ بي.. قال صالح ولم يكن على هيئته تلك التي نام عليها، كان يرتدي ثوبًا نقيًّا أبيض كسحاب الربيع يتلذذ برائحة عطر الشيخ التي لا تحملها أقوى الماركات الفرنسية، قال له الشيخ وهو يخفض رأسه له كالذي يخفض له جناح الحب:

- إذًا اترك قطعة الخبز تلك للجوعى.. أخذ الشيخ قطعة الخبز ألقاها لكلب يلهث فاختطفها وجرى يهز ذيله نصرًا، ثُم قال بصوتٍ كالحفيف: اشرب هذا الماء أفضل. أحضر إناء لم يكن بجواره حين جلس، صبّ من كم ثوبه ماء وسقى صالح وهو يبتسم كالآلهة، بعد أن شرب الماء الذي لم يرتوي قبله قط نظر للشيخ في تعجب، كان وجهه كالبدر! قاله له الشيخ نحن ننتظرك تعال، فقال صالح بتعجب: من أنتم؟ وما اسمك سيدي؟ قال وهو ينحني للأسفل خجلًا كقديس يؤدي صلاته الخفيه سرًّا: اسمي بدر. فاق صالح من نومه عقب سماعه الاسم، شعر أنه مُرتوي بماء ليس كمثله ماء ويشعر بالشبع حد انتفاخ البطن، أحدث ذلك في قلبه وقعًا يُشبه لحن موسيقى غامض وقد عاد له بعض صوابه فعرف بعض الماضي وأعرض عن بعض، ولكنه لم ينسَ ماري، شعر بوخز طفيف ولطيف في قلبه يُشبه الوخز الذي يحدث عند بداية قصص الحب، الشعور الأول الذي يغمر القلب فيفهم منه العاشق أنه قد وقع في الحُب، أخذت حواسه تتقلب بين حب وخوف وحزن وفرح ووحشة وطمأنينة وجزع ورضا ويأس وصبر ثُم تلاشى ذلك كُله حين تذكر التفجير الذي أودى بحياة ماري.

لماذا قتلوا ماري؟ هل يُعقل أن يتشظى ذلك الجسد الملائكي العذب؟ تُرى لو كانوا رأوا ابتسامتها هل كانوا ليقتلونها؟ هل يليق بماري أن تموت هكذا؟ دون أن أضع جسدها بتابوت يحفظ سلالة جسدها النقية من التآكل؟ ودون حتى أن يكون لها قبر أضع أمامه الورود، كي تفيق ليلًا بعد منتصف ليل اللقاء بموعد الحب لتراهم وتشكرني ونتسامر سويًّا دون أن يرانا أحد؟ لو علموا كم هي شفافة نقية كالأحجار الكريمة، هادئة كالزهور، هل كانوا سيقتلونها؟! وكيف يقتلها عُمر هل تقتل الورود بعضها؟

آه يا ماري وجع الليالي
يا أُمي و ابنتي يا حفيدتي وجدتي يا كل عائلتي
قتلوا الطفولة في مهدها وأهدوني شالها

كانت ميتةً فلماذا اعدتوا قتلها
قتلوا شروق الشمس في عينها والليل من دونها سرمدا
تعلقت بسمتها في الشفق, و أبت الشمس بعدها أن تُشرق
هي هُناك بالسماء تُغني مع العصافير بعد انتهاء الغسق
كانت ماري وطنًا ليس فصلًا في رو اية
كانت محبة في زمن النكاية
كانت ماري قضية ماتت في غزو الطائفية
ما تشظى جسدها بل تشظت الإنسانية
ماري يا وطني المُستضعف والمرهون بيد انتحاري،
ماري يا خيبة انتظاري يا شادية في سرب طيور الكناري
....

- السلام عليكم والمحبة.. قال رجل وقف أمام صالح الذي كان شاردًا في خاطرته.

- وعليكم السلام، لكن لا السلام ولا المحبة تعلوان أحدًا بتلك المنطقة.. قال صالح وهو يقف على عصاه مُحاولًا القيام فساعده الرجل الذي رمى السلام وهو يقول كالذي لا يُريد جداله: نعم صدقت يا أخي، تفضل لتأكل معنا، هذا ضريح مولانا الجيلاني، وهُنا نُشارك الجميع الطعام وذكر الله.

- لا لا لست بجائع.. قال وهُو ينظر للطريق خائفًا يود الذهاب سريعًا وكأن ذلك الشخص سوف يقبض عليه بتهمة غير معلومة.

- قال الرجل وهو ما زال يُمسك بذراعه يحثّه على السير معه: وإن قُلت لك أن "الشيخ بدر" قد أخبرنا بأننا سوف نجد شابًّا أشعثه الحزن، أغبره الفراق بجوار الضريح، وحين نجده لا بد أن نصطحبه معنا لمكان الذكر ولا نتركه حتى يبلُغ مأمنه, بل وأغلظ علينا في الوصاية حتى دبت فينا الغيرة من اهتمامه بأمرك.

خلع صالح ذراعه من قبضة الرجل وعيناه تحدقان في ريبة وتعجب واستفهام، وغمغم: "بددرر"!.. وقف الرجل أمام صالح وأمسك بكلتا يديه ذراعي صالح كالذي يُريد عناقه، ثُم قال وهو يهز رأسه يحثه بالقبول: أَقْبِل ولا تخف، ستُعاد للحياة سيرتها الأولى.

صمت صالح ولم يبدِ ردة فعل، سار مع الرجل كالطفل الذي لا إرادة له يتنقل بخطوات ثقيلة لم يعِ كم المسافة التي سارها؟ وقف أمام رهط من الناس جالسين، تحمل وجوههم الطمأنينة يبتسمون عن محبة يحملون مسابح كبيرة في أيديهم تتساقط حباتها للأسفل بفعل التسبيح.

قال الرجل لأحدهم: هذا أخوكم قد وصانا به الشيخ بدر, خُذه يستحم وأعطوه ثيابًا نظيفة وحلقوا له لحيته وحفوا شاربه وقصوا شعره.

لم يبدِ صالح أي ردة فعل، لكنه تمسك بجر ابه الذي تحلل فيه الشال، ولم يعد سوى خرقة بالية، ذهب مع الرجل الآخر الذي طلب منه أن يخلع ثيابه، أخذ يصب الماء فوق رأسه ويغسل شعره الذي يسقط عليه الماء نظيفًا وينزل منه أسود كالزيت الأسود من فرط اتساخه، وصالح غارق بالأفكار.. كيف عرف بوجودي ذلك الشيخ وأخبرهم عني؟! وكيف رأيته بالمنام و أنا جائع مريض مجنون فيسقيني ماء من نبع في جلبابه فتعود لي الحياة ويذهب عني الحزن والجنون والجوع؟! لا لا هذه مُجرد أوهام رجمًا بالغيب، منذ ماتت ماري وفقدت القدرة على التفكير والتصرف كرجل عاقل، وهذا كله مجرد هذيان وحين يتركوني وأعود أتجول بالطرقات أبحث عن الموت سوف أنسى ذلك كُله وسوف ينسى هؤلاء أمري وسوف أموت قريبًا بفعل قذيفة أو بالمرض.

انتهى الرجل من تحميمه وحلق له شعره كي يُخلصه من القاذورات، وحلق لحيته فأصبح شخصًا آخر مُختلف كُليًّا عن ذلك الذي كان عليه قبل قليل، خرج فحياه الرجل الذي جاء به وأشار إليه بالجلوس للطعام فجلس وتناول الطعام؛ فاصوليا مطبوخة بالصلصة وأرز ومرق ولحم، كان طعمه رائعًا لا يدري لأن ذلك بسبب عدم تناول طعام كهذا منذ عام أو لأنه بين هؤلاء الذين ذكروه بدراويش الهند؟ على كل حال هو قد استأنس بذلك، كان يتناول طعامه وهو ينظر لوجوههم، لم يجد منهم ريبة حيث كانت كُل الوجوه تُشعره بالوحشة منذ موت ماري المُفاجئ والغريب, ولم يعد لديه ثقة في البشر كافة لا في قربهم ولا حديثهم ولا بالنظر لوجوههم.

بعد الطعام زحف صالح للخلف بمؤخرته كي ينزوي بجوار الحائط القريب خجلًا من الحضور وهروبًا إلى الخيال، تأمل النقطة السوداء في مُخيلته التي تكبر فتصبح حجم الحزن أضعافًا، ثنى ركبتيه ووضع الجراب في حجره، لم يفكر كما كان، يظن أن

التفكير سيُرهقه، بل نام قريرًا لأول مرة يشعر أنه خفيف كالريشة يتطاير في الهواء، منذ عام لم يغتسل ولم يحلق لحيته وشعره ويتناول طعامًا نظيفًا ويشعر بإنسانيته مُجددًا.

نظف الحضور مكان تناول الطعام، وكنسوا فتات الأكل، واجتمعوا يؤدون الذكر، لم ينتبه صالح لهذا كُله فقد استسلم للنوم ومع هذا فقد كان يصحو بين الحين والآخر يُردد معهم الذكر "لا إله إلا الله"، ثُم يعود لينام، يشعر بقلبه يرفرف وقدماه خفيفتان وجسده كالطائرة الورقية، رأى بالمنام ماري تبتسم له تلك الابتسامة ذاتها قبيل أن يبتلعها الانفجار، لكنه لم يشعر بحزن أو ريبة ولم يشم رائحة الموت، بل على العكس ابتسم هُو أيضًا ولم يعقب ذلك حدوث الانفجار كما حدث بالحقيقة بل أقبل عليها وأمسك يدها ثُم خلعت من رقبتها الشال الأبيض ذا الخطوط الحمراء وألبسته له، أفاق صالح من نومه المُطمئن حين سمع ضجة عالية وضرب دفوف فقام وأمسك بجر ابه ورفع ذقنه عاليًا فوق رؤوس الرجال الو اقفين يرددون: "الله الله الله"، ثُم دخل بين صفوفهم يتنقل للأمام بفضولية واسعة كي يرى ما هم مُصطفين ليَروه، تقدم وتقدم وهو يفرق بيده بين اثنين و اقفين مُتلاصقين بالجنب ليسبقهم ويتقدم هُو أمامهم، و اثنين آخرين وثلاثة يفرقهم ويرفع رأسه من فوق رؤوسهم ويتقدم يتقدم، وحين نظر أمامه كاد يسقط مغشيًّا عليه حين نظر فوجد الشيخ ينظر إليه من بينهم، كادت تلك النظرة أن تصرعه من حدتها وحنوها وجمالها وغر ابتها، هُو، هُو.

إنه الشيخ الذي يراه بالمنام كالأم الحنون يربت على قلبه في أوقات حزنه، ويمضي مثل الملاك الحارس بلا أثر لقدميه على الأرض، هُو! لا بد أني ميت وهذا كُله يحدث لي في العالم الآخر، لا ها أنا أسمع قلبي يدق مع صوت الدُّف وأشعر بألم في رأسي، وأشعر بالتعجب والإعجاب وأشم عطر الشيخ وهذا كُله شأن الأحياء.

انتهي الرجال من الذكر وجلسوا حول الشيخ في صمت وهدوء يستمعون له وصالح معهم يستمع ويزداد مع حديثه تحيُرًا.

"كأنه هُو".. أمنٌ وأمانٌ وأمين.

إنه يتحدث كما لو كان يقرأ ما بداخلي، إن هذا لشيء عجيب وكأن بينه وبين الجنة نسب!، أو أُلقي عليه العلم من بينهم أو رُفعت عنه الحجب، فهو ما يزال يذكّرني بالصبر وعلوّ قدره حتى ظننت أن الصبر هو الله.

إنهُ هو.. كيف من بين موت وموت ويأس ويأس تأتي الحياة تصطحب الأمل مُتلازمين يرتعان بي، أليس هذا بأمر عجيب؟!

أسميتهُ الصباح لأنه عمر جديد، أسميته الصباح لأنه ريح جديد، أسميته الصباح لأنه يوم جديد.

من بين كُل تلك الأضداد كيف أخبت قلبي للحب؟ وكيف استأنس قلبي فجأة بعد طول وحشة؟

أثناء تداول صالح لتلك الأفكار برأسه انتبه للشيخ يُشير نحوه فأخذ ينظر حوله يمينًا ويسارًا رُبما يقصد بإشارته أحدًا غيره، لكن عينيه قد حلته من حيرته حين أومأ له الشيخ برأسه أن المقصود هُو، اقترب يمشي الهوينى واضعًا جر ابه بين ذراعيه يحتضنه وحين وقف بين يديه كان يتأمله بحب كتأمله لماري.

مربوع القامة، شعره يبلغ شحمة أُذنه، رَجل لا جعد فيه ولا مُسترسلًا، وجهه أبيض مدور يشع بالحمرة كأنه الابن الوحيد للقمر، مربوع الأنف، عينيه زيتونة لا شرقية ولا غربية تلمعان بخليط من الحب والوقار، كفوف يديه ناعمة بيضاء لذة للشاربين، يبرق وجهه حين يبتسم كاللؤلؤ المكنون، رائحة عطره لا يصنعها بشر، إنها من صنع الحب الذي يُتقن كل شيء.

يُوسف الحب هُو.. لما رأين نسوة يوسف جماله الظاهر أكبرنه وقطعن أيديهن هذا لأنهن رأينه بعيون الوجه، ولو كُشف لهن ورأينه بعين قلوبهن لخررن له سُجدًا كما فعل إخوته حين عفا عنهم ورفع أبويه على العرش، كُشف لهم عن قلبه فرأوا الظاهر والباطن.

وها أنا بين الفتنتين الظاهر والباطن مُتحيرًا، رِفقًا يا يوسف العاشقين حواريوك غشيهم موج الحنين.

ما الذي بجر ابك يا صالح؟.. قال الشيخ بصوت رخيم قاطعًا خيط أفكار صالح.

ما...ري.. أجاب مُتلعثمًا كالطفل مأخوذًا لمكان وزمان غير ذلك الذي هو فيه, ضحك منْ حوله وحين نظر إليهم الشيخ بعيون الصقر صمت الجميع ولم يبدوا همسًا.

قرب الشيخ رأسه من صالح مُبتسمًا وقال بصوت أب حنون يتحدث إلى طفله ذي العامين:

- لا تدع في جر ابك إلا الله.. ثُم أخرج من جيبه قلادة: هل هذه لك؟.. اقترب صالح أكثر برأسه ليرى أنها قلادته التي ورثها من الماضي.

- نعم هي لي، ول.. كن.. قال صالح مُتلكئًا تتقاذفه الحيرة بين الحضور, أخذ القلادة وهو ينظر للشيخ فسحب أحدهم طرف ثوبه للأسفل كي يجلس ويصمت في حضرة الشيخ, لم يعتادوا أن يقف أحد ليتحدث أمامه هكذا نوع من الأدب في حضرة سفراء الحب كما تعودوا.

جلس صالح بعد أن أومأ له الشيخ بالجلوس، يرتعد برفق ويشعر ببرودة في أطر افه وبوخز الحب اللطيف في قلبه الذي كان عليه قبل قليل، ولسان حال قلبه المغموس بالشوق يقول:

عيني التي ر أتك توقفت فيها كُل المشاهد
وصارت الأحداث بمحطة واحدة من بين مُسافر وعائد
أصابها النوم على حين غرة فكان قطن كفيك الوسائد
والنفس ثور حين سلّ قرونهُ كان سيفك البتار صائد
كم صبر صبري على هجري؟ في نهم الحياة والمكائد
كُلما هممت برفع الأكف أطلب غوثكم الخوف كان الر ائد
تبقى بالقلب نبضة باكية من توالي الشدائد
لكن حين رفعت النقاب عن وجهك توحدت بي المقاصد
أسير بموكبكم كالمُرتزقة أسطر حبكم بالقصائد
روحُ وريحان بباكم جلّ عشق أنت فيه القائد.

انتهى الذكر والفكر وبقي صالح جالسًا يستند بظهره إلى الحائط، لم ينتبه لذهاب الحضور، شعشع الفجر شعر بنشاط قوي يدبّ في جسده الهزيل وبرحيق فرحة يغمره، قام وتوضأ فرحًا كأنه سيُصلي العيد، ثُم صلى خلف الإمام بمكانه صلاة لا تُشبه تلك التي كان يُصليها سابقًا، وبعد الانتهاء حمل الجراب فأحدث خشخشة، وضع يده به يتحسس ماذا يكون هذا، فوجد مبلغًا من المال، فرح لذلك ثُم سار بخطى مُفعمة بالثقة والرضا حتى وصل إلى شاطئ النهر حيث كان يجلس مع ماري، وقف وشهق كالذي يسترجع الحزن الدفين مدة عام وأغمض عينيه في أبابة ثُم أخرج من صدره هواء الزفير

مُشبعًا خليطًا من الحزن والرضا، سقطت دمعتان كبيرتان من عينيه وجلس القرفصاء وكأن الدمعتين قد فتحتا سدًّا كان يحجز الدموع طيلة عام, فظل يبكي ويتنهد، لم يبكِ صالح منذ ماتت ماري، لم يهبه فرط الحُزن نعمة الدموع.

حين صمتت الدموع عن الحزن المُباح، أمسك بجرابه ولفّه وربطه بالخيط الذي كان يُعلقه به على كتفه وحفر حفرة عميقة في الأرض دفن الجراب وكأنه يدفن ماري ثُم قرأ الفاتحة وبعض ما يحفظ من قرآن؛ أواخر سورة البقرة وسورة يس.

قبّل التراب ثُم ودعها وذهب يلتفت خلفه كُلما سار مسافة وكأنها خلفه تودعه وتُلوح لهُ، أوصلته قدماه حيث بيتها, وقف أمام بيتها في حداد، استجمع قواه وطرق الباب فلم يرد أحد وعاد ليطرق الثانية والثالثة والرابعة حتى أتعبه ذلك، رآه أحد الجيران واقفًا حيّاه ووقف أمامه قائلًا: من تُريد؟.. صَمت برهة كأنه لم يجد ما يقول ثُم قال: أهل هذا البيت.

قال الرجل باستفهام غليظ وبنبرة تقليل الصابئة: لقد هاجر الرجل وابنه الصغير إلى السويد.

إستند صالح إلى الحائط مكسورًا مُتهاويًا ثُم عاد واستجمع قواه.

إلى أين أذهب الآن؟ نعم إلى الفندق، تُرى ماذا حلّ بأغراضي؟ وهل الفُندق ما زال يحتفظ بها؟.. استقل سيارة تُوصله للفندق وحين وصل ووجد مكان ماري فارغًا مستوحشًا تخيلها ما زالت تقف في مكانها يتدلى شعرها على رقبتها الكرستالية، هز رأسه يُريد أن يتحرر من الخيال الموجع، وجد الموظف ينظر له مُستغربًا لم يعرفه، ابتسم له صالح واقترب منه يُسلم عليه فتذكره الولد وقال: أنت صالح؟.. انكسرت ابتسامة صالح وتبلدت، فهذا الرجل كان بالأمس يُوصيه بماري وها هو قد خان الوصية, هو يعيش يحمل أسفار الماضي بينما ماري تموت أمامه يتشظى جسدها عن قطع كالطيورعلى الشاطئ التي احترقت جراء انفجار أنبوب نفط.

- أهلًا أخي، لقد احتفظت لك بآلة التصوير وأوراقك وثيابك وجميع مُتعلقاتك وهي عند مُدير الفندق، تفضل معي من هُنا كي تستلمها.. كان يتحدث الشاب لصالح ناظرًا إليه في تعجب فقد تغيرت ملامحه بينما صالح ما يزال شاردًا، انتبه مُبتسمًا، حيّاه

برأسه، ذهب معه وأمام مُدير الفُندق الذي وجه له الكثير من الأسئلة كالمُتهم وقف يُجيب.

- أين كُنت طوال عام؟

- لا أعرف، كُنت أتجول بالطرقات وحسب.

- حقًّا؟ بالطرقات؟.. سأل الرجل بسخرية يبتسم بنصف فم, وأضاف وهو ينظر لصالح من الأعلى للأسفل: هل تعرضت للاختطاف من قبل إحدى الجماعات؟

- لا لم يحدث ذلك.. أجاب وهو يهز رأسه بالنفي مُستاء من ذلك الاستجواب العبيط، وحين يئس أن يجد المُدير ما يُريبه منه، سمح له باستلام حقيبته التي بها أغراضه من ثياب وصور وحاسوبه المكتبي وآلة التصوير, حملها، نظر لموظف الاستقبال نظرة امتنان وجلس يُقلب ما في الحقيبة، هذا جواز السفر وهذه كومة أوراق مطبوعة خاصة بالوكالة، وهذه.. آه إنها صورة ماري التي رسمها بالقلم الرصاص ورصاص ذكراها تُصوب بصدره مُتدافعة.. وقف مُتهاويًا بعد أن وضع الأوراق. الآن لا بد أن أجد لي مسكنًا آوي إليه، ولكن هذه النقود رُبما لن تكفي سوى ليلة أو ليلتين، يجب أن أبحث عن عمل الآن كي أوفّر لي الطعام والمسكن حتى أعود.. أعود؟ كيف أعود وقد وجدت من يبحث عني و أبحث عنه طوال عمري؟

اقترب من فندق بسيط ثُم تلكأ هُنيهة واستقر أمره للدخول، كان فندق قديمًا لم يُكلفه ما لا طاقة له به, دخل واستأجر غرفة ثم نام مرتاحًا بعض الشيء ثُم في الصباح ذهب يبحث عن عمل حتى يستطيع العودة إلى وطنه على حسابه الشخصي بعد أن قرر العودة لوطنه.

أحلام مؤرشفة

أسدل الليل الكئيب على مرثا ستائره السوداء وهي و اقفة بالشُّرفة تتأمل ظُلمة الليل وتنظر لخلية من البعوض تحدث طنينًا مُتجمعة كسلة الكرة الطائرة أمام مُصباح الإضاءة ثُم تعود لتنظر إلى النجوم البعيدة المُضيئة.

مر عام و أنا هُنا دفينة بين كومة المشاعر, أنام كالموتى الذين يسيرون بصناديقهم المُغلقة بين الأحياء، لا أنا زوجة ولا أنا عزباء، لم أشعر يومًا بسعادة ولم تُشعر السعادة بي يومًا, لم تهبني الحياة حتى بسمة طفل تحملني إلى مرفأ الفرح، قد باتت حُلمًا لا يجيء، لا شيء لديّ بات يُثير شهوة الحب أو شهية الحياة, ما هذه الجلبة التي يُحدثها بي الحزن؟ يا أبانا الذي في السماوات هبني الصبر.

دقّ جرس الباب، ذهبت لتنظر بالمرآة تتفقد زينتها, عدّلت شعرها، مسحت الكحل الز ائد من تحت عينيها ورتبت شعرها وثوبها ثُم ذهبت لتفتح الباب.

ما هذا التباطؤ في فتح الباب.. قال رامي بصوت أجشّ ثُم دخل الحمام مُستعجلًا، مما أثار فيها المزيد من الإحباط ، فهو لم ينظر حتى لوجهها، ولم يرَ ما ترتديه، وهي بالرغم من اعتيادها على ردود فعله غير الإيجابية والمُناهضة لما تُريد، لكنها ما زالت تستاء من ذلك ويؤرقها، ذهبت لتقدم له العشاء، تحمل في صدرها من الكلام الكثير، أعدت البطاطا المقلية مع الجبن والخضرة والسلطة والعسل، ثُم قالت بصوت هادئ: رامي، لقد انتهت أيام الصوم الخمس والخمسين أليس كذلك؟ متى ستجلب لنا لحمة؟.. تفتح بتلك الجملة باب الحوار المُغلق بينهما، جلس رامي للطعام وجلست أمامه

- نعم انتهت، لكن الزيادة في الخير فضيلة.. قال بنبرة رضا مُصطنعة وهو يضع أصابع البطاطا المقلية بفمه.

- لا بأس في المزيد من الأجر.. قالت بنبرة تُشبهه ثم أضافت بصوت مُتوتر وقدماها أسفل مائدة الطعام ترجفان ترددًا وريبة: رامي، أُريد أن أذهب لطبيب النساء.

- لماذا؟ هل تشكين من خطب ما؟.. سألها بحذق وتفرس بوجهها.

- لا، أُريد أن أعرف سبب تأخر الإنجاب.. قالت وكأنها استجمعت كل قواها بتلك الجُملة.

- ولماذا العجلة؟ ألم تقرأي وصايا المسيح بالصبر، كان وقع الأولى على مرثا مُهينًا فقالت بغلظة مُستفهمة: عجلة؟!.. كان الأمر بالنسبة لها ليس استعجالًا بينما بالنسبة لرامي استعجالًا.

- نعم تعجلت.. نحن ما زلنا فقراء وليس لدينا ما نُقدمه لطرف ثالث بيننا. ثُم أضاف وهُو يُشير إليها بالأكل: تعلمي الصبر يا حبيبتي. تناول لقيمات كبيرة وسريعة، ثُم أخذ قارورة ماء كانت أمامهما رفعها إلى فمه وشربها كُلها ثُم تجشأ بصوت عالٍ، وذهب إلى مكتبه يُراجع بعض الأوراق بينما مرثا تتميز من الغيظ، فهو لا يبدو أن لديه رغبة في الإنجاب، وهذا يُثير لديها إحساسًا باليأس ومدى صعوبة العمر القادم عليها التي حاولت عبثًا ألا تُفكر به لكنه يجرها إلى حيث لا تُريد دائمًا، قامت من مائدة الطعام مُتأسفة لحالها لكن لديها أمل في إقناعه، عادت لتتفقد زينتها التي لا يلحظها رامي أبدًا بالمرآة، وضعت عطرًا خفيفًا جميلًا برغم بساطة سعره، ذهبت إلى المطبخ صنعت له عصير الليمون وضعته على مكتبه مُبتسمة فرفعه إلى فمه و انتهى منه بشربة واحدة.

- رامي أرجوك أُريد الذهاب إلى طبيب النساء، رُبما كان لديّ مانع طفيف للحمل ويزول مع العلاج.. قالت متوددة وهي تفرك استعطافًا كتفي رامي من الخلف المُحدق بالأوراق.

- حسنًا افعلي ما شئتِ.. قال وهو يُشير إليها بكفه كالذي يُحثها على الصمت أو الذهاب كي يُركز في الأوراق النظامية التي أمامه ودون أن يكون هذا رأيه النهائي.

تنفست الصعداء، أجمعت أمرها وقررت أنها سوف تذهب غدًا حتى وإن أخبرها برفضه لذلك.

في العاشرة صباحًا ذهبت إلى طبيب النساء وهي تتوجس خيفة، دفعت رسوم الكشف وجلست بين النساء تنتظر دورها صابرة مُتحمسة، كانت النساء حولها يتبادلن الحديث البارد المُعتاد عن مشاكلهن في الحمل وهُن بارزات البطن كأنهن يتسابقن في الفوز بلقب ذات البطن الأكبر، وأمامهن طفلة صغيرة تروح وتجيء، تتشاجر مع والدتها مُحدثة ضجة، تضحك بلا سبب وتبكي لأسباب سخيفة، تُريد أن تضع رأسها

على بطن أُمها كي تسمع صوت أخيها، والأم قد ملت من تكرار هذا فتارة تُمكنها وتارة تمنعها.

جاء دور مرثا للدخول، جلست أمام الطبيب تفرك يديها، طلب منها إجراءات روتينية وتحاليل بسيطة، وبعد الانتهاء من ذلك طمأنها أنها بخير وليس لديها أي مو انع صغيرة كانت أو كبيرة، خرجت سعيدة ثُم أفل نجم سعادتها بالطريق حين أخذت تُفكر، رُبما رامي هو الذي يحتاج للفحص، وأخذت تُفكر أيضًا كيف تُقنعه أن يذهب للفحص لكن ذلك يشبه المُستحيل فكيف ستقنعه بذلك وهي بالكاد ذهبت لتفحص نفسها.

في المساء جلست بجوار رامي وهي تُقلب الحديث برأسها وتُعيد صياغته, كيف ستعرض عليه أن يذهب للفحص وهو لا يبدي لذلك أدنى اهتمام؟ استجمعت قواها كما فعلت ليلة أمس وقالت بصوت دافئ: حبيبي لماذا لا تذهب للفحص؟

أنا؟! لا اطمئني أنا بخير فقد سبق وقمت بتلك الفحوصات والتحاليل.. قال وهو ينظر للتلفاز تاركًا مرثا في حيرة وضجر، قامت من المكان تتخبط في أروقة الفكر السوداوي الذي يحتلها ويفتت داخلها الأمل كما يفعل الطاحون بحبات القمح ثُم أخذت تُردد:

"علمنا يا رب أن نصبر، أيُها الرب الإله طويل الأناه كثير الرحمة اصبر وتأنى على خلقتك, رغم بعدنا وجحودنا وخطايانا لكنا نترجى مراحمك وصبرك علينا كما يصبر الزارع على أشجاره ويُنقب حولها ويضع السماد لتثمر، و أنت إله الصبر والرجاء، طويل البال، تأنى علينا وعلى عالمك المسخن بالجراح، فإبليس يعمل جاهدًا ليُبعدنا عنك، و أنت كأب صالح قادر على كل شيء ردنا إليك يا الله كعظيم نعمتك".

سقطت دمعتان دافئتان على خديها صاحبهما تأوهًا، وضعت رأسها فوق الوسادة تطلب من الله النوم والصحو على فرح.

"يُتم آخر"

دق جرس المُحاضرة فتقدم إقليدس يُلقي مُحاضرته على الطلاب، الكل ينصت باهتمام والفتيات يبعثن خلف صمتهن نظرات الإعجاب والغزل وهو لا يُبالي بذلك، أصبح نجمًا لامعًا رُشح للبطولة المُطلقة فور انتهائه من عمله السينمائي الأول، يعيش حياة مُستقرة مع زوجته روز و ابنته "أنجيل"، ولكن وبرغم هذا كُله فلم يكن سعيدًا حتى بعد أن حصل على كُل أسباب السعادة التي كان يبحث عنها، قد يفقد الشيء رونقه بعد الحصول عليه!

حين كان خارجًا من مبنى الجامعة مُتجهًا صوب البيت وجد مجموعة أصدقاء مُلتفين ينظرون إليه, قد ألفهم بعض الشيء لأنهم جميعًا يحملون الملامح المنقبة نفسها بلحية الدين والتي لا تروقه أبدًا، تجاهل تفرّسهم ومضى يسير حتى وصل موقف سيارات الجامعة ثُم لاحظ ثمة شخص يتعقبه، نظر خلفه سريعًا, إنه سام ولكنه مُختلف، قد حلق لحيته وعاد ليرتدي ثيابه العادية لكن ماذا يُريد, لقد ضقت ذرعًا بنقاشه السخيف و أبديت له امتعاضي أكثر من مرة فماذا يُريد؟

مرحبًا.. قال سام مُبتسمًا بهشاشة وأعصاب وجهه ترتعش كالقاتل المُتلبس.

مرحبًا.. قال إقليدس وهو ينظر لسام بتعجب و اندهاش بعد أن وقفا وجهًا لوجه.

قال سام بنبرة حماس مع ندم وهو مطأطئ الرأس:

آسر، أعترف أني قد أسأت إليك كثيرًا، لكن الآن أنا تغيرت صدقني, لقد تحررت من كُل تلك القيود ووهم الأديان وتركت أصدقائي القُدامى فهل يُمكن أن نصبح صديقين؟

ابتسم إقليدس بنصف فمه وقال وهُو يهز رأسهُ بنبرة سخرية:

- هل هذه مسرحية تقوم بها بمساعدة الشيخ جاسم؟

- لا صدقني، يُمكنك أن تثق بي, لقد تركتهم بعد أن تبين لي أنهم يقولون ما لا يفعلون, لقد مررت بأسوأ فترات حياتي وحين قررت الانفصال عنهم و اتباع العقل كان ذلك قرارًا شُجاعًا وصادقًا.

- نعم نعم، قال كالغير مُصدقًا، ثُم هَمّ أن يذهب كي يُنهي الحديث الذي لا يُصدقه, فأمسك سام بذراع إقليدس ونظر إليه نظرة ترجٍ وقال بصوت مُتهدج: اسمع سوف

أثبت لك صدقي؛ خلع إقليدس يد سام من ذراعه مُتجهمًا وقال بصوت حاد: هذا لا يعنيني البتة، هذه حياتك وهذا طريقك.. خطى خطوتين ثُم عاد ونظر إليه وقبل أن يتحدث قال له سام بصوت أكثر انكسارًا تلمع عيناه بالدمعِ: لقد خُدعت وليس لديّ عائلة آوي إليها، لم أجد غيرك أتحدث إليه, أرجوك أحتاج لمن أُشاركه معاناتي.

وقع ذلك بقلب إقليدس، اليتيم يُقدر الإحساس بالاحتياج، وخاصة من يضاهوه بالفقد، وقف إقليدس حائرًا هربت منه المُفردات ثُم قال بصوت رقيق: "حسنًا"، وهو يربت على كتف سام.. ركبا السيارة، في الطريق كان سام شاردًا حزينًا, بدا كالطفل الذي فقد ذويه في زحام الحياة، قال وهو ينظر للطريق أمامه:

- لقد توفي والداي بحادث سير و أنا بعمر الخامسة, وجاء صديق أبي استلمني ليتولى تربيتي، كان رجلًا طيبًا وحين وصلت للثانوية طلبت منهم أن أستقل بحياتي بعد أن أصبح وجودي بينهم أمرًا مشينًا بسبب ما سببته لهم من مشاكل، ثُم تنهد بحزن وقال:

- كان عمي وزوجته يعملان مُدرسين في المدرسة الثانوية التي كُنت أدرس فيها, وكانا هما من يتحملان تصرفاتي السخيفة وأخطائي المُتمردة, لقد ربياني كابن لهما لم أعِ قيمتهما إلا هذه الأيام بعد أن تنكرت لهما وتركت واشنطن العاصمة و أتيت سياتل حيث تعرفت على شاب عربي مُسلم أعجبت به وبتدينه، كان يحكي لي عن الإسلام في بلده وعن المعالم الإسلامية وعن الأخلاق وحكى لي عن النساء كيف يتعففن وعن النبي مُحمد كيف كان شُجاعًا وقويًّا وخلوقًا، قضيت معه عامين بالجامعة, كان طيبًا دائم الابتسامة، أشعر بالأريحية كُلما تحدثت إليه, ثُم سافر الشاب و انقطع بيننا الاتصال، ثُم تعرفت على الشيخ جاسم، رأيت فيه صديقي الأول؛ الحديث المُريح نفسه، إذا تحدث يعجبك حديثه لكنهُ ليس أكثر من مُجرد حديث، مرّ عام وعامان وجدتني شخصًا آخر، غاضبًا كارهًا لكل من حولي، كرهت الموسيقى وحرمت على نفسي كل شيء، ثُم اكتشفت أن جاسم قد صنع مني مسخًا وكل ما يُخبرنا بحرمتهِ يأتيه هو مُضاعفًا, ما الذي يجعلني أمسح وجهي بالأرض خمس مرات باليوم وأصوم عن الطعام من أجل إله سريع الغضب من أبسط الأمور؟ دائمًا ما يُذكرني بالنار ولهيبها والموت وقسوته، لم يعد لديّ أمنية بهذه الحياة. تهدمت كُل أمنياتي، و انحصرت في زوجة صالحة وجهاد وقتال الأعداء, ثُم غمغم وهو يحني رأسه ويهزها للأسفل: لقد خُدعت,

والآن أسخر من نفسي كثيرًا, ولكن قد فات الأوان فقد تركت حبيبتي بعد أن أخبروني أنها كافرة، كما تركت عائلتي التي ربتني بكل محبة لأنهم كفرة، ولم أعد أتصل بهم هاتفيًّا، حين تلفت حولي لم أجدني سوى بين مُرتزقة قُطاع طُرق الأمل, نظر لإقليدس فوجده شاردًا مُكفهر الوجه, ثُم أضاف: أتعلم بمَ يلقبونك فيما بينهم يا آسر؟

نظر إليه مقوس الحاجبين وقبل أن يعطيه سام فُرصة الرد قال: "أسود الوجه", ثُم ضحك كالذي يُجامل بعد أن ضحك إقليدس بشدة في سخرية.

ما معنى هذا الاسم أخي آسر؟ ولما يُلقبونك به بالرغم من وسامتك الشديدة؟.. سأل سام مُبتسمًا ابتسامة خليط من هزيمة واليأس.

قال إقليدس وقد هدأ مُحرك السيارة استعدادًا للوقوف أمام بيته: هذا اسم ساخر معناه الكافر ولكن بطريقة مُركبة.. ثُم ضحك ثانية، نظر لسام وقال له: لقد وصلت تفضل معي أم تُريد أن تذهب إلى بيتك؟ طوال الطريق لم تُعطني فُرصة كي أسألك إلى أين ستذهب؟

- بالحقيقة لا أعرف إلى أين, رُبما لمسكني, أشكرك على حُسن إصغائك لي. ثُم صافحه وقال بصوت هزيل تحتبس فيه الدموع: آسر أرجوك اسأل عني فأنا وحيد أُحتاج لمن يسأل عني.

وقف إقليدس حائرًا من أمر سام الذي ابتلعه الزحام، وأمر أولئك الذين لا يكفون عن إيذائه حتى بالحديث فيما بينهم.

صعد لمنزلِه يتخبطه الفكر بين فرحة رجوعه ورؤية روز و ابنته أنجيل، وحزن الحوار الذي قصه عليه سام، ثم تبدد ضجره حين وقف أمام ابنته الصغيرة وهي نائمة على فراشها كالملاك الصغير تضع كفها الصغيرة فوق وجهها, وصوت روز من بعيد: آسر، أهذا أنت؟

وِجـــــــــــــــد

خرج صالح من الفندق البسيط يبحث عن عمل إلى أن يستطيع العودة أو الاتصال بالوكالة مُجددًا، أثناء تنقله مرّعلى إحدى المقاهي الشعبية بها بعض الجلوس منهم من يلعب الدومينو ومنهم من يحتسي الشاي وآخر أمامه كأس من العصير أما صاحب المقهى فيجلس أمام المقهى يرتدي عباءة وعقالًا, وجهه طويل ومجعد قد سقطت نصف أسنانه وغارت عيناه وذقنه مُحدب وشعره أشيب, اقترب منهُ صالح وألقى عليه السلام, فرده بعد برهة من التفرس فقد علم من لهجته أنه ليس عر اقيًّا، قال له تفضل يحسبه زبونًا: ماذا ستشرب أيُها الأخ؟ سأل الشايب صالح وهو يضع عصا الأرجيلة في فمه يستنشق دُخانها ويُخرجه من أنفه وفمه وتضيق عينيه تفرسًا بصالح.

لا، لم آتِ كي أجلس سيدي، لقد جئت أبحث عن عمل.. قال صالح وهو ينظر للجالسين، وقد خفت صوت إلقاء حجر النرد حيث تركوا اللعب ونظروا له، ضحك الرجل بافتعالية وعصا الأرجيلة ما تزال في فمه وخرج دُخان الأرجيلة فوضويًّا وضحك الحضور مُجاملة له مُتوددين لصاحب المكان، ثُم قال وهو يرفع ظهره المُستند إلى الكُرسي في أريحية وقد صمت عن الضحك وصمت الجميع معه: ليس لدينا عمل. لم يفهم صالح ماهية هذه الضحكات وإجماع الحضور عليها، رُبما هي نوع آخر من خيبة الأمل في هذه البلاد, لكنه لم يعِ أن مظهره النحيل هو السبب, فقد كان ما زال لم يسترد وزنه الذي أفقده إياه الحزن, أوحت لهم هيئته أنه رُبما مُصاب بأحد الأمراض العضال، أو عثة الخبيث قد أكلت لحمه, وعليه فهو سيكون سببًا في ترك الزبائن لتلك القهوة حسب ظن المالك وزبائنه.. ترك صالح المكان وذهب، وعاد كل إلى حاله الذي كان عليه قبل قدومه.

وصل إلى مخزن حبوب أمامه يقف صاحب المخزن, علم ذلك من هيئته التجارية، مربوع القامة مُنتفخ البطن وجهه عليه علامات القسوة والانفعالية، ذا حاجبين مقوسين مرسومين كوشم النساء، وشاربين محدبين في جانبيهما.

ألقى صالح عليه السلام وهو ينظر لأشولة الحبوب التي يحملها العُمال كما لو كان يتخيل نفسه بمكان الحامل ويسأل نفسه هل أستطيع حمل هذه الأثقال و أنا بالكاد تحملني قدماي؟

رد عليه الرجل بصوت أجشّ: وعليكم السلام. يهز رأسه مُستفهمًا.

- لقد جئت أبحث عن عمل.

نظر إليه الرجل نظرة سُخرية قائلًا: وهل تستطيع ذلك؟

شعر صالح بالحرج، قال وهو يهز رأسه للأسفل بانكسار: يُمكنني أن أعمل في الحسابات أو في أي عمل آخر غير رفع الأحمال.

نظر له كالذي يُفكر بالأمر ثُم جر كُرسيه ليجلس ثُم جاء أحد العُمال يحمل له كأس شاي فوق طبق صغير.

قال التاجر لصالح وهو ينظر للشاي سوف لن تتقاضى أجرًا إلا بعد أن أرى هِمتك.

وضع العامل الشاي أمام التاجر وهو ينظر لصالح بدهشة، ثُم قال بصياح: سيدي إن هذا الرجل مجنون, لقد رأيته يتفتل بالطرقات منذ فترة وينام على قارعة الطريق, ويُلقب نفسه ماري، أُراهن على ذلك، وهذه العلامة التي في جبينه علامة الحرق تؤكد كلامي، إنهُ هُو.

قال الرجل وهو ينظر لصالح نظرة متفحصه كالذي يستكشف في وجهه علامات الجنون:

هل هذا صحيح, لم تُخبرني من أين أنت؟

لكن صالح لم يرد على سؤال التاجر، رجع للخلف خطوتين كأنه يبتعد عن الحياة خطوتين كان قد تقدمهما بعد مُعاناة مع كُساح الأمل ثُم ركض يبتعد عنهما كما يفر الأرنب البري من الذئاب.

أمام مطعم وقف شبه يائس، ثم دخل يتقدم بين صفي الكراسي الممدودين إلى أن وصل للموظف الو اقف بالاستقبال، سأله إن كان يوجد فرصة عمل، أخبره الرجل أنه يستطيع العمل كنادل مُقابل خمسة عشر ألف دينار عراقي باليوم (ما يعادل 10 دولارات)، تناول إفطاره سريعًا وبدأ عمله الجديد بنشاط وهو يروح ويجيء بين الزبائن، انتهى دوامه الصباحي بعد الساعة الثانية، قبض نصف المبلغ على أن يعود بعد العصر

ليقضي فترته المسائية. تناول غداءه بالمطعم، تفقد نفسه في مرآة قلبه فوجدها فارغة, هاج الشوق فيه و أينعت بداخله الروح تطلب سُقيا، فهام على وجهه باحثًا عن أولئك الذين سكنت لديهم الروح وكبيرهم الذي علمهم الحب، لم يكن يعرف العنوان أو اسم المكان الذي رآهم فيه، ذهب لا يدري لأي وجهة يُولي وجهه، ما تزال المدينة الظالمة المظلومة يملؤها الضجيج، تتصاعد فيها جُثث الموتى إلى السماء أشلاء، صالح لم يعد يتربص بالموت أو يترقبه, قد امتلأ سابقًا بكل أسباب الموت ولم يمت، كان الموتى حوله أحياء والأحياء حوله موتى، وهو الآن مُمتلئ بأسباب الحياة.

قادته قدماه إلى مكان جلس مُتعبًا يتصبب عرقًا، انتبه لوجود الفتاة الصغيرة بائعة الحلوى بجواره، تضع الحلوى فوق كيس أمامها، غلبها النوم، كانت جميلة حد القداسة، بلغ منها الفقر عتيًّا، صبغت شعرها غبرة الأيام بلون ترابها، قدمها الصغيرة كأرجل الطيور طويلة الساق، نائمة كما ينام الحزن نوم اليقظة ساعة ويفيق، حين فتحت عيناها كان عالمهما حداد أبيض مثل حداد الملائكة، خفضت رأسها سريعًا تتفقد بضاعتها وكأنها تتفقد أُمنياتها كثيرة التنقل في غياهب الشوارع، اقترب منها يود أن يرد لها الدين الذي لها عنده، وضع يده في جيبه وأخرج كل ما فيه, كان مبلغًا زهيدًا لكنه كُل ما يملك، ألم تُعطه هي كُل ما تملك؟ وحين رفع يديه بالدنانير إليها أومأت برأسها أن لا.

هي لم تعرفه, قد استوحشت من هيئته الجديدة، يبدو أن هيئته الرثة وغبرته السابقة كانت تُوحي لها بالأمان أكثر من هيئته تلك.

عبس وجهها البريء خوفًا، أخذت تُلملم حلوتها على عجلة من أمرها تُريد الفرار من ذلك الذي هاجم سكينتها, أمسك صالح بكيس الحلوى قائلًا لها: أُريد أن أشتريه. فتركت الكيس وقالت في تجهم: هذا المبلغ أكثر من ثمن الحلوى.. ما الذي جعل الفقر ينجب خوفًا أشد فتكًا من أبيه.

قًال لها عسى يحظى ببقائها بعض الوقت: "أتعرفين يا صغيرتي، أنا الذي كُنت أجلس على مقربة منك بيوم لا أذكره لكن عهده قريب وأخرجتِ لي من جيبك دنانير أخذتها منكِ وها أنا أُريد أن أُعيدها لكِ".

لست أنت، هذا كان عمو المجنون.. قالت الفتاة وهي تمسح وجهها من العرق فاختلط تراب يديها بعرق وجهها لتزيد رقعة البؤس اتساعًا وتزيد اللّين في قلب صالح.

- أنا هُو صدقيني لكنني قد شُفيت من جنوني وأصبحت بخير.

هزّت رأسها وكأنها ترفض شفاءه قائلة: لقد قالت لي أُمي إن المجنون لا يُشفى عندما سألتها هل سيشفى أبي ويعود إلينا.

أحدثت به هزّة وحدّثت به الحزن, وكسابق أمره لم يعد لديه من المُفردات ما يُفيدها ويقتلعه من بؤرة الصمت، ذهبت الطفلة وبقي صالح يُحدق في الشفق، يتحسس نبض قلبه وما وسق.

بريـــــــــــــق

أعياني السير الذي بلا عنوان أقصده، جلست على أحد الأرصفة أستنشق الهواء من حولي بشغف وضربات قلبي ترتفع وتنخفض وكأنني أُصبت بشغب العواطف، كانت ملامح ذلك الرجل تُطاردني بين الحضور، لم أكن أعلم قبلها أن الحب يُمكنه حملك على جناحيه حيث المحبوب، وقتها تُطوى المسافات وتتلاشى الطُرق، لم أكتب في مُذكر اتي أطول من هذا الفصل، إنه الحب وحدهُ قادرعلى النفاذ بتلك الجُرأة والعناد كأشعة الشمس عبر الأجهزة الصلبة قاتمة كانت أو شفافة، والدوران حول القلب بتلك الدهشة التي يدور بها حول الأرض، يجمع الأمكنة كُلها بنقطة واحدة.

وصلت حيث هم ولا أعلم هل وجدتهم أم وجدوني، كان الشيخ يجلس بينهم مطأطئ الرأس كما لو كان يحمل الأرض فوق رأسه, لا يتفاخر بمن حوله ولم يكترث لما يبدوه من حب غريب يأخذهم في تقلبهم، يهشم القلب فيجعل منه قطعًا صغيرة قد علم كُل منها صلاته ونسكه، يجلسون ثملين بالحب كالمحكوم عليهم بالحياة في عز الموت.

استعدت جأشي وحماستي وسيرتي الأولى ما قبل الحزن، إنهم أنا، يشبهونني حدّ العظم، الحب خطير، كُنت أعلم ذلك لكن حين تتوحد اللغة والقلوب حيث محبوب واحد فهذا ضرب من جنون، ولكن ما صاحبهم بمجنون، ها أنا ذا أرتكب جرم الحب مُجددًا، ولكني لست وحدي، و إنه ليس بجرم الحُب المُعتاد، هذا ليس بحب من فصيلة الحب المُتعلق بسبب، إن الحب المُتعلق بسبب يسقط يومًا، أما هذا يرفع لا يسقط أبدًا يتحدى جاذبية الأحداث.

إنه ما كُنت أبحث عنه ويبحث عني، ليت قومي يعلمون, ليت الزمان يعود للخلف خمسة أعوام وعام لأطير كحمامة نوح أجلب لكل أحبتي خبر السلام.

أذّن المؤذن أن حي على الحب فقاموا يصلون و أنا بينهم كالقزم بين جيش من العماليق، سألت الشيخ بقلبي ما بال قوم من عماليق بينهم قزم؟ ما هم صانعين به؟ رُبما سيدهسوه بينهم، قال: لا بل سيرفعوه على كفوفهم حتى يعبر الحياة بلا خوف، إنه يعرف كيف يستعمل الحب

من هُنا سوف أُولد من جديد، وستكون شهادة ميلادي مُسجلة في أرشيف الحب، ولن أعود لما قبل هذا الميلاد أبدًا، وستكون تلك سُنّتي التي سأسنها بين كُل من يمر

بدربي، لن أدع الحزن يهزمني وإن سقط جلدي وبقيت عظمًا على نخاع، أخاطر نفسي مُنتشيًا بهذا الحضور الغائب، أُسجل في مذكرتي فصلًا لا أُريده أن ينتهي.

جلس الحضور يرددون أورادهم معًا حافين حول الحب، أقدامهم على الأرض وقلوبهم مُعلقة في السماء، قال الشيخ بعد أن استقر مكانه:

- عِندما تأتون هُنا نظفوا قلوبكم من الأمراض ومن الشهوات ومن العلل, كأنه يقول لي: اخلع نعليك إنك بالأرض المُقدسة، حيث يكون قُدس المحبة، يتحدث للجميع وكُل فرد يظن نفسه المقصود.

هكذا يتكلم العاشقون بإسهاب، المُتحدثون بلغة الحب الأم، لم يكن لديّ قبل ذلك جليس لروحي وحين رأيته خُيّل إليه من سحره أنه إله, كأولئك الذين تتحدث عنهم الأساطير، تخبّطت رُوحي المُغتربة في أُنس المكان بعد أن تخبطت عامًا بالتيه.

كان صالح يشعر بقلبه يحدث ضربات تُشبه ضربات الفأس على الخشب, كأن قلبه يُريد كسر جدرانه كي يخرج من بين الضلوع مُتحررًا يرتدي لباس سعادة ليس كمثلها سعادة ردفت إليه ووُروحه تطير هائمة كطيور الكناري كثيرة الألوان تُغرد بصوتها الهادل لحنًا لا نهاية له لحن الحب الخالد.

قال الشيخ بصوته أبح يمسح عليه الشجن: "انظروا يا أبنائي للأفاعي هل تنكرون سُمّها؟ قالوا لا، فقال: إنها حين تخرج من مخبئها تكون شرهة لبخ سمومها لكن حين تُقابلها إشارة رقيقة من رجل مُدرك يعزف بروحه العاشقة يجعلها تتراقص طربًا، فيتحول القتل إلى رقص، هكذا النفس مثل الأفعى إن لم تكن قويًا تؤتيها الإشارة وتعزف بمهارة قتلتك سمومها".

"ليت من قتل ماري يعلم أنه قتل طيور السلام ببغداد ليترك الأفاعي".. خاطر صالح نفسه وغلبه الحزن ليرُدّ عليه الشيخ وكأنه يقرأ قلوب الحضور على وجوههم: "أبنائي لا تحزنوا على جروحكم وإلا كيف يتسلل النور إليها, كُل شيء تفقدوه سيعود لكم في صورة أُخرى لكنكم تستعجلون". ثُم وضع رأسه على العصا، رفع ظهره المُستند إلى المقعد نظر لصالح الذي لم يعد يرى الحضور من حوله قائلًا بصوت دافئ: "حين كان يعلم موسى بميقات ربه كان يسير أربعين يومًا صائمًا وحافيًا حتى يتهدّل ويتقطع بطن قدمه وهُو لا يشعر بقسوة، ذلك كُله من أجل أن يسمع صوت الله فسبق شوقه ألمه، كونوا في الشوق كموسى وسوف تُوهبوا الميقات".

وقع ذلك في قلب صالح وحبس أنفاسه خجلًا من تضاربها، كم يتمنى أن ينظر الشيخ إليه وحين نظر تمنى أنه لم يفعل, أربكته عيناه التي لا تنظر للوجه مُتفرسة بل للقلب, حتى لم يعد يعلم متى انتهى الدرس ومتى ذهب الشيخ؟ قدّم الذاكرون يُطعمون الطعام على حبهِ مسكينًا ويتيمًا.

تناول صالح الطعام وهو ثمل بشراب لا يعرف ما هو، تنقبض الروح في حضوره معهم وتنبسط بلا فارق وقتي، وتلين أغلال النفس التي من الحديد. فحين يَصب العشق في الوريد أين لها التناوش من مكان بعيد؟

جلس مُستندًا بظهره إلى الحائط. قام الحضور ينظّفون مكان الأكل وهم ينشدون بصوت خافت معًا أنشودة مما يتغنون به وكان طربًا لذلك. بينهم أطفال يهللون معهم كطيور التودي الخضراء، وعلى حين غرة تذكر يحيى ابن ماري فشهق بمزيج من الحزن والخيبة, تُرى هل ما زال في ملجأ الصغار أم تبناه أحد؟ ومن سيتبناه؟ إن أعداد الصغار في الملاجئ تزيد لا تنقص؟ يا إلهي لا بد أن أذهب غدًا كي أراه حتى أتمكن من أخذه من الملجأ، وكيف أستطيع تبنيه؟ يا إلهي ساعدني من أجل هؤلاء الذين أنا بينهم.

غلبه النوم ولم يبقَ بالمكان سوى قلة من الحضور، من بين نائم وقائم وجالس يقرأ القرآن، كان يشعر بالهدوء رغم جلبة اليوم, رأى بهذه الليلة إنه على شاطئ النهر ثُم بزغت رأس كالحورية من النهر والكتفان والجسد ترتدي ثوبًا أبيض يُضيء وحين اقتربت إذ بها ماري، وقفت أمام صالح يقطر منها الماء، وجهها كالوردة الندية, مدّت يدها مُبتسمة وحين رفع يده إليها في ذهول ووجع الشوق انتابته صدمة كهربائية بسيطة وسريعة مرّت كقرصة بعوضة فعلم أنه حُلم أفاق، فرحًا بالصباح الجديد بزغت الشمس من السماء تتلألأ بابتسامة دافئة.

إنهُ الصباح الذي قلّما يأتي، إنهُ الصباح المُختلف الذي يحمل عطر الأمل، إنه اليوم الذي سأخرج فيه من محطة قطارات السفر لأكون أنا المُسافر ليس المُودع، قام صالح من نومه كما قام أهل الكهف من نومهم عطشى للحياة ولكنه لا يُريد أن يعود ليموت بعد فوات الزمان كما ماتوا، سيعود ليكون في الحياة يمشي معها كتفًا لكتف.

بارانويا (جنون الارتياب)

جلس سعيد بالمسجد يحضر درسًا، يُلقيه الأمير (الرجل الأول في الجماعة) حيث عدد الحضور قد ازداد، ولكن أغلبهم شاردي الذهن، منهم من هو فارغ فاه عيناه ناعستان، ومنهم من يتلفّت حوله عبثًا فقط لمجرد الملل، ومنهم من ينتظر أن ينتهي الدرس ليخرج في الهواء الطلق أو يذهب لبيتهِ، ومنهم يستمع ليحظى بمدح الحضور في حسن استماعه ومنهم من أتى مُعتقدًا بأنه يُرضي بهذا الله ورسوله، ويتعلم من الدين ما كان يجهله.

انتهى الدرس، ذهب سعيد إلى بيته، حيث كانت أحلام الصغيرة تجلس تارة على أريكة صغيرة بطفلها الباكي، وتارة تروح وتجيء بالغرفة كي يصمت عن النواح، وهذا يتكرر كثيرًا كُلما دخل سعيد وجدها تحمل الصغير التي تورطت به ولا تدري لهدوئه سبيلًا، في هذا المساء كان سعيد مُتوترًا لأنه لم يعد يحظى بمكانة كسابق عهده، من مدح وثناء عليه، وذلك أمر اعتيادي فقد أصبحت الجماعة تستقبل كل يوم مجاهدين جُدد وهم الآن مشغولون بأمور أُخرى غير ذلك الذي قدم من أجل نصرة الإسلام كما يقول هو، لم يكن أمره بتلك الأهمية التي كان يتوقعها.

الطفل يبكي وأحلام تحمله كالطفلة التي تحمل دُميتها، إنها تُضاهيه طفولة, دخل سعيد يدفع الباب بقدمه يحمل بين يديه كُتبًا مُجلدة وكأنه يحمل أوزاره فوق ظهره، يستشيط غضبًا، المُفترض أن تكون أحلام مُتهيئة كما تفعل الزوجات، لكنها ما زالت بعد عام من الزواج لا تُدرك كيف تكون زوجة وقد أصبحت أمًّا قبل أن تكون زوجة وقد لا تعي كيف تكون زوجة مُطلقًا ورُبما لباقي عمرها الذي تحددت معالمه.

لماذا هذا الطفل كثير الصياح؟.. قال سعيد بصوت مُجنح مما زاد من بُكاء الطفل، وضع الكُتب على رف بجواره ونظر إليها في سخط متوترة أعصاب وجهه.

لا أدري.. قالت لي زوجة العم ناصر أن أعمل له رُقية ولكني لا أعلم كيف؟.. قالت وهي تهدهد الصغير الباكي تضعها على كتفها تارة وفوق ذراعيها تارة أُخرى.

أنتِ لا تُجيدين عمل أي شيء.. قال بصوت يصحبه الغيظ يضم أسنانه ببعض يحدث صريفًا, قد أُصيب بنوبة غضب أعمى، أمسك شعرها يجرّه للخلف فسقطت

على الأرض بمؤخرتها وهي تتأوه، وضعت الصغير على الأرض كي تتخلص من قبضته القاسية على شعرها وهي تمسك بيديه فركلها بقدمه ركلتين على جنبها مما جعلها تستسلم وتترك يده القابضة على شعرها وحين علا صوت بكائها وصياح الطفل شعر بالتوتر أكثر ويئس من البقاء بينهما، تراجع خطوتين ليعود ويركلها وهي تمسك بجنبها من فرط الألم، أخذت أعصاب وجهه تزيد ارتعاشًا كالمصعوق، يُلقي كل ما يجده أمامه أرضًا؛ زجاجة دواء، وقارورة عطر، وسطل ماء.. عادت به الذاكرة لحظات خمسة وعشرين عامًا، رأى فيها مشاهد مُتقطعة من الأبيض والأسود لطفل يضربه رجل يركل امرأة وهي تُدافع عنه, إن الطفل هو والمرأة أُمه والرجل أبوه.. سعيد قد فشل كثيرًا في أن يتذكر أي ذكرى له تسبق يوم دخوله إلى الملجأ، وفي هذه اللحظة قد خانته الذاكرة وجاءت له بما لا يطيق وفي الوقت الذي لا يُريد، لقد عانى من قسوة أب وصمت أم، من ذكورة ظالمة و أنوثة مُستسلمة.

"هذه حقيقتي إذًا، لم يتقبلني ذلك الأب حتى كان مصيري ملجأ الأيتام".

جلس سعيد على ركبتيه يبكي، يضرب رأسه في حافة السرير الصلبة حتى سال دمه، والطفل ما زال يصيح وأحلام صامتة من هول ذلك قد غطّت الدهشة إحساسها بالألم، تمسك بجنبها وهي جالسة تنظر لسعيد في خوف وهلع، والصغير يتلوى على الأرض ويتقلب، قام سعيد والغضب ينطّ من وجهه كالمسعور، ركل الرضيع ركلتين كالمجنون ثُم خرج، قامت أحلام تستند إلى المقعد رفعت طفلها من الأرض ولسان حالها قد فقد الشكوى، مسحت وجه الصغير الذي أتعبه البُكاء وألقمته ثديها الصغير الفارغ حتى نام الطفل بعد ألم البكاء، أخذت تنظر له وتتحسس بأصابعها وجهه ثُم ابتعدت عنه قليلًا وجلست القرفصاء على حافة الفراش كالتي لا تعي من تكون، ترفض الاعتراف بوجود طفل يعيق جناحيها عن الطيران حيث أماني الصغار, ماذا إذا قتلت الصغير بأن فتحت الغاز في الغرفة وذهبت؟ أو تركته أمام أحد البيوت وهربت من هُنا؟.. ولكن إلى أين أذهب؟ سوف يأتي بي سعيد ويقتلني بالرجم أو يضربني بطلقة رصاص في رأسي.

صمتت كل الأفكار عن الحديث ومرت ساعتان وهي تبكي على حالها فهي لم يعد لديها من تشكي له همها ومن تلجأ له عندما يشتد عليها الحُزن، حتى زوجة العم ناصر لم تعد تزورها فقد أصبحت أحلام امرأة ناضجة وتستطيع العناية بعائلتها, هذا ما

قالته لها العمة كي تتملص من أحلام ومسؤولية طفلها.. دقّ الباب، انتفضت مخافة أن يكون سعيدًا قد رجع يُعاود ضربها, قامت ووقفت خلف الباب مذعورة تتلكأ هل تفتح أم لا؟ لكن قوة الطرقات لم تترك لها مجالًا للتفكير ففتحت وجاء صوت من خلف الباب نصف المفتوح يقول نحن نحمل سعيدًا وهو مُتعب، أرجو إفساح الطريق لنا يا أخت، هرعت لتختبئ في الحمام حتى سمعت الباب يُغلق وفهمت أنهم خرجوا، خرجت لتجد سعيدًا معصوب الجبهة برباط أبيض، عليه بقعة دماء فاتحًا عينيه كالناعس، ابتلعت ريق الخوف، غطّته كي تشعر هي بالأمان واضجعت بجوار الصغير تُراقبه على تخوف من أن يفيق وبعينيه تلك النظرة المُخيفة التي ترك البيت وهو يحملها.

في الصباح قامت أحلام من نومها غير المُكتمل وأحلامها المُشققة على صوت سعيد يهذي بكلمات غير مفهومة: أبي أببب ي، أُمي، صالح صالح.. لاحظت ارتفاع حرارته، قامت وأحضرت قطعة قُماش قُطنيه وإناء فيه ماء بارد وضعت القُماشة في الماء وعصرتها ثُم وضعتها على جبهته الحارة بعد أن أزالت الرُباط ووجدت الجرح قد اندمل، وهو يردد: صالح، صالح.

الضُحى أشرف على الزوال, أخذت صغيرها وذهبت لزوجة العم ناصر كي تجد لها حلًّا لبكاء الطفل المُستمر، رُبما تجد زوجها ويقرأ عليه الرُقية الشرعية، فلما وصلت طرقت الباب فلم يرد أحد، يبدو أن المرأة غير موجودة ولا حتى الصغار فلم تسمع أي صوت، استندت على الحائط من تعب وقوفها وحمل طفلها ثُم اتجهت حيث منزلها، وقد دخل وقت الظهيرة الشمس في كبد السماء، أخذت تلتفت يمينًا ويسارًا مخافة أن يكون هُناك من يتعقّبها فيشي بها إلى سعيد الذي لن يغفر لها خروجها دون إذنه وإن كان ذلك من أجل الطفل.

عادت إلى المنزل وصدرها يعلو ويهبط من تسارع ضربات قلبها و أنفاسها، دخلت تمشي على طرفي قدميها والطفل مُستلقٍ برأسه على كتفها، نائم خداه متوردان من حرارة الشمس، وضعته على الأريكة كي تخلع عباءتها، ثُم توجهت إلى الفراش حيث سعيد الذي ما زال نائمًا.

حين وضعت الصغير على الفراش بكى، بكاء ألم خافت الصوت، مما جعل سعيدًا يفتح عينيه ورفع رأسه فوق كتفه، نظر إليها وإلى الصغير نظرة بلا معنى، قالت بصوت رقيق تُخفي به الخوف: هل أنت بخير الآن؟

لم يرد عليها، فقامت لتُعدّ له الإفطار، وعندما انتهت وقفت أمامه كي يستند عليها فنهرها ووقف وحده كأنه يثبت بذلك أنه ما زال قويًا، وحين جلس للطعام قالت بتودد: من هُو صالح؟.. قال وهو يُقرب الطعام أمامه: كان صديقي ومات.

الحياة تتأرجح كالبندول بين الألم والأمل

(آرثر شوبنهاور)

بالمساء عاد إقليدس بعد أن قام بأول عملياته الجراحية وقد نجح فيها وأبهر أساتذته، كان سعيدًا بما لا يُفيد فيه الوصف، ظل ينتظرعودة روز كي تُشاركه الفرحة، لكن لم يكن في البيت سوى الخادمة و أنجيلا الصغيرة التي كادت أن تسقط من كتف المُربية وهي تُهلل على أبيها، لم تكن علاقتها بأمها مثل علاقتها مع أبيها؛ لأنها لم تكن ترى أُمها كثيرًا التي يبدو أنها تملّصت من مسؤولية الطفلة. فقد أخذتها الثروة والشهرة التي لحقتها بعد أن أصدرت إحدى المجلات الشهيرة عددًا كان غُلافها صورة لروز و إقليدس (نجم وطبيب يُضيء سماء أمريكا وقصة حبه للجميلة عازفة الفيولا).

أخذ إقليدس يُدغدغ الطفلة وهي تضحك، يحملها فوق كتفيه يُلقيها بخفة فوق الأريكة ويفتعل لها إيماءات مُضحكة حتى تدخّلت المُربية مُشيرة إلى ساعتها أن موعد نوم الطفلة قد حان, هزّ إقليدس رأسه: حسنًا.. ثُم قبّل الفتاة وحملها إلى المُربية، لوّح لها ثُم توجهت المُربية بها إلى غرفة الأطفال بآخر الممر.

تمدد على الأريكة ينظر إلى المجلة التي تحمل صورته في ملل, فقد كان بالمنزل زهاء العشرين نسخة منها حتى بجوار حوض الاستحمام، وضعها جانبًا نظر لساعة الحائط تُشير للثانية عشرة بعد مُنتصف الليل وهُو يتميز من الغيظ حتى الآن لم تأتِ روز.

ثُم حدث ما فجّر ذلك الغيظ حين سمع خشخشة في الباب، يبدو أن أحدهم يحاول فتح الباب بمُفتاح ليس هُو بمفتاحه، نهض ليفتح الباب فرأى روز مُستندة على كتف رجل، قد جرّب مُفتاحين من سلسلة المفاتيح التي كانت تحملها في حقيبتها، وحين كان يُجرّب الثالثة فتح إقليدس، كانت روز ذابلة العينين تضحك بسخف بلا سبب، وضعها الرجل على الأريكة غارقة في سعادة وقتية جراء تعاطيها جُرعة "هروين"، وضح ذلك من خلال وجود خطوط دقيقة حول ذراعها تفي بربطه بالرباط الضاغط, ولاصقة فوق ثقب إبرة في بطن ذراعها بجوارالرُباط.

وقف إقليدس مُتصلبًا ينظر لها في خليط من الغيظ والحسرة والحزن، ثم كأنه أفاق من غيبوبة حزنه فجأة، وقد يئس أن تفيق هي من خدرها، ألقى الورود من المزهرية التي بجوار الأريكة أرضًا وسكب ماءها على وجهها ثُم قبض على ذراعها بعنف وضعف وخوف وهي تهز رأسها كي تتخلص من الماء ترمش عينيها بقوة.

لماذا؟.. قالها بصياح وقد استبدّ به الغيظ، وجهه قد نفرت به العروق وصُبغ بحمرة الغضب.

تخلصت من قبضته بلا مُبالاة، خلعت اللاصقة التي بمكان ثقب الإبرة من ذراعها وألقتها، وقامت وهي تستند إلى حافة الأريكة مُتجهة إلى غرفة نومها مُترنحة وهو و اقف يعض أسنانه غيظًا، استلقت على الفراش كالجثة بحذائها وفُستانها بينما هو استلقى على الأريكة يغمغم ساقطة, من خلف عمود بجوار المطبخ كانت الخادمة تُر اقب الأمر ثُم اختفت.

ولأن المصائب لا تأتي فُرادى دقّ جرس المنزل في الصباح، فتحت الخادمة رفع رأسه فوق كتفه ينظر من يكون الطارق وحين لمح زي الشرطة نهض مُندهشًا وسار نحو الباب.

- مرحبًا، هل السيد آسر موجود؟ لديّ أمر بإحضاره إلى قسم الشرطة.

- نعم أنا هو، ولكن لماذا؟ أقصد ماذا حدث هل أنت مُتأكد أنني المطلوب؟.. ثُم خاطر نفسه: هل ارتكبت روز حماقة ما أمس؟ أو رُبما جُرم لأنها كانت غائبة تمامًا عن وعيها.

- كُل ما يُمكنني قوله إنها جريمة قتل, هُناك شخص قُتل وقد شوهد معك بآخر ظهور له.

- أوه يا إلهي! مَن يكون؟

- لا أعرف أكثر، تفضّل معنا وهُناك سيتم استجو ابك وإعلامك بالتفاصيل.

ركب إقليدس سيارة الشُرطة مُستسلمًا وهو ينظر إلى الشُّرفات والنو افذ المفتوحة التي يطلّ منها الجيران عن اليمين والشمال، نظر لنافذة غرفة روز فلم تنظر، ما زالت نائمة، شعر بالحسرة، انطلقت سيارة الشُرطة تصرخ بالشارع تشقّ طريقها دون توقف.

أمام المُفوض جلس إقليدس لا يدري ماذا سيحلّ به, وما الذي جاء به إلى هنا؟ طوال سنوات دراسته بأمريكا لم يدخل مركز شرطة ولم تُسجل له و اقعة واحدة بقسم الشرطة.

- لقد وجدنا المدعو "سام روكفلر" مقتولًا في شقته بعد أن أُطلِق عليه رصاصة واحدة في الجُمجمة من مسافة قريبة، قال الطبيب الشرعي أن القاتل كان جالسًا بجوار القتيل ولم يقم بأي تعد جسدي عليه، مما يُوحي أن القاتل على معرفة تامة بالقتيل، بل رُبما هو صديق له وبعد التحري وجدنا أن آخر من شوهد معه بالجامعة هُو الطبيب آسر.

بدت على إقليدس ملامح الحيرة والغبن, تلاطمت الأفكار في رأسه الذي ظل يومئ برفض ذلك كله وكأنه يرى كابوسًا, ثُم قال بعد أن شهق بحسرة:

- سيدي ليس بيني وبين سام أي عداوة, بل أصبحنا أصدقاء بذلك اليوم تحديدًا وبذلك اليوم تحديدًا أشفقت عليه وطلب مني أن أسأل عنه ولكنني انشغلت بعملي و..

وقف المفوض من جلسته كالذي يقطع حديث إقليدس, ثُم وضع إحدى قدميه على الكُرسي، قرب رأسه منه كالذي سيوشوشه، نظر إليه مُضيقًا عينيه وقال: جيد، لكن هل تُثبت لي شعورك هذا؟ في موقف حدث أمام الطّلاب مثلًا.. ثُم مطّ شفتيه وفتح ذراعيه استخفافًا كالذي سيحضنه.

سيدي هل من المُفترض أن تكون مو اقف حياتي بالجامعة كُلها أمام الطلبة تحسبًا لأي شُبهة.. قال بتعجب مُبتسمًا ابتسامة صفراء بنصف فم.

وما رأيك في توجهه الديني مؤخرًا إلى عقيدتك نفسها؟.. قال الضابط بعد أن رفع ظهره مُنتصبًا وقدمه لا تزال على الكُرسي مُشبكًا ذراعيه خلف ظهره.

- وهل يتوجب عليّ قتل شخص ما توجه لعقيدتي أو حتى هاجمها؟

- نعم، حين يتخلى هذا الشخص عن تلك العقيدة بعد اعتناقها يُقتل بموجب حد الردة الموجود لديكم.. قال الضابط ثُم أنزل قدمه من على الكُرسي وتقدم نحو النافذة، و إقليدس الذي أحدثت تلك الجملة بأذنه رنينًا مُترددًا أخذ يفكر: "هل قتل جون سام لذلك السبب؟ و أنا أتيت هُنا لأدفع ثمن جريمة جون الحقير؟ أكان سام يشعر بذلك،

لذلك حملني أمانة موته؟ هل مات سريعًا بعد أن اخترقت الطلقة رأسه أم تألم.. يا إلهي؟".

مال المفوض برأسه واضعًا يده فوق كتف إقليدس وقال كالذي يُغريه بالاعتراف بذنب لم يرتكبه, سوف تكون العقوبة أخفّ إذا اعترفت ثُم هز رأسه مؤكدًا.

- سيدي كيف أعترف بذنب لم أقترفه؟ أنتم تبحثون خلف الشخص الخطأ.. قال بغيظ وبصوت تكلف في جعله هادئًا, وقد تورمت عروق رقبته جراء ذلك.

تراجع الضابط للخلف خطوتين ليجلس على الكُرسي وقال وهو يتفرس به: سوف نرى بعد تقرير خبير البصمات ما إن كُنت مُدانًا أم بريئًا, ثُم أضاف بنبرة سخرية: الآن سوف نطلق سراحك لكن أعدُك لن يدوم هذا طويلًا أيُها العربي.

يُوفوريا

"نصف الكأس الآخر مُمتلئ أيضًا".. كان هذا أول الدروس المُستفادة من قصة الحب الأولى التي مررت بها؛ فحين تضيق بك الأرض همًّا يزيد اتساع الكون لأجلك حين تكون هائمًا، أتعجب لماذا حين يُذكر الخريف يُذكر الحزن؟ وغالبًا ما يُعبر الشعراء عن حزنهم بفصل الخريف، إذا لم تسقط الأوراق بالخريف هل سيكون للربيع تلك البهجة؟ وهل إذا بقيت الأوراق ولم تسقط أيُمكنها أن تُجدد حياتها من تلقاء نفسها؟ إن لم تسقط الأوراق بالخريف فلن يكون هُناك ربيع ولن تعيش الشجرة عمرًا كهذا الذي تعيشه وتنتج ثمرًا شهيًّا كهذا.

جفت ثمار الأمل وسقطت أوراقه وأجدبت أرضه ثم جاء ربيع الحب ليُعيد له سيرته الأولى، عادت الثمار واخضرت أوراقه وتغنت بحفيف الحمد "قد كُنا في غفلة من هذا حتى أتانا اليقين"، إنها سعادة تغمرالروح جراء انغماسها في ماء الحياة، هذا الذي ذهب جنود الخضر يبحثون عنه أسقطوا فيه الأرنب الميت فدبت فيه الرُوح فذهبوا ليُبشروه أنهم قد وجدوا عين الحياة، عين الخلود، الحب عين الحياة تلك ولكنها ليست متوفرة بمكان أو زمان خارج عن الجسد، عين الحياة هي القلب، فقط إن أردتها يجب أن تبحث في قلبك مُستقلًا سفينة الروح الصامتة صابرًا على تلك المسافة التي تطول وتقصُر حسب الجد في طلب الانغماس فيها، فطريق المحبة الذي هو طريق القلب يخرق العقل كالذي خرق السفينة لا ليُغرق أهلها بل لينقذهم من السرقة، ويحدث أن تغوص بك السفينة جراء عُلو موج النفس، وحين تظن أنك هالك لا محالة تُلوح بآخر أصابعك الجافة من الغرق يأتي الحبيب وينتشلك لتعود وتركب السفينة بسم الله مجراها ومُرساها.. دائمًا حين أكتب عن الحب لا تسعه حروف ولا تسعه مُذكرتي.

إنه شهر شباط من العام 2008، و أنا جالس مع الذاكرين بعد أن أنهوا الذكر الجماعي و انشغلوا يذكرون فُرادى و أنا أفكر كيف يُمكنني أن أتبنى يحيى؟ وأحترق حُزنًا لذلك؛ إذ لا بد أن أكون عر اقيًّا كي أتبنى ذلك الطفل مما جعلني أخشى أن أُنكث عهدي مع ماري و أتنحى عن أبوية طفل يتيم يحمل دمها وحُلمها، إضافة إلى ذلك لم يعد لديّ

عمل أو مسكن كي أضمن للطفل عيشة كريمة. يا إلهي يا من شققت البحر لموسى ومن معه وجعلت بطن الحوت ليونس خُلوة، اجعل لي من أمري مخرجًا.

كان الصمت سائدًا إلا من حفيف الذكر، الكُل مُستغرق في ورده يطير فوق بساط مسبحته و أنا مُستغرق في نفسي، قد فهمت كُل شيء يدور حولي إلا نفسي، ما زلت أركض خلف الضوء ولا ألحقه.

حضر الشيخ مُشيرًا إليهم بعدم الوقوف ولكن قلبي وقف فرحة بلقائه, كيف لإنسان أن يمتلك زمام قلوب الحضور ويذهب رجس الدُّنيا عنهم حين يحضر؟ إن الحب وحده هو من عنده تلك الإجابات ولكنه يرفض الإدلاء بها ويذرها مُعلقة مُحيرة بشجرة التعلق.. جلس الشيخ مُتكئًا بذقنه على عصاه ناظرًا للكُل وقال:

"وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ * وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا * وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا" (الكهف)..

- القرآن يطلب منّا الصحبة الصالحة. فإذا وجدتموها فلا تتركوها، وتلك نعمة يمُنّها عليكم ربكم فإنها العروة الوثقى لا تضيعوها، أنتم فقراء إلى تلك النعم وقليل من يهديه ربه إلى ذلك السبيل وإن هُديتُم فلا تُزكوا أنفسكم وتظنوا الخير بكم فينهشكم الغرور فتهلكوا وذلك دأب الكثيرين.

كان يتحدث بلسان قلبه لأجل ذلك لم أحفظ حديثه عن ظهر قلب. قد حفظته بعين القلب فغاص بالحواس. وكأنه في هذا العالم أنا الوحيد الذي سأفهم عنه. ولن يتمكن من إيصال حديثه للآخرين إلا ممن سقوا ماء الحب من كأسي نفسه، خُيل إليّ أن هُنا فقط تذكرة الدخول للحب.

قضيت ليلتي أتلوى من مسّ الحب النوراني، رأيت في ذلك كيف النار نوعان؛ نار تهدم لا تبقي ولا تذر، ونار تبني وحريقها له رائحة المسك وحفيفها له صوت موسيقى الناي. وجدت سلوتي و أنسي و اكتمال بدري وأصعب اللحظات هي بخس قدر ما تملك.

أولئك الناس البُسطاء الذين هجروا الدُنيا فهجرهم كيدها هم سُلالة الحب التي لا يوجد في قاموسها الكره، التي تضرم الضوء في ظُلمات البشرية والتي تسقي الطين

البشري بماء الحياة دون أن يتخمر وينتن ريحه، إنهم أهل الحب والسلام, السلام الذي هو رسالة كُلّ الأديان.

هل هذه حقيقة أم ضرب من الخيال يُحاصرني, أو حين حدقت بضوء الحياة مُجددًا أصابني العمى؟ هل كُل هذا محض تلبيس أم إنها الحقيقة؟

أشرقت الشمس وكان الصباح باردًا يحمل معه سلامًا ممن رحلوا، شم ريح ماري وناداه تُرابها أن أقبل نحوي، ذهب إلى شاطئ النهر حيث صنع لها أصغر قبر بالتاريخ بعد أن حرمه موتها الطاعن في السوء حتى فُرصة الأنس بقبرها.

- ماااري يا صغار الكناري، أتعلمين أقسى البوح هُو ذلك الذي يخرج بعد حشرجة طويلة يُنازع فيها بين قضبان الحنجرة وحين يخرج تكون الحروف قد أصبحت أشلاء، أتعلمين قسوة التفوه بكلمة "أُحبك" لميت؟ إنها تُشبه تلك القُبلة التي يضعها المُحب على جبين محبوبه المُدثر بكفنه الدافئ, إن طعم تِلك القُبلة لا يبرح المُودع أبدًا, كما لن تبرح كلمة أُحبك زمانها ومكانها هذا أبدًا, ستظل مُقيدة بهذا الزمكان يا ماري.

أخذ صالح يرفع ذرات التُّراب الصغيرة التي تتطاير مع الهواء, نظر للحفرة وقال بصوت تأوه:

- حبيبتي لقد ضاع مني كُل ما ادخرت، ضاعت خواطري، تشظت معك، ضاعت عيناكِ بالشفق وقلّ شغفي للرحيل, لم أرحل حيثُك, ما استطعت اللحاق بركبك سامحيني, ثُم نظر للنهر الجاري وقال بصوت كالصراخ: اشتقتُ لعينيكِ.

خرّ بجنبه على الأرض باكيًا كعجوز عقه ابنه، سمع للفور منه السباب، عيناه تذرفان الدمع بسخاوة وكتفه يعلو ويهبط مع صياحه، يرفع التُراب بالهواء كما لو كان التُراب غطاء سيقيه سُخرية الناظرين، مع أن الشاطئ خالٍ تقريبًا من المارة، ثُم داهمته فكرة لم يُرددها بمُخيلته كثيرًا، خلع ثيابه برغم برودة الجو ونزل بالنهر يغتسل كالذي يُريد الغُسل من جنابة الحُزن والخلاص من الحداد الذي ترتديه ذاكرته، الشمس ساطعة زاهية ضاحكة مُستبشرة وصالح يتجرد من حُزنه كما تتجرد الحيات من جلودها، يصرخ "ماري" كالذي يُريد بصوته العالي اقتلاع جذورها من روحه وخلع ذكراها من كيانه وهو ما زال لا يكسب الرهان.

خيالها يركض فيه كالفرس العربي، والحنين يجعلك تفعل الحماقات بفوضى دون وعي, يجدف بذراعيه ويصرخ "ماري" حتى تعبت، تورمت كتفاه وبح صوته وأخرج كُل صرخة كانت في قلبه مُحتجزة لحين بلوغه أشُدّ الهوى.

خرج من النهر مُطأطئ الرأس, خجلانًا من حزنه مُتعبًا من شهوات الأمل المفتون بها، أقسم أن لا يعود لمثله أبدًا, تاب عن خطيئة الحزن الذي خجل منه، ولكن الحُزن من أسباب الحياة كما هو من أسباب الموت، ارتدى ثيابه، وكُل ما كان يدور في خلده بعد نوبة الحزن تلك هُو أن يعود لعمله كمصور وأن لا يترك الموت والحزن العابران يسرقان منه لحظة التقاط الفرح، فكل شيء ما هو إلا لقطة، والصورة هي تلك اللقطة العابرة التي تأتي خلسة، الصورة هي أشبه بتلك الفترة الزمنية ما بين الميلاد والموت، هي لحظة الدهشة التي لا يُتقنها إلا طفل, كيف أتخلى عن إغراء دهشة الطفولة التي أشعرها وقت التقاط الصورة؟!

سأعود لأحمل آلة التصوير، نعم هي سلاحي، وسأعود لأقف على جبهتي وأموت و أنا أحمل وسام الصورة، قد ذاق جسدي الموت حتى ألِف طعمه، لن يخاف موتكم الذي تجبلون.. تنفس هواء التحرر من الحُزن وتقدم في بسالة للأمام حاملًا نعش الذكريات إلى مقبرة المُستقبل.

كانت الشوارع يملؤها ضجيج مُحركات السيارات وأصوات أبو اقها وأصوات الباعة وصوت دمدمة الريح الباردة، كان يمر بين السيارات والشاحنات كالنعامة خفيفة الخُطى مفرودة الجناحين لا يسمع بين كُل ذلك الضجيج سوى صوت قلبه ولا يرى سوى السحاب المركوم، ثُم أمطرت السماء كما لو أن السماء قد ثُقبت تسقط كسفًا من المطر الذي أغرق الطُّرقات وأسكت صوت الباعة وصوت الرصاص وغسل هياكل السيارات والأشجار والمنازل المُتبقية بما يليق ببريق الحياة, ذات صدفة كونية مُحتفلة رائعة.

فَرَدَ جناحاه للمطر، يدور في صمت ونشوة، ينظر له المارون في سُخرية لكنه لا يهتم, وصل إلى الفندق الذي تركه يومين دون أن يسدد فاتورة اليومين، وقف يقطر ماء أمام موظف الاستقبال الذي تسمّر مكانه ينظر في تعجب، ثُم أخبره بأن عليه دفع يومين سابقين ويومين قادمين، أمام هذا الموقف الصعب طلب أن يترك لهم جهاز الحاسوب

الذي يملكه والذي كان قد تركه بغرفة الفندق ضمانًا لعودته بالمال.. سلّمه الموظف المُفتاح، صعد للدور الثاني وفتح الغرفة ثُم الخزانة أخرج ثيابًا ليرتديها، نظر لآلة التصوير في الرف العُلوي أخذها وحملها على كتفه كالذي يُجرب حملها مُجددًا بعد طول غياب ثم وضعها بمكانها، ذهب ليغتسل، بعد ذلك حمل جهاز الحاسوب الذي يحمل كُل صوره التذكارية مع صاحبيه، سلمه للموظف أملًا في أن يعود معه المال ويفك سراحه.

هدأ المطر وزال النقاب عن الشمس في عصر النهار، وقف أمام جريدة مكتوب عليها "جريدة الرأي الحُر". ما أكثر الأسماء وأكذبها في عالمنا العربي!.. قال صالح وكأنه يتحدث للعنوان ويسمعه, دخل بعد أن فتش موظف الأمن جيوبه ورأى إثبات شخصيته ومطّ شفتيه بالقبول: أُريد أن أحصل على عمل، هل يوجد فُرصة عمل شاغرة هُنا؟.. قال لمن أخبروه بأنه المُدير.

رفع الرجل فنجان القهوة إلى فمه دون أن ينظر لصالح وقال ببرود: لا.

شكرًا.. قال صالح ثُم أدار وجهه للباب وحين تقدم خطوة للأمام قال الرجل: انتظر, ما مؤهلك؟

- لقد درست الإعلام وكُنت أعمل مصورًا في وكالة أنباء...

- حسنًا يُمكنك العمل هُنا كمصور ولكن سوف تخضع للتقييم مدة يومين.

أومأ صالح بالقبول فرحًا، ثُم حمد الله أخيرًا: سوف أعود للعمل، قضى يومه يبذل قصارى جُهده كي يُثبت جدارته. عاد بالمساء ليعرض على مُدير الفُندق أن يعمل في الفندق حتى يُسدد ما عليه فقبل، أخذ يمر على الغرف يجمع الشراشف والملاءات وأكياس المخدات ذات الرائحة الكريهة يذهب بها إلى المغسلة. وهُناك عليه نقع الغسيل ثُم غسله بالماء الحار لتخرج منها الأوساخ وجثث البق التي تكومت على الشراشف القُطنية. أثرالرطوبة وجراء اختلاط أنفاس العابرين على المكان وتباينها.

بالصباح عاد للجريدةِ فأخبره المُدير بقبوله كمصور ولكن لن يصرف له راتبًا حتى انتهاء الشهر مما جعله يستاء، فهو رُبما لن يستطيع أن يُحرر حاسوبه من قضبانه و أيضًا عليه أن ينتظر شهرًا آخر حتى يستطيع زيارة يحيى.

أمام هذه الخيارات القاسية لم يكن أمامه سوى أن يبيع حاسوبه، عند المتجر وقف حزينًا خائبًا مُترددًا، لكن لم يمهله ضيق الوقت المزيد من التردد، وعندما قام بعرضه على صاحب المتجر قلّبه بقرف كما يفعل كُل مشترٍ ببضاعة مُزجاة: هذا نوع قديم للغاية ولن يبلغ ثمنه أكثر من أربعين دولارًا.. قال الرجل بصيغة مُبالغ فيها.

هذا كُل ما تبقى لي من إخوتي ولولا أن هذا آخر الحلول ما فعلت.. قال صالح بتحسر.

اسمع أنت مصور أليس كذلك؟.. سأل الرجل صالح وهُو ينظر لآلة التصوير المُعلقة على كتفه.

بلى، لكن لا أُريد أن أبتاع تلك الآلة.. قال صالح وهُو يهز رأسه ويمسك بيديه حقيبة الكاميرا.

- لا أُريد الآلة، لدينا عُرس وينقصنا المزيد من المُصورين وسوف يدفعون لك حال انتهائك.

- حسنًا أشكرك، أعطني العُنوان ورقم الهاتف أذهب إليهم.. فأشار الرجل إلى شاب يجلس أمام الحاسوب أن يصطحبه إلى المكان فخرج من مكانه وأخذ مُفتاح سيارة، ذهب صالح للحفل يتمطى، ثُم عاد بآخر الليل مُنهكًا ينتظره الغسيل وحين رأى الموظف أعطاه مبلغًا من المال يؤمن له يومين ثُم ذهب إلى الغسيل.

إنه لا يشعر بالنُعاس الذي كان يتوقعه، بل دبّ فيه النشاط، شعور جميل يعتريه، شعور بالشوق لمُلاقاة الشيخ بدر والاستماع لحديثه العذب أشد وطأة من الشوق لوطنهِ وإلى صاحبيه حتى هُو لا يعلم لماذا يشتاق إليه هكذا؟ وكأنه قربة الماء الباردة في سفر بظهيرة صيف بطريق في الصحراء، هُو الأنس بطريق مُوحش مُقفر، هُو المُشكاة بطريق مُظلم، هُو البدر بليل عارٍ من الضوء، هُو الوطن الطيب الذي ينتشله من بين مخالب الغربة.

أنهى كُل أعماله سريعًا وهُو لا يدري كيف أنهاها؟ ذهب يستبق الخُطى يتدحرج الشوق في قلبه يضرب بعضه بعضًا كوقع خفق حذائه فوق الحصى.

وصل في الفجر إلى المكان الذي يجتمع فيه الحضور فلم يجد منهم أحدًا غير آيات الذكر المُعلقة، شعر بروعة لقاء غريب خالٍ من الحضور ماديًّا لكنه مُمتلئ بالحضور

حسيًّا، وكان يظن أنه لن يأنس إثر فراغ الحضور من المكان ولكن بعض الظن إثم، جلس يؤدي صلاته الصامتة يتلو في سره ما رُزق من ذكر "لا إله إلا الله. لا إله إلا الله"، يُقلب رأسه بين السماء والأرض.

تأمل ساعة خير من قيام ليلة.. قال الشيخ بصوته الهادل، فقام صالح مذعورًا لا يدري هل يراه حقًّا أم الخيال قد جنّ عليه كما في سابق أمره؟ لكنه لم يعرف الإجابة حيث أبلغه الرسالة وغاب عن نظر العين بعد أن ظهر برهة أم تراه ظهر العين القلب؟ استأنف صالح ذكره الصامت مُتلذذًا بأنعم الله عليه حتى جاء موعد عمله في الجريدة في الثامنة صباحًا.

......

مر شهره الأول في العمل وبعد أن حصل على الر اتب كان أول ما سيفعله التوجه إلى ملجأ الأيتام كي يزور يحيى بعد عام وثلاثة أشهر، حيث يحيى على مشارف عامه الثالث، وهذه المرة سوف يزوره مُنفردًا ولكنه ليس حزينًا جدًّا كما السابق، هو مُتحمس ليرى طفله, القطعة الأخرى التي تتبقى من حبيبته.

دخل الملجأ يبحث بعينيه عن طفل يسير بعربة صغيرة كي يتعلم السير يُلوّح بيده الخالية من الأصابع إلا عن عقلة صغيرة، من بين طفل باكٍ وطفل يجري وطفل يقفز وآخر يضرب صديقه، يتلفت صالح ناسيًا أن ذلك الطفل قد تخلى عن تلك العربة وعن تلويحة يديه فقد كبر هذا العام وأصبح يسير وحده ويحمل الألعاب ويتحدث بكلماتٍ مُفصلة بعض الشيء.

حين وقع نظره على طفل يجلس بركن مُنفصل، يضرب لعبته في الأرض بعنف بيده السليمة ويده الأخرى مُعلقة بالهواء، إنتفض قلبه، ذهب وجلس أمامه قرفصاء، لم يكن من الطفل سوى أن يضرب ذلك الرجُل المُتطفل بلعبته ويمضي هاربًا منهُ يختبئ خلف عمود قريب ينظر بعينيه مُر اقبًا ردة فعل صالح الذي أضحكه ذلك كثيرًا ثُم صمت فجأة عن الضحك إثر عبور مسحة حزن سريعة على قلبه, كم كانت ستفرح ماري عِندما تراك تكبر أمام عينيها؟ وكم كانت ستفرح بتلك الأفاعيل الصغيرة؟!

أخرج لُعبة صغيرة تُحدث صوتًا موسيقيًّا كي يُغري الصغير بها ليعود من خلف مخبأه، فُبرز الصغير نصف وجهه من خلف العمود ثُم وجهه كاملًا ثُم عاد واختبأ مُترددًا

خوفًا من العقاب، فقام و اقترب منهُ، مدّ لهُ يده باللّعبة فأخذها الطفل ونظر إليها مُعجبًا ثُم جاء طفل صغير واختطفها منهُ، ركض يحيى خلفه كي يستعيد لُعبته في جُرأة أُعجب بها صالح، ظلّ و اقفًا مُبتسمًا ثُم انتبه إلى الأطفال من حوله الذين ينظرون له ينتظرون دورهم بالهدايا, مسح على رؤسهم واحدًا تلو الآخر وأخذ يُداعب هذا ويمسك ذاك من خديه ويُدغدغ ذاك وهُو يُر اقب يحيى بعينيه.

...

مرّت ستة أشهر وهو يعمل بالجريدة ويذهب للذكر ويزور يحيى، أصبح معه من المال ما يُمكنهُ من العودة إلى وطنه ومن تبني الطفل يحيى لكنه لم يستطع فعل ذلك لأنهم لن يسمحوا لشخص غير عراقي أن يتبنى طفلًا عر اقيًّا ولن يستطيع أن يعود به إلى وطنه، كما أنه لن يستطيع أن يتركه؛ إذ لم يتبق له في الدُنيا سوى صالح، كما أن صالح يعتبر الطفل آخر ما لديه وأمانة قد ألقتها ماري على كتفيه لن يستطيع أن يخونها أبدًا.

جلس مهمومًا يستند بظهره إلى الحائط يُردد بلا صوت مع الحضور الذكر، ثُم فوجئ بيد تربت على فخذه, وحين رفع وجهه وجد رجلًا أبيض الشعر رغم شباب ملامحه يبتسم لهُ قائلًا:

- ما بك يا أخي؟

- تلعثم مُترددًا ماذا سيقول ثُم قال: أُريد أن أُتبنى طفلًا من ملجأ الأيتام لكنهم لن يقبلوا.

- لا بأس أخي، سوف أُساعدك في ذلك إن شاء الله.

- حقًّا؟ أشكرك، سيكون ذلك فضلًا منك.. قال فرحًا ثُم نُودي للصلاة فقام الجميع.

بعد انتهاء الصلاة جاء الشيخ وجلس بين الحُضور:

"فأينما تولوا فثم وجه الله". ليس المُهم أن تكون في المكان الذي تُحب ما دام المكان الذي تُحب فيك, لا تأسواعلى الأماكن التي تتركوها وقد حملتموها في قلوبكم.

شعر صالح بالأريحية لذلك وفهم أن الشيخ يُشجعه على الذهاب لوطنهِ، قال في قلبه: ولكن الفُراق صعب سيدي، كيف أُفارقكم وقد وجدت عندكم كُل ما فقدت؟

قال الشيخ وكأنه سمع صوت قلب صالح: "يقول المُحبون الوداع لا يقع إلا لمن يعشق بعينيهِ، أما ذاك الذي يعشق بروحهِ وقلبهِ فلا ثمة انفصال أبدًا".

شهق صالح بتأنٍ وفهم عن شيخه العبارة والإشارة والرسالة، طلب من الله أن يُرزقه الصبر.

"اذكروا الله كثيرًا يا أبنائي، إن الذكر هو مفتاح الوصول لا تُضيعوه فتضيعوا في ظُلمات الحياة".. قال الشيخ ثُم أدار وجهه صوب صالح وقال: "صالح، لا تترك لا إله إلا الله فهي كلمة التوحيد والتوحيد كلمة الحب والحب هو الوصال والوصال هو الاتصال والاتصال هو الانتصار، هكذا تخرجون من الدُنيا بلا ندم".

انتهى الجمع وأخذ صالح رقم هاتف الرجل الذي عرض عليه أن يُساعده، اتفقا على اللقاء بالصباح أمام ملجأ أيتام الصغار، انتهت الإجراءات بسرعة لم يتوقعها صالح، خرج من الملجأ في يده يحيى مُتجهًا به إلى قبر ماري كُي يُخبرها بأنه قد وفى بوعده ويُريها كيف يحيى كبر ويقص عليها ما حدث.

في المساء جلس يُرتب أموره, كيف سيأخذ الطفل ويهرب بهِ, أمسك هاتفه، طلب الرجل الذي ساعده في خروج يحيى من الملجأ يستفسر منهُ في أمره، أخبره أنه يستطيع السفر بصحبة الصغير برًّا من الرمادي إلى سوريا، و إنهُ يستطيع مُساعدته، ما عليه سوى تحديد اليوم الذي يُريد العودة فيه ثم يُعطيه هوية تساعده على عبور السيطرات.

''''''

يوم تحديد السفر هذا كان أصعب ما في الأمر، إنهُ يوم الفُراق وإن كان القلب لا يُفارق فالعين لا يرويها سوى تجسد الحبيب أمامها بهيئتهِ, أصعب أيامي هو ذلك اليوم الذي كان آخر أيامي مع صُحبتي، وأصعب الليالي هي تلك الليلة الفاصلة بين نهار الحضور وليل الفراق، كم ساعة فقط سوف تفصلني عن أجمل فصول الرو اية, وأعود لوطني عاجزًا أن أكون فرحًا، على نقيض يوم المجيء، كُنت أتمنى أن أُنهي مهمتي سريعًا وأعود لكن الآن قلبي تقلب بين أصابع الحب فلا طاقة له على الهجر، بنى لي الحب موطنًا جديدًا يُشعّ حنينًا، من بين رهط من الموتى وجدت حياتي ومن بين رهط من الأحياء وجدت موتي.

أثناء تقلبه بين الخواطر حدث له طنين بأذنهِ يشبه صلصلة الجرس، لم يسمع غير همس بين الحضور، انتظر الشيخ بدر لكنه لم يأتِ كأنه لا يُريد وداعه أو لا يؤمن بالوداع، هل غيابه رفقًا به؟ لا يدري صالح، جاء يُودعه فوجد أنه يودع نفسه ويصطحب الجميع أينما توجهت ركائبه.

أمام سيارة الهجرة وأمام الرحيل وقف يحمل حقيبته ويمسك بيده صغيره، ينظر خلفه مُودعًا جسده الذي سقط هُنا قتيلًا ثُم عادت له الحياة مُجددًا، كُل عُمره كان هُنا، كُل حُزنه، كُل فرحه، كُل تكوينه.. صرخ الرجل الو اقف أمام السيارة: أنت هيا. بعد أن أنهى حديثه مع أبيض الشعر يشرح لهُ أمر السفرة، تمسك صالح بيد يحيى ورفع حقيبته، تقدم الرجل نظر إلى هويته ثم رفع وجهه الحبشي الذي يشبه ليل تلك المدينة لصالح يتعجب من أمره.

هذا شاب طيب أوصيك به, سلّمه بيدك لسائق الشاحنة التي سوف تقله لسوريا.. قال الدرويش للحبشي ثم ودع صالح مُعانقًا وكأنه يودع ابنه المُسافر.

نظر خلفه بعد أن اختفى جسد الدرويش المودع في الظلام، كانت المدينة صامتة في هذا اليوم جدًّا، لوح لها مودعًا، رأها حزينة ترتدي حداد الظلام الأسود تبكي في صمت بلا دموع..

مع السلامة يا مدينة الحب، جئتك كارهًا وتركتك عاشقًا.

ركب السيارة، أجلس يحيى على فخذيه وغطاه بملاءة، كان مُسالمًا في ذلك اليوم جدًّا كأنه راشد ويعلم كيف يكون أدب السفر، من خلف زجاج النافذة نظر مرة أخرى للمدينة الغارقة في الظلام إلا من بعض الأضواء فوق الأعمدة خافتة كالنجوم الأرضية، صوت المُحرّك يهز وجدانه يؤرق صمته ونومه، لا يدع له فُرصة استحضار الذكريات بترتيب الصبر.. إلى أين أنا ذاهب؟ وأي مصير ينتظرني؟.. تحركت السيارة وغاصت في الشوارع وبقلب صالح غاصت المدينة بمن فيها، قد بنى لها في قلبه سياجًا من زُبر الحديد لن ينقبه ناقب.

استسلم خياله للنوم حتى صحى على صوت السائق يقول: هل تُريد طعامًا أو الذهاب لدورة المياه؟ نحن بالقرب من استراحة.

فأجاب يحيى نيابة عنه: نعم.

نزل صالح وبيده يحيى من السيارة، أمام دورات المياة وقف يفتح البنطال ليحيى كي يستطيع أن يقضى حاجته، ما زالت خبرته بتلك الأمور في مهدها، ترك الطفل يدخل وحده وحين خرج كان بنطاله مبلولًا مما جعل صالح يشعر بالاستياء، أمسك بيد يحيى وذهب حيث السيارة ليحضر له بنطالًا آخر ثُم عاد ووقف أمام دورة المياه يُغير له البنطال المُبلل, شعر برغبة في التبول فطلب من الصغير أن يقف بمكانه ينتظره حتى يخرج لكنه حين خرج صُعق لأنه لم يجد الصغير, خرج من دورة المياه يتلفت يمينًا ويسارًا وينظر هُنا وهُناك ثُم عاد لينظر داخل الحمامات المفتوحة يبحث عنهُ لكنه لم يجده، وعندما يئس أن يكون هُنا خرج مرة أُخرى يبحث في زحام المارة والمقهى والمطعم, ينظر بالطرقات هُنا وهُناك مُتحيرًا حزينًا حتى لاحظ وجوده بجوار بائع ألعاب فهدأ قلبه المُضطرب، أخذ نفسًا عميقًا ثم اقترب منه و انحنى يمسك بيده كالذي يحثّه على الثقة به وقال: هل تُريد هذه اللعبة؟

هزّ الطفل رأسه أن نعم.

حبيبي يحيى لا تذهب وحدك بمكان مرة أُخرى, الأولاد الطيبون لا يتركون أهلهم ويذهبون بمفردهم ها.. هز الطفل رأسه بقبول النصيحة.

جلسا على الطاولة بالمطعم، لا يدري ماذا سيطلب رُبما الطعام هُنا غير جيد, نظر لمن حوله ونظر لطاولاتهم، يجمع معلومات مرئية عن الطعام الذي اختلطت نكهاته ببعضها، بين بصل وثوم وصلصة، ثم قرر أن يأكل دجاجًا مشويًّا على الفحم، طلب وجبتين مع العصير, وكان يحيى يُحرك قدميه الصغيرة فوق الكُرسي تعبيرًاعن فرحته بأجواء جديدة عليه، وسفرًا يأخذه من ضجيج الملجأ ومحاربة الأطفال وصُراخ المُربيات.

قطع صالح الدجاجة المشوية قطعًا صغيرة مع الأرز وناول يحيى الملعقة يشجعه أن يتناول الطعام وحده, شعر بالسعادة حين رأى يحيى يستطيع إطعام نفسه جيدًا، ذكّره هذا المشهد بذكرياته مع سعيد، لمعت عينيه بالدمع، كيف يكون لسعيد يد أو رأي في قتل ماري وغيرها ويحرم صغيرًا من أمه وأمًّا من صغيرها، ويحرم صديقه من فرحة عمره؟! كيف تكون الحياة لدى بعضهم هكذا دموية لا حب فيها ولا سلام؟!

أنهى الصغير وجبته وعصيره سريعًا وأخذ يضرب بقدميه الطاولة من أسفل, لم ينتبه صالح له لشروده وحين انتبه ابتسم له ثُم أخذ يتناول الطعام على عجلة من أمره,

ثُم اصطحبه و اتجه إلى السيارة، جلس بمقعده بجوار السائق، وضع يحيى على حجره، نام الطفل قريرًا وأخذ صالح ينظر للطرق السريعة التي تمر كالبرق خارج النافذة الزُجاجية, نظر للسماء كانت تُغطيها سحابة تصحبه بطريقه، بيضاء خفيفة نقاؤها يُشبه وجه الشيخ, ابتسم فرحًا وشعر بالطمأنينة من ذلك الذي لا يتركه أينما حلّ أو ارتحل.

فرشت الشمس الأرض بغطاء ساخن من خيوطها المُتدلية كأنها ألسنة اللهب، وصلوا إلى مدينة الرُمادي، وقفت السيارة ونزل السائق، قال بصوت أخن يخرج من أنفه وكأنه مُصاب بنزلة برد لا تنتهي: سأعود عِندما أجد سائق الشاحنة الذي أعرفه و أثق به، لا تقلق إن تأخرت قليلًا يُمكنك النزول والتجول بالطفل.. ثُم رفع إصبع التهديد قائلًا: لكن لا تبتعد عن هُنا, فأنا لست مسئولًا عن أي مكروه قد يُصيبك. لكنه لم تكن هُناك فُرصة لنزول صالح وتجوله، فقد عاد السائق سريعًا، وقال انزل لمضيفةٍ قريبةٍ من هُنا حتى يستعد سائق الشاحنة للسفر.

الجو رائع برغم حرارة الشمس، لكن نسمات البحيرة القريبة قد غيرت من حدتها, أمام أحد المنازل الواسعة، وقف السائق يرمي السلام على جلوس يرتدون زيًّا بدويًّا، ثوبًا أبيض وعقالًا فوق الرأس، رحبوا به كأنهم يعرفونه وبينهم صلة قرابة تنفيها ملامح الرجل نهائيًّا، يبدو أنهم يحتفظون بعادة العرب القُدامى بإكرام الضيف، جلس السائق وصالح ويحيى، أحضروا لهم الماء رحمة بسفرهم ثُم القهوة، قام يحيى فرحًا بالمكان، يجري ويلعب ويقطع الأوراق الخضراء من الحشائش وبراعم زهور الثمار، كان الحضور يتحدثون بما لا يفهمه صالح ولا يسعى لفهمه، كان غارقًا في حديثه مع نفسه يسأل ويجاوب يُرتب بخياله كيف سيعيش مع يحيى؟.. حتى أذن لصلاة الظهر فقاموا وصلوا جماعة وصلى معهم، ثُم أحضروا الطعام؛ طبقًا كبيرًا من الأرز فوقه خبز منقوع بالمرق ولحمة خروف، اتضح ذلك من ريحتها المُميزة قبل أن يُتذوق طعمها.

نادى الشيخ الكبير على يحيى وأجلسه على فخذه، مما أشعر صالح بالفرح وأخذ يُطعمه، تناول الطعام وكان شهيًّا لم تعبث به النكهات الاصطناعية ولا المواقد الغازية، بعد الغداء أحضروا لهم الشاي العراقي المُميز ثُم أخرج السائق الذي أتى بصالح إلى هُنا هاتفه فعلم صالح أنه يتحدث إلى سائق الشاحنة الذي سيأخذه إلى سوريا،

رمقه بنظرة رضا أن حان وقت الرحيل، قام السائق وسلم على الحضور، وسلم صالح عليهم مُودعًا لهم شاكرًا لهم كرمهم، ثُم حمل حقيبته وطفله وسار خلف السائق الذي تقدمهما, وخلف لوحة مكسورة وقفوا حتى جاءت شاحنة كبيرة تحمل أغنامًا وماعزًا، وقف السائقان يتحدثان في هدوء ويهزان رأسيهما معًا وهما ينظران لصالح، ثُم أشار الأول إلى صالح بالصعود إلى الشاحنة، رفع يحيى ثُم حقيبته وركب بجوار سائق بدين مُربع الوجه كثيف الشارب, ابتسم له فبادله الابتسامة، نظر للسائق الأول وكان ما زال و اقفًا ففهم ما يُريد، أخرج له مبلغًا من المال فأخذه، رفع يده بالشُكر والوداع معًا ثُم انطلقت الشاحنة وأرجل الماعز تصطك ببعضها من الخلف، أصوات ثغائها تسرقها الريح.

لا يبدو لي أنك عراقي إيه؟.. سأل سائق الشاحنة ذلك السؤال الذي كان صالح يترقبه منذ صعوده.

لا لستُ عر اقيًّا، لكني مُضطر للسفر منها هاربًا.. نظر السائق ليحيى، فأحاط صالح يحيى بذراعه كأن النظرة سوف تخطفه منه.

لكن لماذا تهرب؟ الهروب قدر العر اقيين فقط، فهم يُطردون من بيوتهم ويُهجرون أما أنت فما قصتك؟.. سأل السائق بنبرة فضول لم يستسيغها صالح.

تتشابه الأقدار أحيانًا بين القادمين والقابعين بالمكان ذاته.. أجاب مُحاولًا قطع خيط الحوار حول تلك النُقطة بينه وبين السائق، فصمت السائق فترة حداد على هذا القطع ثُم تحدث معه عن طبيعة عمله مع تاجر مواشٍ وعن المخاطر التي يتكبدها في سيره هذا، وكم من مرة تعرض فيها لضرب النار من لصوص ومن الشرطة عن طريق الخطأ ولكنه يظل يعمل لكسب العيش، وتحدث معه عن موت أخيه و أبنائه بحرب أمريكا، وموت جاره على يد مُسلحين وعن الجنود الأمريكيين واغتصابهم لنساء العراق.. شعر صالح ببرودة تتسلل لأنامله، فرك يديه معًا وقد استبد به الجزع من أحاديث ذلك الثرثري المُتلاحقة فقال بصوت مُنهك يطلبه الصمت بذوق: أشعر بصداع، هل لديك حبوبًا مُسكنة؟

- نعم أجلب معي، تفضل.. أخذ الحبة و ابتلعها مع الماء.

في غروب الشمس ظهرت معالم مدينة رقيقة, إنها مدينة البوكمال، صحراوية ريفية نقية أهلها يمرون بالطرق مثل الطيور على ضفاف الأنهار، حقولهم خفيفة طيورهم مُحلقة، كان موسم القمح انتهى والأرض مغروسة بأعواد نبات القطن المورقة قليلًا لم تُزهر بعد.

كان يحيى نائمًا على كتفه وصوت أنفاسه الصغيرة يُشبه زقزقة عصافير سوريا، أمام مبنى كبير توقفت الشاحنة بعد اتصال السائق بالتاجرالذي سيستلم رؤوس الأغنام والماعز، خرج رجل أشار إلى السائق أن يتبعه ثُم أمام حظيرة كبيرة نزل السائق وفتح باب الشاحنة فنزلت الخراف والماعز فرحة بالإفراج عنها لا تُدرك أنها تقضي أيامها الأخيرة قبل ذبحها وتوزيعها على المذابح والمطاعم.

فرغت الحمولة ثُم اتجه السائق وغاص في الشوراع إلى دير الزور ثُم توقف أمام فندق قديم، قال: هُنا يُمكنك المبيت تفضل. سلّم صالح على السائق وودعه مُصطحبًا حقيبته ويحيى في يده.

دخل صالح إلى الفندق، كان هُناك الكثير من الحضور جالسين عليهم غبار السفر وملامح الغربة، نظر إلى مكان موظف الاستقبال فلم يكن بمكانه، أخذ الحضور يكثرون من الثرثرة بلا حساب على إحدى الأرائك جلس، طبق الملاءة كوسادة تحت رأس يحيى كي يجلس مُستريحًا من تعب السفر، أخذ الحضور يتحدثون عن مُعاناتهم بالسفر وتركهم لبيوتهم، كانت قصصهم جميعًا مُرعبة، منهم من ترك بيته حين رأى ورقة بيضاء عليها بقعة دم وتلك كانت إشارة لصاحب البيت أن يُغادر، ومنهم من جاء سوريا ليزور أقرباءه, ومن جاء بحثًا عن السلام وعُمر آمن بين ياسمين دمشق الذي ستنحرة الفرقة وتكون سوريا أسوأ حالًا من العراق.

نظر خلفه نوعًا من الفضول يُر اقب صراخ الأطفال الصغار وتذمر والديهم وطقطقة عُلب المياه، كُل هؤلاء هربوا من شبح التفجيرات وأخطبوط الموت الذي يحط بحجمه العملاق على سماء العراق، كم تركوا من جنات وعيون ونعمة كانوا فيها فاكهين قبل هجوم طاغوت أمريكا، ليعيشوا هُنا غرباء على الحدود بين الوطن والجار سوريا، البلد العربي الوحيد الذي قَبل بقدومهم نوعًا ما فجاءت بعض العو ائل التي اتفقت مع

أقاربها على لقائهم بالفندق واصطحبوهم مُسلمين مُرحبين يشبهونهم في الملامح واللهجة الريفية حدّ التطابق.

أقبل موظف الاستقبال، فقام صالح يتحدث إليه ويسأله إن كانت توجد غرف فارغة؟ فأخبره بوجود غرفة أرضية لفردٍ، سلّمه مفتاحها فأخذه ودخل الغرفة، أفرغ الحقيبة وأخرج بعض الطعام الذي كان يحمله معه وبعض قطع الخبز وعلبة جبن وعصائر، أخذ يحيى قطعة خبز محشوّة بالجبن التهمها وشرب علبة العصير ثم جلس على الفراش وعيناه ناعستان، أخرج صالح هاتفه يطلب الرجل البغدادي الذي ساعده كي يشكره، ويسأله عن أخبار الشيخ بدر ولكن الشبكة غير مُتاحة، صلى المغرب والعشاء ثم احتضن يحيى ونام ليلته هذه غارقًا في النوم حتى تسلل الضوء من تحت عتبة الباب ومن كل خرم وكأنهُ يحث النيام على القيام, نظر ليحيى ففتح عيناه كالذي كان ينتظر أن ينظر إليه كي يفيق.

صباح الخير يا بطل، هيا لتأخذ حمامًا ثُم نذهب لتناول الفطار ثُم للسوق كي أجلب لك ملابس جديدة وألعابًا ونُسافر إلى حمص.. فرح يحيى وقام سريعًا من الفراش تتخبطه فرحة الطفولة، خلع صالح ملابس الصغير ثم غسلها بالماء والصابون وألبسه ثيابًا نظيفة ومشّط شعره ثم دخل ليستحم هو، خرج يرتدي شالًا قطنيًّا يمشط شعره وهو يبتسم للصغير المُتحمس للخروج.

عمو أنا جوعان.. قال يحيى فالتفت صالح إليه بسرعة وتقدم نحوه ثُم جلس القرفصاء أمامه وقال: لا تقول لي عمو. ثُم حمله عاليًا وهو يبتسم وقال: أنا بابا، سوف نعيش معًا للأبد. فابتسم الصغير.

ارتدى صالح بنطاله وقميصه وحمل حقيبته، وتفحص هاتفه فلم يجد الشبكة مُتاحة, ثُم تفحص حافظته يخرج جواز سفره الأصلي كالذي يُريد تذكر حقيقته الصحفية واسمه الحقيقي، سلم مفتاح الغرفة لموظف الاستقبال ونظر للساحة الممتلئة بالمزيد من الفارين من العراق، يقصّون القصص نفسها التي وراء هجرتهم مع تشابه الظروف واختلاف الأحداث.

خرج يبحث عن مطعم ثُم وجد واحدًا، دخل وجلس أخذ يتفحص قائمة الطعام، طلب كباب لحم غنم مشوي على الأسياخ، تناولا الطعام وشربا الكولا ثُم توجه إلى مكان الحافلات التي وصفها له السائق بالأمس.

أمام موقف السيارات، وقف يسأل على المتجه إلى حمص؛ ليزور تدمر، حُلم تدمر التي قرأ عنها يُراوده دائمًا، وخيال زنوبيا لا يكف عن العبث في مخيلته (زنوبيا أو بت زباي كانت ملكة جميلة وذكية سمراء بلون الطين، قادت مع زوجها عصيانًا على الإمبراطورية الرومانية ثم قادت بعد وفاة زوجها الإمبراطورية التدمرية وعمرها أربعة عشر عامًا، قامت بغزو مصر و اتسعت مملكتها وضمت باقي مناطق سوريا وامتدت من شواطئ الباسفور حتى النيل، وازدهرت تدمر في عصرها حتى تمكن الإمبراطور أريان من هزيمتها وأسرها لروما وماتت في ظروف غامضة).

وجد صالح إحدى السيارات التي ستتجه إلى حمص، وضع حقيبته وركب هو ويحيى، انطلقت سيارة الأُجرة مُعلنة بين السيارت خروجها.

على جو انب الطريق كانت الأغنام تركض وترتع والجمال تسير مُطمئنة، مرّ الوقت سريعًا، وصل بعد أربع ساعات لحمص.

وأخيرًا دمشق الجنة المُطمئنة، إنني بسوريا في عصر يوم مُشمس حار لكنهُ لطيف، كانت كحوريات النيل اللاتي يلقونهن قربانًا لإله النيل بالأساطير، جميلة ناعمة لامعة تسمع سُواس حُليها وخشخشها ثوبها المُتجدد دائمًا، إنها أجمل من الأميرات بقصص ألف ليلة وليلة، مبانٍ هادئة، أشجار مُصطفة على الجانبين مُزدانة بزهور الياسمين، ريفها بديع قد صنع من لطفه نوتة موسيقية تتمايل على أوراق الزروع القصيرة والطويلة، أطفالها لا يختلفون عن زهور الياسمين البيضاء التي هي شامتها المُميزة في خدها المُشرق، يرتعون في ضوئها المُنبثق كفراشات الربيع ومن فرط شبههم المُتقن بها قد ورثوا حتى عمرها القصير، منازلها نوبية الجمال فرنسية القوام، نسيمها العليل رفرفة ريش النعام على وجوه سلاطين الدول القديمة والخلافات البائدة، سُوريا المؤمنة الساكنة الصحراء الخضراء، أُرض الثمار الداكنة.

لو لم أرها بزيّها الوردي هذا ما كُنت تحسرت إلى هذا الحد القاسي على ما أصابها من جُزام الخراب وبرص التفجيرات ولوث الطائفية ومحرقة الاختلاف، ليتني لم أرك

حورية بيضاء في رياض الجنة ترتعين لأبكي عليكِ بُكاء حسرة، حين رأيتك في جحيم الطائفية عجوزًا تسعرين، كانت جميلة حدّ الحزن وأصبحت حزينة حد الجنون.

وصل التاكسي إلى تدمر عروس الصحراء كما تُسمى في المخطوطات العراقية البابلية، تدمر تُعني بالأرامية "البلاد التي لا تُقهر"، أخرج صالح آلة التصوير من مخبئها التي كادت أن تتحلل داخله وبقلبه يقول: "خُلقت هذه الآله لأجل هذه الآلهة، وهذا الجمال المُقدس الحضاري"، بين الشوارع الفسيحة بالطريق المُستقيم الذي تُحيطه الأعمدة المُتراصة مُمتدة لمساحات واسعة التقط صورًا لقوس النصر أو قوس هادريان حُلية المدينة التي تزدان به، وصورًا للمسرح والسوق الشعبي هكذا كان لا بد أن توضع تلك الصور في آلة التصوير لأنها التقطت ما سوف يسقط فيما بعد على يد قاتلي الحضارات والحاقدين عليها، سوف تكون تلك الصور فيما بعد ذكرى مؤلمة.

في المساء ذهب صالح إلى أحد المطاعم وطلب كبّة؛ عبارة عن خلطة برغل بداخلها لحمة بشكل بيضاوي، بالمطعم صبية صغار يجلسون على طاولات مُتفرقة، أُسرتان قد بدا أن بينهما صلة قرابة بسبب توددهم، سيدتان ورجلان يُنادي كُل منهم الصغار "ابني" ولكنه لاحظ اختلاف أسماء الأطفال مما أوحى له باختلاف العقائد, هؤلاء الصبية الذين يلعبون معًا لم يكن كل منهم يسأل الآخر ما طائفته؟ لم يسمعوا من آبائهم ذلك، هؤلاء الذين يركضون كالملائكة ويأكلون من طبق واحد سرعان ما تسربت لأمانهم وحوش الفتنة فتقلب محبتهم وتقلب قلوبهم، ورُبما سوف يتقاتلون غدًا فيما بينهم دون أن يُدركوا شبكة الصياد التي سقطوا فيها, يتضاربون داخل الشبكة دون أن يُحاول أحد منهم قطع أسلاك الشبكة تلك ليتحرروا من قنصها.

توجه تلقاء أحد الفنادق في حمص، حجز غرفة صغيرة لليلة فلم يكن لديه من المال ما يكفي لأكثر من ليلة, أخذ مفتاح الغرفة يمسك بيد يحيى وكان ناعس العينين، فتح الباب وضعه فوق السرير لاحظ ذبول بريق عينيه المُتوارث عن أمه وجهه مشبع حمرة, وضع يده على جبهته وجد حرارته مُرتفعة، يبدو أنه أُصيب بخطب ما بسبب توالي السفرات أو أكل طعام مكشوف ولم ينتبه صالح له، لا يهم ماذا حدث المهم أن أصطحبه إلى المستشفى حالًا.

حمله ونزل الشارع يسأل المارة عن أقرب مستشفى، فأشار عليه أحدهم أنه مسافة خطوات، عندما جاء دوره لمعاينة الطفل انتابه الخوف قليلًا، خاف أن يفقد يحيى ويعود لوطنه بدونه، أخذ يؤنب نفسه لأنه لم يهتم به كما يجب، لكن الطبيب قاطع هواجسه وطمأنه أنه بخير، يحتاج فقط أن يستحم بماء بارد ويشرب دواء خافضًا للحرارة.

عاد إلى الفُندق بالطفل, سقاه الدواء فنام قريرًا، أما هو فدواؤه أن يكمل ورده ووصاله الذي وصاه به الشيخ بدر والذي هجره ليومٍ كامل.

في هذا الليل رأى بالمنام سعيدًا لأول مرة منذ زمان و إقليدس يركضان نحو سيارة حتى سقطا على الأرض بعد طول ركض واختفيا تحت إطارات السيارات المُتحركة مدهوسين ومُتساويين بالأرض كالرسوم الكرتونية. قام فزعًا وإذا بصوت وكأنه الشيخ بدر يهمس في أُذنه: "إنها الدُنيا فُتنوا بها فذلتهم تحت أقدامها، سواء محياهم ومماتهم".

تنفس ببطء كاللصوص من وجع الحلم ووجع تفسيره، ثُم أدرك وقت الفجر، نهض للصلاة ونظر ليحيى، كان دافئًا كمصباح زيتي بليلة باردة، عليه الانتظار يومين مُستريحًا بالطفل قبل أن يتوجه إلى وطنه وعمله وأن يعمل بالفندق يومين وليلتين كي يوفر أجر المبيت.

تمحيص

دق جرس الهاتف الأرضي بينما إقليدس يطعم طفلته الصغيرة فترك ما بيده ورفع السماعة ليُفاجأ باتصال مستشفى الإدمان الذي تتعالج فيه روز.

- مرحبًا، منزل السيد آسر.

- مرحبًا سيدي.

- لقد هربت سيدة روز من المستشفى مُجددًا.

- إنه شيء مؤسف، سوف أقوم بإحضارها، شكرًا لكم.

وضع سماعة الهاتف يحملق بعينيه ويصر بأسنانه غضبًا, ثم ارتدى معطفه بعد أن نادى المُربية كي تُكمل إطعام الصغيرة، نظر لها بتودد ثُم خرج غضبان أسفًا مُغلقًا خلفه الباب.

أمام إحدى البنايات القديمة التي سبق ووجد فيها روز تتعاطى إبر الهروين مع أصدقائها المُدمنين طرق الباب بقدمه ويده بقوة، وحين فُتح الباب دفعه بقوة فصدم من خلفه، وهو يُنادي: روز روز.. قاطعه أحد الو اقفين يحرس القطيع، مفتول العضلات فتخلص من قبضته، ودخل ليجد روز مُلقاة على إحدى الأرائك مُخدرة ذابلة، سحبها من ذراعها الأيمن وصفعها وسط الحضور والكُل يتأوه مُستنكرًا، تقدم رئيسهم صاحب المكان ومعه رجلان طوال القامة مفتولي العضلات ضرباه من الخلف ضربة أخلت توازنه, ترك على إثرها يد روز، لتعود وتسقط فوق الأريكة ثُم تكالبوا عليه ضربًا في بطنه وعلى ظهره حتى نزف من فمه و أنفه، ثُم حملوه وألقوه خارجًا ثُم قاموا بإبلاغ الأمن أن رجلًا مسلمًا عربي الأصل يعمل طبيبًا في أمريكا و أيضًا نجما سينمائيًّا يضرب زوجته المريضة أمام الحضور، فكانت هذه إحدى عناوين الأخبار بصبيحة اليوم التالي: "عربي مُسلم يضرب زوجته، هكذا يأمرهم دينهم".

ضاع لقبه المهني ووجهه الهليودي في غياهب العنوان الذي تنكر له وأصبح فيما بعد هو كُل تاريخه في تلك المنطقة, فقط إنه مُسلم يضرب زوجته الأمريكية، وقد أعجب ذلك والدة روز كثيرًا فأسرعت وقدمت طلبًا لطلاق ابنتها التي لم تُدرك مدى ضياعها وكم الخسارة التي خسرتها بفقدان عائلتها وبالأموال التي بددتها على المُخدرات.

ضاقت المدينة بإقليدس وضاقت به السُبل، قرر السفر إلى نيويورك مصطحبًا ابنته معه، تاركًا روز لمصيرها الذي قررته بين مدمني الحقن والشم، خاصة أنه قد وقّع تعهدًا للشرطة بعدم المساس بها وعدم التعرض لها مُجددًا.

جمع حقائب رحيله، وأد حنينه لروز ووقف أمام صورتها التي كان سبق ووضعها لها بمنزله القديم، تعجب كيف سيطر عليها الإطار وقبعت هي بكل خيبة داخل ذلك الإطار مُستسلمة لمصير أسود يلتهمها داخل تلك الجدران!

سافر إلى نيويورك، استأجر منزلًا مُريحًا، قرر يائسًا أن تكون حياته بين الطب وطفلته لا ثالث لهما، لكن للأقدار كلمتها النهائية التي لا تُلقي بالًا لقرارات البشر.

شفعت لهُ مهارته الطبية، استطاع سريعًا أن يبني لهُ كيانًا بين أسماء الأطباء الأكثر شهرة، استأجرعيادة وتقدم بطلب مُمرضة ذات خبرة جيدة تُعينه في العماليات الجراحية الأكثر تعقيدًا.

هُناك الكثير من الخيارات، مُمرضة ذات شهادة جامعية ماهرة لكنها غير ملائمة من وجهة نظر إقليدس، كونها لا تفهم نظر اته وهُو يؤمن أن لُغة الأطباء في الجراحة لغة عيون بالدرجة الأولى، تقدمت غيرها ليست بمستوى السابقة من حيث المهارة، وثالثة، ور ابعة حتى تعب وطلب أن يُكمل البحث في اليوم التالي.

في المساء كانت الصغيرة أنجيل تبكي بلا سبب، رُبما تغيير المكان أو شعورها بالغربة أو أدركت طفولتها غياب الأم، كانت المُربية مُتحيرة منها لا تدري سبيلًا لهدوئها.

دق جرس الباب، قام إقليدس وفتح الباب، كانت فتاة رقيقة ودقيقة الملامح بعينين زرقاوتين لامعتين ترتدي فستانًا ورديًا تتدلى على خديها وجبهتها خصلات صغيرة وجديلتين طفوليتين خلفها، تمسك بيدها باقة من زهور البنفسج.

مرحبًا، كيف أستطيع مُساعدتك؟.. سأل إقليدس مُتعجبًا.

رفعت يدها بالزهور في وجهه قائلة: لقد تقدمت بطلب تُريد مُمرضة وقد أتيت بُناء على ذلك.

عفوًا هذا بالعمل ليس هُنا.. قال ثُم أمسك بيده حافة الباب يسحبها للأمام كي يغلقه.

دفعت برقة الفتاة الباب بيد وبيدها الأخرى الزهور ترفعها مُجددًا وقالت: سيدي أعلم ذلك لكني تعلمت أن عليّ أن أزور الطبيب و أتعامل معه خارج العمل كي أستطيع فهمه داخل غرفة العمليات. ثُم ابتسمت كالتي تُلقنه درسًا في كيفية الابتسام.

أعجب ذلك إقليدس ففتح الباب مُتعجبًا ومُعجبًا بتلك الجريئة، أخذ الورد وضعه بمزهرية قريبة وأغلق الباب وهو موقن أنه لن يمر وقت طويل ليعود ويفتحه وتخرج تلك مهزومة. على سفرة الطعام جلس إقليدس وصغيرته وجلست المُمرضة على إحدى الأرائك تنظر له وهو يُريد التخلص منها حتى إنه استعمل قلة الذوق ولم يدعها للطعام.

قامت وأحضرت له الماء، نظر للماء ولها، انتقت كأسًا من بين ثلاثة كؤوس، صبّت فيه الماء، تعجب من ذلك، فقد عرفت كأسه المُخصص للشرب من بين الثلاثة، كان أحدهم لروز قد وضعته الخادمة التي تعوّدت على وضعه حتى بالأيام التي كانت فيها روز بالمستشفى تخضع للعلاج، والثالث خاص بالصغيرة.

اختيار موفق.. قال وهو يرفع الماء على فمه ناظرًا للفتاة.

لقد رأيتك تنظر للكأس ففهمت أنه يخصك.. قالت بثقة وفراسة.

امم، وما اسمك؟.. قال وهو يتناول ملعقة أرز بغير نبرة الاهتمام التي تُصاحب سؤال كهذا.

(Bee).. قالت الفتاة وهي تُراقب ملامح إقليدس التي بدت هادئة.

أوه وهل وهبكِ والدك اسم "نحلة"، أم لقّبك به أصدقاؤك بسبب طنينك هههه؟.. قال رافعًا حاجبيه كي يُثير غضبها لكن ذلك لم يفلح، كانت هادئة ورزينة وتتقن الابتسام.

لا، إنه مُختصر "بريتني".. قالت الفتاة بسعادة بغير تغير في ملامحها مما أثار إعجابه.

حسنًا يا "بي" تفضلي واحضري غدًا بمكان العمل.. قال وهو يقف مُعلنًا شبعه.

ليس قبل أن أجلس قليلًا برفقتك كي أجمع الكثير من تعابير وجهك المُختلفة.. قالت الفتاة وهي ترفع رقبتها بفخر وثقة في وجهه.

شعر إقليدس أنه هو الذي أصبح نحلة غارقة في العسل، لن يستطيع التخلص منها بسهولة، دوى صوت بكاء الصغيرة مُجددًا فقامت "بيي" ودخلت غرفة المربية، أخذت الصغيرة من المربية وحملتها فوق كتفها وأخذت تربت على ظهرها وتُغني بصوتٍ رقيق، هدأت نوبة بكاء الطفلة و إقليدس يُر اقبهما من الخارج بإعجاب والمُربية كذلك وقفت فاغرة فاها، نامت الصغيرة سريعًا وخرجت "بيي" مُتسللة، ثُم بجوار إقليدس جلست كالفراشة الصغيرة وهُو يُقلب وجهه بالجريدة، نفر من وجودها مُجددًا، قامت أحضرت له قهوة عربية كتلك التي يشربها ولم يُبدِ رضا كي يُوحي لها أنها دخيلة، نظرت للساعة التي تُشير إلى العاشرة، قالت وهي تهز رأسها: حسنًا دكتور سوف أنصرف. مُوحية بأنها قد انتصرت وعرفت كُل ما كانت تُريد معرفته، لم يرد عليها، خلع نظارته ورفع الفنجان إلى فمه، وحين خرجت نظر للباب المُغلق خلفها مُبتسمًا إعجابًا بها. دق الهاتف المحمول الموضوع على الطاولة بينما هو مُضطجع يغطي وجهه بالجريدة، نظر للهاتف، إنها روز.

- مرحبًا حبيبي، أرجوك اعطِني فُرصة مُجددًا، سوف أعود للمستشفى وأخضع للعلاج، ثق بي هذه المرة ولن أخذلك، أعدك.

- روز، اسمعيني، كم فرصة منذ عامين أعطيتكِ؟ وكم مرة تُسببين الأذى لي ولابنتك حين تتركيها لتذهبي إلى وكر المُدمنين أو تصطحبينهم للمنزل كي تتناولوا السموم معًا و أنا بالخارج.

- أعلم أني ضيّعت الكثير من الفُرص، ومن الوقت ومن المال، لكن أعدُك أن أتخلص من ذلك كُله.

- حسنًا روز سوف أحجز لكِ تذكرة سفر إلى نيويورك كي تأتِي، ولكن هذه فُرصتك الأخيرة.

أحدثت الفرحة في سماعة الهاتف خشخشة ثُم قالت: أعدك لن أعود للمُخدرات.

في الصباح توجه إقليدس إلى العمل، كان لا بد أن يختار سريعًا المُمرضة المُساعدة قبل ساعة من أداء عملية جراحية لطفل صغير، وأمام المُتقدمات للعمل معه ألقى نظرة سريعة وأشار إلى "بيي" بالتقدم وأخبرها بتجهيز غرفة العمليات سريعًا.

أثبتت جدارتها ورتبت له كُل ما يُريد, وداخل غُرفة العمليات كان الطفل مُمددًا كالميت جراء إعطائه المُخدر.

ارتدى قفازه ونظر إلى "بيي" التي أحضرت المشرط والأدوات المُعقمة، كانت تطير كالفراشة مُحضرةً كُل ما يود دون أن تسأله حتى انتهى من الجراحة، خيّط جرح الطفل، جففت هي الدم المُتناثرعلى الفراش، نجح الأمر، فاق الطفل بعد فترة، شعر إقليدس بالفخر وبحسن اختياره, نظر لها نظرة رِضا فردتها بابتسامتها الرقيقة.

اقترب موعد قدوم روز فاتصل بها يطمئن عليها ويُخبرها بأنه سيكون بانتظارها في المطار لكنها لم ترد على اتصاله، كان هاتفها مُغلقًا ثُم وردته رسالة صوتية لها تعتذر لأن الرحلة قد فاتتها ويبدو من الضجيج حولها أنها بالوكر نفسه الذي تتعاطى فيه مع أصدقائها المُخدرات، أدرك إقليدس أنها تركت الرحلة والفرصة الأخيرة برغبتها وأن هذه هي نهاية الرحلة بينهما.

....

في المكان والزمان الجديدين كانت "بيي" رمز الأمومة التي فقدها إقليدس, ثُم وجدها في تلك المرأة التي تُعطي دون مُقابل ودون حتى انتظاره، تحتضن حُزنه ورُعبه حين يقف قلب أحدهم تحت مشرطه، ويُصفر جهاز النبض بالصمت، تمسح بأنفاسها دموع فشله وتُقبل جبين قهره، وتُكبر حجم نجاحه آلاف المرات تحت مجهرها، كُان يشكر الصدفة كثيرًا لأنها وهبت له ذلك القلب النابض بين القلوب الميتة، تلك الأم الحنون بين الأُمهات الجاحدة، اخترقته كما تفعل الفيروسات القوية بجسد المرضى الذين بليت أجسادهم بالمُضادات الحيوية، كانت هي الثقة التي تُقاتل الحياة ضده من أجل إسقاطها منه، جميلة هي الأنثى القائدة, برغم أنهن بالتاريخ كثيرًا ما يقعن ضحية الحب أو يُسقطهن حاقدًا على أُنوثتهن لكن هُنا "بيي" تقود إقليدس بكل جيوشها إلى الإعجاب بها دون استسلام، سكنته قبل أن يسكن إليها.

لكن السعادة شيء آخر غير ذلك الذي تجلبه قصص الحب في بدايتها, هُناك في قلب إقليدس دُمل لا يكف عن الأنين وعن إخراج القيح المؤذي.. وكانت هذه آخر خواطره.

هل هو الحنين لما لا يأتي؟

لستُ أملك من الفرح ما يُلقي من يديّ عصا شيخوخة قلبي فأقف على قدم التفاؤل مُنتصبًا فاتحًا ذراعي وصدري لأعاصير الحياة بلا خوف أصرخ في براري روحي

كاذبًا: أنا بخير.. امتلأ رأس قلبي شيبًا، وضعفت ذاكرة الحب لديّ، لا أراني أكثر من عجوز ثمل يموت في طُرقات اليأس تدهسه أرجل المارة بعد أن ينكمش من نظراتهم المُشمئزة، أحدق في ظلام الطُرقات الطويلة فيبتلعني السواد، حتى في أعماقي يجري دم أسود قد لوثته الوحدة والصمت و انطفاء كل بريق، كُل ما حولي يتشقق، أسمع صوت المشرط يقطع أربطته يفرق بين لحظتين مُتتاليتين لشيئين مُتناقضين، الحياة والموت غير المُنفصلتين, صوته يشق جلد روحي مُحدثًا فرقعة تُنذر بانتهاء صلاحيتي كإنسان.

وما الفرق بين الإنسان والحيوان؟ هُناك أمراض تحولنا تلقائيًّا لحيو انات، مثل مرض الزهايمر الذي يحرق أوراق الذاكرة ويتخلص من الرماد مُبللًا إياه بالماء تاركًا الخواء والسواد.. لِمَ كلمة حيوان تُثير لدينا الاشمئزاز؟ لماذا يغضب الإنسان المغرور من تشبيهه بالحيوان مع أن الحيو انات هي أفضل حالًا؟! لا تجد حيو انًا يكذب ولا حيو انًا مغرورًا مُختالًا يُصعر خده للحيو انات، أكبر ذنوبه أنه يفترس من أجل أن يُطعم جوعه، هذا وقد وهبت الطبيعة الحيو انات المُفتَرَسة فطرة الهروب من مُفترسها، أما البشر فإنهم يفترسون بلا سبب ويأكلون بلا جوع ويضعون أيديهم في جيوب غيرهم بلا حاجة ويكذبون ليكونوا أمام غيرهم ذوي أفضلية، ويتجملون فيما بينهم ويرتدون في المجلس الواحد آلاف الأقنعة، ويسرقون ويحقدون ويفعلون الشر كُله، وحين تُجادلهم بحقيقتهم يرفعون أنوف الغرور عاليًا، إلى أعلى عليين، قائلين إنهم أفضل من سكن الأرض، إنهم يظنون أنفسهم أفضل لهذا الحد الذي سوف يجعلهم يسكنون الجنة وحيدون دون غيرهم.

راود الظلام إقليدس عن نفسه وكشف عن ساقيّ السواد فانجذب إلى فوهة الحزن الفاغر فاه كقطبي الأرض، وهو بين الظلام والحزن كعقلة الإصبع لم يجد من يجدف بمجداف الأمل كي يلتقطه من محيط الظلام، فاستسلم لمصيره بلا مقاومة و أبدًا ما كان يومًا مُستسلمًا إلا أمام هذا الطوفان الجارف من الظلام والذي كان آخر المعارك التي خسر فيها بدون مُقاومة، أدرك بعد فوات آوان الإدراك أن السعادة شيء آخر غير الثروة، والسعادة طريق آخر غير الشهرة، والسعادة شيء يتفلت كقطرات الزئبق لا يُمكن الإمساك بها في مكان محدد وبإمكانيات محددة، السعادة هي ذلك اليوم الذي ننتظره وربما لن يأتي ولكن تحدي انتظاره هو أيضًا سعادة.

ليالي باردة

يوم الأحد من شهر سبتمر، وكلمة الأحد في اللغة اللاتينية تعني يوم الشمس، ويُطلق عليه الفرنسيون "ديمانش" والأسبان "دوميقو" والإيطاليون "دومونيكا"، وتأتي هذه الأسماء الثلاثة من الكلمة اللاتينية "دايس دومنيكا" التي تعني يوم الربّ.

الوقت ضُحى، الكنيسة تضجّ بالصلوات، رائحة البخور والمسك تملآن المكان، الكُل يُردد مع الأب ومع أجراس الترنيمة أصوات الصلوات، أما مرثا فكانت تُردد: "يا أبانا الذي في السماوات، لمَ كتبت علينا الزواج الأبدي؟"، وكأنها تبكي فوق ذراعيّ المسيح المصلوبة وهي تُقلب رأسها في صوره الجدارية الصامتة المُستسلمة للموت الذي لا يخرج من تلك اللحظة، هل كُتب عليّ أنا أيضًا أن أُصلب على خشبة الحياة للأبد و أبقى مُجرد جُدارية أنتظر نعيم الحياة الأُخرى دون أن ألمسه حقيقة في حياتنا الدُنيا؟.. دمعت عيناها حزنًا على حالها فهي منذ نعومة أظافرها مفرودة جناحها على الصليب.

رحل الحضور بعد تناولهم جُرعة البركة من دعوات الأب، ونسيم البخور، وحماس الصلوات، وبقيت هي مُعلقة عينها بالجدار تنظر إلى ذراعيّ المسيح اللتين تتسعان للكون كله تتمنى لو ترتمي فوقهما وتبكي بكل ما لديها من قوة.

ما بِك يا ابنتي؟.. قال الأب بصوتٍ هادئٍ بعد أن اقترب منها.

حزينة يا أبتِ، لقد تزوجت من رجل لم أشعر معه يومًا بالحب ولم أشعر معه يومًا أنني أُنثى فضلًا عن شعوري المارق معه بالإنسانية عامة، تحملت البقاء معه لشغفي بالأمومة لكن حين علمت بعقمه لم يعد لديّ ما أتحمل من أجله، لقد خدعني وكذب عليّ ولا أُريد أن أظل مُقيدة به.

هز الأب رأسه حُزنًا وقال: يا ابنتي يقول المسيح: "إن من طلق امر أته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزني. والذي يتزوج بمطلقة يزني" (الإنجيل، عدد9). أو كما جاء في إنجيل مرقس: "من طلق امر أته وتزوج بأخرى يزني عليها، وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت بآخر تزني" (10: 11، 12).

إن الزوج والزوجة يتحدان اتحادًا لا يقبل انفصالًا طوال حياتهما الأرضية، وإن ما جمعه الله لا يجوز لإنسان أن يفرقه، اصبري يا ابنتي، حياتك أفضل من كثيرات يأتين

هُنا يشتكين الضرب وسوء خلق أزواجهن، بل وخيانتهم للحياة الزوجية، أما مُشكلتك بسيطة، هذا قدر الله أن لا يكون لكِ أطفال.

لكن يا أبتِ زواجي منه بُني على الغش، لقد اهترأت، إني أموت معه كُل يوم، أكاد أشم رائحة موتي وأرى الديدان تأكل جسدي، لقد فقدت هيئتي الأنثوية وسأفقد عمري.. وضعت يدها على فمها وهي تجهش بالبكاء، تنهد الأب لا يعرف ماذا يصنع، رسم على وجهها الباكي علامة الصليب ثُم ذهب وتركها غارقة في موج الحُزن لم تعد ترى ما حولها من ضباب دموعها.

انطفأت كشمعة فوق نافذة داهمها الهواء، لم تعد تُريد شيئًا أو ترى شيئًا مُبهجًا، ليس لديها أصدقاء إلا أُولئك القابعين تحت زر الدردشة في موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك. زوجها منذ أول أيامها معه لم يتغير يومًا واحدًا عن روتينيه اليومي؛ العمل وتناول الطعام وسماع برامج التوك شو وقراءة الجرائد القديمة وحل الكلمات المُتقاطعة بها.

صنعت مارثا لنفسها عالمًا افتراضيًّا خارجًا عن الواقع قضت فيه وقتها بين الغرباء الذين يُبدون لها الإعجاب، خرجت من الواقع مهزومة ودخلت إلى الخيال تُمثل الانتصار، هُو العالم الذي لا قانون لهُ ولا قاعدة، كُلما كُنت سطحيًّا بحديثك وتافهًا يلتف حولك الجميع وإذا ما كان لديك آراء صائبة بالحياة نفر منك الجميع، كان لمرثا حروفًا مُنكسرة لا يعيها الناظرين، ترسم أحلامها وحياتها البائسة بلوحة زيتية جدارية لا يعيها أحد ولا يُدرك حقيقتها أحد، وحين تدخل أحد المُنتديات باسم مُستعار وصورة مُستعارة وتكتب بجرأة الكُل يُصفق لها، ما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا؟ هل هذا الزمان زمان عُري الأحرف، كُلما تعرّت الأحرف أكثر أحدثت وقعًا أكبر في أُذن القراء، إنها تسخر من و اقع العرب في مو اقعهم، لكي تكتشف بؤس ثقافتنا وتبصق على وجوه سخافتنا، لم تتوقف يومًا عن المُراهنة مع نفسها على كشف عورة الفكر القادم مع ألفية الظلام حتى تورم كيانها الفكري من فرط كسبها الرهان، لكنها تصرخ في صمت، تكتشف الخيبات في سُخرية، تتحسس في الظلام الدامس عن أي شيء يُحدث بريقًا لكنها لا تجد سوى بريق قطع الزُجاج المكسورة التي تؤذي أناملها عند تحسسها.

"براءة الله"

عاد صالح لوطنه يُريد أن يحضن كل ذرة تراب، تنفس هواءه الرطب، تغمدته السكينة، كان المنظر قرب هبوط الطائرة غريبًا، الأرض لا تبدو كالأرض التي تركها رغم أن كُل شيء يبدو كما هو؛ الوديان، الجبال، البحر، لكن شيء ما تغير، إنها تلمع، أو بريق قلبه هو الذي أضفى عليها ذلك الضوء اللامع.. قد عُدت يا وطني مُحملًا بالحب والحنين، قد عُدت لك يا وطني مُختلفًا أحمل بين أضلعي قلبًا جديدًا، هل يا وطني ستفهم ما بي؟ هل أستطيع أن أهبك حبًّا لا يعتريه ألم؟

أعطى سائق الأُجرة حسابه بعد أن أوصله إلى إحدى الشقق المفروشة حتى يعثر على مسكن.

بالصباح الأجواء هادئة، وجد أخيرًا شقة صغيرة بمنطقة بسيطة تحتاج لبعض التنظيف، أخذ يتعاون هو ويحيى في ذلك، كانت لدى يحيى قدرة تسبق عمره في فهم ما يستطيع فعله كي يُساعد صالح، وأخيرًا أصبحت الشقة جاهزة للنوم والاسترخاء وتناول الطعام في هدوء.

في الصباح التالي توجه إلى إحدى روض الأطفال كي يُسجل يحيى، قبلوه مؤقتًا حتى يُحضر أوراقه الرسمية، كان عليه أن يُسجله كابن له في وزراة الصحة، الآن يجب عليه التوجه إلى الوكالة كي يعود لعمله أو يجد له فُرصة أُخرى بعمل آخر، يشتاق للعمل وللوطن ولكل شيء، شهيته للحياة قد اتسعت وتمددت رغبته بالحياة إلى ما لا نهاية.

في الوكالة التف حوله رهط من الموظفين في صالة الحضور، يُرددون أسئلة مُتشابهة: أين كُنت؟ وكيف عُدت؟ وماذا حدث بتلك المُدة؟ كان عليه أن يُعيد الحديث الذي نسقه للإجابة كُلما دخل أحدهم يسأل حتى ملّ من ذلك وتعب صوته وحفظ الأسئلة وإجابتها عن ظهر قلب.

جاء المُدير فتفرق الجميع كالدجاج، وقف أمام صالح مُتعجبًا.

- أيُها القط ذي السبع أرواح، كيف حالك؟ قال المُدير ضاحكًا وضحك بعض الحضور مجاملة له.

- بخير سيدي، لقد جئت كي أعود لعملي، هل ما زال مكاني شاغرًا؟

- لا ليس شاغرًا، ولكن أنت أفضل من يكون فيه.

- لا أُريد أن أقطع رزق أحد، إن كان هُناك غيري فلا بأس من عمل آخر.

- لا ليس الأمر كذلك، لقد ذهب المصور الجديد لتصوير الانتخابات البلدية، وقبيل عودته سوف نحسم الأمر، يُمكنكما العمل معًا، تفضل الآن إلى مكتبك كما كُنت. ثُم رفع نظارته لأعلى ودخل إلى مكتبه يسبقه كرشه.

عاد الجميع يلتفون حول صالح، يسألونه عن رحلته إلى العراق كيف كانت؟ تحمس أن يقص عليهم قصته مع الشيخ وصحبته في بغداد، وعن قصة حبه مع ماري لكن فرقهم جرس إنذار من المدير فانكمشوا إلى مكاتبهم.

فتح صالح بريده الإلكتروني بعد عامين، لم يكن يجد الفرصة كي يتصل بشبكة إنترنت في بغداد، لديه كومة من الرسائل؛ هذه من الوكالة، وهذه من بعض زملائه، وهذه لإقليدس، ولكن يبدو أنه غير مُتاح منذ فترة، لم يكن يعلم أنه قد غيّر بريده وصنع آخر يُناسب الشهرة الهليودية الآنفة.

يا إلهي ما الذي جرى لك يا إقليدس ومن صنع من قلبك الكبير عروة مخيط؟.. قرأ رسالته الباكية عن الله والدين ورد عليه ولم يدرِ هل سيفتح ويقرأ رسائله أم لا؟

"صديقي إقليدس، اعْلَم أن من بين ألف كلمة خوف قيلت عن الله كلمة واحدة صادقة والبقية من صُنع الزبانية، إن طريق الله هُو الحُب, والحب وحده هُو من يقودك للنجاة، كُل ما تعلمناه عن الله كان من صُنع جهلة مصنوعين من ورق، يحترقون وبدخانهم نحترق، صاغوا لنا دينًا نتجرّعه، نتخبط في غياهب حدوده، لا ندري شيئًا، إذا تحدثنا عنه جهلنا وإذا صمتنا ظلمنا، نحتاج أن نبحث عن الله في قلوبنا، في حواسنا، في من يملكون المحبة، لا تُصدق تلك التُهم التي يرمونه بها، إنّ الله منها براء, إن الله بريء من كُل قطرة دماء على تلك الأرض وبريء ممن صنعوه غاضبًا وحملونا وزر الخوف والهروب منه.

آه يا أخي! لقد رأيت الله بقلبي، وكم أتمنى أن تراه أنت أيضًا، إنه يُشبه كُل شيء جميل، ولا يُشبهه شيء، إن حدثتك عنه لن يكفيني عمر ولن توفي الأحرف قدر ذلك أبدًا، لقد رأيت الكُل يركض خلف السراب يتلذذ بفناء عمره في السراب، في حين أن باب الله أقرب إليهم من حبل الوريد، إن الله هو الوطن الكبير الذي يهبنا من جلده المطاط

حصنًا لنا من تقلبات الدهر، إن الله هو الأُم الحنون التي لا تمل أبدًا من الدُعاء لابنها بالخير مهما عقها، إذا ما لامس قلبك الحب سوف تراه، سوف يُكشف لك عن ماهيته، ليس الأمر بالصعب ولا أيضًا بالهيّن، هو فقط تذوق، أما عن الحدود فنحن نقرأ القرآن دون تدبر لذلك نلصق الأشياء بغير أماكنها".

طرق العامل الباب مُحضرًا الشاي، فنقر صالح إرسال دون أن يُكمل رسالته.

الحمد الله على سلامتك أخي، لقد حزنتُ عليك، وقرأت لك الفاتحة كثيرًا، ظنًّا مني أنك ميت.. قال العامل الطاعن في عُمر العمل مُحدب الظهر، وضع الشاي على مكتب صالح ووقف مُنحنيًا.

قام صالح وربت على كتف الرجل قائلًا: كُنت ميتًا يا عم وأحياني الله، لا تقلق قد قبل الله منك الفاتحة على روحي. فابتسم العجوز وذهب.

أخذ يُقلب في حاسوبه، فتح موقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك، كان هُناك الكثير من طلبات الصداقة العابرة من أناس غرباء ومن زملائه بالعمل وبالجامعة.

لم يُكمل تفقد طلبات الصداقة حين رأى صورة ماري على صفحتها بتاريخ 1/1/2006.. آه يا ماري! هل كُل ما يولد في يناير يموت حتمًا في ديسمبر؟

تجلس كالحورية على شاطئ النهر برفقة جدتها العجوز، لم يكن لديها الكثير من المُشاركات، نقر زر الدردشة وهُو يعلم أنها لن تقرأ رسائله أبدًا وكتب:

"ماري، مرّ وقت طويل، طويل جدًّا على فُراقنا، رُبما هو عمر الأرض أو عُمر الشمس أو عُمر المجرات، عامان مرّا كانا خاليين مني مُزدحمين بكِ، لقد رأيتك كثيرًا بنومي وصحوي، لم تتغيري يومًا عن هيئتك الملائكية في حين يتغير حولي كُل شيء، شُكرًا لحبك وشُكرًا لألمك الذي وهبني فُرصة التحليق في سماء الحب الأكبر، وشُكرًا ليحيى الذي يملأ فراغ وجودي بدونك". إرسال.

تأمل خانة الدردشة الصغيرة كثيرًا بحزن عميق ثُم أخذ يفرز طلبات الصداقة كي يهرب من الحزن، هذا زميله وهذا لا يعرفه وهذا طلب عشوائي، وهذه... إنها مرثا، كيف عثرت على صفحتي؟ مُشترك بيننا اسم الجامعة لذلك وجدتني.. حسنًا.

قَبِلَ إضافة مرثا التي كانت مُتاحة سريعًا فبعثت له رسالة شُكر للإضافة ولكنهُ لم ينتبه فقد جاء وقت فرصة الغداء، التف الجميع حول صالح بفضول طاعن في السوء،

وهو قد ملّ تكرار الأسئلة والأجوبة ذاتها، الكُل يُريد أن يسمع قصصًا عن تلك السفرة والاختفاء الغامض لكنه يُخفي في نفسه ما يبديه الله: "اصمت قدر ما استطعت، لن يسمع أحد خرير قلبك العاشق، سأقول حبًّا أو أصمت أبدًا، ولأن القليل فقط من يسمع حسيس الحب، سأصمت حتى يأذن لي الله بالكلام".

ذهب بعد العمل إلى روضة الأطفال كي يصطحب يحيى، خرج الولد فاردًا جناحيه كما تفعل صغار اليمام الجائعة حين ترى الأم قادمة، حمله صالح وقبله وحمل حقيبته ثُم أوقف سيارة الأُجرة كي يذهبا إلى المنزل.

- بابا، بعض الأطفال كانوا يسخرون مني ويشيرون على يدي.. قال يحيى بنبرة حزن.

احتضنه صالح وقَبَّلَ كفه الخالية من الأصابع وقال: قُل لهم إن أبي يعشق يدي هذه.

كان هُناك أصدقاء طيبين أيضًا أخبرتهم عنك.. قال يحيى بنبرة فرحة الصغار.

واو رائع حبيبي! وماذا أخبرتهم؟

أخبرتهم أنك طرزان، جئت واختطفتني من ملجأ الأيتام الذي كُنت فيه.

شعر صالح بأنه ينجرف من فوق قمة جبلية، قال بنبرة مُنتكسة: ابني حبيبي، لا تقل هذا مُجددًا، هيا نتفق أن كُل ما حدث قديمًا سر بيننا ولن تُخبر به أحدًا مُطلقًا، اتفقنا؟ هز الصغير رأسه موافقًا، قام صالح ومد يده للصغير قائلًا: هيا لنحضر الطعام معًا.

......

الصباح هادئ، العصافير تُغرّد، وصوت الباعة يعلو ويهبط.. قام صالح ليومه مُبتهجًا، يشعر بحنين جارف إلى الملجأ الذي تربى فيه مع صاحبيه، اليوم سوف أذهب لزيارته بعد انتهاء الدوام.. أمام حاسوبه جلس يتهيأ للعمل، كان عليه التوجه بعد ساعة لمؤتمر صحفي فقرر أن يفتح بريده الإلكتروني عسى أن يكون إقليدس مُتصلًا، لكنه لم يجده، ثُم فتح موقعه على الفيس بوك فوجد رسالة ذات حروف قليلة من مرثا التي كانت مُتصلة.

- مرحبًا مرثا، أنا الذي أشكرك لإضافتك لي.. إرسال.

- مرحبًا صالح، كيف هي الأيام معك؟

- لا أدري، لا أشعر أني عِشت أيامًا، إنها سنوات على هيئة أيام أو قرون، قد أكون سددت كُل ديوني إلا دَينك أنتِ.. إرسال.

- لا أُريد التحدثُ هُنا عن الماضي يا صالح، لقد قمت بإضافتك فقط لأنك كُنت يومًا زميلي بالجامعة ونحمل سويًّا ذكريات الدراسة الجميلة.

- سوف أخرج بعد قليل لمؤتمر صحفي، هل تسمحي لي أن أراكِ بفرصةٍ قريبةٍ؟.. إرسال.

- تفضل، أما عن اللقاء فدع الأمر الآن ليس لديّ قُدرة على العتاب أو تذكر ما يؤلم.

- مرثا، صدقيني كُنت مظلومًا، كُنت غبيًّا، كُنت أحمق لا أعي.. إرسال.

خرجت مرثا متعمدة تاركة نافذة الحديث مُتأججة، كانت في حاجة للعروج إلى الماضي الذي لم تتذوق منذ عهده طعم الحب، تحسست بأصابع قلبها جرحًا قديمًا غائرًا وشوقًا لصالح، الحب الأول والأخير، فوجدت الجرح مُندملًا والشوق مُشتعلًا، "لقد تغيرت قليلًا لكني لا أزال أحمل في داخلي حبًّا لشخص لم يأتِ، وعاطفة لرجل لم أجده في و اقعي، لكنه يشبه صالح حد الجنون، لكم أتمنى أن ألقاه وألصق رأسي فوق كتفيه للأبد كي أقتص من ذلك الغياب الكافر".

...

انتهى المؤتمر الصحفي، توجه صالح إلى ملجأ الأيتام، وقف كثيرًا مُتأملًا المبنى، ما زال ضخمًا مُخيفًا زادت فيه الرطوبة فألبسته رقعة الماء من تحته ثوب الهشاشة، تشققت حو ائطه قليلًا مما يُتيح للبرد فرصة اختراق أحلام الصغار ويتيح للحر أن ينفث زفيره الحارق بأجسادهم الصغيرة، المُعلمون الشباب قد شابوا، والشياب قد ماتوا والأطفال الصغار أصبحو مُراهقين والمُراهقين قد تفرقوا بين المُدن.

دخل صالح غُرفة المُدير..

- مرحبًا سيدي، أُريد أن أتحدث إلى الأطفال وأعمل تقريرًا حول ثقافتهم الدينية.

نظر الرجل له مُستنكرًا هيئته، لسان حاله يقول أين أنت من رجال الدين؟ لا هيئة ولا وقارًا ولا شيئًا أبدًا! نزل وجهه المُتفرس إلى الأوراق التي تُغطي مكتبه وقال بقرف: حسنًا تفضل، لكن لا تُزيد عن الساعة.

التف الصغار والكبار حول صالح، من عمر ست سنوات إلى عمر اثنتي عشرة سنة..

"يا أولاد، تعالوا لنتكلم عن الله، لا عن جنة ولا نار، ولا صوم ولا صلاة، تعالوا نعرفه أولًا، نكتشفه، أتعلمون يا أولادي أنكم إذا رأيتهم الله في مخلوقاته وفي الطبيعة سوف تحبون كُل شيء، كُل جميل يرمز إلى الله, إنّ الله جميل يحب الجمال".

قام أحد التلاميذ وقال: يا أستاذ، إنّ الله سوف يُعذبنا في النار إن لم نُصلِّ، وقد أخبرنا الشيخ أن النار سوف تحرق أجسادنا حتى تصبح مثل النايلون المُذاب. وقام آخر وقال: نعم. وضج الصغار: نعم.. نعم نحن نخاف الله.. يهزون رؤوسهم تعبيرًا عن الخوف بعد أن استشعروا الأمان.

اهدأوا يا أولاد.. أشار صالح كالمسيح للو اقفين بالجلوس.

- هل ستتفوقون بالدراسة إذا أحببتُم الدراسة واجتهدتم أم إذا لاقيتم عقوبات مُتلاحقة من المُعلم؟

- لا إذا أحببنا الدراسة واجتهدنا.. رد الصغار في صوتٍ مُتفرق جهوري.

- جميل، هكذا العبادة، لا بد أن تؤدوها بحب دون الخوف، ودون أيضًا غرور، إن الله سبحانه وتعالى حين خلق الأرض والسماء سألهما: "تأتيان طوعًا أو كرهًا قالتا آتينا طائعين". فكانت المحبة الغالبة, لقد بُني الكون على المحبةِ والطاعةِ المُنبثقة منها، لذلك أي عمل خارج عن المحبة لا خير فيه ولا نوال، تعالوا نذكر الله.. التف الصغار حوله ورردوا معه "لا إله إلا الله". دق جرس انتهاء الدرس، خرج وودعه الأطفال بفرحة طفولة مُنتصرة نجت من أيدي عابثة.

نظر صالح للمُديرالذي كان يقف مُشبكًا يديه خلفه، تضيق عينيه تفرسًا، لكنه لم يأبه لهذا، قد اختار طريقه الذي أدرك فيه الراحة والأمان مُتذكرًا كلمة الإمام عليّ كرم الله وجهه: "اسلك طريق الحق ولا تقلق لقلة السالكين فيه".

......

لِقاء

في مقهى مشهور بالمدينة وحيث كان الوقت الظهيرة وأمام طاولة صغيرة عليها زجاجتا ماء وعلبة عصير ووجبة صغيرة ليحيى، جلس صالح ينتظر مرثا، حيث تواعدا على اللقاء بهذا المكان وهما يتحدثان على موقع التواصل الاجتماعي، ثم ظهرت رأسها من إحدى سيارات الأُجرة سادلة شعرها الأسود وقد قصته إلى كتفيها, اقتربت مُبتسمة ابتسامة خفيفة, لاحظ صالح تغيرها قليلًا, قد زاد وزنها و انطفأت اللمعة الخمرية بوجهها.

رفعت يدها تُصافح صالح مُتوترة: مرحبًا صالح.

أهلًا مرثا، لم تتغيري.. كان لا بُد أن يُجاملها كي لا يكسر خاطر أنوثتها.

جلسا ينظران لبعضهما البعض، لم يكفّ العتب عن العبث بهما لكن النصيب الأوفر كان لمرثا التي ما زالت تعتقد أن صالح قد خان براءتها وثقتها وسلمها لصديقهِ جائع العاطفة.

كيف هي حياتك؟.. سألها ليبدأ الحديث، ينظر للدائرة الذهبية التي تُحيط بإصبع الزواج.

- آه لستُ بخير مُطلقًا.. قالت وقد خانها الحُزن المُتربص بها طالقًا سراح الدموع الحبيسة، وهي التي كانت عازمة أن تُخبره بأنها تعيش حياة سعيدة مع زوجها التي تُحبه لكنها لا تُجيد الكذب.

لا تحزني كُل شيء سيكون بخير, طالما هُناك أنفاس تخرج وأُخرى تدخل.. قال صالح ثُم أشار إلى النادل فاقترب، أخبره أن يحضر لهما عصير المانجو الذي كانت تُحبه.

اسمعي يا مرثا، لا يوجد سبب على هذه الأرض يجعلنا نستسلم للحُزن ونقبل بنصف حياة.

أحضر النادل العصير، وضع أمام الصغير عُلبة أخرى وأمامهما كأسان، قال صالح وهُو يرفع كأس العصير لها: كُنت أتمنى أن أراكِ قبل أن أموت كي أعتذر منكِ وأخبركِ الحقيقة والحمد لله تحققت أُمنيتي، صدقيني لست بهذا السوء الذي ظننتِ.. اكفهر

وجهها وقامت تُريد الخروج من حفرة الحديث، فأمسك بيدها قائلًا: أرجوك اسمعيني للنهاية. فرضخت لقبضته القوية وجلست.

لم يكن سعيد مُجرد زميل أو صديق, لقد تربينا معًا بملجأ الأيتام، وكُنت له أبًا وأخًا.. تغيرت ملامحها للاستغراب العنيف، وضعت كأس العصير الذي كانت سترفعه إلى فمها ويدها ترتعش وتمتمت: ملجأ الأيتام؟

أخبرني بأنه يُحبك وطلب مني أن أُساعده كي يتحدث إليكِ فلم يكن مني سوى أن أُعطيه الفرصة خاصة أن أيًّا منّا لم يبح للآخر بشيء صريح.. صمتت مُغمضة عيناها ثُم قالت بتودد: حسنًا، لقد انتهى ذلك كُله، نظرت للطفل مُبتسمة وقالت كالتي تُريد تغيير مسار الحديث: هذا الصغير ابنك؟

نعم، اسمه يحيى.. قال بنبرة شبه مُنكسرة وهو ينظر إليه مُبتسمًا.

لا بد أن أُمه رائعة الجمال أليس كذلك؟.. قالت وهي تمسح بيدها فوق شعر الصغير الأشقر الناعم.

تنهد صالح بحزن: نعم, لقد كانت كذلك.

فهمت من ملامحه و انكسارعينيه أن أم الصغير لم تعد موجودة بينهما، فلم تطرح أي أسئلة أُخرى كي لا تُضيف المزيد من جو الحُزن حول الصغير أو بينها وبين صالح.

قامت مرثا مُستأذنة مُعللة ذلك بقرب وقت خروج زوجها من العمل, وهكذا انتهى لقاء كان مُعلقًا زهاء الست سنوات، قام صالح كي يوصلها للسيارات، ركبت سيارة الأجرة، ودّعها ووقف حتى غاصت في الزحام.

......

كان هذا عام الفقر العالمي, يبدو أن الرئيس السابق بوش قد ترك أمريكا تغوص في وحل ما بعد الحروب وتغوص أيضًا في البُورصة الخاسرة بعد أن حصد حصاده وحصته من الأرواح والخراب في العالم العربي.

في الشارع أمام المقاهي وفي الوكالة، الكُل يتحدث عن خطاب الرئيس الأمريكي الجديد أفريقي الأصل، ستكون سياسته مع العرب أفضل من بوش، سوف يحل مُشكلة الأقصى، سوف ينسحب من العراق، الكُل يُردد ويُنجم رجمًا بالغيب .

خطابه سياسي عاطفي يبتز به عاطفة العرب الذين وقفوا يُصفقون لرقصته مع زوجته وكأنه يُر اقصهم جميعًا، وأنهم قد انتخبوا رئيسهم المُوحد، ظل الحديث البائد عنهُ يصدع حتى أنهى ذلك مُنتظر الزيدي وو اقعته الشهيرة وهي قذف الحذاء في وجه الرئيس الأمريكي السابق بوش.

العالم العربي 2010

جاء عام 2010 ما قبل التغيير، أصبح يحيى في عامه الأول بالمدرسة وصالح في عامه الرابع بالحب، كانت الدُنيا في العالم العربي تقف على حقل ألغام تنتظر إشارة التفجير ليتغير كُل شيء للأسوأ من وجهة نظر البعض وللأفضل من وجهة نظر آخرين، مُستقبل قد تنبأت بهِ كوندليزا رايس، أو كان مُخططًا له مدروسًا بعناية شرق أوسط جديد، العالم على أهبة الاستعداد لأن يتبعثر ويتفرق وتذهب ريحهُ أو يتجمع شتاته.

أنت، ما الذي جاء بك إلى هُنا.. هذا ما قاله مدير الملجأ الذي توجه إليه صالح كي يُلقي درسه، وقد كان يستأذن المُدير في كُل مرة بحجة مُختلفة كي يكون بين الأطفال الذين ينتظرونه بحرارة وحماس كي يأخذهم من عالم الخوف إلى عالم الحُب، من عالم المنع إلى عالم العطاء، لكنه كعادة كُل جميل لا بد أن يظهر بالطريق شبحًا يُفرق الجمع.

لقد جئت أتحدث إلى الأطفال.. قال صالح.

تقدم المُدير مُشبكًا يديه خلف ظهره ماطًّا شفتيه، قال: لقد انتقد أحد الشيوخ الأجلاء ما تطرحه على الطُلاب، وقال إنك تغرس في الصغار البِدع التي لم ينزل الله بها من سُلطان. فشم صالح رائحة الحديث الذي لطالما سمعهُ وهو في عمر أولئك الأطفال يتامى الآباء والعُلماء، لم يُبدِ أي ردة فعل, هز رأسه مُحتسبًا وخرج يجر ذيل الصدمة، تلمع عيناه بالدموع، نظر فوجد الأطفال ينظرون إليه من خلف الباب المُغلق في وجوههم مُصطفين فوق بعضهم لا تظهر سوى رؤوسهم، شعر بالحسرة وتوالت عليه الأفكار, ليت الأمر بيدي فآخذ بأيديكم الصغيرة من مُستنقع الفكر إلى أرض النور.

عاد للبيت مُكتئبًا، أحضر الغداء ليحيى ولم يتناول منه شيئًا، ذهب للفراش يُلقي عليه جسده وحزنه تاركًا يحيى يلعب ويُشاهد التلفاز. وعندما غفى رأى الشيخ بدر مُبتسمًا مُمسكًا بيده مسبحة علقها برقبته. قام وفي أذنه طنين ذكر خفي، الله الله يهمس في باطنه: حي على الذكر, قام وتوضأ للعصر ثُم أحضر مسبحته وأخذ يسبح، شعر بالطمأنينة والرضا, قبّل الصغير ثُم أمسك بالحاسوب، فتح زر التشغيل فأضاءت شاشته، نقر يفتح موقع الفيس بوك فوجد رسالة من مرثا:

"مرحبًا صالح، لقد حصلت أخيرًا على الطلاق في المحكمة بعد إثبات أن الزواج قد بُني على الغش؛ لأن الزوج كان يعلم بعقمهِ وظل مُتكتمًا على ذلك أربعة أعوام، أشكرك على مُساندتك لي وتشجيعك".

"مرحبًا مرثا، مُبارك لكِ حُريتك، وإذا احتجتِ أي مُساعدة سأكون لكِ خير أخ، لا بد أن تُرتبي لحياتك الجديدة ودعي الفوضى ذكرى مع الماضي، إن أردتِ عملًا يُمكنني مساعدتك". إرسال. كانت هي على الطرف الآخر من المُحادثة تنتظر.

"نعم أُريد عملًا جديدًا وسوف أُدبر أمر المسكن, هل يُمكنني الحضورغدًا بالوكالة؟".

"دبري أمر المسكن أولًا، تعلمين الأمر ليس بهين، بعدها أُدبر لكِ لقاء مع مُديري". إرسال.

"أشكرك كثيرًا، إلى اللقاء".

"لا شُكر على واجب، كوني بخير". (إرسال).

....

كان هذا اليوم السابع عشر من ديسمبر من السنة العاشرة بعد الألفين، أشعل بائع متجول في سيدي بوزيد بتونس النار في نفسهِ؛ مُعبرًا عما يئس الكُلَ من التعبيرعنهُ، لكنها لم تكن شعلة نار في جسد إنسان عربي بل كانت شُعلة نار في جسد الوطن العربي جميعًا، تمددت الشُعلة إلى أقصى حدود الوطن الواحد، لتشمل وطنًا عربيًّا كان مُستقرًّا نوعًا ما ليتزحزح ويختلّ اتز انه.

أسموه الربيع العربي، وأسموه ربيع الياسمين، وقام الجمع يُلقبونه كُل بما يحلو لهُ، يتفقون على تنزيهه و أنه ثورة الكرامة و أنه شرق أوسط جديد.

لكن صالح لا يتفق مع كل تلك الأخبار التي تبثها الأفواه، فهو يرى أن الوطن منذ تلك الشُعلة ما زال يحترق، العالم مُنشغل بتسمية الحدث عن ماهيته، إنها أكبر قُنبلة نووية في تاريخ العالم منذ استقر الإنسان على ظهر البسيطة، ضربت جسد الوطن العربي كي تُرديه أشلاء وتصنع منهُ مسخًا، فيما يظل الكثير من المضحوك عليهم والضالين يُرددون أن الوطن العربي يتجه إلى الأمام ولكنهُ كان يرجع للخلف بسرعة جنونية صدمته ودمرت مركبته ودهست حضارته، اشتعلت مو اقع التواصل بشرارات

الغضب فأصبح الجميع وطنيين ثوارًا، الكل ثائر، والكُل على حق، والكُل دائن، والكُل مُدان أيضًا، إن هذا لأمرعجيب!

في عام الموت كان قدر صالح كمصور أن يُوجد في زمان الموت والخراب وأن يحمل آلة تصويره، شاهد عيان على كُل ما يجري في تونس ومصر وسوريا وليبيا, يتنقل في البُلدان حيران, تُرى بعد انقضاء زمن الاشتعال ماذا سيقول التاريخ عن هذه الأحداث؟ هل سنُغير الوطن؟ أم نحن مغضوب علينا نخرب بيوتنا بأيدينا ننهش بمخالبنا في وجوهنا لنخيف بعضنا؟

بعث المُدير على الهاتف يطلب صالح؛ فقام مُلبيًا أمرًا يعلمه, إنه التقاط الدمعة من أعين البكائين، هذه المرة لا يُهمه الموت أو يخشى تصويره، يهمه الحي يحيى, من سيرعاه إذا تركه هل سيكون له المصير نفسه الذي كان ينتظره ببغداد والذي عمل جاهدًا على سحبه من بين ركامه؟

مرحبًا صالح، أصبح لدينا من نثق في بقائه تحت سماء الموت أليس كذلك؟.. قال المُدير بصوت ضاحك وصالح و اقف أمامه مربع الذراعين يقف ثابتًا بلا حِراك.

لا يوجد ثقة في المجهول سيدي.. قال صالح بغير نبرة مُبديًا عدم اللامُبالاة.

أنت عضو مُهم في لجنة حقوق الإنسان, لذلك عليك التوجه غدًا بصحبة اثنين من رفاقك إلى تونس لتصوير أحداث الثورة.

حسنًا سيدي لا بأس..

مرّ صالح على مكتب مرثا التي يشاركها فيه ثلاثة موظفين، كانت تنقر بسرعة على الآلة الكاتبة، جلس دون أن تنتبه له, ثُم رفعت وجهها، ابتسمت مُرحبة به، ثُم سحبت ابتسامتها سريعًا قائلة باهتمام: تبدو كأنك حزين!

لا لستُ حزينًا، جئت أطلبك أمرًا ما.. قال صالح بنبرة زائغة بين النبرات.

تفضل طبعًا ودون تردد, اطلب ما شئت عسى يكون بمقدوري.. قالت مُتحمسة.

أُريد أن أترك يحيى معك لأني سأُسافر إلى تونس غدًا وليس لديّ من آمنه عليه سواكِ.

طبعًا، وأشكرك على فُرصة بقائي مع يحيى لبعض الوقت.. ردت فرحة.

أشكرك كثيرًا، هذا معنى أن يكون لي أخت.

هزت رأسها بالقبول تبتسم ابتسامة مُغتصبة وداخلها ترفض أن تكون في نظره أختًا، قام مُتوجهًا إلى باب الخروج فنادته بصوت رقيق: "صالح، شُكرًا لثقتك بي". فرد وهو يقف على باب الخروج: "تستحقينها". ثُم أضاف: سوف أحضره لكِ هذا المساء وأُرتب أمور سفري.

لا عليك، المهم أن تكون أنت بخير, انتبه لنفسك جيدًا.

....

السماء مُلبدة بالغيوم الرمادية الحُبلى بالمطر الغزير، الكُل مُختبئ في منازله، الشُرفات مُغلقة والستائر مُسدلة، نبض الشوارع بطيء، قام يحي من فراشه مُتسللًا مُستوحشًا قد أوحى له عطش طفولته أن فراش الأم مرثا سوف يجلب له النوم سريعًا مُصطحبًا الأمان، خاصة إن قصت عليه قصة.

ماما مرثا، أنا خائف.. قال يحي قاضبًا حاجبيه مُبرزًا شفتيه بدلال.

تعالى حبيبي، لا تخف.. قالت وهي تقوم من فراشها تُحلق بجناحي أم حنون، أزعجها خوف صغيرها ثُم حملته ووضعته بجوارها واضجعت تربت على كتفه.

هل تحكي لي قصة؟.. قال يحي بنبرة دلال أُخرى.

طبعًا سأحكي لك: "كان زمان في سالف العصر والزمان، حيث كان كُل شيء ينطق بالإفهام، عصر كان يتكلم فيه الإنسان والحيوان والشجر والجماد بلغة واحدة، كانت هُناك أميرة جميلة من أولئك اللائي يضحك بوجوههن الصباح".

هل تقصدين أمي ماري؟.. قال يحي بصوت ناعس.

انتفضت مرثا وقامت من اضجاعها وقالت بصوت متوتر قليلًا: هل تعرف هذه القصة؟ لكنها بالحقيقة تود أن تسأله عن أمه وكيف رحلت وكيف تزوجت بصالح؛ أسئلة قد يعجز طفل صغير عن الإجابة عنها لكنّ غيرتها الأنثوية لم تكن بذلك الوقت تعي ذلك كُله.

لا, لكن أبي صالح أخبرني أن أمي كانت مثل الأميرات اللائي بالقصص، ولكنها كانت فقيرة وضعتني بملجأ الأيتام وأخبرته أن يذهب ويستردني قبل أن تذهب هي للعالم الآخر تنتظرنا هُناك.

تسارعت أنفاس مرثا، شعرت بالخجل, أخذ صدرها يعلو ويهبط حزنًا وخوفًا وقليلًا من الصدمة، وتمتمت: "هل قطعة اللحم تلك التي هي بحجم كف اليد الواحد

والتي بين ضلوع صالح يُمكنها أن تسع الأرض؟ كيف يستطيع صالح أن يملك قلبًا يسع الكون بمن فيه؟".

حبيبي هل أكمل لك القصة؟.. قالت بتصنع ناظرة للصغير كالتي تُكفر عن ذنب غيرتها، لكنه قد غط بنوم هادئ، ملائكي الوجه، احتضن غطاءه كمن سبق وذاق مرارة فقدان الدفء، كان نائمًا مثل أطفال لوحات البورترية، شعره الأشقر يُغطي جبينه الأبيض، وجنتاه ورديتان وفمه أيضًا، نظرت له مرثا بحب، ضمته وأخذت تمسح على شعره وهي تفكر بحجم السعادة التي سوف تغمرها إذاعاش ثلاثتهما معًا؟ وكيف ستكون الحياة مع صالح؟ أعاد لها ذلك نبضًا قديمًا كانت تظنه قد فارق قلبها منذ أعوام.. لا لا، لا يجب علي أن أفكر هكذا، لا يجب أن أعلق السعادة بشخص، فإذا ما سقط أمل اللقاء به سقطت سعادتي مُجددًا، سابقًا كان القلب لا يزال صغيرًا عظامه تتحمل الكسور، أما الآن إذا انكسر مُجددًا سوف يظل باقي عمره في جبس الحزن ولن يجبره شيء، ثُم راودها الحُب مُجددًا باللحظة نفسها، لكن صالح به شيء غريب يجذب الجميع له، ويجذبني قبلهم؛ بالعمل الجميع يحبونه ويلجأون له بمشاكلهم ويستشيرونه بكل أمورهم.. لا رُبما لأني أحبه أراه بأفضل ما يكون، لكنه حقًّا مُختلف، كم ستكون جميلة هي الحياة بصحبة شخص يُشبه المسيح؟ سوف تحسدني زميلاتي بالعمل على فوزي به؟ كُلهن يتوددن إليه يطلبن وصاله، بينما هو لا يُلقي بالًا لذلك, صحيح كيف أُلقي وبال حبي على من لا يلقي بالًا لذلك؟ أظن علي العزوف عن هذا الفكر وخاصة أننا لسنا على دين واحد، تحسست القُلادة التي برقبتها حتى وصلت إلى الصليب المُتدلي منها، ضمته وغمغمت: "يا أبانا الذي في السماوات، أخرج من قلبي كل منْ هُو دونك".

....

معركة تونس بداية المعارك بين الشعوب وولاة أمورها، كانت ثورة تونس الأقل دموية والأكثر أخلاقية، لم تحدث أعمال شغب وتخريب كتلك التي حدثت في مصر واليمن وسوريا وليبيا. عاد صالح من تونس بعد هروب "بن علي" إلى السعودية، لم يكن هُناك الكثير من الأخبار المُتصاعدة مُتمنيًا سفرًا قريبًا إلى العراق التي شعر بأن فرصة السفر إليها أصعب من فُرصة السفر إلى المريخ، يشتاق إلى بلد قد فارق فيها و افترق حتى عن نفسه، الشوق للصحبة الطيبة وللسكينة بينهم وللشيخ بدر, الشوق جلاد قاسٍ لا يعطي فرصة بين السوط والسوط.

رجع صالح من المطار إلى بيت مرثا مُتعبًا كي يستعيد يحيى ويتركها تنعم بالهدوء شاكرًا لها حُسن اعتنائها بالطفل، طرق الباب وفتحت، كان لفرحة قدومه صدى على قلبها، ظهر على ملامح وجهها لكنه تجاهل ذلك خوفًا وتحسبًا لحب قد لا يستطيع أن يبادلها مثله، أخجله حرارة لقائها حين أمسكت لا إراديًّا يديه قائلة: حمدًا لله على سلامتك. وفرحتها الصادقة برجوعه.

سوف آخذ يحيى وأذهب، شكرًا لكِ مرثا.. قال وهو يسحب يديه من بين يديها مُعللًا هروبه من حصار الحب، خرج يحيى فاردًا جناحيه بعناق يحمل شوق الأرض، قفزعلى كتفي صالح الذي مال كي يخطف قدمي يحيى من الأرض، ومرثا تُر اقب المشهد بقلب تتفجر ينابيعه شوقًا لأن تكون أحد أطراف تلك العائلة, حتى قضى مضجع الحُلم ذهابهما وعادت وحيدة تتقفد جسدها بالمرآة.

....

مر شهر وقد احتدّت المعارك في بلدان الثورات، وصلت فيها إلى حروب غير معلومة الأطراف، معارك غريبة لا يعلم أحد من على الحق ومن على الباطل، لا أحد يدري أكلها حق أم كُلها باطل؟ الجميع فاغر فاه يتحدث ولُعاب الهطل يتساقط مُفسرًا بتفلسف ما هو غير مفهوم.

هذه المرة يتجه صالح إلى سوريا، ولكن ليس مُستمتعًا بريفها الخلاب وتدمر حمصها, بل كشاهد عيان على سقوطها, محمومًا بوطنيته العربية المُستعرة به.

سُوريا مُجددًا، بداية النهاية ونهاية البداية، شُعلة النار تلتهم كُل جميل عشقته، كم عمرًا سوف أظل ألعن كُل ذلك الخراب من حولي، ما أصعب الكُفر بآلهة الجمال الموجودة في بلادنا؟! وتدنيس محاريبها! تلك المنازل التي كانت شامخة ترتفع إلى جُدرانها ونو افذها عناقيد العنب وزهور الياسمين، ها هي تُصبح هياكل لمنازل مُهجرة كخرقة قماش بالية وصوت زقزقة الصغار يصبح صوت البوم المُستوحش من طلقات النار، وصوت مواء القطط الضالة الجائعة، تعرّت سوريا من أبهى طلاتها، من زيها المُخملي الر ائع وردي اللون، خلعوا أساورها بقسوة من رسغها يتقاسمونها فيما بينهم، بلعوا الطُّعم بخيبة أثارت إعجاب مُشعليها لدرجة الفتنة،   كل أنواع الجمال عُوقبت بالطرد حين أُبيح انتهاك سوريا وتحويلها لقطعان من البر ابرة وإلى هنود حمر القرن الواحد والعشرين، شيء من التقهقر للخلف ليس لمسافة بل لزمن وحقبة قديمة غارقة

في الدماء لأجل أطماع البشرية التي يمتلئ بها مُستنقع التاريخ.. دونت كُل أوجاعي في مذكرتي، أبكي ولا أحد يمسح الدمع من فوق الورق، تجمدت أصابعي من فرط موجة الموت الثلجية بينما أصابع الضاغطين على زناد الرصاص لا تمل, أعجبتهم رائحة الموتى المُندسين تحت التراب، يتحللون في صمت أصابهم ذلك بجنون القنص العشوائي, لا أدري من أي سُلالة من البشر؟ هل عاد آكلوا لحوم البشر إلى الأرض؟ أم هُم أولئك الذين سيأتون في الزمان المعهود يأكلون الأخضر واليابس يفرشون أُذنًا ويلتحفون بأُخرى؟ لكن حتى أولئك الذين تمتلئ بهم الكتب لا يعرفون قتل الروح بضغطة زر لا قيمة لها على زناد البندقية، إن أولئك الذين سيلتهمون البشرية لا يفرقون بين البشر على أُسس مذهبية، ولا يقتلونهم فقط لأنهم مختلفون بمقدار ملّي سنتيمترعن عقيدتهم، غير آبهين بأعمار الموتى بين طفل وشاب وعجوز أو فتى وآخر مُعاق، ها أنا أقف كجندي صامد في ثكناتي لا أُحرك بحزني ساكنًا!

وقفت عن إطلاق زوم التصوير، تحررت من قميص الصحافة وخلعت آلة التصوير المُعلقة كالمشنقة على رقبتي بعد أن أدركت و اقعنا الغاص في الوحل، الأمس كانت بغداد واليوم سوريا واليمن ومصر وليبيا، إننا الشعوب الوحيدة التي تقتل نفسها وتصور نفسها على صفحات الجرائد وتشتكي نفسها وتحجب نفسها عن الحقائق مُتلذذة بجهلها، نحن الأمة الوحيدة التي نقضت غزلها والتي صنعت فقرها وكُل ذلك صناعة محلية بمساعدة خارجية.

زُرعت ألغام الطائفية في الوطن المرهون بأحرف التفرقة فقامت الشعوب كالبلهاء تستبق الطريق تضع أقدامها مزهوة بالعمى على حقل اللغم فتنفجر ضاحكة على تكشف جسدها أمام حضارات الأمم التي تُشير عليها بإصبع القرف والاشمئزاز، هُجرت سوريا من الأمان، ما أسوأ أن يموت الإنسان بيد أخيه الإنسان بلا ذنب ولا بُهتان".

عاد صالح ليسترد يحيى مرة أُخرى وقد استبد به الشوق للصغير وللهدوء وللنوم بلا شبح الموت الذي يُحلق فوق سماء سوريا، كان مُتعبًا حد العجزعن الكلام, وصل إلى الباب لا يكاد يُطيق نُطقًا، طرق الباب، تهاوى يده بعد كُل مرة يُحاول فيها عبثًا أن يطرق حتى فتحت مرثا بعد أن اشتعلت بها حاسة الأُنثى وأوشت لها بحضور من تنتظر طوال سنوات عدة بلا أمل، ها هُو يعود الأمل ليقف أمام بابها وإن كان مُتهاويًا لا بأس ستكون هي عُكازه المتين.

مرحبًا صالح، تفضل بالدخول، ما بك تبدو مُتعبًا.. قالت بلهفة أنثى عاشقة وقد انقبض قلبها لرؤية صالح هكذا، إنه مُنكسر، يائس، باكٍ بلا دموع.

لا لن أستطيع الدخول، أُريد أن أصطحب يحيى وأذهب.. قال بصوتٍ خافتٍ مُتعب.

لا يُمكن، تبدو مُتعبًا، تفضل بالدخول.. قالت بنبرة جادة.

دخل صالح كخيال الظل يمر ببطء أجلسه الوهن على أقرب أريكة يتصبب عرق الحزن من جبينه.

ما بِك يا صالح؟.. قالت وقد جلست بالقرب منه تتأمله بشوق وتضع يدها فوق كتفه.

لا أعرف, كُل ما هُنالك أُريد النوم ولا أُريد التحدث مُطلقًا أبدًا.

حسنًا سوف أذهب لأحضر يحيى من المدرسة, وحتى آتي نم واسترح قليلًا.

استلقى فوق الأريكة، غلبه النوم وكسر وهنه جناحي الحديث.

أخذت تتأمله بحنو أُنثى عاشقة، ماذا سيحدث في الكون لو استقبلتُك اليوم من غيابك كحبيبين؟ وأمسح جبينك المُتعرق بمنشفة شفاهي؟

ذهبت لتُحضر يحيى من المدرسة، ثُم اصطحبته لنُزهة إلى الملاهي, كي تُتيح لصالح فُرصة أكبر للراحة, حتى دق هاتفها فأخرجته وهي تُر اقب يحيى على الأرجوحة تدفعه برفق.. إنه صالح، هل فاق بهذه السرعة؟

- مرحبًا صالح.

- مرحبًا، لماذا تأخرتما؟ هل ثمة خطب ما؟

- لا لا, إننا بخير، فقط اصطحبت يحيى إلى نزهة كي تنعم بفترة نوم, وها نحن عائدان.

نزل يحيى فرحًا من الأرجوحة، رتبت مرثا ثيابه المُترهلة وتقدمت نحو الشارع العام تنتظر سيارة أُجرة حتى جاء أحدهم أشارت إليه بالوقوف ثُم وصفت له العنوان وركبت هي والطفل تعد الدقائق لكي ترى صالح، وصلت إلى المنزل أخيرًا.

بابا صاح.. قال يحيى فرحًا, وحلّق نحو صالح يُعانقه حتى صدمه بقوة في فكه.

أوه! أهلًا حبيبي.. قال صالح وهو يُخبئ تألمه ويمسح قطرات الدماء التي بزغت من فمه.

هرعت مرثا تُحضر مناديل ورقية، ناولتها له قائلة: سوف أذهب لأحضر الطعام.

وضعت أطباق الأرز ثم أحضرت طبقًا من مرق الخضار ولحم دجاج مُحمر، وبينما هي تضع آخر الأطباق نظرت لصالح فإذا بيحيى قد نام فوق صدره.

لقد نام جائعًا.. قال صالح وهو يُحسس على شعر يحيى الناعم المُنسدل على جبينه.

لا، قد تناول وجبة صغيرة بعد المدرسة، دعني أحمله وأضعه في فراشه.. قالت وقد اقتربت منه.

لا دعيه, سأحمله أنا.. قال وهو ينهض بيحيى يحمله مُتجهًا به إلى غرفة مفتوحة يظهر منها طرف سرير، وضع يحيى الذي استلقى بلا حراك وغطاه، ثم عاد ليتناول الطعام على السفرة التي ضمته هو ومرثا وثالثهما الحب يقف مُتحيرًا منهما.

أخذ يتناول الطعام بهدوء كالذي يأكل عن شبع برغم أن كركرة معدته الخاوية تنطق جوعًا، أما مرثا فكانت تضع الطعام بفمها كالتي تُريد أن تُخرس فمها عن حديث يُجلجل في حلقها يصرخ يستنجد الخروج من حفرة الصمت.

صا.. لح... قالت مُقطعة اسمه لمقطعين ترددًا وقد تركت من يدها الملعقة ومسحت فمها من الطعام كالتي تمسحه من وزر الصمت، وقالت بعد أن استجمعت قواها:

- أُريد أن أتزوجك..

رفعت يدها بوجهه الذي تفرقت ملامحه قائلة: أرجوك ليس هُناك أقسى من لحظة تطلب فيها امرأة الزواج من رجل، لكني أعرف من أنت جيدًا, وليس كُل الرجال يُباح لهم بذلك. ثُم أمسكت بيديه كالتي تترجاه حبًّا قائلةً: لقد انتظرتُك حتى فقدت الأمل في عودتي.

لكن قلبي مُمتلئ يا مرثا حد الفراغ مني، سامحيني، منذ رحلت ماري لم يعد في قلبي مكان شاغر.. قال بصوت حزين ساحبًا كفّيه مرة أُخرى من بحر كفيها الدافئة بعاطفة الحوار.

أكتفي بنصف قلبك.. قالت بنبرة صمود، رفع صالح رأسه للسقف مُتنهدًا ثُم اتجه إلى الباب هاربًا، قالت بنبرة كاليائس:

سأكتفي بربع قلب، بعشر قلب، أكتفي بذرة حب في قلبك لي، يكفيني منك أي شيء.. شعرت أنه يتفلت منها كقطرة الزئبق، أحنت رأسها في خيبة، شبكت أصابع يديها معًا

ووضعتهم بفمها تقرضهما كالتي تقف أمام باب غرفة العمليات تنتظر نتيجة عملية جراحية لعزيز.

أمام إصرارها الغارق في الحب شعر صالح أن كل الأعذار لن تُفيد وأن اللوح الخشبي الذي سيسحبه من الغرق مجرد وهم، وأن مصيره هو الاستسلام للغرق في بحر الصمت.

هرع للباب على عجل كي يُخرج نفسه من مربع الحب الذي حشرته به مرثا، وعند عتبة الهروب باغته صوتها من الخلف تقول: سوف أنتظر المزيد من الوقت لا ضير, ولن أفقد طاقة الحب. ثُم أضافت بصوت يُشبه اليأس حين نظر خلفه وعينيه التقت بعينيها: صالح إن الموتى لا يرجعون، لا يمدون أيديهم من الماضي ليصافحوا المستقبل، الموتى لا يهبون الأحياء سوى الألم.

هرب صالح، وصل منزله يُردد بلا توقف وبلا وعي منه: "الموتى لا يرجعون", ثم قضى المزيد من فترات الصمت وحيدًا حتى من خواطره، هل يُعقل أن يكون شخص آخر في مكان ماري؟ لقد سحبت ماري مني حصانة اختياري، فلم يعد لديّ قُدرة على الحب أو العبث مُجددًا بمخالبه.

لكن ما ضرّي لو تزوجت مرثا؟ وضممت جروح عمرها الغائرة؟ لِمَ القسوة هذه؟ وقد قبلت لو بذرة واحدة شاغرة في قلبي, يُمكنني أن أعاود الثقة بالحب, وأعود لأحلم بدفء العائلة،

لماذا قسيت عليها؟ وحقًّا ليس سهلًا أن تطلب امرأة الزواج من رجل، إلا إذا كان هذا الرجل تحمل له من الحب ما يطيح بفرقة رقم اثنين ويجلس الرقم واحد على عرش التعبير، لماذا أُطفئ بريقها مُتعمدًا؟ إنها أحبتني حتى لم تعد تر اني، لكم حاولت جاهدًا باستماتة الهروب منها خوفًا على قلبها الرقيق من ألم الحب من طرف واحد، إلى متى سيظل الخوف هو صاحب الكلمة الأولى في كُل قراراتي؟ لماذا لا أعطي لنفسي فُرصة الحب مُجددًا لتلك التي وهبتني إياه قديمًا وما زالت؟

لا لن أتزوج من مرثا ولا من أي امرأة أخرى، هذا هو القرار الصائب.

إنها الليلة التي عقدت قران قلب امرأة بحبيبها، الذي هو آخر فرصها للحياة, تهيأت مرثا لأول مرة عن قناعة ورضا، سعيدة شغوفة بالرغبة في أن تكون طلتها جميلة للحد الذي تكف فيه عن العبث بمساحيق التجميل الكثيرة التي اختارتها ووقفت بينها حائرة

كالطفلة التي تعبث بالألوان، وعندما جاء صالح قطع عليها حبل الحيرة المتين, أمسك بيده منديلًا مبللًا ومسح بخفة وجهها التي عانت كي تُعطيه طلة تليق بحبيبها، لكنه لم يكن في حاجة إلى طلة مُزخرفة فهو العارف بأسرار الصورة التي يعشق طبيعتها.

أنتِ أجمل بكثير حين تكونين على طبيعتك.. قال مُبتسمًا في وجهها الذي أشرق بلمسته كالشمس على سطح البحر، أومأت برأسها راضية وفخورة بمن أحبته وأختارته زوجًا.

جمعت الغرفة المُتساوية الأضلاع قلبين كُل منهما عانى سوابق الخيبة، لكنها مُفارقة عجيبة فهذا الذي لم يكن يومًا فارسًا ولم يمتطِ قط جوادًا قد استطاع بجدارة ركوب الخيل بفروسية مُطلقة، وهي التي لم تكن يومًا فرسًا جامحة قد انطلقت بمهارة الفرس العربي وبلياقة لا تحدها حدود.

......

في وكالة الأنباء وبالطابق الثاني وأمام مكتب صالح التف نفر من الموظفين حول امرأة أجنبية ترتدي فستانًا زيتونيًا قصيرًا، تمسك بيدها فتاة ذات السبعة أعوام، قد فهم بعض من حولها الذين يُجيدون الإنجليزية أنها تُريد مُقابلة صالح، تحمل في يدها صورة له قديمة تعود لأيام الجامعة، قد عرفوه، وقفوا بين مُتعجب ومُعجب وآخر يُقلب عينيه فيها صعودًا ونزولًا وبين مُستنكر ما الذي تُريده تلك الأجنبية من صالح؟

أحدهم يقول رُبما تزوجها في إحدى سفراته، وآخر يقول رُبما هي صاحبته، ثُم يستبعدون ذلك، إن صالح رجل جاد ومُتدين لا يُمكن أن يفعل ذلك, لكن الشكوك لا تُدافع عن أحد، تطرح كُل الاحتمالات، حتى أتى صالح وهرع بعضهم إليه يستبق إخباره بتلك المرأة قبل غيره في حين أنه هو لم يبدِ أهمية كما ظن الجميع.

مرحبًا، أنا صالح، كيف يُمكنني مُساعدتك؟.. قال بإنجليزية ركيكة.

مرحبًا، لقد جئتُ من أمريكا اليوم وأُريد التحدث إليك سريعًا ومُطولًا.. قالت المرأة بنبرة فاترة. حسنًا سيدتي تفضلي معي للمنزل.. قال وقد استبد به الفضول ومن حوله الكُل تركض بداخلهم الأسئلة, حتى جاء المُدير وفرّق جمعهم، استأذن صالح المُدير أن يذهب لضيافة المرأة التي أثارت الفضول لدى الجميع حتى المُدير الذي قبل بانصرافه من العمل مُبكرًا لكي يحوز على إعجاب الشقراء مُظهرًا لها أنه "جنتل مان". وقف مُبالغًا في تفحصه بالمرأة من خلف نظارته حتى خرجت مع صالح وثالثهما الطفلة.

وصلا إلى البيت، فتحت مرثا الباب مُهللة لعودته باكرًا وقبل أن تُنهي طباعة قُبلتها على خده باغتتها طلة الفتاة الصغيرة من خلفه ثُم المرأة الأجنبية.

نظرت لهما بتعجب ثُم حولت النظرة لصالح الذي تنحى جانبًا كي تدخل المرأة قبله وبيدها الصغيرة، جلسوا جميعًا ودخلت مرثا المطبخ تصنع لهم عصيرًا طازجًا من الليمون بِناء على طلب الضيفة وتتقلب في مُخيلتها الأفكار.

اسمي "بيي"، كُنت سكرتيرة آسر ومُمرضته وقد أتيت هُنا بِناء على طلبه.

إقليدس.. آه يا صديقي!.. قال صالح بحزن مُنكسًا رأسه: وكيف هو؟ ولماذا لم يأتِ؟ ومن تلك الفتاة؟

هذه أنجيلا ابنته.. قالت "بيي" وهي تبتسم لوجه الفتاة الصغيرة الشقراء وتمسح على شعرها المُنسدل والتي بدت عليها ملامح تعب السفر والكثير من التعب الآخر.

آسر أعطاني عنوان عملك وقال هذا كُلُ ما يملك من معلومات عنك, وأصرّ علي أن أُسافر كي ألتقي بك وأُسلمك الفتاة, إنها تتحدث العربية، كانت تدرس في مدرسة عربية وكان آسر يتحدث معها العربية أغلب الوقت.

قام صالح وجلس قرفصاء أمام الفتاة الناعسة, حزينًا ينظر إليها في عطف يُحسس على شعرها وتمتم: كم تُشبه إقليدس، وكأنها نُسخة مؤنثة منه. أحضرت مرثا عصير الليمون، أشار إليها صالح أن تصطحب الفتاة كي تنام لكن الفتاة تشبثت بفستان "بيي" التي خلصتها من خوفها حين أومأت لها بالذهاب, فرضخت وتمسكت بيد مرثا وذهبتا, لكن مرثا هدد وجود الشقراء أمنها وأشعل فتيل غيرتها فلم تعد تطيق الذهاب وترك المكان الذي يجمع بين الشقراء وصالح.

رفع صالح كأس الليمون إلى بيي.. لم تُخبريني لماذا لم يأتِ آسر؟

في الحقيقة لستُ أدري من أين أبدأ سيدي، لقد كان له أشياء غريبة في الأيام الأخيرة, كان يصرخ كثيرًا بأوقات نومه وكُنت أصحو أحتضنه كالطفل كي يغفو مُطمئنًا، وحين يفيق يزجرني ويُهددني بالطرد، ثُم يجلس مُنكسرًا كعجوز هزمته الأمراض، دائمًا يُردد: أرجوكِ أُريد أن أموت وحيدًا، لكن لأني شعرت بقسوة ما يُعانيه لم أستطع أن أتركه وحيدًا، بقيتُ أُصبر نفسي بحبي له وبإنسانيته معي ولُطفه الدائم طوال عاميّ عمل، و أيضًا شفقة على تلك الصغيرة التي لم يتبقَّ لها في الدُنيا سواي بعد أن ضاعت والدتُها المُستهترة بين أزقة مُتعاطي المُخدرات، وأب ضائع في ذاكرته، كُنت كُلما شعرت

باليأس والرغبة في الهروب أذهب إلى فراشها كي أودعها وأحسس على أناملها الصغيرة، فتُمسك بيدي كما لو كانت تعرف ما يدور بداخلي، تترجاني بصمت أن أبقى. كان صالح يستمع إليها حائرًا صامتًا ثُم نطق أخيرًا بحشرجة:

وآسر، أين هو؟ هل مات؟

لا أعرف، آخر مرة رأيته فيها كُنت نائمة بجوار أنجيلا، بعد أن ناولته الدواء الذي وصفه آخر طبيب ذهبنا إليه، كان الدواء هذا سيجعله ينام بعد نصف ساعة، ولكني فوجئت به يصرخ ويقطع الوسادة بيديه، وعلى شاشة اللابتوب شيء لا أدري أهو سبب الحالة التي هو فيها أم لا؟ كان فيديو عربي عن أحداث الثورة السورية، هكذا فهمت لأن آسر قد علمني بعض كلمات عربية, بالفيديو كان هُناك رجل بين صفوف الشباب يحمل لافتة سوداء تقدم أمام الحشد أظن اسمه جاسم سمعت نفرًا يتحدثون إليه يهتفون بكلمات لم أفهمها، حاولت كثيرًا أن أُهدئ من روعه ولكنه كان مُتغيرًا حد أني خفت منه، استلقى على الأريكة يتساقط شعره للأمام فوق جبينه كالمطعون في ظهره، لم أستطع تحمل ذلك، ذهبت وأغلقت الباب عليّ والصغيرة, وحين جاء الصباح لم نجده ولم نره من يومها، حتى مر شهر وشهران وثلاثة وحين شعرت أن الأيام تفر من بين يديّ رفعت طلبا للمحكمة بتبني الفتاة وقُبل, ثُم حملتها إليك بِناء على وصية آسر؛ لأنه دائمًا ما كان يقول إذا جاء اليوم ولم تجديني اذهبي بالفتاة إلى هذا البلد وهذا العنوان و ابحثي عن أخي صالح.. ثُم صمتت بي كي لا تُكمل أن إقليدس أخبرها أنها سوف تغرم بصالح حال تراه وأنهما سيربيان الفتاة معًا كأبوين وسوف يعوضها صالح ما فشل إقليدس به.

هل هذه هي النهاية؟ لن أرى آسر مرة أُخرى.. قال صالح بصوت خافت باكٍ مغمور في الحزن. كان يُحبك كثيرًا، لطالما أخبرني عنك، انظر لقد جلبت لك صورًا تخصكما.. وضعت يدها في حقيبتها وأخرجت صورًا تجمعه بإقليدس منذ الطفولة وبالجامعة، مدّتها له فأمسك بها ترتعش يداه وعيناه تبكيان.

لكم تمنيت أن هذا اليوم لا يأتي يا إقليدس! يا صديقي المُتألم عفوًا ألف آسف يا صديقي بلا أي عذرعن غيابي.

"كأم موسى أصبح فؤاي خاليًا

أكاد أن أُبدي بك لولا حسن الظن

من يقُصك ويحمل لي عنك أي خبر ولو على سبيل الكذب

كصاحبي السجن أرى فوق رأسي خُبزًا وأعصر أحشائي خمرًا
فأي سلوة تطيب قلب ثكلى سوى جميل الصبر.

......

مر شهر قضته "بيي" كسائحة، تمنت لو أنها تستطيع أن تعود إلى أمريكا بصحبة الفتاة وصالح لكن ذلك بدى مُستحيلًا، فصالح رجل متزوج ومُخلص لزوجته ولم يكترث لنظرات الإعجاب التي كانت تفضحها، لم تجد بُداً من أن تُسافر بعد أن اطمئنت على أنجيلا التي تعودت على صالح سريعًا وتعلقت به و انسجمت مع يحيى وأصبحا لا يفترقان، يلعبان معًا طوال اليوم ويذهبان معًا إلى المدرسة، شُفيت تمامًا وزال عنها كُل ما كانت "بيي" تحذره من اضطراب نفسي وسلوكي لديها وأصبحت الفتاة رائعة ومُستمتعة بالحياة.

سافرت بعد أن أصبح حُلم بقائها مع صالح والفتاة مُجرد وهم يستبد بها، تركت له رسالة سلمتها لهُ بعد أن ودعته في المطار مُتجهة إلى أمريكا، أخذ الرسالة وضعها في جيبه ثم نظر إليها لكنها كانت قد اختفت بين صفوف المُسافرين، أخرج الرسالة:

"كان الأمر مُختلفًا تمامًا فقد جئت هُنا على كره, كيف يُفضلك آسر عليَّ ويطلبني أن أعطيك الفتاة، وكُنت مُحملة بغبار الشك هل ثمة شيء يربطكما هو دون الصداقة؟ لكني الآن أرحل و أنا أعي تمامًا أن هُناك أُناسًا بمجرد الجلوس إليهم تهبهم كُل ما لديك من مشاعر دون إرادتك، هُناك من تود أن تكون دائمًا بالقرب منهم ودون ملل، هُناك من يهبونك الطمأنينة بمجرد أن يكونوا بالمكان ذاته ولو فقط بصوتهم، هكذا أنت، أحببتُك كثيرًا للحد الذي أثار داخلي حقد الأنثى، لذلك هربت ودون أُن أُخبرك بأني أُحببتُك جدًّا".

انتهى صالح من قراءة الرسالة، دمعت عينيه على ما كان من أمر المرأة التي رحلت مُنكسرة القلب وعاد إلى بيته مُتناسيًا ما كان.

"إني آنست نورًا وجدت عندهُ الهُدى, فأرخ جناحي الوصال بلا نوى, كأهل الكهف أنام ثلاثمائة وأظنها ليلة".. كان صالح يكتب خواطره في حين دقت مرثا الباب المفتوح بلطف تستأذن للدخول.

تفضلي.. قال مُبتسمًا، نظر إليها وقد بدا عليها السرور، ثم قال بتودد: هل ناما الصغيران؟

- نعم لقد ناما.

- شُكرًا لكِ مرثا على اعتنائك بهذين الطفلين.

- لا شكر بيننا بل شكرك فرض عليّ, لكم تمنيت من الله طفلًا فوهبني اثنان، أتعلم لديّ ما أُخبرك به, قالت وقد تقدمت تقف خلفه كالظل الطويل النابع عن جلوسه أمام شمعة في الظلام تضع يديها الدافئة على كتفيه من الخلف كالأم الحنون.

قال مُبتسمًا دون أن يرفع رأسه لوجهها: سيصبح لدينا طفل جديد وسيكون ولدًا واسمه بدر.

وكيف عرفت؟!.. قالت مُتعجبة وقد رفعت جبينها جعلته خطوطًا مُتعرجة.

من عرف الله عرف كل شيء.. قال وقد أغلق دفتر مُذكراته.

لستُ أدري ماذا سيكون الحب إن لم يكن مثلك على الأرض محبوب؟.. قالت وقد أحنت رأسها فوق كتفه.

مرثا لا يعطيها صالح فُرصة الإفاقة من الدهشة، فهو أب رائع لطفلين قد وهبتهما لها الحياة بعد فترة يأس، وأحيانًا هو طفلها الثالث الذي يُضاهيهما براءة وطفولة جامحة، وحين تستسقي منه الحب يكون ريانًا حد الثمل، وحين يهيج بقلبه شيء لا تعيه يصيح في ظُلمات الليل أن حي على سُقيا الحب، يقوم بين يديّ الصمت تراه قائمًا يُصلي وتراه يبكي وتراه يضحك ثم تراه بجوارها نائمًا وكأن شيء لم يكن.

سَفرةٌ أخيرةٌ

بغداد وسوريا 2015

غرقت البُلدان في الفوضى والموت والخراب، ومن وسط هذا الخضم الواسع من الجدل والجدال والحروب الأهلية ومن بين أزقة البيوت المُهدمة وأصداء الرُصاص العشوائي والقناص، خرجت أفعى جديدة فجأة بين كومة الخراب بالعام 2014 ترتدي ثوب اليمام ترفع علمًا أسود في باطنه وفي ظاهره البياض، تتمدد في طولها بسرعة فائقة لتشمل سوريا والعراق وليبيا، تبخ سمها بين الأفراد تنطق بالكذب والبُهتان، إنها تُقيم دولة الله، بعدما أُحرقت ورقة "بن لادن" حيث ألقاه صانعوه في البحر قائلين بصوت لا يسمعه إلا القليل على طرف الكُرة الأرضية الآخر "كش ملك"، كي تصنع تنظيمًا آخر أكثر وحشية منهُ وأكثر تعطشًا للدماء، قد اختارت أبطاله هذه المرة بعناية فائقة، كُل من رفع السلاح بيوم في وجه أخيه له سابقة مُعقدة في طريقة نشأته الأسرية تبعتها الحياكة الممزوجة بالخلل في الدراسة والتنشئة الاجتماعية وأمراض التملك النفسية..

سنوات عجاف تمطر دماء فوق أراضي كانت قديمًا حياة.

جاءني البشير وقال إن هُناك مؤتمر في بغداد عن الصحفيين الشهداء فكانت فُرصتي كصحفي ناشط في مجال حقوق الإنسان أن أسافر إلى مدينة الحُب كي أقضي من الفروض والنوافل ما فاتني وتفرغ الرُوح بما تعبأ من الدُنيا وتنجلي بالحب؛ فُرصتي لأرى الشيخ بدرالذي علمني كيف يحيي الحب العظام وهي رميم، و أبحث عن سعيد قبل أن يبتلعه بُركان القتل، فُقدان إقليدس أرهقني، أُريد استرداد سعيد الذي ابتلعه الموج الأسود، من الناحية الأخرى قد حدق الشوق في وجهي واشتقت لصُحبتي الجميلة بين الذاكرين، تركت زوجتي بشهرها الأخير قد يُهاجمها المخاض بأي لحظة لكنها صبورة ومُثابرة، كتبت آخر مذكراتي وودعتها معها، حيث سينبش الحب عن رُفات كاتب كان يكتب ليحيي فرض الحب بسنة الموت.

مدينة الحب هل ارتدت عن الحب؟ وارتدت الحداد عليه وكعادتها ترتدي الحداد الأبيض، إنها رائعة حتى في حُزنها، مُختلفة عن كُل من يتجرد عن عرشه، لا تُشبه أحدًا البتة، انتهي المؤتمر الذي عقده الأحياء على شرف الموتى، استقل صالح سيارة الأجرة

إلى حيث الصحبة الفارغة من الدُنيا, لكن المكان كان فارغًا من الذاكرين، حوائطه مقصوفة تقف متكأة على جنبها تأبى السقوط، تعتق رقاب الخوف من حولها وكأن القُدس يُعاد احتلالها من جديد، لماذا يكرهون كُل جميل لماذا؟.. يسأل ويسأل دون جدوى.

أعداء الجمال قد سرقوا من المدينة أذان الحب الذي يُوقظ الغافلين، نكست داعش علم الحب ورفعت علم السواد فوق مملكة العاشقين، الآن فهمت لمَ الأفعى حين تخرج من وكرها ترفع رأسها وتمطه في عجب!

كان صالح يُقلب عينيه حزينًا تتكاثر في رأسه الأفكار بسرعة خيالية, لم ينتبه حتى أسقطته ضربة مُتلصص من خلفه, سقط مغشيًا عليه وحين فتح عينيه كان شبح رجال كُثر يمرون مُقصرين ثيابهم مُحلقين قد رآهم في زمان ماضٍ, وكان يُلقبهم جُند قابيل, سبعة نفر جميعهم مُدججين بالسلاح يستمدون من صوت رصاصهم قوتهم الوهمية، كُنت قديمًا رُبما يُهيبني ذلك ويعريني من الصبر أما الآن ألف رصاصة يستقبلها صدري دون خوف ودون امتعاض، ما لكم لا ترجون للحب وقارًا؟! هل الموت بين أيديكم موت لا الموت على أيديكم شهادة؟

كافر..

صرخ أحدهم في وجه صالح وقال آخر: لقد رأيته يا مولاي في مكان حيث يجتمع الدراويش أصحاب البدع وكان يبكي، يبدو أنه كان متعودًا على المجيء إليهم ليجلس بجوار أولئك الصوفية الكافرين. قال أحد الرجال الواقفين يحمل في يده سلاحه يُوجهه إلى وجه صالح.

وقف الرجل يتفرس بصالح ثُم قال بنبرة جافة وهُو يهز رأسه: أظنه ليس بعراقي, وهكذا سيكون عقابه أكبر ههههه.

قال أحدهم: أظنني أعرفه، اربطوا يديه وقدميه حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

وقال آخر: لا تدعوه يهرب, فلا بد أن لديه قصصًا مُسلية من كرامات شيخه ههههههههه سوف يقصها لنا. ثُم أداروا ظهورهم وذهبوا واحدًا وراء الآخر, كان صالح مُتعبًا حلقه جافة عيناه باكيتان ينطق الهوينى..

"في الحُب كان لنا موعد وهُم لا يخلفون, وقفت في حضورهم أنتظر لكن المارقين قيدوني, من حُبك يا قيس وتغنيك في ليلى أحبوها ونسوا المجنون, ها وقد أصبحت قيسًا ما لهم لليلى يكرهون؟ أنا العاشق مُتيم الفؤاد لكنهم لا يُدركون".

عم الظلام على المكان فتساوت معالم المكان بالسواد، جاء أحد المُلثمين حاملًا سلاحه يتقدم من صالح: أنت، قُم هيا الأمير يُريدك. بعد أن فك أحدهم رُباط قدميه لكن رُباط يديه ما زال.

أمام رجل بدين مُلتحٍ يمضغ قطعة كبيرة من العلكة وقف صالح شامخًا كنخيل بلاده.

ها وكيف كانت حفلتكم؟ هل زارتكم أرواح الأولياء ههههه.. قال الرجل البدين بسخرية.

لقد زارنا الله في كُل مرة وكفى.. قال صالح بهدوء وكبرياء.

مولاي أعرف هذا الشاب، لقد أتى مع سعيد هُنا منذ سنوات, من وقتها لم أسترح له وعلمت من تصرفاته أنه جاسوس.

قال أحد الرجال, نظر صالح له وعرفه, إنه الرجل المُتفرس الذي رأه منذ سنوات يوم زار المُجاهدين مع سعيد، فأدرك تِلك الحفرة البائسة التي سقط فيها سعيدًا وتأسف لحاله.

ابعثوا في طلب سعيد لنستفهم منهُ.. قال الرجل البدين.

ولكن سعيدا قد ذهب الآن إلى سوريا، انضم إلى المجاهدين هُناك ومعه زوجتيه القديمة والجديدة أرملة المرحوم ناصر.. قال الرجل العابس.

أخبروه أن يحضر نستفهم أمر هذا الجاسوس وإلا اقتلوه وأريحونا.. قال البدين وقد أشار إلى الحارس الو اقف أمام الباب أن يصطحب صالح فانصاع للأمر بهمة، جرّه من ياقة قميصه ومضى.

هل أستطيع أن أُصلي؟.. سأل صالح الحارس الو اقف أمام الحجرة.

اخرس، هل تُقبل صلاة مُشرك كافر؟ نم أو اجلس صامتًا حتى يُقضى أمرك.

تنهد وتمتم خفية بصلاتهِ يؤدي منها بقلبه ما يستطيع, ثُم غفى فرأى الشيخ بدر يجلس مُتكئًا على عصاه يبتسم، اقترب منه فرحًا بلقائه مدّ الشيخ مُبتسمًا يده له وفيها ثلاث تمرات.

آه يا إلهي! ما أجملك حُلمًا وصحوًا!.. فاق من نومه وطعم التمرات في فمه لم يذق حلاوة تُشبهها أبدًا، شعر بشعور غريب يُشبه العودة من الموت، تأمل الباب المُغلق كثيرًا ثُم ردد بصوت هادئ: الله الله الله الله.

سمع صوت إطلاق نار مُتتالٍ، نظر من فتحة بالحائط فرأى مجموعة من الرجال مُربوطين يجلسون القُرفصاء يتساقطون واحدًا تلو الآخر برصاص يطلقه عليهم رجل واحد يحمل كلاشنكوف في يده اليُمنى يدوس بيد واحدة مُتفاخرًا بقوة ضغطه وبصيده الثمين.

سقطوا جميعًا على الأرض جثثًا هامدة تشتكي إلى الله بئس صنع البشر فيها، بكى صالح حتى غرق وجهه بالدموع: يا إلهي أكاد أسمع صوت السماء تبكي والأرض تحتضن الدماء كالأم التي تضع رأس ابنها القتيل على صدرها! من أولئك الذين جاء بي حظي العاثر إليهم؟

.....

مرّ يومان، حضر سعيد من سوريا، وبعد طول تحقيق طلب منهم رؤية ذلك الشخص الذي ينسبوه إليه.

صالح أهذا أنت؟ لماذا عُدت؟.. قال سعيد باندهاش.

سعيد, هذا ليس أنت.. قال صالح يهز رأسه أسفًا.

وقفا مُتجمدين من برد المشاعر الذي تخلص منه صالح سريعًا وألقى برأسه فوق كتفي صاحبه.

هل حقًّا وجدوك في مكان الكفار والمُبتدعين؟.. قال سعيد بصوتٍ مُستنكر كالغير مُصدق وهُو يرفع رأس صديقه من فوق كتفيه كالذي يفك وثاق صحبتهما.

سعيد هيا لنهرب من هُنا, هؤلاء كاذبون, أيديهم ملوثة بدم الأبرياء, إنهم جندُ إبليس، إنهم خرّاصون، هيا نعود لبلادنا، لقد رأيتهم يقتلون رجالًا أبرياء عُزّل يجلسون مُربوطين, صوّبوا على رؤوسهم الطلقات وسقطوا واحدًا تلو الآخر.. قال صالح مُشيرا

بيده إلى مكان الحادث وكأنه ما زال يحدث أمامه، ثم هزّ كتفي سعيد بيديه يحثه على أن يقبل باقتراحهِ.

صالح، كُفّ عن هذا السُخف والهطل، لم يتبق سوى القليل وتُعلن دولة الإسلام هل تُريدني أن أهرب مثل الفئران لبلدك كي يقودوني إلى المشنقة بتهمهم الفارغة؟.. قال سعيد بغضب وقد تصلبت ملامح وجهه، ثُم صرخ بصوت جهوري حتى انتفخت عروق رقبته التي ارتفعت فوق رأس صديقه في غروروتجبر: أخبرني لماذا جئت؟

قال صالح في نفسه بمرارة وقد نظر للأرض آسفًا: "وإخوانهم يمدونهم في الغي ثُم لا يقصرون". ثُم رفع رأسه في وجه صاحبه بكبرياء وقال بنبرة مجروحة: جئت كي أنقذ ما تبقى لديّ، جئت أرى من علموني الحُب، جئت لأراك و أنتشلُك من وكر القتلة.

أطفأ نيران الحوار المُشتعل الرجُل البدين حين ولج ينطح الهواء بكرشه زاعقًا يرفع إصبع التهديد: أنت يا سعيد إما أن تقتل هذا الجاسوس الكافر أو تُقتلان معًا وهذه الطريقة الوحيدة التي ستُثبت لنا إخلاصك كي تبقى بيننا.

نظر كُل منهما للآخر، فقال صالح يهزّ رأسه في أسف: "لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إني أُريد أن تبوء بإثمي و إثمك فتكون من أصحاب النار". قد قدمت قُرباني وتُقبل مني، إن الله يتقبل من المُتقين الصالحين، أما أنت وذووك قد أحرق الله قُربانكم المُمتلئة بالدماء، إنه طيب لا يقبل نتنًا.

انظر لهذا الكافر، إنهُ يتهكم علينا، نحن دولة الإسلام.. قال البدين مُشعلًا المزيد من فتيل الغضب بسعيد وقد نجح.

لأقتلنك.. قال سعيد وقد استبد به جنون القتل الذي أتقنه وأدمنه على أيدي مُبتدعيه.

لا يقتل الرصاص قلبًا أحياه الحُب.

رفع سعيد بندقيته في وجه أخيه وكان من الظالمين، ترتعش يديه فكيف تنتهي حياة صالح على يد من كانت بدايته على يده؟.. نظر صالح لعينيّ صديقه التي تقدح ظُلمًا وظلامًا، ثم نظر للسلاح فكم كان كل ذلك مَهين! لم يرَ سعيد الشاب المفتول العضلات المُمسك ببندقية لا، رأى سعيد الطفل اليائس الباكي الذي يختبئ في أحضان صالح من برد وحُزن الحياة وينام من فرط جوعه للأمان على صدر صالح، كبر سعيد، نعم

كبر, والآن يرفع السلاح بوجه صاحبه الذي كان رفيقه في ليالي اليُتم، داس سعيد زناد الظُلم بينما صالح لم يعد يره، كان ينظر في الأُفق لأشياء كثيرة جميلة ومشاهد مُتفرقة, ماري بثوبها الأبيض تخرج من النهر تقطر ماء، صرخة استهلال طفل وليد تظهر رأسه من رحم أمه ثُم كتفيه, ثُم يخرج كاملًا يرفرف بجناحي عصفور، وأُمه سعيدة تتمنى حضور أبيه كي يرى طفله الأول وأملها الأخير قبل انقطاع الطمث، وفي السماء سرب طيور بيض اصطف على شكل قلب تصفق بأجنحتها، تلاشت كُل المشاهد سريعًا عندما اقترب منه خيال رجل يرتدي عباءة بيضاء، يمتطي جوادًا أبيض ليس كمثله جواد، يبتسم ويقترب إنه الشيخ بدر يحمل الطفل على كفيه يؤذن في أذنيّ الصغير شهادة الحب الأولى، وضعه على صدر صالح ومسح على قلبه يُزيل الأسى.

ليس هُناك أجمل من رؤيتك بين أضغاث الألم.

"وحين ألقى بي إخوة نفسي في بئر الظلام ,أتي الحبيب ليدلي دلوه فتصيح الروح يا بُشرى هذا غرام".

خرج سعيد مُستوحشًا من حياة صالح كما دخلها مُستوحشًا من الناس ومن الدُنيا، خرج بالخوف ذاته الذي أتى به يزني به الوهم فيحمل سفاحًا بشبح الماضي المجهول, وبرعب الأماكن كان صالح سابقًا مأمنه والآن قد فقد مأمنه، دخل ليقتل صالح فخرج هو ميتًا بينما صالح لم يمت.

.....

- ماري أهذه أنتِ يا حبيبتي؟

- نعم، كُنت أنتظرُك.. قالت وهي تتحسس الخصلة البيضاء في مُقدمة رأسه: لقد خفت عليك كثيرًا حين رفعوا بنادقهم الصدئة بوجهك المُضيء.

- لا تخافي حبيبتي فليس الموت مؤلمًا ومُرعبًا كما يظن البعض، إنه يُشبه العودة من الغربة إلى الوطن بعد استبداد الحنين ولوعة الفراق، إن طعم الموت عن عُمر يُناهز الحب رائع.

- لكني خفت أن يُصيبك حزن من ذلك الذي أطلق عليك النار بعد أن أطلقت عليه الحب، أليس هذا بمشين؟

- بلى هو مشين، لكن لا تخافي حبيبتي لا يقتل الرصاص قلبًا أحياه الحب, إنهم لا يجيدون إلا الطعن في الظهر, هذا أقصى إيمانهم وطلقة الظهر ليست بالضرورة تتسلل للقلب.

- لقد كبرت قليلًا حبيبي، وأصبح لديك خصلات بيض.

- نعم كبرت وكُبر حُبك معي.

.....

وضعت مرثا مولودها الذي وُلدت تنتظره، نام الصغير بعد جرعة حليب ممزوجة بالحنان وقامت تتحسس ريح صالح بعد أن هاج الشوق بقلبها، فتحت خزانته وأخرجت مُذكراته تتحسسها كما تتحسس جلده، تروي ظمأها بنهر كلماته.

"ترنيمة شوق"

أطلق سراح الطير الذي بك لاذ
وأرمي جميل طيبك بقلبٍ مُتحجرٍ
أما أنت الرقيق الطيب يا جميل الثغر
كوى الشوق مُهجتي وقطعني العشق إربًا
هاك قلبي الرضيع يُكره على الفُطام
يُوحش الليل العُشاق ويؤنسني بخدر
فأنت مؤنث وحشتي وكفى
امطر رؤياك فالقلب صعيدًا جُرزًا
واضرب على أُذناي بكهف حضُورك سنين عددًا
أخرج بيضاء من غير سوء سيرة أُخرى
اعتزلهم وما يرمون وجئتُك استخلصُك نجيًّا
لن أبرح محراب الهوى
حتى تأذن لي أو أمضي حُقبًا
الرُوح تأبى إلا أن تراك
جريحة هي تبكي هواك
تخاف الجفاف والنفسُ قاسية
حُزن يعقوب بفؤادي نخرَ
وصبر أيوب قد شربتُ مُره
يا من بحبيبه في الليل سرى
وكان من ربه قاب قوسين أو أدنى
فُك أغلال اليد ومد ليك اللقاء
يا من جعلت من الفحم الأسود زُمردًا
هاك طيني بك يلين فشكله
أما آن للحبيب أن يرق لحالي
أما آن للحبيب أن يبعث لي قميص البُشرى

أنات رُوح

إذا بسطت للفقراء عِطيان فجُد على بحبِهم

أنا الفقير شحاذ أتسول الوصال مُتوسلًا بكم

ما كُنت بدارٍ تأوى عاشقًا وكُنت الفقير بينهم

إذا جنَّ الليل واشتد الهوى لاذوا بأحبتهم

وخلوت أنا بقلبٍ من لوث الحياة مُتجهم

هجين بين هجركم والقرب

تارة ابن والهة وتارة ابن مريم

إذا هب نسيم الوصال يا بُشرى

وإن هب ريِح الهجر فما هكذا عَهِدتكُمُ

أنتم أهل الكرم والجود صفاتُكم

إن رحلتُم فما عساى أفعل غير البُكاء

وأناجيكم بليلٍ أغدق على بظلامه من بعدكم

وأطيل المكوث فى حُزنى عساه شوقى يُرجعكم

يا نسيم الله فى أرض زمهريرًا مُعتم قمرها

بالله لا تركن للهجر يا سلسبيل الرُوح وسبيلها

لعمرك.. لولاك ما كُنّا ضنى الرُوح جهيرها

واحرّ قلباه من نار بلا شرر ضاقت بسعيرها

نزّل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها

فاحتمل القلب زبدًا رابيًا تاركًا ماءها

يا حسرتاه ما كانت الرُوح تلك وصيتها

دانية عليها ظِلال الحُزن بعد هجرها

ما لعينٍ ترى إلا بنوركم وذلكم مُنتهاها

إن غِبتُم غِبنا وحضوركم نعمة خاب من دساها

كانت الرُوح عجوزًا عقيمًا وبكم عاد صباها

....

"ابن والهة هو ابن النبي نوح, ووالهة زوج نوح".

عابرو سبيل للعشقِ كُنا فألهمت النفس تقواها

حين رأت من الإشارة تزلزلت وأخرجت أثقالها

أرض العاشقين سُندس خُضر ريان ماؤها

ليتهم يعلمون من رحيق مختوم سُقياها

....

رِيح يُوسف

يا ساقى الفُراق أولى لنفسى فأولى

أفتأ أذكرك حتى تهلك النفس وتغشى

يا ساقى الفُراق هلا تمهلت قليلًا

ارحم مآقى العيون

ألقيت من رحالى بضاعتى المُزجاة من الهوى

فهزى يا نفس جذع الصمت يتساقط عليكِ عشقًا ندبًا

فإذا ما رأيته فسريه ولا تُبدى به أبدًا

قرير العشق من يُخفيه بين الضلوع سرًّا

ولا يشتريه بثمن بخس لعيون الناس الهاتكة

وإن ابيضت العين صبرًا

فإن أُلقيت السمع والبصر فلا تثريب عليك ولا عتب

......

تناقض الاستفهام والأجوبة

أحن إلى حبيب لا أعرف كيف يبدو؟
رُبما رأيته وحفظت ملامحه ورُبما لم أره
أحن إلى زمان لا أعرف متى كان؟
هل عشتُ أم لم أعشه؟
أحن لأيام وصال لا أدرى متى كانت؟
ولا كيف كانت ولا كم بقيت؟
لكن وقع تلك الحياة لا زال فى الروح تُرتله
ما أروعه!
أحن إلى حبيب أذكره ولا أذكره
يغرق قلبى فى موج حنين كُل القوارب لا تُنجيه
وأبكى فُراقًا ينزف غربته داخل الأوردة
مؤلم مُوحش ما أفجعه!
وحين تستوى ثمار آلامه ما أجمله!
لا شىء سوى ثمار الجنان يُشبهه
أهيم فى ذاك الحنين مُتخيلًا
كيف كان الحبيب وكيف كان حديثه؟
كيف كان يذوب القلب فى تقديسه؟
كيف كانت تتوضأ القلوب بماء تسبيحه
حين تسمع زلزلة ألست تنبض بتوحيده؟
....

رُوحي تُحبك

رُوحى النحيلة لا تتركها قد دبّ فى أوصالها الجوعى هواك

رُبع رغيف قد أهلكته قسوة البرد ينبت عليه آمال القابعين

ماذا أكون إن رحلت إلا كعود ثقاب تحت المطر مصيره الهلاك

منذ مسنى الحُب تقدست لدىّ الكائنات والأفلاك

يا ريان المحبة جفت أوصالى وتشققت روحى

فمن الذى يشدّ أزرى إلاك

تهوى بى ريح النفس بمكان سحيق

فتأتى لتمديد النجاة لى تحملنى على بساط رضاك

رُوحى تُحبك وليس لها دواء سواك

....

ريح ليس بعقيم

تلك ريح الشوق هبت من لدن صانع كريم
وتراقصت أوراق الشجر حين غازلها النسيم
فيا من مننت على الكل بذِكرك حتى بورك للسديم
اجعل لى وِدًّا يطرد من خاطرى الرجيم
حتى أُسبح بحبك وأغدو لورق الشجر نديم
مع مُوسيقى الكون نطوف عِشقًا سُكارى الترنيم
وتلك الأجساد موتى كحال أهل الكهف مع الرقيم
إذا نُودى بالروح يا الله أصابنا حال موسى الكليم
يا من يهواك الهوى أبدلنا بقلبٍ سليم
يا سُقيا الحب صبوا، أبينا نرتوى إلا من تسنيم
إذا طلبت الهوى فلا ترضى بأقله إن واهبه كريم
إن القليل فِعل من كان فى طلبه سقيم

....

بكى الصغير بصوتٍ كمواء القطط الجائعة، أغلقت مرثا دفتر مُذكرات صالح وهى تتنهد شوقًا، جلست بجوار الصغير الذى فتح عينيه تحملان شهية الحياة، تُرى حجم فرحة الأب بصغيره بدر الذى تنبأ به ذات عشق، لا أدرى، كلانا ينتظر بزوغ فجر جديد يحمل قميص البُشرى.

....

تلك رواية لا تنتهى.

مزاج الكتب
للنشر والتوزيع

ج.م.ع

الإسكندرية

Email: mazagelkotob@gmail.com

Mobile: 01024541339